

فهرست

الجزء الثاني

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

فهرست الجزء الثانى
من كتاب صبح الأعشى

صيفة

- ٦ النوع الثامن عشر - المعرفة بالأحكام السلطانية
- الطرف الثانى - فى معرفة ما يحتاج الكاتب إلى وصفه فى أصناف الكتابة
- ٧ الخ، ويشتمل على أنواع
- النوع الأول - مما يحتاج إلى وصفه النوع الإنسانى، وهو على
- ٨ ضريبن
- النوع الثانى - مما يحتاج إلى وصفه هى دواب الركوب، وهى أربعة
- أصناف
- ١٧ النوع الثالث - ما يحتاج إلى وصفه من جليل الوحش الخ، وهو
- أصناف
- ٣٦ النوع الرابع - فيما يحتاج إلى وصفه من الطيور، وهو على أربعة
- أصناف
- ٥٢ النوع الخامس - ما يحتاج إلى وصفه من نفائس الأشجار، وفيه اثنا
- عشر صنفاً
- ٩٤ النوع السادس - نفيس الطيب، وفيه أربعة أصناف
- ١١٣ النوع السابع - ما يحتاج إلى وصفه من الآلات، وهى أصناف
- ١٢٥ النوع الثامن - مما يحتاج إلى وصفه من الأفلاك والكواكب، وفيه
- مقصدان
- ١٤٦ النوع التاسع - مما يحتاج الكاتب إلى وصفه من العلويات مما بين السماء
- والأرض، وهى على أصناف
- ١٦٦

صفحة

النوع العاشر - مما يحتاج الكاتب إلى وصفه الأجسام الأرضية ،	
وهي على أصناف	١٧٧
الطرف الثالث - في صنعة الكلام ومعرفة كيفية إنشائه ونظمه وتأليفه ،	
وفيه مقصدان	١٨٣
الفصل الثالث - في معرفة الأزمنة والأوقات الخ ، وفيه أربعة أطراف	٣٢٩
الطرف الأول - في الأيام ، وفيه ست جمل	٣٢٩
الطرف الثاني - في الشهور ، وهي على قسمين طبيعي واصطلاحي ...	٣٥٨
الطرف الثالث - في السنين ، وفيه ثلاث جمل	٣٨٦
الطرف الرابع - في أعياد الامم ومواسمها ، وفيه خمس جمل	٤٠٦
الباب الثاني - فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية ، وهو الخط	
وتوابعه ولواحقه ، وفيه فصلان	٤٣٠
الفصل الأول - في ذكر آلات الخط ومباده وصوره وأشكاله الخ ،	
وفيه ثلاثة أطراف	٤٣٠
الطرف الأول - في الدواة والآلها ، وفيه مقصدان	٤٣٠
الطرف الثاني - في الآلات التي تشتمل عليها الدواة ، وهي سبع عشرة	
آلة الخ	٤٣٤
الطرف الثالث - فيما يكتب فيه ، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة الخ ،	
وفيه ثلاث جمل	٤٧٢

(تم بجهزست الجزء الثاني من كتاب صبح الأعشى)

ويليه الجزء الثالث وأوله

(الفصل الثاني من الباب الثاني من المقالة الأولى

في الكلام على نفس الخط)

دار الكتب الخديوية

صباح الأست

الجزء الثاني

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
س ١٣٦١ هـ
٢ ١٩١٣

كِتَابٌ

صَبِيحُ الْأَسْبَحِ

نَالِيَقُ

السَّيِّحُ إِلَى الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ الْقَلَقَشِينِي

الجزء الثاني

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب الخديوية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
١٣٣١ هـ
١٩١٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

النوع الثامن عشر

(المعرفة بالأحكام السلطانية)

ليعرف^(١) كيف يخلص قلبه على حكم الشريعة المطهرة ، وما يشترط في كل ولاية من الشروط ، فينبه عليها ويقف عندها ، وما يلزم رب كل وظيفة من أرباب الوظائف وما يندب له ، فيورده فيوصياه . وقد أورد أقصى القضاة أبو الحسن على بن حبيب الماوردي رحمه الله في الأحكام السلطانية ما فيه ممتع من ذلك ؛ ونحن نورد في هذا الكتاب ، تبليغاً من كل باب ، مما به يستغني الناظر فيه عن مراجعة غيره . والذي تكلم عليه الماوردي من الوظائف الأصول الإمامة ، والوزارة ، وتقليد الإمارة على البلاد ، وتقليد الإمارة على الجهاد ، والولاية على شُروب المصالح ، وولاية القضاء ، وولاية المظالم ، وولاية العقابة على ذوى الأنساب ، والولاية على إقامة الصلوات ، والولاية على الحج ، والولاية على الصدقات ، وقسم الثغى والغنيمة ، ووضع الجزية والخراج ، ومعرفة ما يختلف أحكامه من البلاد ، وإحياء الموات ، واستخراج المياه ، والحجى ، والأوقاف ، وأحكام الإقطاع ، وأحكام الديوان ، وأحكام الجرائم ، وأحكام الحسبة . وأنا أقصر من ذلك هنا على ما تفضى إليه حاجة الكاتب من الأحكام ، دون ما عداه من الفروع الزائدة على ذلك ؛ فإذا عرف حكم كل ولاية من

(١) أى الكتاب . (٢) هو على بن محمد بن حبيب انظر كشف القلوّن .

هذه الولايات، وما يجب توليتها، وما يعتري متوليها من الشروط، وما يلزمه من الأمور إذا تولاها، وما يتأق أمورها، وبجانب أحوالها، عرف ما أتى من ذلك، وما يتر، فيكون ما ينشئه من البيعات، والعهود، والتقاليد، والتفاويض، والتواقيع، وما يجري مجرى ذلك جارياً منه على البسداد، ماشياً على القواعد الشرعية التي من حاد عنها ضلّ، ومن سلك خلاف طريقها زلّ. وكذلك المناشير المتعلقة بالإقطاعات، وعقد الجزية والمهادنات والمفاسحات، وما يجري مجرى ذلك من الأمور السلطانية. فإذا عرف حكم كل قضية، وما يجب على الكاتب فيها، وفأها حقها، وأنى يذكر ما يتعلق بها من الشروط، وجرى في وصايا الولايات بما يناسب كل ولاية منها، بجرى الأمر في ذلك على السداد، ومشت كتابته فيها على أتم المراد؛ إن كتب بيعة، أو عهد الخليفة، تعرض فيه إلى وجوب القيام بأمر الخلافة، ونصب إمام للناس يقوم بأمرهم، وتعرض إلى اجتماع شروط الخلافة في المولى، وأنه أحق بها من غيره. ثم إن كانت بيعة نشأت عن موت خليفة، تعرض لذكر الخليفة الميت، وما كان عليه أمره من القيام بأعباء الخلافة، وأنه درج بالوفاة، وأن المولى استحقها من بعده دون غيره. وإن كانت ناشئة عن خلع خليفة تعرض للسبب الموجب لخلعه: من الخروج عن سنن الطريق، والعدول عن منهج الحق ونحو ذلك مما يوجب الخلع لتصح ولاية الثاني. وإن كان عهداً تعرض فيه إلى عهد الخليفة السابق إليه بالخلافة، وأنه أصاب في ذلك الفرض، وجرى فيه على سواء الصراط، ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى من سائر الولايات على ما سيأتى ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وهذه فقرة من بيعة أنشأها توضع ما أشرت إليه من ذلك.

فن ذلك ماقلته فيها مشيراً إلى وجوب القيام بالإمامة :

أما بعد، فإن عقد الإمامة لمن يقوم بها من الأمة واجب بالإجماع، مستند لأقوى دليل تنقطع دون نقضه الأطماع، وتنبو عن سماع ما يخالفه الإجماع .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيراً إلى اجتماع شروط الخلافة في المولى وهو : وكان فلان أمير المؤمنين ، هو الذي جمع شروطها فوقاًها ، وأحاط منها بصفات الكمال واستوفاهما، ورامت به أدنى مراتبها فبلغت أغياها، وتسور معاليها فرفق إلى أعلاها، واتحد بها فكان صورتها ومعناها .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيراً إلى عقد البيعة : فجمع أهل الحل والعقد، المعبرين للاعتبار والعارفين بالنقد : من القضاة والعلماء ، وأهل الخير والصلحاء ؛ وأرباب الرأي والنصحاء ؛ واستشارهم في ذلك فصوبوه، ولم يروا العلول عنه إلى غيره بوجه من الوجوه .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيراً إلى القبول ، وقابل عقدها بالقبول بحضور من القضاة والشهود فلزمت ، ومضى حكمها على الصحة فأنيرت ، إلى غير ذلك مما يخفط في هذا من سائر الولايات وغيرها .

قلت : وكما يجب عليه معرفة الأحكام السلطانية، يتعين عليه معرفة ماصداً ذلك من الأمور الصناعية التي ينتظم أصحابها في سلك الولايات كالمهندسة ونحوها، وسيأتي التنبيه فيما يجب على كل واحد من أرباب الولايات عند ذكر ولاية كل منهم في موضعها إن شاء الله تعالى .

الطرف الثاني

(في معرفة ما يحتاج الكاتب إلى وصفه في أصناف الكتابة مما تنعوه ضرورة الكتابة إليه على اختلاف أنواعها، ويشتمل على أنواع)

النوع الأول

(مما يحتاج إلى وصفه النوع الإنساني ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أوصافه الجسمية، وهي على ثلاثة أقسام)

القسم الأول

(ما يترك فيه الرجال والنساء؛ وهي عثة أمود)

منها حسن اللون ؛ والألوان في البشر؛ ترجع إلى ثلاثة أصول : وهي البياض ،
والسُمرة ، والسود ؛ ويعبر عن السواد بشدة الأثمة ، وربما عبر عن البياض بركة
السُمرة ، ويستحسن من هذه الألوان البياض ؛ وأحسن البياض ما كان مُشرباً
بجمرة ؛ وقد جاء في حديث صهيب بن سفيان أنه حين سأل عن النبي صلى الله عليه وسلم
عند وفوده عليه بقوله : «أَيُّكُمْ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟» قيل هو ذاك الأَمْرُ الْمُتَكَيُّ ،
والأَمْرُ الْمُشْرَبُ بجمرة ، اخذاً من المَثَرَةِ : وهي الصَّبْغُ المعروف . وقد جاء في وصفه
صلى الله عليه وسلم انه «أَزْهَرُ اللَّوْنِ» . والأزهر هو الأبيض بصفرة خفيفة .
والسُمرة مستحسنة عند كثير من الناس ، وهو الغالب في لون العرب ، وقد قيل
في قوله صلى الله عليه وسلم ، «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ» إن المراد بالأحمر العجم
لغلبة البياض فيهم ، والمراد بالأسود العرب لغلبة السُمرة فيهم ؛ أما السواد فإنه خير
ممدوح بل قد ذم الله تعالى السواد ، ومنح البياض بقوله «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ» الآية . على أن كثيراً من الناس قد جَهِحُوا إِلَى اسْتِحْسَانِ السُّودَانِ والميل إليهم ،
وتأفقوا في الاحتمال بأمرهم ؛ وقد نص أصحابنا الشافعية على أنه لو قال لزوجته إن لم

تكونى أحسن من التمر فانت طالق لم تطلق وإن كانت زنجية سوداء، فقد قال تعالى
(وَصَوِّرَكُمْ فَاَحْسَنَ صُورَكُمْ) . وبالجملة فالحسن فى كل لون مستحسن والله القائل :

لَبَّ الْمَلِجِ مَلِجٌ * يُحِبُّ فِى كُلِّ لَوْنٍ

ومنها حُسْنُ الْقَدِّ وأَحْسَنُ الْقُدُودِ الرَّمَّةُ : وهو المعتدل القامة ، الذى لا طُولَ فيه ولا قَصَرَ ، وليس كما يقع فى بعض الأذهان من أَنَّ المراد منه دُونَ الاعتدال . وقد جاء فى وصف النبي صلى الله عليه وسلم ، «أَنَّهُ كَانَ رَمَّةً» . ويستحسن فى القَدِّ الْقَوَامُ وَالرَّشَاقَةُ ، وَيُشَبَّهُ بِالرَّحِىِّ وَالْفُضْنِ ، وَأَكْثَرُ مَا يُشَبَّهُ بِهِ فِى ذَلِكَ أَغْصَانُ الْبَانِ لِقَوَامِهَا .

ومنها سواد الشعر ، وأكثَرُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِى الشُّعْرِ ، فَإِنْ أَجْتَمَعَ مَعَ الْبَيَاضِ سَوَادُ الشَّعْرِ كَانَ ذَلِكَ فِى غَايَةِ مِنَ الْحَسَنِ ، وَيُشَبَّهُ سَوَادُ الشَّعْرِ بِالْبَيْضِ ، وَرَبْمَا وَقَعَتِ الْمِثَالَةُ فِيهِ فُشْبَةٌ بِفَحْمَةِ اللَّيْلِ ، وَبُجْجُ اللَّيْلِ ، وَبَفَحْمَةِ الدُّجَى ، وَقَدْ يُشَبَّهُ بِالْأَبْنُوسِ وَنَحْوِهِ بِمَا يَنْطَلِفُ فِيهِ حَلَكُ السَّوَادِ . وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِى جُمُودَةِ الشَّعْرِ وَسُبُوطِهِ أَيُّهَا أَحْسَنُ ؟ فَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى اسْتِحْسَانِ الْجُمُودَةِ : وَهِيَ أَتْقَبَاضُ الشَّعْرِ بَعْضُ أَهْبَاضٍ وَهُوَ مِمَّا يَسْتَحْسِنُهُ الْعَرَبُ ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ حَتَّى لَوْ شَرَطَ الْبَائِعُ فِى عَيْدِ كَوْنِهِ جَمْعَ الشَّعْرِ وَظَهَرَ سَيْطَرُ الشَّعْرِ رُدُّ ذَلِكَ بِمُخْلَافِ الْعَكْسِ . وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى اسْتِحْسَانِ السُّبُوطَةِ ، وَهِيَ اسْتِرْسَالُ الشَّعْرِ وَانْبِسَاطُهُ مِنْ غَيْرِ انْكَشَافٍ ، وَأَكْثَرُ مَا يَوْجَدُ ذَلِكَ فِى التَّرَكِّ وَمَنْ فِى مَعْتَامِهِ . ثُمَّ الْمَذَاهِبُونَ إِلَى اسْتِحْسَانِ الْجُمُودَةِ يَسْتَحْسِنُونَ التَّوَاءَ شَعْرَ الصُّبْدِغِ ، وَيُشَبَّهُونَهُ بِالْوَلَوِ تَارَةً وَبِالْعَقْرِبِ أُخْرَى .

ومنها وضوح الجبين ، وَسَعَةُ الْجَبْهَةِ ، وَانْحِسَارُ الشَّعْرِ عَنْهَا ؛ فَيُسْتَقْبَحُ الْقَمَمُ : وَهُوَ عُمُومُ الْجَبْهَةِ أَوْ بَعْضُهَا بِشَعْرِ الرَّأْسِ .

ومنها وَمَسَامَةُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْحَيَا . وَيُشَبَّهُ الْوَجْهُ فِى الْحَسَنِ بِالشَّمْسِ ، وَبِالْقَمَرِ ،

وبالسيف إلا أن التشبيه بالشمس والقمر أتم من التشبيه بالسيف لما فيه من صورة الاستطالة؛ وقد جاء في بعض الآثار أنه قيل لبعض الصحابة رضى الله عنهم : "هل كان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسيف ؟ فقال بل كالشمس والقمر" .

ويستحسن في الوجه حمرة الوجنتين ؛ ويشبه لونهما بالورد ، والشقيق ، والعقيق ، والعنتم ، وما يجري مجرى ذلك مما تغلب فيه الحمرة المشرقة .

ومنا يلج الحاجبين وزيجهما ، فاليلج أقطع شعر الحاجبين : بأن لا يكون بينهما شعر يصل ما بينهما ، وهو خلاف القرن ؛ وربما استحسن الخلف من القرن ، وهو الذى دق فيه شعر ما بين الحاجبين حتى لا يظهر فيه إلا خضرة خفية ، والزجج دقة الحاجب مع طوله بحيث ينتهى إلى مؤخر العين ، وقد جاء في وصف النبي صلى الله عليه وسلم "أنه كان أزج الحاجبين" .

ويستحسن في الحاجبين سواد شعرهما ، وأن يكونا مقوسين ؛ ويشبه تقويسهما بالنون تارة ، وبالقوس أخرى .

ومنا حسن العينين ؛ ويستحسن في العين الحور : وهو خلوص بياض العين ، والنجل وهو سعتها ويقال فيه حيلثذ أنجل وربما قيل أعين ، ومنه قيل للورعين ، والدنج : وهو شدة سواد الحدقة ، والكمل : وهو أن توضع الكحل من العين خلقة . وتشبه العين بالصاد تارة ، وبالجم أخرى . وتشبه بالترجس وربما شبهت بنور الباقلي ؛ وأعرض بأن فيه حولا . وربما شبهت العين بالسيف ، والعنهم ، والبستان . وقد يستحسن في العينين القُتور وضعف الأجفان .

ومنا حسن الأنف ؛ ويستحسن فيه القنأ : وهو ارتفاع وسط الأنف قليلا عن طرفيه مع دقة فيه ، وهو الغالب في العرب ؛ وقد جاء في وصفه صلى الله عليه وسلم "أنه كان أقنى الأنف" . ويستحسن فيه الشَّم أيضا : وهو استواء قصبه الأنف وعلو أرنبته . ويشبه الأنف بالسيف في بريقه .

ومنها حسن الفم . ويستحسن فيه الضيق . ويشبه بالميم ، وبالصاد ، وبالخام .
ومنها حسن الشفتين . ويستحسن فيهما الحرة . وتشبه حمرتهما بما تشبه به
الوجنة من الورد والعقيق والمرجان ونحوها . ويستحسن فيهما اللؤلؤ : وهو سمرة
تعلو حمرتهما .

ومنها حسن الأسنان . ويستحسن فيها الثناب : وهو بياض وبريق يعلوها .
وتشبه الأسنان في البياض وحسن النظم باللؤلؤ ، وبالبرد ، وبالطلع : وهو نبت أبيض ،
والأفلاج ، والحبيب : وهو الذي يعلو الكأس عند شجرة الماء . وقد تشبه بالجوهر ،
ويستحسن فيها الأثر : وهو تحديد الأسنان كما يقع في كثير من الصبيان ، ويستحسن
في السنخ : (وهو لحم الأسنان) حمرة لونه . ويشبه بالعقيق والورد وسائر ما يشبه به الخلد
ومنها حسن الحيد : وهو العنق . ويستحسن فيه طوله وبياضه من الأبيض .
ويشبه بإبريق فضة .

ومنها دقة الخصر ، وهو مَعْقِد الإزار حتى إنهم يشبهونه بَنُور دُمْلُج ، ودور
خَلْخُل وما أشبه ذلك .

قلت : وهذه الصفات وإن كانت مستحسنة في الرجال والنساء جميعا فإنها
في النساء أكث . فإن الأمر في الحسن منوط بهن ، فهما كانت المرأة أحسن كان
أعظم لشانها ، وأعرض لمكانها ؛ وقد قيل لرجل من بني عُدْرة : ما بال الرجل منك
يموت في هوى امرأة إنما ذلك لضعف فيكم يا بني عُدْرة . فقال : «أما والله لو رأيتم
النواظر الدُّبُج ، فوقها إلحواجب الرُّج ، تحتها المباسم الفُج ، لا تأخذتموها اللات والعزى !»
وقد أكثر الشعراء من التغزل بهذه المحاسن بما ملأ الدفاتر ما لا حاجة بنا إلى
ذكره هنا .

القسم الثاني

(ما يختص به الرجال)

وأخص ما يختص به الرجال من المحاسن الحمّية ، وقد قيل في قوله تعالى ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ إن المراد الحمّية ، على خلاف في ذلك . ويسحسن في الحمّية استدارتها وتوسطها في المقدار ، وسواد شعرها . فإذا حسنت الحمّية من الرجل كتبت محاسنه . وتريد الأحداث على الرجال في الحُسْن بمقتضات ذلك : فيستحسن منهم خُضرة الشارب ، وخُضرة العارض والمنازع ، ويشبه كل منهما بالآس ، وبالريحان ، ويدّيب الثمل ونحو ذلك . ويشبه العذار بالألف ، وباللام ، وبالباء . ويشبه الشارب الأخضر فوق حمرة الشفتين بقوس قزح ، وبالآس مع الورد ونحو ذلك ؛ على أن أهل القِرَاسة قد استحسنوا في الرجل أموراً تخالف ما تقدّم .

منها سعة الفم وظلّ الشفتين وما أشبه ذلك فائمين إن ذلك مما يدل على الشجاعة وهو أمر مطلوب في الرجل كما تقدّم .

القسم الثالث

(ما يختص به النساء)

وما ينفرد به النساء من الأوصاف الجسميّة السّمنُ ، فهو أمر مطلوب في المرأة ما لم يُفْرِطَ ويخرج عن الحدّ المطلوب ؛ ففى الصحيحين من حديث أمّ زرع " بنت أبي ذرّيج وما بنت أبي ذرّيج ؟ ملء كسائها ، وغنّط جارتها " إشارة إلى امتلائها بالشحم ، ووصف أعزّ ابنتي أمّراء فقال " بيضاء رُعبوبة ، بالشحم مَكْرُوبَة ، بالمِسْك مَشْبُوبَة " . وهذا بخلاف الرجال فإن المطلوب فيهم الخِفّة وقلة اللحم لأجل قوة التّهُنّة ، وسرعة الحركة في الحرب وغيره ، والسّمن يمنع ذلك ، مع ما يقال إن فيه تليداً للذهن قال بعضهم : " ما رأيت حياً سميّاً إلا محمد بن الحسن " يعنى

صاحب أبي حنيفة رضى الله عنه . وربما استحسن قلة اللحم في المرأة أيضا ،
وتوصف حيلثد بالطيف .

ومن ذلك ثَقَل الرِّدف فهو مما يمتدح به في النساء بخلاف الرجل فإن ذلك
فيه غير محمود .

ومن غريب ما يحكى في ذلك أن رجلا أخذ خطرا من قوم على أن يُغضب
معاوية بن أبي سُفْيَان مع ظنية حمله ، فعمد إلى معاوية وهو ساجد في الصلاة ،
فوضع يده على عجزته وقال : ما أشبه هذه العجيزة بصغيرة هند ! - يعنى أم معاوية ، فلما
سلم من صلاته ، التفت إلى ذلك الرجل وقال : " يا هذا إن أبا سُفْيَان كان محتاجا
من هند إلى ذلك وإن كان أحد جعل لك شيئا على ذلك فخذ " .

ومما يستحسن في المرأة طول الشعر في الرأس ، ودقة العظم ، وصغر القدم ،
ونعومة الجسد ، وقلة شعر البدن ، في أمور أخرى يطول ذكرها .

الضرب الثاني

(الصفات الخارجة عن الجسد ، وهي على ثلاثة أقسام أيضا)

القسم الأول

(ما يشترك فيه الرجال والنساء)

وهو يرجع إلى أصليين : العقل والعفة ؛ ويدخل تحت كل من هذين الأصلين
عنة من أوصاف المدح . فأما العقل فيدخل تحته العلم . وصناعات المعرفة ، وإعلاء ،
والبيان ، والسياسة ، والكفاية ، والصدع بالحق ، والحلم عن سفاهة الجهلة وغير ذلك
مما يجرى هذا الجرى . ولا ينبغي أن هذه الأوصاف مطلوبة في الرجال والنساء
جميعا وإن كان أكثرها بالرجال أليق .

وأما العفة فيدخل تحتها القناعة ، وقلة الشره ، وطهارة الإزار، وغير ذلك مما لا يستغنى عنه رجل ولا امرأة؛ وإذا رُكِبَ العقل مع العفة حدثت عنهما صفات أخرى مما يمتدح به: كالتراحة، والرغبة عن المسالة، والاقتصار على أدنى معيشة، ونحو ذلك مما يفرض في هذا السلك .

القسم الثاني

(ما يختص به الرجال دون النساء)

وهو يرجع إلى أصليين أيضا : وهما العدل والشجاعة ؛ ويدخل تحت كل من الأصليين عدة أوصاف من أوصاف المدح ، فيدخل تحت العدل السماحة ، والتبرع بالئال، وإجابة السائل، وقرى الضيف، وما شابه ذلك . ويدخل تحت الشجاعة عدة أوصاف كالحمية والنفاع، والأخذ بالثأر ، والنكاية في العدو، والمهابة، وقتل الأقران، والسير في المهام الموحشة، وما أشبه ذلك؛ وإذا رُكِبَ العقل مع الشجاعة حدثت عنهما صفات أخرى مما يمتدح به كالصبر على الملمات ونوازل الخطوب ، والوفاء بالوعد ونحو ذلك .

القسم الثالث

(ما يختص به النساء)

ويرجع إلى أصليين منمومين في الرجل : وهما الجبن والبخل ؛ وذلك أن المرأة إذا جبنَت كَفَت عن المساوى خوفا على نفسها أو عرضها، وإذا بخلت حَفِظت مال زوجها عن الضياع والإتلاف؛ وحينئذ فتكون أوصاف الرجال المدحومة أربعة أوصاف : أثنان يشتركون فيهما مع النساء .. وهما العقل والعفة ؛ وأثنان ينفردون بهما عن النساء وهما العدل والشجاعة . وتكون أوصاف النساء المدحومة أربعة أيضا اثنان يشتركن فيهما مع الرجال وهما العقل والعفة، وأثنان ينفردن بهما عن الرجال وهما

الجُبْن والبُخل ؛ فيمدح كل من الصنفين بما هو شتمل عليه بحسب ما يقتضيه المقام وما يوجبه الحال .

قال قدامة بن جعفر الكاتب في نقد الشعر : ”ومدائح الرجال تنقسم بحسب الممدوحين من أصناف الناس في الارتفاع والانخفاض وضروب الصناعات والتبذير والتحصُّر، فيحتاج إلى الوقوع على المعنى اللائق بمدح كل ، فمدح الملوك يكون بما يلائم قدرهم من رفعة القدر وعلو الرتبة والأفراد عن المثل والقرين : كقول النابغة في النعمان بن المنذر .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً * تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَسْتَنْدِبُ
بَأَنكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ * إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَكَبُ

وما يجرى مجرى ذلك ؛ ومدح الوزير والكاتب بما يليق بالعقل والذرية ؛ وحسن التنفيذ والسياسة ؛ فإن أضيف إلى ذلك الوصف بالسرعة في إصابة الحزم ، والاستغناء بحضور الذهن عن الإبطاء لطلب الإصاغة كان أحسن وأكمل للدح كما قيل :

بَلِيَّتُهُ مِثْلُ تَفْكِيهِ * مَتَى رُمَتْ فَهُوَ مُسْتَجِمِع

وكما قيل :

يُرَى سَائِرُ الْأَوْصَالِ بِإِسْطَ وَجْهِهِ * يُرَى الْمَوْفِيُّ وَالْأُمُورُ قَطِيرُ

وَيُمدح القائد يعني الأمير الذي يقود الجيش بما يجانس البأس والنجدة ، ويدخل في باب البطش والبسالة ، فإن أضيف إلى ذلك المدح بالجود والسماحة والخلق والبذل والعطية ، كان أحسن وأتم : من حيث إن السخاء أخو الشجاعة ، وهما في أكثر الأمور موجودان في ذوى بُسَدِ الهمة ، والإقدام والصولة : كما قال بعضهم جامعا بين البأس والجود :

فَتَى دَهْرُهُ شَطْرَانِ مِمَّا يَنْوَبُهُ * فَتَى بَاسِهِ شَطْرُ وَفَى جُودِهِ شَطْرُ

قَلَّ مِنْ بُفَاةِ الْحَسْرِ فِي عَيْنِهِ قَدِّي * وَلَا مِنْ زَمِيرِ الْحَرْبِ فِي أُذُنِهِ وَقَر
قال: «تَوَدَّحَ السُّوقَةُ وَالْمَتَعِيشُونَ بِأَصْنَافِ الْحُرُوفِ وَضُرُوبِ الْمَكْسَبِ وَالصِّعَالِكِ
بِمَا يَضَاهِي الْفَضَائِلَ الْبَشَرِيَّةَ مِنَ الْعَقْلِ وَالْعِفَّةِ وَالْعَدْلِ وَالشَّجَاعَةِ، خَالِيًا عَنْ مِثْلِ
مِلْحِ الْمُلُوكِ وَمِنْ تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْكُتَّابِ وَالْقَوَادِ
وَيَمْدَحُ ذَوْرَ الشَّجَاعَةِ مِنْهُمْ بِالْإِقْدَامِ وَالْفَتَكِ وَالتَّشْمِيرِ وَالتَّيَقُّظِ وَالصَّبْرِ بِمَجْمُوعِ الصِّحْقِ
وَالسَّاحَةِ وَقَلَّةِ الْإِكْتِرَاتِ بِالْخَطُوبِ الْمَلْمَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ» .

قلت : وِيُؤْخَذُ مِمَّا ذَكَرَهُ قَدَامَةُ أَنَّ الْقَضَاةَ وَالْعَامِلَاءَ يُوصَفُونَ بِمَا يَلِيْقُ بِمَجْلَهْمُ مِنْ
ذَلِكَ فَيُوصَفُ الْعَالِمُ بِثَقَابَةِ الذَّهْنِ، وَحِدَّةِ الْفَهْمِ، وَسَعَةِ الْبَاغِ فِي الْفَضْلِ، وَمَا يَجْرِي
يَجْرِي ذَلِكَ، وَيُوصَفُ الْقَضَاةُ بِذَلِكَ وَالْعَدْلُ وَالْعِفَّةُ وَمُبَايَنَةُ الْحُورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ،
وَمُسْتَقِفٌ فِي قِسْمِ الْوَلَايَاتِ فِي نَسْخِ الْبَيْعَاتِ وَالْعَهْدِ وَالتَّقَالِيدِ وَالتَّوَاقِعِ وَالتَّفَاوِيضِ
وَالْمَرَامِسِ وَنَحْوِهَا مِنْ ذَلِكَ بِمَا يَنْضَحُ لَكَ بِهِ سِوَاهُ السَّبِيلِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكَاتِبَ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ الصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ مِنَ النُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ
كَذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ مِنْهُ ، فَرُبَّمَا أَحْتَاجُ إِلَى الْكَاتِبَةِ بِذِمِّ شَيْءٍ
مِنْ ذَلِكَ فَيَكُونُ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ بِالصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ مَا يَنْفَقُ مَعَهُ : كَمَا حَكَى أَنَّ بَعْضَ
الْعَالِمِ بَعَثَ إِلَى الرَّشِيدِ بِعَبْدٍ أَسْوَدَ فَقَلَّبَ كِتَابَهُ وَوَقَّعَ عَلَيْهِ «أَمَا بَعْدُ فَإِنَّكَ لَوْ وَجَدْتِ
عِنْدًا أَقْلَ مِنْ الْوَاحِدِ ، أَوْ لَوْ تَأَمَّرًا مِنَ السَّوَادِ ، بَعَثْتُ بِهِ إِلَيْنَا وَالسَّلَامُ» .

وَلَا يَنْفِي أَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَ صِفَةً مِنَ الصِّفَاتِ الْمُسْتَحْسَنَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَهُوَ مُسْتَقْبَحٌ
مَعَ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ الْجَسْمِيَّةِ : كَالْحَنَبِ وَالْحَوْلِ وَنَحْوِهَا ، وَمِنْ
الصِّفَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ : كَسُوءِ الْخُلُقِ وَبَذَاةِ اللِّسَانِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَفِي هَذَا مَقْنَعٌ فِي الْإِرْشَادِ
إِلَى الْمُرَادِ وَالتَّوْبِيهِ عَلَى الْقَصْدِ .

(١) أَيْ عَلَى مَا يَنْضَحُ . (٢) لَهُ مَع .

النوع الثاني

(مما يحتاج إلى وصفه هي دوابّ الركوب، وهي أربعة أصناف)

الصنف الأول

(الخيل)

ويحتاج إلى المعرفة بوصفها في مواضع ؛ من أهمها وصفها عند بحث شيء منها في الإنعام والهدايا ، والجواب عن ذلك . ووصفها في ترتيب الجيوش والمؤاكب وذكرها في مجالات الحرب، وما يجري مجرى ذلك، ويشتمل الغرض منه على معرفة أصنافها، وألوانها، وشيئاتها؛ وما يُستحسن ويستقبح من صفاتها؛ ومعرفة الدوائر التي تكون فيها؛ والبصر بأمور أسنانها وأعمارها .

أما أصنافها فتلاثة

الأول - العرّاب : وهي أفضلها وأعلىها قيمة، وأغلاها ثمنًا، تطلب للسبق والمُحارِق؛ والملوك تتخالف في أثمانها وتُعْتَمِدُ لهم الحرب، وتُوجَدُ ببلاد العرب ومجالاتهم في أقطار الأرض : كالجزيرة، ونجد، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، وبقية، وبلاد المغرب وغيرها .

الثاني - السجّميّات : وهي البرّاذين ويقال لها الهماليج، وتُعرف الآن بالكاديش وتُجَلَّبُ من بلاد الترك، ومن بلاد الروم . وغالب ما تُوجد مشقوقة المناسخ، وتطلب للصبر على السير وبسرعة المشي .

الثالث - المولّد بين العراب والبرّاذين : فإن كان الأب سجّميًّا والأم عربية قيل له عجين، وإن كان بالعكس قيل له مُقْرِف؛ وهي تكون في البحريّ والمشي متوسطة بين النوعين .

وأما ألوانها فقد ذكر ابن أبي أصيبع أن أصول الألوان فيها ترجع إلى أربعة ألوان، وما سواها مفترع عنها .

الأول - البياض : وقيل أن يختص من لون يخالطه ؛ فإن صفا بياضه قيل فيه أشهب قرطاسي ، فإن كان أذناه وقوائم وعرفه وذيله سودا ، قيل مطرف ، فإن خالط البياض شعر أسود والأغلب فيه البياض قيل أشهب كافوري ، وإن كان السوداء فيه أغلب قيل أشهب حليدي ، وأشهب أشمط ، وأشهب غلّس^(١) ، فإن كان فيه نكت سود قيل أشهب مقلّس ، فإن أنسعت قليلا قيل أشهب مدتر ، فإن كان في شهبته طرائق ، قيل أشهب مجزع ، فإن كان فيه بقع من أي لون كان دون البياض قيل مبقع ، فإن صغرت تلك البقع قيل أبقع ، فإن تفرقت وأختلفت مقاديرها قيل أشيم ، فإن تماثل ذلك اللون مع البياض مع صغر النقط من اللونين قيل أتمش ، فإن تاهت في الصغر ، قيل أبرش ، فإن كان البياض نكسا صغيرة في ذلك اللون قيل مفوف ، فإن كان شيء من ذلك كله في عضو واحد قيد به ، مثل قولك مفوف القطة ، وأتمش الصدر وما أشبه ذلك .

الثاني - السوداء : فإذا كان الفرس شديد السوداء قيل فيه أذهم ، فإن أشتد سواده قيل أذهم غيبي ، فإن علا السوداء خضرة قيل أخوى وإلجم حو ، فإن خالط سواده شقرة قيل أدبس ، فإن أنضم إليه أدنى حمرة أو صفرة قيل أحم ، فإن ضرب سواده إلى يسير بياض قيل أورق ، ونحوه ألا كهب ، وفي دونه من السوداء يقال أربد .

الثالث - الحمرة : إذا كان الفرس خالص الحمرة ، وعرفه وذيله أسودا ، قيل فيه أورد وإلجم وراد والأشقى وردية ؛ فإن خالط حمرة سواده فهو كيت ، للذكر والأشقى فيه سواء ؛ فإن صفت حمرة شيئا قليلا قيل كيت مدني ، فإن كان صافيا قيل

(١) في الأصل بالصاد وهو تصحيف كما يفهم من مراجعة القاموس واللسان في مادة خ ل م .

الحمرة وعُرفه وذيله أشقران قيل أشقر . فإن كان أحمر وذيله وعُرفه كذلك قيل أمقر ؛ فإن خالط شُقرة الأشقر أو الكيت شُقرة بيضاء قيل صَبَّأِي أَخْنا من الصَّنَاب وهو النردل بالزيب ، فإن كانت حمرة كصيد الحليد ، قيل أصداً ، فإن زاد فيه السواد شيئاً يسيراً قيل أجَّي والأسم الجؤوة .

الرابع . - الصُّفرة : فإن كانت صُفْرته خالصة تُشبه لون الذهب وعُرفه وذيله أصهبان مائلان إلى البياض قيل أصفر خالص ، فإن كانا أبيضين قيل أصفر فاضح فإن كانا أسودين قيل أصفر مطروف وهو الذي يسمونه في زماننا الحبشي ، فإن كان أصفر ممتزجاً بياض قيل أشهب سوسني ، فإن كان في أكارعه خطوط سود قيل مَوْشِي .

وأما شياتها وهي البياض المخالف للونها ، فمنها الفزة : وهي البياض الذي يكون فوجه الفرس إذا كان قد ترقق الدرهم ، فإن كان ثوب الدرهم قيل في الفرس أفرح والعامية تقول فيه أغر شعرات ؛ فإن جاوز البياض قدر الدرهم قيل فيه أعرم ، ثم أزل رتبة الفزة يقال له التَّجَم ، فإن سالت الفزة ورقت ولم تجاوز جبهته ، قيل فيه أغر عصفوري ، فإن تبادت حتى جلت خيشومه ولم تبلغ جحفلة ، قيل أغر شمراخي ، فإن ملأت جبهته ولم تبلغ العينين قيل أمدخ ، فإن أصابت جميع وجهه إلا أنه ينظر في سواد ، قيل مبرقع ، فإن فشت حتى جاوزت عينيه وأبيضت منها أشفاراً ، قيل مُعَرَّب ؛ فإن أصابت منه خدًا دون خد قيل لَطِيم ^(١) أَيْنُ أو أيسر ، فإن كان بَشْتَه العُليا بياض قيل أرثم ، وإن كان بالسفل بياض قيل أَلْمَط ، فإن نالهما جميعاً قيل أرثم أَلْمَط .

(١) وقع في الأصل أعرم بأعجام التين وهو تصحيف .

(٢) في الأصل أَلْمَط بالتون والطاء وهو تصحيف .

ومنها التحجيل في الرجلين وما في معنى ذلك ؛ إن كان البياض في مؤخر الرُسنغ لم يستبر عليه قيل في الفرس مُنعل ؛ وإن كان في الأربع قيل مُنعل الأربع ؛ أو في بعضها أضيف إليه فقيل مُنعل اليدين أو الرجلين أو اليد أو الرجل ، اليمنى أو اليسرى ؛ فإن استدار على الرُسنغ وهو المفصل الذي يكتنفه الوظيف والحافر وكان في إحدى الرجلين ، قيل أرجل ، وإن كان في الرجلين جميعا قيل مُنعم وأُخذم ؛ فإن جاوز رُسنغ الرجل واتصل بالوظيف : وهو ما بين الكعب وبين أسفله ولم يعاوز ثنييه ، قيل مُحمل ، أخذنا من التحيل : وهو الخلط ؛ فإن كان في رجل واحدة ، قيل مُحمل الرجل اليمنى أو الرجل اليسرى ؛ فإن كان في الرجلين جميعا قيل محجل الرجلين ؛ فإن كان معه في إحدى اليدين بياض يعاوز الرُسنغ إلى دون ثلثي الوظيف قيل محجل الثلاث مطلق اليد اليمنى أو اليسرى ؛ فإن كان البياض في اليد الأخرى كذلك ، قيل محجل الأربع ؛ فإن كان البياض في اليدين فقط قيل أعصم ، سواء جاوز الرُسنغ أم لا ؛ ولا يطلق التحجيل على اليدين أو إحداهما إلا بانضمام إلى تحجيل الرجلين أو إحداهما ؛ فإن كان في اليد الواحدة قيل أعصم اليد اليمنى أو اليسرى ؛ وإن كان فيهما قيل أعصم اليدين ، وإن كان التحجيل في يد ورجل من جانب واحد قيل مُمسك ؛ وإن كان ذلك من الجانب الأيمن قيل مُمسك الأيمن مطلق الأيسر ؛ وإن كان بالعكس قيل مُمسك الأيسر مطلق الأيمن ؛ وإن كان التحجيل في يد ورجل من خلاف فهو الشكال . وقيل الشكال بياض القائمتين من جانب ، وقيل بياض ثلاث قوائم ، فإن تعدى البياض حتى جاوز عرقوبَي الرجلين أو ركبتَي اليدين ، قيل فيه مُجَبب ؛ فإن علا البياض حتى رجليه ومرفقَيْ يديه قيل أبلق ، فإن زاد على ذلك حتى بلغ الأنفاد والأعضاء ، قيل أبلق ممرول ؛ فإن اختص البياض بيديه

(١) كذا في الأصل بالتحاق ولله مصنف عن الثور لأن الحق الحاصرة وبقية الكلام يأباه أما المنز

فهو الاعوجاج والنرس جاوز البياض العروقين ولم يبلغ الأنفاد الخ .

وطال حتى بلغ مرقته قيل أقفّر ومُقَفَّرٌ ؛ فإن كان البياض في الوظيف غير متصل بالرسغ ولا بالعرقوب ولا بالرُكبة قيل مُوقَفٌ .

ومنها الشَّيات التي تتخلل سائر جسدھا ؛ فإن كان الفرس مبيض الأذنين أو في أذنيه نقش بياض دون سائر لونه قيل فيه أذراً، وإن كان مبيض الرأس قيل أصبغ ، فإن أبيض قفاه قيل أَقْنَفٌ ؛ فإن شابت ناصيته قيل أسعف ، فإن أبيضت جميعها قيل أصبغ الناصية ؛ فإن غشى البياض جميع رأسه قيل أغشى ، وربما قيل فيه أرشم ؛ فإن أبيض رأسه وعقه جميعاً قيل أدرع ؛ فإن أبيض ظهره قيل أرحل ، فإن كان ذلك البياض من أثر الدبر قيل مصدر ، فإن أبيض بطنه قيل أنبط ، فإن أبيض جنباه قيل أخصف ، فإن كان البياض بأحد جنبيه قيل أخصف الجنب الأيمن أو الأيسر ؛ فإن أبيض كفله قيل آزر ؛ فإن أبيض عرض ذنبه من أعلاه قيل أشعل ؛ فإن أبيض بعض هُلبه دون بعض قيل مُحْصَل ؛ فإن أبيض جميع هُلبه قيل أصبغ هُلب الذئب ؛ فإن عدى عرقوبه البياض جملة قيل بهيم ومُصنّت من أى لون كان .

وأما ما يستحسن من أوصافها فقد قال العلماء بأمر التحليل : يستحب في الفرس دقة الأذنين وطولهما وأنصاهما ، ودقة أطرافهما ، وقرب ما بينهما ، وكل ذلك من علامات العتق . وفي الناصية احتدال شعرها في الطول ، بحيث لا تكون خفيفة الشعر ولا مُقِرطة في كثيره . ويقال في هذه الناصية الجحلة . ويستحب مع ذلك ليرث الشكير (وهو ما طاف يجنب الناصية من الزغب) . ويستحب عظم الرأس وطوله وسعة الجبهة ، وأسالة الخد ، وملاسته ، ودقته ، وقلة لحم الوجه ، وعري الناهضين (وهما عظماني في الخد) وسعة العين ، وصفاء الحنقة ؛ وذلك كله من علامات العتق . ويستحب في العين السمو والحلّة ورقّة الجفون وبمد نظره . قال ابن قتبية : وهم يصفونها بالقيل والشوس والخوص ، وليس ذلك فيها عيباً ولا هو خلقة ، وإنما

تقلله لمة أنفسهم ، ويستحب في المتخّر السعة : لأنه إذا ضاق شق عليه النفس .
قال وربما شق متخّره لذلك وبعد ما بين المتخرين . ويستحب في الفم الحمرت
(وهو طول شق شدقيه من الجانبين) لأنه أوسع لخروج نفسه ، ورقة الجفنتين وهما
الشفتان لأنه دليل المتق ، وطول اللسان ليكثر ريقه فلا ينهر ، ورقته لأنه أسرع
لقضيه العلف ، وصفاء الصبيل لأنه دليل صحة رثته وسهولة نفسه . ويستحب
في العنق الطول فقد كان سلمان بن ربيعة يفرق بين العنق والمهجن فلما بطست
من ماء فوضعت بالأرض ثم قدمت الخليل إليها واحدا واحدا فأتى سبكه منها
ثم شرب هجسه ، وما شرب ولم يشرب سبكه جعله عتيقا لأن في أعتاق المهجن قصر
فلا تال الماء حتى تثنى ستابكها ، وقد روى أنه هجن فرس عمرو بن معدى كرب
فأستعدى عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال سلمان أدع بإناه
فيه ماء ثم أتي بفرس عتيق لاشك في عتقه فأشبع في الإناء فصفت بين سبكه ومد
عتقه فشرب . ثم قال اتوني بهجن لاشك فيه فأشبع فبرك فشرب ، ثم أتي بفرس
عمرو بن معدى كرب فأشبع فصفت بين سبكه ومد عتقه ثم فنى أحد سبكه
قليل فشرب فقال عمر أنت سلمان الخليل . ويستحب فيها مع ذلك الكبر لأنه
أقرب لآتياده وعطفه ، وعظْم مُرْكَب عتقه ودقة مذبجه . ويستحب فيه ارتفاع
الكفتين والحارِك والكايل ، وقصر الظهر وعرض الصهوة (وهي مقعد الفارس
من الظهر) وارتفاع القطة (وهي مقعد الرّف من الظهر أيضا) وقلة لحم المتين
وهما ماتحت دفتي السرج من الظهر . ويستحب في الكفل الاستواء والاستدارة
والملاسة والتدوير . ويستحب طول السّيب : وهو الشعر المستقريل في ذيله ،
وقصر السّيب : وهو عظم الذنب وجلده ؛ ولذلك قال بعض الأعراب " اختره
طويل الذنب قصير الذنب " يعني طويل الشعر قصير السّيب . قال ابن قتبية

ويستحب أن يرفع ذنبه عند العدو، ويقال إن ذلك من شدة الصلْب . ويستحب عرض الصدر : وهو ماعرض حيث ملقأ أعلى لبيه، ويسمى اللبان والكلكل؛ وكذلك ارتضاعه عن الأرض مع دقة الزور، وهو ما استدق من صدره بين يديه، بحيث يقرب ما بين المرفقين لأنه أشد له وأقوى لجريه . ويستحب فيه عرض الكتف وغلفه وقصر النسا : وهو عرق في الساق مستطيل التقخذ، وشعجه، وقصر وظيف اليد : وهو قصب يديه، وقصر الرشح، ودقة إبرة المرقوب ومخيلده : لأنه أشد لقصب الساق وطول وظيف الرجل ليخلف الأرض بها فيكون أشد لعدوه، وغلف عظم القوائم، وغلف الحبال : وهى عصب الذراعين، ولطف الركبة، وقرب ما بين الركبتين، وشدة كعبه : لأن ضعف الكعب داعية الجرد، وانحناء الرجلين وتوترهما، وبعد ما بين الرجلين : وهو الفصح : لأنه أشد لتمكن رجله من الأرض . ويستحب صفاء الحافر، وصلابته، وسعته، وكونه أزرق أو أخضر غير مشوب ببياض : لأن البياض دليل الضعف فيه، وأن يكون مع ذلك فيه تقعب، ولطف نسوره : وهى شئ في باطن حافره كالنوى : لأنه إذا ضاق موضعها كان أصعب لحافره، وأن تكون أطراف ستابكه وهى مقادم حوافره رقيقة . ويستحب فيه مع ذلك كله اتساع إهابه وهو جلده، ورقة أديمه، وصفاء لونه، ولين شعره، وكثرة عرفه، وكثرة نومه، وسعة خطوه، وخفة عثانه، ولين ظهره، وحسن استقلاله في أول سيره، وخفة وقع قوائمه على الأرض إذا مشى، وشدة وقعها إذا علا، مع حدة نفسه وسرعة عدوه، واتساع طرقتيه، وقد يتفرق القطاف في المشى في دواب الجرى . ثم إنه قد يحتمل فوات آلة الحسن والفراسة في المشى ولا يتفرق القص في آلة الجودة وشدة العدو والصبر : لأن بهما يلزم ما يطلب، وينجو مما يهرب .

(١) في اللسان الجرد وزم في مؤخره عرقب القرس يطلم حتى يمتد المشى واللى .

وأما ما يستتبع ويُلزم من أوصافها، فقد ذكروا للفرس ستة عيوب، بعضها خلقية وبعضها حادثة .

فمن العيوب الخلقية البدد : وهو بُد ما بين اليدين، والصَّم وهو أن لا يسمع : وعلامته أن يراه يَصُرُّ أذنيه أبداً إلى الخلف، وإذا جُرَّ خلفه خشبةً ونحوها لا يشعر ولم ينفر عنها، والحذاء : وهو أن يكون أذناه مسترخيتين منكوستين نحو العينين أو الخدين كأن كان الكلاب السلوقية، والطول وهو أن تطول إحدى أذنيه وتقصر الأخرى، وكونه أسك : وهو أن يكون صغير الأذن .

ومنها السفا : وهو قلة شعر الناصية، والقَم : وهو أن يكثر شعر الناصية ويطول حتى يغطى العين : وهو عيب خفيف والسفا^(١) : وهو خفة الناصية .

ومنها القرح : وهو أن يكون البيضاء الذي في الوجه دون قدر الدرهم كما تقدم إلا أن يكون معه بياض آخر من تحجيل ونحوه فلا يكره حينئذ، فإن كان في وسط البيضاء في الوجه سواد كان عيباً يشام به .

ومنها السنا : وهو أن لا يَصُرُّ ليلاً فيصير بمثابة نصف فرس لأنه لا ينتفع به في الليل دون النهار، وكونه قائم العين : وهو الذي يكون على ظاهره سواد يضرب للفضرة والكثرة يقل معها بصره، والحول : وهو أن يكون بإحدى عينيه بياض خارج سواد الحلق من فوق، ويكون خلاف العين الأخرى وهو مع ذلك مما يترك به بعض الناس ويقول : إذا كان ذلك في العينين كان أعظم لبركته، والقيف : وهو أن تكون إحدى عينيه زرقاء : وهو مما يشام به لاسيما إذا كانت الزرقة في العين اليسرى، فإن أزرق العينان جميعاً كان أقل لشؤمه، وعُشور العينين : وهو دخولهما في وجهه، والقرب : وهو بياض أشفار العينين، يكون عنه ضعف بصره في القمر والحل الشديد، والكثبة : وهو أن يصير قدامه، ولا يبصر عن يمينه ولا شماله .

(١) أي أن السفا بهذا المعنى عيب خفيف . (٢) في الأصل إسقاط لا وفي المطبع عاياتها وهو الظاهر .

ومنها القنن : وهو أحديدآب في الأنف ، ويكون في المحجن ، والخنن : وهو أن يرى فوق منخريه منخفضا : لأنه يضيق نفسه إذا ركض .

ومنها القنن : وهو أن تكون أسنانه العليا داخلية عن أسنانه السفلى ، والطبقية وهو أن تسترخى بجفلة السفلى فإذا سار حركها وطبطبها كالبعير الأهمل ، وأن يكون في حنكه شامة سوداء وسائر فمه أبيض .

ومنها قصر اللسان لأنه إذا قصر لسانه قل ريقه فيمرح إليه العطش ، والخرس وعلامته أن تراه يصهل ولا يتجهم ، وهو عيب لطيف .

ومنها القصر : وهو غلظ في السق ، واللف : وهو استدارة فيه مع قصر ، والدن وهو طمأنينة في أصل العنق ، والمخ : وهو طمأنينة في وسط العنق ، والقود : وهو يؤس في العنق بحيث لا يقدر الفرس أن يدير عنقه يمينا ولا شمالا ولا يرفع رأسه إذا مشى ، وهو عيب شديد ، والجسأ : وهو يؤس المعطف .

ومنها الكتف : وهو أنفراج يكون في أعلى كيتي الفرس مما يلي الكاهل ، والقنن : وهو أن يطمئن الصلب من الظهر وترفع القطاة ، والبزخ : وهو أن يطمئن الصلب والقطاة جميعا ، وهو عيب ردىء يضر بالعمل ، وكون الكفل فيه تحديد ويكون العجز صغيرا ، والفرق : وهو نقصان إحدى حرقفتي الوركين ، فإن نقصتا جميعا فهو ممسوح الكفل ولا عيب فيه .

ومنها الدن : وهو تطلأ الصدر ودنوه من الأرض ، وهو من أسوأ العيوب ، والزور : وهو دخول إحدى فهدي الصدر ونروج الأخرى .

ومنها المضم : وهو استقامة الضلوع ودخول أعاليها ، والإخطاف : وهو لحوق ما خلف الحزم من بطنه ، والتجل : وهو خروج الخاصرة ورقة الصفاق .

ومنها المَصَل : وهو التواء عَصِيب الذَّنْبِ حَتَّى يَرُزَ بِمَضْ باطنه الذي لا شعر عليه، والكَشَف : وهو أَكْثَرُ من ذلك، والصَّبِغ : وهو بياض الذَّنْبِ، والشَّلَع : وهو أن يَبِضَّ عَرَضُ الذَّنْبِ وهو وسطه .

ومنها الفَصَح وهو إفراط بُدْ ما بين الكعيين ؛ والحَلَل : وهو رَخَاوَة الكعيين ، ويَصِحُّ به تَقْوِيسُ اليدين ، وهو عِيبٌ فاحش ؛ والطَّرَق : وهو أن تَرَى رَكْبَتَيْهِ مَفْسُوخَيْنِ كَلَفَةً وَتَسْتِيْنِ إِلَى دَاخِلٍ ، وهو عِيبٌ فاحش ؛ والقَسَطُ وهو أن تَرَى رِجْلَاهُ مُتَصَبَّغَتَيْنِ غَيْرَ مُتَحَبَّغَتَيْنِ ، والبَدَد : وهو بُدْ ما بين اليدين ، والفَصَح وهو إفراط بُدْ ما بين المَرْقُوعَيْنِ ، والقَفَد : وهو أَنْتِصَابُ الرُّسْغِ وإِقْبَالُهُ عَلَى الحَافِرِ وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي الرُّجُلِ ؛ والصِّلَف : وهو تَدَاوِي الفُخْزَيْنِ وتَبَاعُدُ الحَافِرَيْنِ فِي التَّوَاءِ مِنَ الرُّسْغَيْنِ بِحَيْثُ تَرَى رُسْغِي يَدَيْهِ مَفْتُوحَيْنِ ؛ وَالتَّوَجِّجُ : وهو نَحْوُ مَنْه إِلَّا أَنَّهُ أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَالْقَدْعُ وهو التَّوَاءُ الرُّسْغِ مِنْ عُرْضِهِ الْوَحْشِيِّ مِنْ الْجَانِبَيْنِ مِنْ رَأْسِ الشَّظِي ، وَوُطُوهُ عَلَى وَحْشِيٍّ حَافِرِهِ جَمِيعًا وَهُوَ الْجَانِبُ الْخَارِجُ ؛ وَالْإِرْتِهَاشُ : وهو أن يَصُبُّ بِمَرَضٍ حَافِرُهُ عَرَضَ مُجَابَتِهِ مِنَ الْيَدِ الْآخَرَى وَذَلِكَ لَضَعْفِ يَدِهِ ؛ وَالْحَنَفُ : وهو أن يَكُونَ حَافِرَا يَدَيْهِ مُكَبَّوَيْنِ إِلَى دَاخِلٍ ؛ وَالتَّقَدُّ : وهو أن يَرَى الحَافِرَ كَالْمُتَقَشَّرِ ؛ وَالشَّرَجُ : وهو أن يَكُونَ ذُو الحَافِرِ لَهُ بِيضَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَالْأَرَحُ : وهو أن يَمَسَّ الْأَرْضَ بِبَاطِنِ حَافِرِهِ .

ومنها الْبَدَدُ فِي الْيَدَيْنِ : وهو أن يَكُونَ إِنْ شَاءَ مَشَى يَدِيرُ حَافِرَهُ إِلَى خَارِجٍ عِنْدَ النُّقْلِ وَلَيْسَ فِيهِ ضَرَرٌ فِي الْعَمَلِ ؛ وَالتَّقِفُّ وهو أن يَخِيطَ بِسَيْدِهِ مَسْتَوًى لَا يَرِفُهَا إِلَى بَطْنِهِ وَهُوَ خِلَافُ الْبَدَدِ .

ومنها التَّلَوِّجُ : وهو أن يَكُونَ الْفَرَسُ إِذَا ضَرَبَتْهُ حَرَكَةُ ذَنْبِهِ ؛ وَهُوَ عِيبٌ فَاحِشٌ فِي الْمُجَوَّرَةِ لِأَنَّهُ رَمَبًا بِأَلْتِ الْحَجَرِ وَرَشَّتْ بِهِ صَاحِبَهَا .

(١) لَهُ أَرْمَنُ الْجَانِبَيْنِ . (٢) فِي السَّانِ . فِي أَكْسَنَاتِهِ .

الضرب الثاني

(العيوب الحادثة وهي علة صيوب)

منها الحَلَب ؛ ويكون في الظهر بمثابة حَذْبَةِ الإنسان ، وهو عيبٌ فاحش ؛ والغَلَّةُ وتكون في الظهر أيضا بإزاء الشرة .

ومنها العتق - وهو انتفاخ وورم بقدر الزمانة أو أقل مما على الناحية ؛ وهو عيب فاحش لا علاج فيه .

ومنها الجر - وهو عيب يحدث عن ثَمَّةِ الشعر ، وربما كان من شرب الماء على التعب فيحدث عنه ثَقُلُ الصدر .

ومنها الانتشار : وهو انتفاخ العَصَبِ بواسطة التعب ؛ ويكون من فوق الرُشَغ إلى آخر الركبة ، وهو عيب فاحش .

ومنها تحرك الشفاة : وهو عظم لاصق بالذراع ؛ وهو على الفرس أشق من الانتشار .

ومنها الرّوح - وهو داء يكون منه غَلَطٌ في القوائم كمثل داء النفل في البشر .

ومنها المَشَش : وهو داء يكون في بده أمره ماءً أصفر ، ثم يصير دماً ، ثم يصير عظماً . ويكون على الوظيف وفي مفصل الركبة ؛ وهو على العَصَبِ والركبة شر منه على الوظيف .

ومنها التَمَع ، ويكون في الرجلين في طرف العرقوين ؛ وهو غَلَطٌ يستريهما . والمَلَح ، ويكون في الرجلين تحت التَمَع من خَلْف : وهو انتفاخٌ مستطيل لا يضر بالعمل ؛ والجَرْدُ : وهو كالعظم الناقى يكون في الرجلين تحت العرقوين على المفصل من داخل ومن خارج ؛ وهو عيب فاحش تُؤَلَّو منه الدابة إلى العطب ؛ والنفخ :

وهو آتفاح يكون في مواضع الجُرْد . وهو من دواعي الجُرْد ، والعُقَال : وهو أن تقلص رجله ، وذلك يكون في عصب الرجل الواحدة دون الأخرى ، وربما كان في الرجلين جميعاً ، وهو عيب فاحش يضرب بالعمل ؛ وهو في البرد أشد منه في الحر . ومنها الشَّقَاق : وهو داء يصيبه في أرساغه ، وربما أرتفع إلى وظيفه ، والسرطان : وهو داء يأخذ في الرُّسْغ فيمس عروقه حتى ينقلب حافره .

ومنها السرُّ : وهو جُسوءٌ في رُسْغ رجله . والنَّخس : وهو ورم يكون في حافره . والقَفَد : وهو تَشْج عصب رُسْغه حتى ينقلب حافره إلى داخل فيمشي على ظاهر الحافر .

ومنها التَّمَلَّة : وهي شُق في الحافر من ظاهره : والرَّهْسة : وهي ما يكون في الحافر من صدمة ونحوها ، والعامَّة تقولها بالصاد ، والقَمَر وهو أن يتقشر حوافره ، وهو عيب فاحش ، والنَّاسور : وهو الذي تسميه العامَّة الوقرة : وهو داء يحدث في نُسور الدابة فإذا قُطِع سال الدم منه .

ومنها الأذرة : وهي عِظَم الخَصْبَتَيْن ، وربما عظمت خُصْبَتاه في الصيف^(١) وأحمرت في الشتاء . والمُدَلِّي : وهو الذي يدل ذكَّره ثم لا يرده ؛ وهو عيب قبيح بحيث يقبض ركوب الفرس الذي به هذا العيب .

ومنها البرص : وهو بياض يمتري الفرس في مَرَقَّاته : كالجَحْفَلَة وجُفُون العينين وبين الفَخِيزَيْن والخَصْبَتَيْن .

ومنها الخلد : وهو داء شديد يتقَّب موضعه من بدن الدابة يسيل منه ماء أصفر ، فإذا نُكِرَ بالنار برآ وأهتج موضع آخر ، فلا يزال كذلك حتى تعطب الدابة ؛ وهو

عيب فاحش ، في عيوب أخرى يطول ذكرها . وفي كتب البيطرة ذكر الكثير من ذلك مع علاج ماله علاج منه وبين مالا علاج له .

وأما الدوائر التي تكون في الخيل فقد عدها العرب ثمانى عشرة دائرة ، بعضها مستحب وبعضها مكروه . الأولى دائرة الحياء وهو الوجه : وهى اللاحقة بأسفل الناصية . الثانية دائرة اللطاة : وهى دائرة تكون في وسط الجبهة . الثالثة دائرة التطيح : وهى دائرة ثانية في الجبهة بأن يكون في الجبهة دائرتان . الرابعة دائرة اللهزيمة : وهى دائرة تكون في لمزمة الفرس . الخامسة دائرة المقود^(١) : وهى التي تكون في موضع الفلاة . السادسة دائرة السائمة : وهى دائرة تكون في وسط العنق . السابعة والثامنة دائرتا البقيتين : وهما دائرتان في نحر الفرس فيما قاله الأصمعي . وقال أبو عبيد البقيّة الشعر المختلف في منتهى الناحية والشاكلة . التاسعة دائرة الناحر : وهى دائرة في باطن الحلق إلى أسفل من ذلك . العاشرة دائرة القالع : وهى دائرة تكون تحت اللبد . الحادية عشرة دائرة الهقعة : وهى دائرة تكون في عرض الزور . الثانية عشرة دائرة النافذة : وهى دائرة ثانية تكون في الزور بأن تكون فيه دائرتان في الشقين في كل شقّ منهما دائرة وتسمى النافذة دائرة الحزام أيضا . الثالثة عشرة والرابعة عشرة دائرتا الخرب : وهما اللتان يكونان تحت الصقرين وهما رأسا المجبيتين اللتين هما العظمان التائتان المشرفان على الناصيتين كأنهما صقران . الخامسة عشرة والسادسة عشرة دائرتا الصقرين : وهما دائرتان بين المجبيتين والقصرين . السابعة عشرة والثامنة عشرة دائرتا الناحس : وهما دائرتان تكونان تحت الجاهرتين . قال ابن قتيبة وهم يكرهون منها أربع دوائر . وهى دائرة الهقعة مع ذكره أن أبى الخيل المهقوع . ودائرة القالع . ودائرة الناحس . ودائرة التطيح . قال وما سوى ذلك من الدوائر فليس بمكروه .

(١) في النقص . السوم .

وذكر صاحب زهر الآداب في اللغة أنهم يستحبون من الدولتر دائرة المقود،^(١)
 ودائرة السَّامة، ودائرة الحقمة احتجاجا بأن أبقئ التحليل للمهثووع؛ ويكرهون دائرة
 الأنطيط، ودائرة اللّهزمة، ودائرة القالغ .

ورأيت في بعض كتب البيطرة أن المستحب منها ثلاث دوائر المقود ودائرة
 السَّامة، ودائرة الحقمة وما عدا ذلك فهو مكروه، وكره حكمة الهند دوائر أخرى
 ذكروها وهي أن يكون في مقدم يده دائرة، أو في أصل ذنبه من الجانبين دائرتان
 أو على ناصيته دائرة، أو على عجزه دائرة، أو في بطنه السفلى دائرة، أو على سُرته
 دائرة، أو على منسجه دائرتان .

وأما أسنان الخيل فأقول ما تَضَعُ الحِجْرَة جنتها قبل مُهر، والأُنثى مُهْرَة . فإذا
 فُصِلَ عن أمه قيل قَلْوٌ . فإذا استكمل حَوْلًا قيل حَوْلَى والأُنثى حَوْلِيَّةٌ . فإذا دخل
 في الثانية قيل جَدَعٌ والأُنثى جَدْعَة . فإذا دخل في الثالثة قيل ثِيٌّ والأُنثى ثِيَّةٌ .
 فإذا دخل في الرابعة قيل رِبَاعٌ والأُنثى رِبَاعِيَّةٌ . فإذا دخل في الخامسة قيل قَارِحٌ
 للذكر والأُنثى . وفي الغالب يلقي أسنانه في السنة الثالثة، وربما تأخر إلقاؤها إلى
 السنة الرابعة : وذلك إذا كانت أبواه شايين، وقد يلقي أسنانه في حول واحد :
 وذلك إذا كان أبواه هَرِمَيْنِ، ثم لكل مُهر اثنا عشرة سنًا : مِتَ من فوقٍ وسَتَ
 من أسفل، ويليهما من كل جانب نابٌ، ويليهما الأضراس . وتنتهت شتايها بعد وضعه
 بخمسة أيام . وتنتهت رباعياتها بعد ذلك إلى مئة شهرين . وتنتهت قوارحه بعد
 ذلك إلى ثمانية أشهر . ويختص التبديل منها بالأسنان الاثني عشرة دون الأنياب
 والأضراس . وربما ألقى المهر بعض أسنانه، ثم لانتبت . وإذا قَرِحَ المهر أصفرت
 أسنانه، وأسودت رءوسها وطالت فبيق كذلك نحس سنين ؛ فإذا جاوزت ذلك

أبيضست وحَنَى رُعُومَهَا ، ثم تَتَقَل فتَصِيرُ كَلونَ العِسلِ خَمْسَ مَسْتِينٍ ، ثم تَقِيضُ فتَصِيرُ كَلونَ التُّبَارِ ويزداد طولها . وربما دَلَسَ النَّعَّاسُونَ فَنَشَرُوا أَسْنَانَهَا وَسَوَّوْهَا .
ومما وجد في الكتب القديمة أَنَّ الفرسَ تَحْزُكُ ثَنِيَاةً في سَبْعٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً ،
وتَحْزُكُ الرَّبَاعِيَّاتُ في ثَمَانٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً ، وتَحْزُكُ القَوَارِحُ في تِسْعٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً ،
ثم تَسْقُطُ الثَنِيَاةُ في ثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَالرَّبَاعِيَّاتُ في إِحْدَى ثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَالقَوَارِحُ
في اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً وهو عمر الدابة .

وأما الفرسُ في الخيل فاعلم أَنَّ المَهْرَ وإنْ ظَهَرَتْ فِيهِ عِلَامَاتُ النِّجَابَةِ أَوْ الْعَكْسِ
لَا عِبْرَةَ بِذَلِكَ ، فَإِنَّهُ قَدْ يَتَغَيَّرُ فَيَقْبُحُ مِنْهُ مَا كَانَ حَسَنًا ، وَيَحْسَنُ مِنْهُ مَا كَانَ قَبِيحًا ؛
وَإِنَّمَا يَتَفَرَّسُ فِيهِ إِذَا رَكَبَهُ لِمِ الْعَلَفِ ، وَذَهَبَ عَنْهُ لِحْمُ الرِّضَاعِ . وَأَفْضَلُ الْقِرَاسَةِ
فِي الْمَهْرِ أَخْذُهُ فِي الْجُرِيِّ ، فَإِنَّهُ صَنَعْتُهُ الَّتِي خَلَقَ عَلَيْهَا وَإِلَيْهَا يَثُولُ ، فَإِذَا أَحْسَنَ
الْأَخْذُ فِي الْجُرِيِّ فَهُوَ جَوَادٌ ، وَلَكِنَّهُ رُبَّمَا تَغَيَّرَ أَخْذُهُ لِلْجُرِيِّ إِذَا رَكِبَ لَضَعْفٍ
فِيهِ حِينَئِذٍ ، وَقَصُورٍ عَنْ بُلُوغِ مَبْدَى قُوَّتِهِ ؛ وَقَدْ لَا يَجْرِي جَدًّا وَيَجْرِي نَيْبًا ،
وَقَدْ لَا يَجْرِي نَيْبًا وَيَجْرِي رَبَاعِيًّا ، وَقَدْ لَا يَجْرِي رَبَاعِيًّا وَيَجْرِي قَارِحًا حِينَ تَجْتَمِعُ
لَهُ قُوَّتُهُ . وَيَعْرِفُ ضَعْفُ الضَّعِيفِ مِنْهَا بِتَأْوِيلِهِ تَحْتَ فَارِسِهِ وَتَحْزُرُهُ عَنْهُ وَقَرَّتُهُ
إِذَا نَزَلَ عَنْهُ .

ومما يدلُّ عَلَى جَوْدَةِ الفرسِ وَحُسْنِ جَرِيهِ أَنَّهُ يَرَاهُ إِذَا أَخْذَ فِي الْجُرِيِّ سَمًا
بِهَادِيهِ ، وَأَثْبَتَ رَأْسَهُ ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ بِهِمَا فِي حُضْرِهِ وَأَجْمَعَتْ قَوَائِمُهُ ، وَسَبَّحَ بِيَدَيْهِ
وَضَرَحَ بِرِجْلَيْهِ ، وَلَمَّا فِي حُضْرِهِ ، وَامْتَدَّ ، وَبَسَطَ ضَبْعِيهِ حَتَّى لَا يَجِدَ مَزِيدًا ،
وَتَكُونُ يَدَاهُ فِي قَرْنٍ ، وَرِجْلَاهُ فِي قَرْنٍ ، فَإِذَا كَانَ الفرسُ كَذَلِكَ فَهُوَ الْجَوَادُ السَّابِقُ .
وقد قيل : إِنَّ خَيْرَ الْخَيْلِ الَّذِي إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ ، وَإِذَا حَدَا بَسَطَ يَدَيْهِ ، وَإِذَا أَدْبَرَ جَفَأَ ،
وَإِذَا أَقْبَلَ أَهْمَى .

الصنف الثاني

(البغال)

وفيهما نوعية من الخيل والحُمير: من حيث إنها تتولد بين حصان وأتان، أو بين حمار وحِجْرة . وفيها التفيس المختار لركوب الرؤساء : من العلماء ، والوزراء ، والحكام وسائر رؤساء المتعممين . وإنه صلى الله عليه وسلم ، في يوم أُحُد كان راجيا بغلة ، ولولا شرفها وقُفاسُها وقِيامُها مقام الخيل لما ركبها النبي صلى الله عليه وسلم في موطن الحرب ، وألوانها وأُستانها على ما تهتم في الخيل ، ويستحسن فيها غالب ما يستحسن في الخيل ، وقد قيل إن خيار ما يقتنى من البغال ما أشتتت قوائمها ، وعظمت قَصْرَتُهُ ، وعَقْبُهُ وهامَتُهُ ، وصَفَتْ عِيْنُهُ ، ورحب جوفُهُ ، وعَرَضَ كَفْلُهُ ، وسلم من جميع العيوب والعلل ،

ومما يستحسن في البغال دون الخيل السَّقا : وهو خفة شعر الناصية . وأن يكون بيلها ورجليها خطوط مختلفة : جُلُّ ما تكون للسَّوَر : ويقال إن خير ما يختار للسرّج والركوب البغال المصرية : لأن أمهاتها عتاق وُجْجَن ، وخيار ما يحتاج إليه للسرايا والمواكب والرُّكُض مع الخيل بغال الجزيرة وإفريقية .

ومما ينبغي التنبيه عليه أن في البغلات منها شدة محبة للدواب إذا ربطت معها وفسادا للدواب إذا اعتادت حتى يصير أحدهما لا يفارق الآخر إلا بمشقة . ويحسن في البغال النحصى ، وفي البغلات التَّحْوِص ، ولا يُعاب ركوب شيء منها حيثئذ إذا كان هيمًا .

(١) قد تكرر في هذا المقام تأنيث الخبر بالهاء وفي القاموس ما نصه والحجر الأثني من الخيل وبالهاء

لأن قال شارحه وهو عامي مسترذل ثم قل عن الثعالب تصحيحه فتهب .

الصفيف الثالث

(الإبل)

ويشتمل الغرض منها على معرفة أنواعها ، وألوانها ، وأستانها ؛ وما يُستفح ويُسحق من صفاتها .

أما أنواعها فإنها ترجع إلى نوعين . الأول البَحَائِي : وهي جمال جُفَاء التُّنُود ، طويلة الوَبر ، تجلب من بلاد الترك . الثاني العَرَاب وهي الإبل العربية وأصنافها لا يأخذها الحَصَر . وأما ألوانها فترجع إلى ثلاثة أصول .

الأول البياض ، فالجل إذا كان خالص البياض قيل آدم والأشئ أدماء على الضد من بني آدم ، فإن خالط البياض يسير شُقْرَة قيل أعيس والأشئ عيساء .

الثاني الحمرة فإن أحمر وغلبت عليه الشُقْرَة قيل أصهب والأشئ صهباء ، فإن خلطت حمرة قيل أحمر والأشئ حمراء ؛ فإن خالط حمرة فَنُوَّه قيل كُتَيْت ، فإن صفت حمرة قيل أحمر مدى ، فإن خالط الحمرة خُضْرَة قيل أحوى ، فإن خالطها صُفْرَة قيل أحمر رادني بكسر الدال . فإن خالطها سَوَادٌ قيل أَرْمَكُ والأشئ رَمَكَاء . فإن كانت حمرة كَصَدِّ الحديد قيل آجَائِي .

الثالث السواد ، فإن كان السواد فيه ضعيفا قيل أكلَف ، فإن خالط السواد صُفْرَة قيل أحوى ، فإن علق بسواده بياض قيل أَوْرَق . فإن زادت وُرْقته حتى أظلم بياضه قيل أدم ، فإن أشتد سواده قيل جَوْن ، فإن كان بين النُّبْرَة والحمرة قيل خَوَار والأشئ خَوَارَة .

وأما أستانها فإنه يقال لولد الناقة عند الوضع قيل أن يُعرف أذكر أم أنثى سَلِيل . فإن بان أنه ذكر قيل سَقْب ، وإن بان أنه أنثى قيل حائل . ثم هو حَوَار حتى

يُعْلَم ، فإذا نُفِصَ عن أمه قيل فصيل . وذلك في آخر السنة الأولى من وضعه ،
 فإذا دخل في الثانية قيل ابن عَنَاصٍ : لأنَّ أمَّهُ فيها تكون من المخاض (وهي الحوامل)
 والأُنثى بنت عناص ، فإذا دخل في الثالثة قيل ابن لَبُونٍ : لأنَّ أمَّهُ فيها تكون ذات لبن
 والأُنثى بنت لبون ، وإذا دخل في الرابعة قيل حَقٌّ : لأنه يستحق أن يحمل عليه والأُنثى
 حَقَّةٌ ، فإذا دخل في الخامسة قيل جَدَعٌ والأُنثى جَدَعَةٌ ، فإذا دخل في السادسة
 قيل تَيٍّ : لأنه يُلْقَى فيها شَيْتَمُ الأُنثى تَيْتَةً . فإذا دخل في السابعة قيل رِبَاعٌ (يفتح الراء)
 لأنَّ فيها يلقي رِبَاعِيَّتَهُ والأُنثى رِبَاعِيَّةٌ بالتحفيف ، فإذا دخل في الثامنة قيل سَيْدِسٍ
 وسَدَسٍ الذَّكَرُ والأُنثى فيه سواء ، وربما قيل في الأُنثى سَيْدِسَةٌ . فإذا دخل
 في التاسعة قيل بَازِلٌ لأنه فيها يَبْزُلُ نَابُهُ ، والذكر والأُنثى فيه سواء ؛ وقد يقال فيه
 فَاطِرٌ ، فإذا دخل في العاشرة قيل مُخْلِفٌ وليس وراء ذلك إلا بل صَبَطُ بل يقال مُخْلِفٌ
 حَامٍ ومُخْلِفٌ حَامِيْنٌ فأكثر ، فإذا علا السن بعد ذلك قيل فيه عَوْدٌ والأُنثى عَوْدَةٌ ، فإن
 علا عن ذلك قيل حَقَرٌ ، فإن تكسرت أُنْيَابُهُ لَطُولُ هَرَمِهِ قيل ثَلْبٌ والأُنثى ثَلْبَةٌ ،
 ويقال في الناقة إذا كان فيها بعضُ الشباب عَرُومٌ ، وربما قيل شَارِيفٌ .

وأما ما يستحسن من صفاتها فقد رأيت في بعض المصنفات أن كل ما يستحب
 في الفرس يستحب في البعير خلا عَرَضَ غَرَبِهِ ، وقيل مِرْقَعُهُ ، ونكس جَاوِرَتِهِ
 وهي أعلى الْوَرِكِ ، وأندلاق بطنه ، وفخوذ رجله ، فإن ذلك يستحب في الإبل
 دون الخيل .

وقد صرح الشعراء في أشعارهم بعدة أوصاف مستحسنة في الناقة ، منها دقة
 الأُذُنِّ ، وتحديد أطرافها ، وكبر الرأس ، واستطالة الوجه ، وعظم الوجنتين ، وقنوة
 الأنف ، وطول العنق وعظمتها ، ودقة المذبح ، وطول الظهر ، وعظم السنام . وهي
 الكَوَّماء ، وطول ذنبها ، وكثرة شعره ، غليظة الأطراف ، قليلة لحم القوائم ، ليست

رَهْلَة ، ولا مسترخية ؛ وأن تكون مع ذلك كثيرة اللحم ، مَلْسَاء الجِلْد ، ثَمَّة الخلق ، قَوِيَّة ، صُلْبَة ، خَفِيفَة ، مَرِيعَة السِر .

وأما كرمها فإنه يقال لكل كريم خالص من الإبل هِجَان من نِتَاج مَهْرَة : وهى قبيلة من قُضَاعَة بَالِمْن ، والعيديَّة منسوبة إلى بنى العِيد من قبيلة مَهْرَة المذكورة ، والأُرْحِيَّة منسوبة إلى بنى أَرْحَب ، والفَرِيرِيَّة منسوبة إلى غُرَيْر ، وهو فحل كريم مشهور فى العرب . والشَّدَقِيَّة منسوبة إلى شَدَقَم : فحل كريم أيضا ، والجَدَيْلِيَّة منسوبة إلى جَدِيل : فحل كريم ، والدَّاعِرِيَّة منسوبة إلى دَاعِر : فحل كريم كذلك . قال فى كفاية المتحفظ ، والشَّدَقِيَّة منسوبة إلى فحل أو بلد .

الصنف الرابع

(الحمير)

ومنها النَّفِيس الغالى الثمين وخيرها حُمُر الدِّيار المصرية ، وأحسنها مَا أُنِى به من صعيدها . وهى تنتهى فى الأثمان إلى ما يقارب أثمان أوساط الخيل ، وربما يميز العالى القدر منها على المنحط القدير من الخيل ، والأحسن فيها ما كان غليظ القوائم ، تَامَ الخَلْق ، حَلِيد النفس . ولا عيب فى ركوب الجمار ولا وَهْصَة ^(١) قَد بُنِت فى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم ، «رَكِبَ الجِمَار» ولا عبرة برَفْع من رَفَع عن ركوبه بعد أن ركبه النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) مراده ولا قص ولكن لم تقف فى مادة ر ه ص ولا و ه ص على هذا المعنى .

النوع الثالث

(ما يحتاج إلى وصفه من جليل الوحش وكريم صيوده؛ وهو أصناف)

الصنف الأول

(جليل الوحش)

وهو ما يتخذ الملوك للزينة وما في معناها؛ ويحتاج الكاتب إليه لوصفه في الهدايا والمواكب، وما يجرى مجراها .

والمعول عليه من ذلك خمسة أضرب .

الأول الأسد - ويجمع على أسد وأسود وأسود وأسود ، ويقال له أيضا اللبث والضبثم ، والضرم ، والهرزير ، والهيصم ، والهرماس ، والفرافصة ، وحيدرة ، والقسورة . وله أسماء كثيرة سوى هذه ، لا تكاد تدخل تحت الحصر ، حتى قال ابن خالويه للأسد خمسمائة اسم . ويقال لولده الشبل ولأنثاه البقرة . قال ابن السني في كتابه "المصايد والمطارد" : وإذا تأملت أصناف الحيوان وبحت صورها وما أُعطيت من الأسلحة ومقادير الخلق ، وجدت الأسد أعظم خلقه ، وأكثر أئدة ، وأشد إقداما من جميعها ، ليست له غريزة في الحرب البتة .

ومن خصائصه وعجيب خلقه أن عظم عنقه عظم واحد ليست له خرز عظام كما في غيره من الحيوان بليل أنه لا يلوى عنقه ، ولا يلتفت ، ومع ذلك فهو يتلعق الشيء العظيم ، ويؤتته لا تلد إلا حروا واحدا ، وإنها تضعه كالقمة ليس فيه حس ولا حركة فتعزسه ثلاثة أيام ، ثم يأتي أبوه فيصنخ فيه المرة بعد المرة حتى يتحرك ، ثم تأتي أمه فترضعه ، ولا يفتح عينيه إلا بعد سبعة أيام ؛ ويكتسب لنفسه بالتعليم من أبويه بعد ستة أشهر ، وهو قليل الشرب لئلا وإن كان لا يفارق الغياض ، وله صبر على

الجوع ولكنه إذا جاع ساءت أخلاقه، وليس يُلقَى رَجِيعه إلا مرة واحدة في اليوم، ويرفع رجله عند البول كما يفعل الكلب، ويبول إلى خلف كما تبول الجمال، وهو أشد السباع ضراوة على أكل بني آدم، وإذا أقترس فريسة وأكل منها، لا يعود إليها، ولا يبطأ أثره شيء من السباع . قال ابن السندي في "المصايد والمطارد" ولا يأكل من فريسة غيره من السباع . وقد قيل إنه يهرب من الحر، ومن الجرو، ومن الدبك الأبيض، وإنه إذا رأى النار عرضت له فكرة أورثته بهتة، وأنه يهرب من عواء الجرو إذا عرّكت أذنه، ويقال إن جلده إذا جعل فيما يخاف عليه السوس من الثياب وغيرها أمن من ذلك، وإنه إذا عمل منه وترقوس وأضيف إلى أوتار من فراء ومعى أو غيرها أبطل أصواتها وعلا صوته عليها، ومن طبعه أنه لا يشرب ماء ولق فيه كلب وإن مات عطشا .

الثاني الثور - جمع نَير (يفتح النون وكسر الميم) ويجمع أيضا على أنمار ونِمَار، والأثني نَمِرة، وهو حيوان مُرَقَّع اللون بسواد وبياض، أقرب شيء من خِلقة الفهد، وهو أخبث من الأسد، لا يملك نفسه عند الغضب حتى إنه ربما قتل نفسه من شدة غضبه . قال : ابن السندي : وهو ودود لجميع الحيوان، عدو للنسر، وينام ثلاثة أيام، والحيوان يُطيف به ويميل إليه، استحصانا لجلده .

وهو جنسان أحدهما عظيم الجثة، صغير الذنب، والثاني صغير الجثة عظيم الذنب . قال في "المصايد والمطارد" ويصاد بالحر لأنه يحبها . قال : ومن أراد قتله تمسح بشحم ضبع ودخل عليه قتله .

الثالث الكركدن - (يفتح الكافين ومسكون الراء المهملة وفتح الدال المهملة ونون مشددة في الآخر) قال الزمخشري في "ربيع الأبرار" : وهو وحش يكون ببلاد الهند يسمى الحمار الهندى^(١)، له قرن واحد في جبهته يبلغ غلظه شهرين، وهو

(١) ضبطه في القاموس بشدة الدال أى وتخفيف النون وقال العامة تشدد النون

محمّد الرأس إلا أنه ليس بالطويل وأنه إذا قطع ظهرت فيه صور عجبية : وأنه ربّما نطح القيل فيعجمه بقرنه ، وأن أنثاه تحمل سبع سنين ، وأنه إذا كان بأرض لم يدع شيئاً من الحيوان حتى يكون بينه وبينه مائة فرسخ من جميع جهاته هيبّة له وهو با منه .
الرابع القيل - وهو حيوان يؤتى به من بلاد الهند والحيشة . قال الجاحظ :

وهو من الحيوانات المائية وإن كان لا يسكن الماء ، وهو من ذوات الخراطيم ، ونحو طومه أنه كما أن لكل شيء من الحيوان أفا ، وهو يده ، وبه يتناول الطعام والشراب ؛ ومنه يعني ويختر فيه الصوت كما يختر الزاير في القصببة بالنفخ ، قال :
وأصحابنا يزعمون أن بينه وبين السنور عداوة وأن القيل يهرب منه هرباً شديداً .
وذكر صاحب " الحيل في الحروب " ^(١) أنه يقصر عن صوت الخنزير وأنه بذلك يتفرق في الحروب . وقد ذكر الجوزي أن للقيل إقداماً على السبع . قال الجاحظ : وهو يبادى البعوض لأنه يشقّب جلده بقرصه ، ومن ثم يرى القيل دائماً يحرك أذانه ليطرد عنه التاموس ، وهو مخصوص بخفّة وقع قوائمه على الأرض إذا مشى حتى لو أن إنساناً كان جالساً وجاء القيل من خلفه لما شعر به . وذكر عبد القاهر البغدادي أن القيلة تحمل سبع سنين ، وقيل سنتين ، وقيل ثلاث قبل أن تضع ، وأن لسان القيل مقلوب : طرفه داخل حلقه وأصله من خارج على العكس من سائر الحيوان ، وأن ثديها على كبدها وترضع أولادها من تحت صدرها . وقد ذكر الفزالي أن فرجها تحت بطنها فإذا كان وقت الضراب أرتفع وبرز للفعل حتى يتمكن من إتيانها .

الخامس الزرافة - (بفتح الزاي وضمة) وهي حيوان يؤتى به من بلاد الحبشة واليمن ، طويل البدن ، قصير الرجلين ؛ ذنبه وحوافره كذنب البقر وحوافرها ،

(١) له يقصو بالواو يدل الزاء أى يهد .

(٢) في حياة الحيوان عبد اللطيف وسياتي بعد مصنف على الصواب مراراً .

(٣) كذا في الأصل ومبارة الحياة ولا يزور عليها إذا وضعت إلا بعد ثلاث سنين .

ورقبته ورأسه كقبة الجبل ورأسه ، ولونه موثى بالبياض والصفرة . قال الجاحظ :
وقد زعموا أن الزرافة تتولد من الناقة من ثوق الحبشة وبين بقرة الوحش وبين
الذئب . وهو ذكر الضباع . وذلك أن الذئب يعرض للناقة فيسملها فتلقح بولد يحمي
خلفه بين الناقة والضبع فإن كان الولد أنثى عرّض لها الثور الوحشى فيضربها فيأتى
الولد زرافة ، وإن كان ذكرا تموض للهامة فالتحقها فيأتى الولد زرافة أيضا . قال :
ومنهم من يزعم أن الزرافة الأنثى لا تلقح من الزرافة الذكر . ثم قال وهذا مشهور
باليمن والحبشة . ثم إن كانت أسنانها سودا دلت على هرمها ، وإن كانت بيضا
دلت على حداثة سنّها .

ومن أمراضها الكلب (وهو كالجنون يعترها كما يعترى الكلب فيقتلها) وكل
من عضته وهى على هذه الحالة قتلتها إلا ابن آدم فإنه ربما عولج فسلم . ومن
أمراضها أيضا الذئبة والقرص .

الصبيف الثاني

(معلمات الصيد)

وقد يهر عنها بالضواري . وهى كل ما يقبل التعليم من الوحوش كالثنا مأكنا
حتى حكى عن السودانى القناص أنه بلغ من حذقه أنه ضرى ذئبا حتى أصطاد به
الظباء وما دونها ، وألقه حتى رجع إليه من ثلاثين فرسخا ، وضرى أسدا حتى أصطاد
به حمر الوحش . ويقال إن ابن عرس يعمل حبل فى عنقه ويدخل على الصليب
فلا يخرج إلا به . وهى على ضربين .

الأول الفهودة . جمع فهد بكسر الماء . وقد زعم أرسطوطاليس أنه يتولد من
أسد وبرة أو من نمر وبرة ، وهو من السباع التى تصاد ثم تؤنّس حتى تصيد ،

(١) فى المصباح المجمع فهود كفلس وفلرس وكذا بقية ما يجم الفسة قبل ما فى الاصل من التعريف
والصنيف وهو الاقرب .

وهو من الحيوان الخلد الأستان ، وأستانه يدخل بعضها في بعض كالكلب وغيره قال : في " التعريف " وأول من صاد به كسرى أوثروان أحد ملوك الطبقة الأخيرة من الفرس قال : في " المصايد والمطارد " يصطادونه بضروب من الصيد . منها الصوت الحسن فإنه يصنع إليه إصغاء شديدا .

ومنها كدّه وإتباعه حتى يحمى ويبعا وينهر ويحقى ، فإذا أخذ غطيت عيناه وأدخل في وعاء ، وجعل في بيت مادام وحشيا ، ووضع عنده سراج ولازمه سائسه ليلا ونهارا ولم يدعه يرى الدنيا ، ويعمل له مَرَكجا كظهر الدابة يعوده رُكوبه ويطلععه على يده فلا يزال كذلك حتى يتأقّس ، فإذا ركب مؤثر الدابة فقد صار داجنا وصاد . وفي طباعه أمور .

منها كثرة النوم حتى يضرب بنومه المثل فيقال " أَوُمٌ مِنْ فَهْدٍ " . وكثرة الحياء حتى إنه لا يعلم أنه داخل شيء بين يدي الإنس ، وقد عُي بمراعاته في ذلك فلم يوقف عليه . وإن كان الأسد يفعل ذلك كثيرا . ونقل ابن السندي عن بعض الفهّادة أن سائسه إذا أمره يده عليه اطمأن إليه ومال فإذا وضع يده على فرجه نفر وعصّ يده . ومنها الغضب حتى إنه إذا أرسل على صيد فلم يحصّله احتد ، وإن لم يأخذ سائسه في تسليته قتل نفسه أو كاد . قال : صاحب " المصايد والمطارد " والمس من الفهود إذا صيد كان أسرع في الصيد من الحرو الذي يُربى ويؤدّب ، والأشئ أصيد من الذكر كرامة إناث الجوارح . قال : وليس شيء من الوحش في قدر جرم الفهد إلا والفهد أفضل منه . قال : في " المصايد والمطارد " وضدّ الفهد الظباء والوعول على اختلاف أجناسها .

الثاني الكلاب - جمع كَلْب ويجمع على أَكْلَب أيضا وعلى كَلَيْب كعيد والاشئ كَلْبَة ، ويجمع على كَلَبات بالفتح ، وهو حيوان شديد الرأضة ، كثير الوفاء

مَشْرَكِ الطَّبَاعِ مِنَ السَّيْحِ وَالْبَيْمَةِ : لِأَنَّهُ لَوْ تَمَّ لَهُ طَبَاعُ السَّبْعَةِ لَمَا أَلْفَ النَّاسَ وَلَوْ تَمَّ لَهُ طَبَاعُ الْبَيْمَةِ لَمَا أَكَلَ الْحَمَّ . وَيَقَالُ إِنَّهُ يَحْتَمِلُ وَأَشْأَهُ تَحِيضُ ، وَيَحْمِلُ أَشْأَهُ سَتَيْنَ يَوْمًا ، وَرَبَّمَا حَمَلَتْ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَسْفِدُ بَعْدَ سَنَةٍ ، وَرَبَّمَا تَقْتَمُّ عَلَى ذَلِكَ . وَلَهَا عِنْدَ السَّفَادِ أَشْتَبَاكٌ عَظِيمٌ ، وَإِذَا سَفَدَ الْأَشْيَاءُ كَلْبَانِ مُخْتَلِفَانِ أَتَتْ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ بِلُونُهُ . وَفِيهِ مِنْ اقْتِفَاءِ الْآثَارِ وَشَمِّ الرَّائِحَةِ مَا لَيْسَ لغيرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ ، وَالْمَيْتَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْحَمِّ الْفَرِيضِ .

وَمِنْ طَبْعِهِ أَنَّهُ يَحْرُسُ صَاحِبَهُ شَاهِدًا أَوْ غَائِبًا ، ذَا كَرَا أَوْ غَافِلًا ، وَتَأَمَّا أَوْ يَقْظَانَ ، وَهُوَ يَقْظُ حَيَوَانٌ فِي اللَّيْلِ ، وَإِذَا نَامَ كَسَرَ أَجْفَانَيْ عَيْنَيْهِ وَلَا يُطَبِّقُهَا لِحْفَةً نَوْمِهِ . وَمِنْ عَجِيبِ شَأْنِهِ أَنَّهُ يَكْرُمُ الرَّئِيسَ مِنَ النَّاسِ فَلَا يَنْجُوهُ وَإِنَّمَا يَنْبِيعُ أَوْ يَأْشُ النَّاسِ . وَمِنْ طَبْعِهِ أَنْ الضَّبِيعَ إِذَا مَشَتْ عَلَى ظِلِّهِ فِي الْقَمَرِ رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيْهَا فَتَأْكَلُهُ ، وَإِذَا ظَلَمَ بِكُلِّ غَرِيبٍ كَادَ يَفْتَرِمُهُ .

وَقَدْ أَجَازَ الشَّارِعَ اتِّخَاذَهَا لِلصَّيْدِ وَنَحْوِهِ ، وَأَبَاحَ صَيْدَهَا مَعَ نَجَاسَةِ عَيْنِهَا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا لِلصَّيْدِ دَارًا أَحَدُ مُلُوكِ الْقُرْصِ قَالَ فِي "المَصَائِدِ" وَالْمُطَارِدِ : وَإِذَا كَسَرَ الْكَلْبُ الْأَرَانِبَ فَهُوَ نَهَائِيَةٌ وَإِنْ كَانَ يُطِيقُ فَوْقَ ذَلِكَ . وَالْكَلْبُ يَسْكُ لِمَصَاحِبِهِ ، وَلِذَلِكَ لَا يَأْكُلُ مِنَ الصَّيْدِ بِخِلَافِ سَائِرِ الْحَوَاجِ . قَالَ : وَإِنَّمَا أَسْرَعُ تَعَلُّبًا مِنَ الذِّكُورِ ، وَأَطْوَلُ أَعْمَارًا حَتَّى إِنَّمَا تَعْمِشُ عِشْرِينَ سَنَةً .

وَمِنْ خَاصِيَةِ الْكَلْبِ أَنَّهُ إِذَا طَائَرَ الطَّيَّا قَرِيبَةً كَانَتْ أَوْ بَعِيدَةً ، عَرَفَ مِنْهَا الْعَلِيلُ مِنْ غَيْرِهِ ، وَالْعَتَرُ مِنَ التِّيسِ فَيَتَّبِعُ التِّيسَ مِنْهَا دُونَ الْعَتَرِ وَإِنْ كَانَ التِّيسُ أَشَدَّ عَدُوًّا وَأَبْعَدَ وَثْبَةً : لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ التِّيسَ إِذَا عَدَا شَوَّطًا أَوْ شَوَّطِينَ غَلَبَ عَلَيْهِ الْبَوْلُ وَلَا يَسْتَطِيعُ إِرْسَالَهُ فِي عَدُوِّهِ فَيَقْلُ عِنْدَ ذَلِكَ عَدُوُّهُ وَيَقْصُرُ مَدَى خُطَاهُ فَيَدْرِكُهُ الْكَلْبُ ؛ بِخِلَافِ الْعَتَرِ فَإِنَّمَا إِذَا اصْتَرَاهَا الْبَوْلُ أَرْسَلَتْهُ لِسَعَةِ مَسِيلِهِ ، وَالْكَلْبُ يَعْرِفُ ذَلِكَ كُلَّهُ طَبْعًا ،

وكذلك يعرف بحجرة الأرناب والثعالب وإن ركبها التلج والجليد بشمه فيقف عليه ويشير ما فيها من الوحش؛ وإذا صعد منه أرنبٌ إلى أعلى جبل شاقٍ، كان له من التلطف في الارتقاء والصمود ما لا يلحقه غيره بل لا يخفى عليه من الصيد الميت من المتأوت .

ومن خصائص الأنثى أنها تحمل ستين يوما ويبقى جروها بعد الولادة اثني عشر يوما أعمى . وأكثر ما تضع ثمانية أجراء، وربما وضعت واحدا فقط، ورأس الكلب كله عظمٌ واحد، والكلب يطرح مقادير أسنانه ويخلفها ولكنه لا يظهر لكثير من الناس لانه لا يُلقي منها شيئا حتى يثبت في مكانه غيره؛ والفرق بين الذكر والأنثى أن الذكر إذا أدرك يرفع رجله عند البول والأنثى تبول مُقْبِية وربما رفعت رجلها، والذكر يجمع للسفاد في السنة قبل الأنثى، وأسنان الذكر أكثر ومضغه أشد . قال الجاحظ : وخير الكلاب ما كان لونه يذهب إلى لون الأسد بين الصفرة والحمرة ثم البيض إذا كانت عيونها سوداء . وذكر صاحب "المصايد والمطاردة" أن الأبيض أقره والأسود أصبر على الحز والبرد . ومن علامة النجابة والقراءة فيه أن يكون تحت حنكه طاقة شعر مفردة غليظة ، وأن يكون شعر خديه جافيا . ومن علامة القراءة طول ما بين يديه ورجليه وقصر ظهره وصغر رأسه وطول عنقه وغضف أذنيه وشد ما بينهما، ورزقة عييه، وخطامة مقتلته، وتو حلقته، وطول خطمه وقنقه، وسعة شفتيه، وتو جبهته وعرضها . ويستحب فيه أن يكون قصير اليدين طويل الرجلين، طويل الصدر، غليظه، قريب من الأرض، ثاق الزور، غليظ العضدين مستقيم البدن، منضم الأظافر، عريض ما بين مفاصل الأعطاف، عريض ما بين عظمي أصل الفضذين مع طولها وشدتها لهما، دقيق الوسط، مستقيم الرجلين، قصير الساقين، غير محمى الركبتين، قصير الذنب إن كان ذكرا مع دقة وصلابة؛ وإن الكلبة

إذا ولدت واحداً كان أفره من أبويه وإن ولدت اثنين كان الذكر منهما أفره من الأنثى وإن ولدت ثلاثة فيها أنثى في شبه الأم كانت أفره من الثلاثة وإن كان في الثلاثة ذكر واحد كان أفرهما وإذا أُنْقِيت الجراءُ وهى صغار فى مكان ندى فأياها مشى على أربع فهو أفره .

ومن أعظم أدوائها الكلب (يفتح اللام) وهو داء كالجئون يعترى الكلب يؤثر فيمن عضه أنه يخرج من ذكره جراءً صغار .

ومن عجيب ما يحكى فى ذلك أن رجلاً عضه كلب كلب فذلقاه بكه فأصابته أسنانه ولعابه فشمركه ساعة ثم نشره فساقط منه جراءً صغار .

ثم كلاب الصيد على ضربين : سلوقية (يفتح السين) وزُغَارِيَّة (يضم الزاى) . فأما السلوقية فمنسوبة إلى سلوق بلادة من اليمن كما قاله صاحب " المصايد والمطارد " والمؤيد صاحب حماه فى تقيويم البلدان والمقرز الشهابى أبى فضل الله فى " التعريف " قال فى " التعريف " : وهى مولدة بين الثعالب والكلاب ، ولذلك لا تقبل التعليم إلا فى البطن الثالث منها ؛ قال : ولها مِلاَح جيد ؛ قال فى " المصايد والمطارد " ولها أنساب كأنساب الخيل ، قال : وقيل أن يعرض لها مَرَضُ الكلب . وأما الزُغَارِيَّةُ فهى ألطف قدًا من السلوقية ولم أدر إلى ماذا تُنسَب .

الصف الثالث

(ما يعتنى بصيده من الوحش والمشهور منه عشرون ضرباً)

الأول الجمارة العتابية - وهى حيوان فى صورة البرقون موثى الجلد بالبياض والسواد يروق الناظر حسنها ، وقد كان أهدى للظاهر برقوق سوى الله عهد حماره من هذا النوع فأقامت مدة ، ثم أعطاها فقيرا من قراء العجم فكان يركبها كما تركب

الخليل والخيبر وعثي بها في القاهرة ، ثم عوضه الناصر بن الظاهر سلطان العصر عنها عوضاً ، وأعتادها منه ، وأرسلها في هدية لابن عثمان صاحب بلاد الروم غربى الخليج القسطنطيني .

الثاني البقر الوحشية - وتعرف بالهآ ، وهي دون البقر الأهلية في المقدار ، ولما قرنان في رأسها ، في كل قرن منهما شعب ، وهي من جليل الصيد ، ويقال للفق منها الهآ ، وبها يضرب المثل في حسن العيون وسواها . ومن طبعه الشبق وشدة الشهوة ، ولذلك إذا حملت أثنائه هربت منه خوفاً من تعبه بها وهي حامل ، وربما ركب الذكر الذكر لثقة شبقه . قال صاحب " المصايد والمطاردة " وكل إناث الحيوان أرق صوتاً من الذكور إلا البقر الوحشية فإن الأنثى أنغم صوتاً وأظهر من الذكر . ومواضعها من البرية الوهّات ، وما استوى من الأرض ودنا من الماء والعشب ، وليست مما يسكن الجبل ، ولذلك عيب في ذلك محمد بن عبد الملك الزيات كاتب المعتصم ووزيره حيث وصف ثورا من يمانها برعيه في الجبل . وهي مما يصاد بالطرد على الخيل ، ويقال إن أول من طردها على الخيل ربعة بن زرار بن معدّ بن عدنان فإنه أول من ركب الخيل على قول ؛ ولما ركبها رأى بقرة وحشية فطردتها فلجأت إلى مكان يمكنه أخذها منه فرق لها وتركها . ويقال : إن من الكلاب ما يتسلط عليها ويتعلق بها ، وأقرب معين له عليها من جوارح الطير العقاب . قال ابن السدي : ودعها أسرع إلى الجمود من دم سائر الحيوان .

الثالث الجر الوحشية - ويقال للأنثى من جر الوحش أناث وللذكر حمار وعير كما يقال في الجر الإنسية ، وربما قيل القرأ ، وهو من أشد الصيد عدواً ولذلك يضرب به المثل فيقال " كل الصيد في جنب القرأ " أو " في جوف القرأ " . وبه تشبه العرب خيلها وإبلها في السرعة ، ويقال إن الحمار الوحشي لا يثزو إلا إذا

كان له من العمر ثلاثون شهرا وإن الاثني لا تَلَقَّح منه حتى يتم له ثلاث مسنين ،
وقيل سنتان ومئة أشهر . ويوصف بسنة الغيرة على أُنثى حتى يقال إن فيها ما إذا
وُلِد له ولد ذَكَرَ كَمَ قِصْبِهِ وَخُصْبِيَّتِهِ حتى يقطعهما . قال في " المصايد والمطارد "
وليس يتعلَّق به شيء من الضَّواري ولا الجوارح إلا العقاب ، ولا شيء أبْلَغ في صيده
من الرمي بالشَّاب .

الرابع التَّزَلُّن - ويقال لها الظِّباء بكسر الظاء واخذها ظلي ، ثم الظِّباء على ثلاثة
أضرب : أحدها البيض ، ويقال لها الآرام جمع رِثْم ، ومساكنها الرمل ، ويقال هي
ضأن الظِّباء . وثانيها الأدم ؛ وهي ظِبَاءٌ شُمَرُ الظُّهور ، بيضُ البَطُون ، طويلةُ
الأعناق والقوائم ؛ وهي أسرعها عدوا . ومساكنها الجبال والشعاب . وثالثها المُفر
وهو صنف يعلوه مع البياض حُمْرة ؛ قصار الأعناق ؛ ومسكنها صِلاب الأرض .
ويصيد جميعها القَهْدُ والكلْبُ والعقاب . وتُصَاد أيضا بالحِبالَة والشَّرَك ، وربما
صِيَدَتْ بأقَاد النار بلِزائنها : لأنَّ الظلي إذا رأى النار في الليل تأملها وأدْمَنَ النظر إليها
وعَشِيَ بصره وذَهَل ؛ وقد يُضاف إلى النار محركُ جرس ونحوه فيزداد دُهوْلُهُ فيؤْخَذُ .
وتصاد بأمور أخرى غير ذلك .

الخامس الأيَّابِل - جمع أَيْبَل (بضم الهمزة وتشديد الياء المثناة تحت ولام
في الآخر) . وهو حيوان قريبُ الشَّبه من الظِّباء ، له قرنان في رأسه كالظلي . قال
في " المصايد والمطارد " وهو معتصم بالجِسل قَلْبًا يَحُلُّ السَّهْل ، وقُرُونُهُ مُصْبَتَةٌ
لا تجوِّف فيها ، ويخْفِئُها في كل عام غيرها ، ويتدنَّى في ذلك بعد مضي سَتَيْنِ من
ولادته ، وله أربع أسنان في كل ناحية من ناحيتي فيه ؛ وذَكَرُهُ عَصَبٌ لا لحم فيه
ولا عُضْرُوفٌ ولا عَظْمٌ ، ودم كل حيوان يَجِدُ إلا دمه ؛ وليس للثَّني منها قرونٌ
البِتَّةُ ؛ وأصوات ذكورها أحمَد من أصوات إناثها ؛ وهو يرتاح لسماع النناء . وإذا

مر بشجرة الزيتون ذل لها، وإياكل الحيات ولا يضره سمها، وسيلقى في الكلام على الأحجار أن البادزهر الحيوانى من صنف منه . ومن خواصه أنه إذا نجر بقرنه مع كبريت أحمر هربت الحيات .

السادس الأرنب - جمع أرنب والأرنب مؤنثة ^(١) وهى حيوان صغيرة الجثة قصيرة اليدين قريب من لون الثعلب، وليس شئ مما يوصف بقصر اليدين أسرع منها . ومن خصائصها كثرة الشعر حتى إنه لينبت فى بطون شديقتها وتحت رجليها . وقصيب ذكر الأرنب من عظم ، وربما ركب الأثنى الذكر فى السقاد، ولا ينالم الأرنب الا مفتوح العين . ومن طبعها أنها تظا الأرض بباطن كنهها لتعفى أثرها إلا أن الكلب الماهر يدرك أثر قوائمها .

ومن شأنها أن لا تآوى إلى ساحل البحر، وإذا طردت جلت إلى الجبال واشتد عنها فيها، والأثنى لاسمن، وهى عند العرب مما يبيض، وشقذ وهى حيل، وتلد الأول والثانى على ما فى بطنها .

السابع الذئب - جمع ذئب وهو حيوان فى صورة الكلب فى لونه بلق بكودة والذئبة أجراً من الذئب وأشد عدواً، وأسنانه عظم مخلوق فى فكها ليست مغروسة فيهما كسائر الحيوان . قال ابن السدى : وأخبرنى أبو بكر الدقيشى أن هذه الخلقة فى أسنان الضبع أيضاً، والذئب صاحب خلوة وأفراد . ومضى رأى الإنسان قبل أن يراه أخفى صوته؛ وإن رآه جزع منه أجراً عليه وساوره، وإذا تأسفد هو وأنتاه الحمما تماماً شديداً حتى يقال إنه إذا هم عليهما داخل فى هذه الحالة قتلها كيف شاء ولذلك يبعثان فى هذه الحال إلى مكان لا يرآن فيه، وإذا تهارش ذئبان قادى أحدهما الآخر عدا الذى أدعى على المئذنى قتلته خوفاً من أخذ الثار ،

(١) فى المصباح ويقع على الذكر والماتى وقد يؤنث بالهاء فتدبر .

وإذا عجز الذئب عن الدفع عوى فاجتمع إليه الذئاب نُصرة له ، وإذا لقي الفارس والأرض مثلوجة تحمش الثلج بيديه ورمى به في وجه الفارس ليُدعشه ثم يعقد دابته فيتمكّن منه ، ومضى وطوى الفرس أثر الذئب رُعيد وخرج الدخان من جسده كله ولذلك قلّ مَنْ يطرد من الفُرسان ولا يتقطّن لوطه أثره . ويصاد بالكلاب وغيرها وقد تقدّم أن السودانيّ ضرى ذئبا حتى أصطاد له الغباء .

الثامن الثعالب - جمع ثعلب . وهو حيوان معروف ، موصوفٌ بكثرة الروغان في عذوه وبالحيل حتى إنه يتماوت عند رؤية الغراب فينزل عليه الغراب على ظنّ موته ليأكل منه فيقبضه هو . ومن حُبته وحيلته يختاط بكبار الوحوش وجثتها ، قال في "المصايد والمطارد" . "ومن فضائله تشبيههم مشية الخيل بمشيته التي يقال لها التعلية . ومن عجائبه أن قضيبه في خلقة الأنثوية أو سطه عظم في صورة الثقب والباقي عصب ولحم . وهو كريم الورى والأسود من وبره في الناية القصوى ، والأبيض منه لا يكاد يفرق بينه وبين الفئك .

ومن خصائصه أنه يتمرّغ في الزرع فلا ينبت موضعه ، وربما سفد الكلبة فولدت كلبا في خلقة السلوق الذي لا يقدر على مثله . وقد تقدّم ذكر ذلك في الكلام على الكلاب السلوقية . ومواضع الكروم والآجام ، ويصيده الفهد والكلب وجوارح الطير .

التاسع الضباع - جمع ضبع ، ويقال لها أم عامر ، وهي مما يؤكل وإن كانت من ذوات الناب لورود الناص بذلك ، وترى العرب أنها تكون سنة ذكرا وسنة أنثى . ومن خصائصها أنها إذا رأت الكلب في ليلة مقمرة على سطح ووطئت ظله وقع فاكلته ، وإذا أقصم عليها مقتحم وجارها وقد سد جميع منافذ جحرها حتى يمنع

منه الضوء فلا يبقى فيه حرم لإبرة، ربطها بجبل وخرج بها، وإن بقي ما يدخل منه الضوء، ولو قدر سم إبرة وثبت عليه فأكلته. ومن كان معه شيء من الحنظل لم تقرب به الضيع. العاشر سنور البر - وهو النفا، وفي حله عند الشافعية وجهان أحدهما التحريم وصيده يحتاج إلى علاج كثير، وربما وثب على وجوه الناس، وطرده بالخيل من أعسر الطراد، وأولى ما يُصَاد به الرمي، ومنهم من يعمد في السباع قال في "المصايد والمطارد" وقلباً أنتفع به في صيد إلا أنه ينب على الكركى وما في مقداره من الطيور فيصيده. أما السنور الأهلى، وهو الهر المعروف فغير ما كول ولا يصيد إلا الفار وما في معناه من جشاش الأرض، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم، في الهرة ولكنها من الطوائف عليكم بمعنى أنها تطوف على الناس في بيته فتقبض ما لعله يسرح عليه من الخشاش.

الحادى عشر الذئب - وهو حيوان قريب في الصورة من السبع، وهو يسكن الجبال والمغارب، والأخفى ترفع ولدها أيا ما هربا به من النر والنمل لأنها تضعه كقطعة لحم فلا تزال تنقله وتراعيه حتى تستند أعضاؤه، وتجعله تحت شجرة الجوز وتصلبها فتجتمع الجوز في كفها ثم تضرب اليمنى على اليسرى وترى إليه، فإذا شيع نزلت وربما قطعت من الشجرة العود الذى يحجز الناس عنه وتقبض عليه في موضع مقيض العصا وتشد به على الفارس وغيره فلا تُصيب به شيئا إلا أهلكته. ومن خصيصته أنه يستتر في الشتاء فلا يظهر إلا في الصيف بخلاف سائر الحيوان.

الثانى عشر الخنزير - وهو حرام بنص القرعان، نجس في مذهب الشافعى رضى الله عنه قياسا على الكلب، بل قالوا إنه أسوأ حالا منه لعدم حل أقتنائه إلا أنه مباح القتل فيكون في معنى الصيد. وهو حيوان في نحو مقدار الحمار وشعره كالإبر

وله نابان بارزان من فكه الأسفل . ومن خاصته أنه لا يلقى شيئا من أسنانه ، بخلاف سائر الحيوان فلأنها تلقى أسنانتها خلا الأضراس ؛ وهو كثير السِّفاد ، كثير النسل ، حتى إنه ربما بلغت عدة خناتيسه وهي أولاده اثنتي عشر خنوصا .^(١) قال في "المصايد والمطارد" وهو من الحيوان البري الجاهل الذي لا يقبل التأديب والتعليم ، ويقبل السمَّ سريعا ، ويقال إنه إذا جعل بين الخليل سمَّنت .

الثالث عشر السمور - (يفتح السين وبالميم المشددة المضمومة على وزن السَّود والكُوب) . وهو حيوان برى يشبه السَّور ، وقد يكون أكبر منه . قال عبد اللطيف البندادي : وهو حيوان جرى لهس في الحيوان أجراً منه على الإنسان ، لا يُصَاد إلا بِالْحَيْلِ ، ووقع للنوى في تهذيب الأسماء واللغات أن السمور طير ، ولعله سبق قلم منه وأغرب ابن هشام البستي في شرح الفصيح فقال : إنه ضرب من الجن . والتحقيق أنه من جملة الوحوش كما تقدّم . وحكه حلُّ أكله ، ومنه يتخذ قميس القراء التي لا يلبسها إلا الملوك وأكابر الأعيان من يداني الملوك لحسنها ودِفائِها ، وأحسنه ما كان منه شديد النعومة ما تلا إلى السواد .

الرابع عشر الفتك - (يفتح الفاء والنون) وهو دَوِيَّة لطيفة ، لها وبر حسن أبيض يحاطه بعض حمرة يُتخذ من جلوده القراء . قال ابن البطار : وفروه أطيب من جميع القراء ، ومزاجه أبرد من السمور وأحر من السنجاب ، ويصلح للأبدان المعتدلة قال وكثيرا ما يجلب من بلاد الصقالية .

الخامس عشر القاقم - (بقافين الثانية منهما مضمومة) وهو دَوِيَّة في قدر الفأر لها شعر أبيض ناعم ، ومنه يُتخذ القراء ، وهو أبرد مزاجا وأرطب من السنجاب ؛ ولذلك كان لونه البياض ، وهو أعز قيمة من السنجاب .

(١) في الأصل بالسين وهو تصحيف أنظر كتب اللغة .

السادس عشر الدَّلَق - (يفتح الدال المهملة واللام وقاف في الآخر) فارسي معرب ؛ وهو دَوِيَّةٌ تقرب من السَّمُور . قال عبد اللطيف البغدادي : وهو يقرس في بعض الأحايين ويكرع في الدم . وذكر ابن فارس أنه الثَّمس . وقد ذكر الرافعي أنه يسمى ابن مُقرض والمعروف أن الدَّلَق حيوان يتخذ منه الفراء .

السابع عشر السَّنَجَاب - وهو حيوان أكبر من الفار ووبره في غاية النعومة وجلده في نهاية القوة . وحكه الحِلُّ ، وقال بقرمه بعض الحنابلة . ويتخذ من جلده القِرَاءَ الثَّهِيَّةَ التي يلبسها أعيانُ الناس ورؤسائهم . ومن شأنه أنه إذا أبصر الإنسان صعد الشجر العالي ، وفيها يأوي ، ومنها يأكل ؛ وهو كثير ببلاد الفرنج والصفالبة ؛ وأحسن ألوانه الأزرق ؛ ثم إنه يقال إنه ربما تبقى زُرْقته ^(١) لأنه يُحَنَّق ولا يدكئ ، فإن مع ذلك فهو ميتة لا يطهر شعره بالدباغ على أظهر القولين من مذهب الشافعي رضي الله عنه خلافاً لأبي إسحاق الإسفراييني وابن أبي عسرون فإنهما يريان طهارة الشعر بالدباغ وهو رواية الربيع الجيزي عن الشافعي وأختره الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله .

الثامن عشر سَنُور الزَّيَاد - وهو في صورة السَّنُور الأهلي إلا أنه أطول ذنباً منه وأكبر جثة ، ولونه إلى السواد أميل ، وربما كان أغمراً ، وهو يجلب من بلاد الهند والسند ؛ والزَّيَاد فيه شبه بالومح الأسود اللزج ، ذفر الرائحة ، يخالطه طيب كطيب المسك ، ويوجد في باطن إبطه ، وباطن أنفاه ، وباطن ذنبه ، وحول دبره . فيؤخذ من هذه الأماكن يملأه ونحوها .

التاسع عشر السَّنُور الأهلي - (وهو المهر) ويقال في أصل خلقه إن أهل السفينة شكوا إلى نوح عليه السلام ضرر الفأر فسحق على وجه الاسد بيده فطعس فخرج السَّنُور من أمه ولذلك هو يشبه في التكوين وكيفية الأعضاء ، وفيه مشاركة

للإنسان في خصال . منها أنه يَطْطُس ، ويتغلب ، ويتناول الشيء بيده ، ويأكل اللحم ، ويمسح وجهه بلمابه كأنه يفسله ؛ وإذا آتسَخ شيء من بدنه فَنَقَّطَهُ ، وإذا قضى حاجته خبأ ما يخرج منه ، ويشمه حتى تخفى رائحته . ويقال إنه يفعل ذلك كيلا يشمه الفأر فيهرب ؛ وهو يبيح للسفاد في آخر الشتاء ، ويكثر الصباح حيثئذ ، ويحمل الأمشي منه مرة في السنة ، ويقيم حاملا خمسين يوما ، وإذا ألفت متزلا منع غيره من السنانير من الدخول إليه ، وإذا طرده أهل البيت تملق لم وترق ، وإذا أخطف شيئا هرب به خوف المعاقبة عليه . والمهرة إذا جاعت أكلت أولادها . ويقال إنها تفعل ذلك من شدة الحزن . وقد ذكر القزويني أن نوما من السنانير له أجمة كأجمة الخفافيش متصلة من أذنهما إلى ذنبها .

العشرون النمس - قال الجوهري : وهو دَوِيَّةٌ عريضة كأنها قطعة قديد ، تكون بأرض مصر تقتل الثعالب ، والنمس بمصر معروف - وهو حيوان قصير البدن والرجلين أقصر اللون ، طويل الذنب ، يصيد الدجاج ، وإذا رأى ثعبانا قبض عليه وقتله ، وربما صيد وأنس فأنس .

فإذا علم الكاتب صفات الوحوش وخصائصها ، عرف كيف يورد الجليل منها من الأسد والفيل ونحوها موارد في الوصف ، وكيف يصف ضواري الصيد كالقهد وكيف يصف وحوش الصيد كالظباء ، وبقر الوحش ، وممر الوحش وغيرها .

وكذلك ما يقع من التشبيهات بشيء من الحيوان كما قال بعض الشعراء :

وَيَحْتَنِبُ الْأَسْوَدُ وَرُودَ مَاءٍ * إِذَا كَانَ الْكَلَابُ يَلْقَنَ فِيهِ

وكما أنشد الجاحظ :

جاءت مع الأنثى في هودج * تُرْجَى إِلَى الْبَصْرَةِ أَجْنَادُهَا

كأنها في فعلها هرة * تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ أَوْلَادَهَا

شيرا بذلك إلى ما تقدم من أكل الهرة أولادها وغير ذلك مما يجري هذا المجرى
وسيتأتى ذكر ما في معنى ذلك من الرسائل المتعلقة بأوصاف الحيوان في المقالة العاشرة
المعّنة لذلك إن شاء الله تعالى .

النوع الرابع

(فيا يحتاج إلى وصفه من الطيور)

ويحتاج الكاتب إلى ذلك في رسائل الصيد، وإهداء الجوارح، والجواب عن
إهدائها، وكاتبه قدم البندق، وما يجري مجرى ذلك، وهو على أربعة أصناف .

الصفن الأول

(الجوارح)

وهي يُصاد بها الطير والوحش؛ ويحتاج الكاتب إلى وصفها في الرسائل الصيدية
وفي إهداء شيء من الجوارح أو الجواب عنها .

واعلم أن الصائد الكبير الخفة المعتبر في الصيد في جميع أجناس الجوارح هي
الإناث؛ أما ذكرها فإنها أطف في المقدار وأضعف في الصيد على ما يأتي بيانه
فيا بعد إن شاء الله تعالى . قال في "التعريف" ويستحب في الجوارح كبرها منّا،
ونتو صدرها، وأنساع حاليها، وقوة إبصارها، وحلّة منّا مرها، وصفاء ألوانها،
ونعومة ريشها، وقوة قوّادها، وتكاتف خوافيها، وثقل مجلها، وخفة وثباتها،
وأشدادها في الطلب، ونهمها في الأكل؛ وقد قسمها في "التعريف" إلى قسمين :
صقور وبرّة، وفزق بينهما بأن الصقر ما كان أسود العين والبازي ما كان أخضر العين
على اختلاف المسّميات، ثم قال "أما العقاب فإنه لا يعد في الصقور ولا في البرّة
وهو معدود في الجوارح، وفي الطير الجليل" . وبالجملة فالجوارح على ثلاثة أقسام .

القسم الأول

(العقاب ، وهو ضربان)

الضرب الأول - المخصوص باسم العقاب وهي مؤنثة لا تذكر، ويجمع على عقبان وأعقاب . قال في "المصايد والمطارد" وهي من أعظم الجوارح ، وليس بعد النسر في الطير أعظم منها . وأصل لونها السواد .

فنها سوداء دجوجية ، وخُذارية ، وهي التي لا يبيض فيها . ومنها البقاء - وهي التي يغالط سوادها بياض . ومنها الشقراء - وهي التي في رأسها نقط بياض . قال أبو عبيدة ويونس : ويقال لذكر العقاب القرنُ بفتح النين والراء المهملة - ويقال إن ذكر العقبان من طير آخر لطاف الجرم ، لأنساوى شيئاً ، تلعب بها الصبيان . والعقاب من أسرع الطير طيراناً ، فقد حكى أن عقاباً حملت كف عبد الرحمن بن عتاب ابن أسيد المسمى ببعسوب قريش ، المقتول يوم الجمل بالكوفة ، فألقته بمكة فأخذت فوجد بها حلقة فعرف أنها كفه ، وأرخ ذلك الوقت فتبين أنها ألقته يوم الجمل الذي قتل فيه ، وأول من صادها أهل المغرب ، فلما نظرت الروم إلى شدة أمرها وإفراط سلاحها قال حكيمهم هذا لا يفي خيرُهُ بشره .

وصفة الوثيق العجيب منها وثاقفة الخلق ، وثبوت الأركان ، وحمرة اللون ، وغُشور العين بالجليق ، وأن تكون صقعاء ، عجزاء ، لا سيما ما كان منها من أرض سرت أو جبال المغرب . وهي تصيد الطيأ والطالب والأرناب ، وقد تصيد حُر الوحش ، وطريق صيدها لماها أنها إذا نظرت حمار الوحش رمت بنفسها في الماء حتى يتل جناحها ثم تخرج فتقع على التراب فتحمل منه ومن الرمل ما يأتق بهما ، ثم تطير طيراً ثقيلاً حتى تقع على هامته فتصق على عينيه يجتاحها فيمלטان تراباً من ذلك

التراب الذي علق بجانبها، فلا تستطيع المسير بعد ذلك فيدركها القانص فيأخذها وربما كسرت الأديم .

ومما يحكى في ذلك أن قيصر ملك الروم أهدى إلى كسرى ملك الفرس عقابا، وكتب إليه إنها تعمل أكثر من عمل الصقور، فأمر بها كسرى فأرسلت على ظلي فالتصته، فأعجبه ما رأى منها فانصرف وجوعها ليصيد بها فوثبت على صبي له فقتله، فقال كسرى : إن قيصر قد جعل بيننا وبينه دما ثائرا بغير جيش . ثم إن كسرى أهدى إلى قيصر تمرا وكتب إليه : أن قد بعثت إليك فهذا يقتل الظباء وأمثالها من الوحش، وكنتم ماصنعت العقاب فأعجب قيصر حسن الثمر ووافق صفتها ما وصف من التهد وغفل عنه فافترس بعض فتيانه فقال صادنا كسرى .

ومن شأنها أنها لا تطلب شيئا من الوحش الذي تصيده، وهي لا تحرب إنسانا أبدا خوفا من أن يطلب صيدها، ولا تزال مرقبة على مرقب عل^(١)، فإذا رأت بعض سباع الطير قد صاد شيئا آتقت عليه، فإذا أبصرها هرب وترك الصيد لها، فإن جاءت لم يمتنع عليها النتب في صيدها، وربما أختالت البراة فقتلتها،

ومن خصائصها أنها أشد إخفاء لفرأخها من سائر الطير . قال خَطِريف بن قدامة النسائي صاحب صيد هشام بن عبد الملك : "وأول من لعب بالعقاب أهل المغرب" ، فلما عرفوا أسرارها قتلوه إلى ملك الروم فاستدعى جميع حكامه فقال لهم : انظروا في قوة هذا الطير، وعظم سلاحه، كيف تجب تربيته؛ وتمرقوا أسرارها في صيده وتعليمه، وكيف ينبغي أن يكون . فأجابوا جميعا بأن هذا الطائر دون سائر أجناسه كالأسد في سائر الوحوش وكما أن الأسد ملك كذلك هذا ملك بين سائر ميعاب الطير . وعند العداوة والغضب كل الأجناس عنده من سائر الحيوان

على اختلاف أنواعه واحد لقوة غضبه وشدة بأسه فهو لا يستعظم آدمي ولا غيره من الحيوان .

الضرب الثاني - الزُّجَج (يضم الزاي وفتح الميم المشددة ثم جيم) والعامة تبذل الزاي جيا والجيم زايًا - وهو طائر معروف تصيد به الملوك الوحش ، وأهل البيّزة يَكُونُون من خفاف الطير الجوارح ، إلا أنهم يصقونَه بالغدر وقلة الإلف لكثافة طبعه وكونه لا يقبل التعليم إلا بعد بطله ،

ومن عاداته أنه يصيد على وجه الأرض . وأحسن صفاته أن يكون أحمر اللون . وقال الليث : الزُّجَج طائر دون العقاب حرته غالبية ، والعجم تسميه دُورًا دَوَّان ومعناه أنه إن عجز عن الصيد أعانه عليه أخوه .

القسم الثاني

(من الجوارح البُرَّاء . وهي ما أصفرت عينه ،

وهي على خمسة أضرب)

الأول - البازي المختص في زماننا باسم البازي ؛ وفي ضبطه ثلاث لغات أفصحها بازى بكسر الزاي وتخفيف الياء في الآخر ، والثاني بازٍ بغير ياء في آخره ، والثالث بازى بإثبات الياء وتشديدها حكاها ابن سيده ؛ ويقال في الثنية بازِيَان وفي الجمع يَوَازٍ وبُرَّاءة - ولفظه مشتق من البَرَّوان - وهو الوثب . وهو خفيف الجناح ، سريع الطيران . وهو من أشرف الطيور الجوارح ، وأحرصها على طلب صيده . ففي أخبار نصر بن سيار أن بعض كُبراء النُّعَاقِين قَدَا عليه بطيرِ مِتان ومعه منديل فيه شيء ملفف ، فكشف عنه من يديه فإذا فيه شلو بازٍ ودُرَّاجة ، فاطلقه عليها فاحسَّت به ، وكنت قد أمرت بإحراق قَصَبٍ قد أفسد أرضا لي فتعاملت اللُّرَّاجة حتى

أَفْتَحْتِ النَّارَ هَارِبَةً مِنَ الْبَازِي، وَأَشْتَدَّ طَلِبُهُ لَهَا وَحَرَصَ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرُدَّ النَّارُ عَنْهَا
وَأَقْتَحَمَهَا فِي أَثَرِهَا فَأَسْرَعَتْ فِيهَا فَأَدْرَكَهَا وَقَدْ أَحْتَرَقَا، فَأَحْضَرَهُمَا إِلَى الْأَمِيرِ
لِيَرَاهُمَا فَبَرِئَ بِيَهُمَا ثَمَرَةُ إِفْرَاطِ الْحَرَصِ وَإِفْرَاطِ الْجُنِّ . وَهُوَ مِنْ أَشَدِّ الْحَيَوَانِ كِبَرًا
وَأَضْيَقُهَا خُلْفًا . قَالَ الْقَزْوِينِيُّ وَلَا يَكُونُ إِلَّا أَثْنِي، وَذَكَرَهَا نَوْعٌ آخَرُ مِنْ حَدَادَةٍ أَوْ
شَاهِينَ أَوْ غَيْرِهَا . وَلِذَلِكَ تَخْتَلِفُ أَشْكَالُهَا . وَالْبَازِي قَلِيلُ الصَّبْرِ عَلَى الْعَطَشِ وَمَا وَاهُ
مَسَاقِطُ الشَّجَرِ .

وَمِنْ فَضِيلَتِهِ أَنْ الصَّيْدَ فِيهِ طَيِّمَةٌ لِأَنَّهُ يُؤْخَذُ مِنْ وَكْرِهِ فَرِغًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ
يَصِيدُ مَعَ أَبُوهِ فِي صَيْدِ آبَتَاءٍ وَقَرِيحَةٍ مِنْ غَيْرِ تَضَرُّعٍ ، بِخِلَافِ الصَّبْرِ فَإِنَّهُ إِذَا أَخَذَ
قَبْلَ أَنْ يَتَصِيدَ مَعَ أَبِيهِ لَمْ يَتَجَبَّ وَلَمْ يَصُدْ ، وَإِذَا كَانَ قَدْ لَحِقَ أَبُوهُ وَصَادَ مَعَهُمَا
ثُمَّ عَوَّدَ أَكْثَرُهَا يَوْجِدُ عِنْدَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَجَرِيٌّ عَلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الظُّلُمِ
اعْتَادَ ذَلِكَ وَمَهَرٌ فِيهِ . قَالَ صَاحِبُ "الْمَصَائِدِ وَالْمَطَارِدِ" : وَعَدُّ رِيَشِ جَنَاحِ الْبَازِي
عَشْرُونَ رِيْشَةً ، أَرْبَعُ قَوَادِمَ ، وَأَرْبَعُ مَنَاقِبَ ، وَأَرْبَعُ أَبْهَرٍ ، وَأَرْبَعُ كُلَى ، وَأَرْبَعُ
خَوَافٍ . وَيُقَالُ سَبْعُ قَوَادِمَ ، وَسَبْعُ خَوَافٍ ، وَسَاثِرُهُ لَنْبٍ . وَالْخَوَافُ أَخْفُ
مِنَ الْقَوَادِمِ .

وَالْمُسْتَحَبُّ مِنْ صِفَاتِهِ صَغَرُ الْمَنَسْرِ ، وَالرَّأْسُ ، وَغَلْظُ الْعُنُقِ ، وَسَعَةُ الْخَيْمِ ،
وَدَائِرَةُ الْأَذْنَيْنِ وَالشَّدَقَيْنِ ، وَسَعَةُ الْحَنَقَةِ ، وَطُولُ الْقَوَادِمِ ، وَقِصَرُ الْخَوَافِ وَالذَّنَبِ ،
وَشِدَّةُ الْحُمِّ ، وَعِرَاضُ الْمَنَكِبَيْنِ وَالزُّورِ ، وَسَعَةُ الْخَوَصَلَاءِ ، وَسَعَةُ مَا يَنْتَقِلُ إِلَيْهِ
طَعْمُهُ ، وَعِرَاضُ الْخَالِبِ ، وَرَزَانَةُ الْحَمَلِ ، وَغَلْظُ خُطُوطِ الصَّدْرِ ، وَذَكَاءُ الْقَلْبِ ،
وَالْتَشْمِيرُ ، وَكَثْرَةُ الْأَكْلِ ، وَتَنَابُعُ التَّهَشُّ ، وَسُرْعَةُ الْاسْتِقْرَاءِ ، وَشِدَّةُ الْاسْتِفْضَاءِ ،
وَضَمَامَةُ السَّلَاحِ ، وَبُعْدُ الذَّرْقِ . وَأَنْ تَرَاهُ كَأَنَّهُ مُقْبِعًا إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ عَلَى يَدِ حَامِلِهِ تَشْبِيهًُا^(١)
بِالْفُؤَابِ الْأَبْقَعِ . قَالَ صَاحِبُ "الْمَصَائِدِ وَالْمَطَارِدِ" : وَالتَّخْتَارُ مِنْ أَلْوَانِهَا الْأَحْمَرُ

الأكثر سوداء ، النظيف خطوط الصدر ، والأشهب الشديد الشبهة ، الشبيه
بالأبيض ، والأصفر المديح الظهر . قال : ومواد لسانه أدل على نجابته ،
والبازي يصيد الكلب ، والارنب ، والفزال ، والكركي وما في معناه ، والذراج ،
والجمل ، وسائر الحمام ، والبطة ، وسائر طيور الماء .

ومن محاسن البازي عدم الإبقاء فإنه إن صاد بقي على فريسته وإن لم يصد وقف
مكانه فلا يحتاج إلى كد ولا تعب ولا طرد خيل . وأول من صاده من الملوك
قُسطنطين ملك الروم - وذلك أنه مر يوماً بلحاف جبل فرأى بازياً يطير ثم نزل على
شجرة كثيرة الأغصان كبيرة الشوك ، فأعجبته صورته ، وراقه حسن لباسه ، فأمر
بأن يصاد له جملة من البزاة فصيدت له وحملت إليه فأرسلها في مجلسه ، فعرض
لبعضها في بعض الأيام أيم قوثب عليه قتله - فقال : هذا ملك يُفضبه ما يفضب
الملوك فنصب له بين يديه كندرة ، وكان هناك ثعلب داجج ، وهو الذي يرى
في البيوت قوثب عليه فما أفلت إلا جرحاً - فقال هذا ملك جبار لا يمتثل ضمياً -
ثم مز به طائر فكسره ونهش منه - فقال هذا ملك نوعه لما جاع أخذ طعامه
بسلطان وقدره - فحمله على يده وصاد به .

الثاني الزرق - (يضم الزاي المعجمة وتشديد الراء المهملة المفتوحة وقاف
في الآخر) وهو ذكر البازي قال في "المصايد والمطاردة" وهو يصيد ما يصيد البازي
من دق الطير ولا ينتهي إلى صيد الكركي .

الثالث الفقيمي ^(٢) - وهو بازٍ قصيف قليل الصيد ذاهل النفس .

الرابع الباشق - (بكسر الشين ونصبها) فارسي معزب وهو طائر لطيف

(١) الايم الحية انظر الفاموس (٢) في حياة الحيوان المسمى ولم نعهدهما في الفاموس .

وصفاته الحمودة كصفات البازي الحمودة . وأفضلها أظلمها وزنا قال في "المصايد والمطاردة" وهو يصيد المصاير وما قاربها . وقال في حياة الحيوان : إنه يصيد أنغر ما يصيده البازي وهو النّزاج والحمام والورشان، وإذا قوى على صيده لا يتركه إلا أن يتلف أحدهما .

الخامس اليتّيق - وهو دون الباشق، وصيده المصاير.

القسم الثالث

(من الجوارح الصقور - وهي السود العيون من الجوارح ؛ وهي ضربان)

الضرب الأول - الشّواهين (واحداهن شاهين) وهي صنفان . الأول المشتهر باسم الشاهين وقد ذكر العلماء بالجوارح أن الشّواهين هي أسرع الجوارح كلها وأشجعها وأخفها وأحسها قلبا، وإقبالا، وإدبارا، وأشدّها ضراوة على الصيد، إلا أنهم عابوها بالإبقاء وما يعتريها من شدة الحرص، حتى إنها ربما ضربت قمعها على الفلّظ من الأرض فانت، وهي أصلب عظاما من غيرها من سائر الجوارح - ويقال إن صدرها عصب مجدول ملمم . ولذلك تجدها تضرب بصدرها ثم تعلق بكفها، وهم يمدّون منها ماقترص داجتاً دون ماقترص وحشياً .

ومن كلام بعضهم : الشاهين كاسمه يعني كالميزان المسقى بالشاهين، فإنها لا تعمل أيسر حال من الشيع ولا أيسر حال من الجوع؛ بل حالها معتدل كاعتدال الميزان . ويقال إن الجسم يخافها أكثر مما يخاف غيرها من الصقور .

ثم المختار من صفاتها فيما ذكره صاحب "المصايد والمطاردة" الأحمر اللون إذا كان عظم الهامة، واسع العينين حاذهما، منائل السّفتين، تامّ المنير، طويل العنق، رخب الصدر، ممتلئ الزّور، عريض الوسط، جليل الفضزين، قصير

الساقين ، قريب القعدة من القفا ، طويل الجناحين ، قصير الذنب ، سبط الكف ، غليظ دائرة الخصر ، قليل الريش لينة ، تام الخواقي ، عتلى العكوة ، رقيق الذنب إذا صلب عليه جناحيه لم يفضل عنهما شيء من ذنبه . قال صاحب "المصايد والمطاردة" وأهل الاسكندرية يزعمون أن السود منها هي المحمودة وأن السواد هو أصل لونها وإنما أظلمت إلى لون البراري خالته . قال والجر منها تكون في الأرياف والمواضع السهلة ، والشهب في الجبال والبراري . ثم قال ولا يصيد منها الكركي والخبرج إلا البحرية . وأول من صادها فيما يقال قسطنطين ملك الروم أيضا ، وذلك أنه رأى شاهينا علقا على طير الماء يصطاده فأعجبه ما عاين من قراحتيه ، وسرعة طيرانه وحسن صيده ؛ فإنه رآه يحلق في طيرانه حتى يلحق بعنان الجؤ ثم يعود في طرفه عين فيضرب طير الماء فيأخذه قنابا . فقال ينبغي أن يصاد هذا الطائر ويؤلم ، فإن كان قابلا للتعليم ظهر منه أعجوبة في أمر الصيد ، فأمر بصيده وتعليمه فصيد وعلم وحمله على يده . قال في "المصايد والمطاردة" وأنه كان من رتبة ملوك الروم أنه إذا ركب سارت الشواهي حائمة على رأس الملك حتى ينزل فتقع حوله إلى أن ركب بها ملك منهم ، وسار وهي على رأسه فطار طائر فاقص بعض تلك الشواهي عليه فاقنصه وأعجب الملك به فصرأها على الصيد وصاد بها .

وقال ابن عسیر : كانت ملوك العرب إذا ركبت في مواكبها طيروا الشواهي فوق رؤوسهم ، وكان ذلك عندهم هو الرتبة العظيمة .

الثاني من الشواهي الأنثوية ^(١) قال في "المصايد والمطاردة" وهو دون الشاهين في القوة ، وله سرعة لا تريد على صيد المصاير .

الضرب الثاني - من الصقور ماعدا الشواهي وهي أصناف .

الأول السنقر . قال في "التعريف" وهو أشرف الجوارح وإن كان لا يذكره

(١) لم نعرط هذا الاسم .

في القديم . قال والسَّاقَرُ يُجَلَّبُ من البحر الشامي مغالًى في أثمانها . ثم قال وكان الواحد منها يبلغ ألف دينار، ثم نزل عن تلك الزينة، وأخط عن تلك الهضبة .

الثاني - المخصوص في زماننا باسم الصقر ويجمع على أصقر وصُقُور وصُقُورَة قال في "التعريف" والعرب تسمى هذا النوع الحُرّ . ويقال له الأكدر، والأجلد . قال في "المصايد والمطارد" ويقال لها يقال الطير : لأنها أصبر على الأذى، وأحمل لتليظ الغناء، وأحسن إلقا، وأشدّ إقداماً على جلة الطير، ومزاجه أبرد من البازي والشاهين، وبسبب ذلك يُضَرَّى على الفزال والأرنب ولا يُضَرَّى على الطير لأنه يفوته، وهو أهدى من البازي نفساً، وأسرع استئناساً بالناس وأكثرها قنعا، وأبرد مزاجاً، لا يشرب ماء وإن أقام دهرًا . ونوع يُوصف بالبحر وتتن القم ومسكنه المغائر والكهوف وصُدوع الجبال دون رعوس الانبجاش وأعلى الجبال، والعرب تسمّيه من الصُقُور ما قرّص وحشياً، وتسم ما قرّص داجياً، ويقول إنه يتبلد ولا يكاد يفلح . وهي تصيد الكُرْكُرّ وما في معناه، والبطّ وسائر طير الماء .

والصقور من أثبت الجوارح جناتاً في الطيران، وأحرصها في اتباع الصيد، حتى يحكى أن بعض ملوك مصر أرسل صقرا على كركي صبيحة يوم الجمعة بمصر فبينما الناس يصلّون الجمعة بدمشق إذ وقع هو والكركي بالجامع الأموي بدمشق، فأخذ فوجد فيه لَوْحُ السلطان يعرف به، فكتب نائب الشام إلى السلطان يخبره وأرسله إليه هو وصيده . قال في "المصايد والمطارد" ومن ألوان الصقر كونه أحمر، وأبيض، وأحوى، وأبيض، وأخرج، وهو الذي فيه قط بيض . قال ويستحب في الصقر أن يكون أحمر اللون، عظيم الهامة، واسع العينين، تام المنبر، طويل العنق، رطب الصدر، ممتلئ الزور، عريض الوسط، جليل الفخذين، قصير الساقين، قريب القعدة من القفا، طويل الخناجرين، قصير الذنب، سبط الكف،

غليظ الأصابع فيروزجها، أسود اللسان . قال ويجمع هذه الصفات الفراشة والوفاة والسرعة . قال آدم بن محرز : وأول من لعب بالصقر الخارب بن معاوية بن كندة الكندي . - خرج يوما الى الصيد فوأي صيادين قد نصبوا شباكاً كعثة، فوقع فيها عصا فيرعة فحين رآها صقر من الجو أقصص عليها يطلبها فأمر الخارث بنصب الشباك للصقور فنصبت لها فأصطاد منها جملة . ويقال إن صيد الصقر غير طبيعي له . وإنما يستفيد ذلك بالتعليم بدليل أن فراخ الباز إذا أخذت من العش وعلمت اصطادت أجود صيد لأن صيدها طبيعي بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ من الوكر ثم كبر فإنه لا يصطاد غير طعمه فلذلك ينهى عن تربية الصقر .

الثالث الكوتج - قال في حياة الحيوان نسبه من الصقور كنسبة الزرق إلى البازي إلا أنه أحر منه ، ولذلك كان أخف جناحا وأقل بجرا . قال ويصيد أشياء من طير الماء ويعجز عن الغزال لصغره .

الرابع الكوهية - وهي موثاة بالبياض والاسود يخالط لونها صُفرة ، قال في "التعريف" وتجلب من البحر .

الخامس السقاوة، وهي قريية الشكل من الصقر .

السادس البؤي - (يضم الياء المثناة تحت وهمزة بعدها وضم الثانية وهمزة بعدها أيضا) قال في "المصايد والمطارِد" وتسميه أهل مصر والشام الجلم، وبهذا سماه في "التعريف" وهو طائر صغير أسود اللون يضرب للزرقعة ، وهي مع صغرها يجتمع الاثنان منها على الكركي فيصيدانه، وسموه الجلم أخذا من الجلم : وهو المقص تشبيها به لأن له سرمة كسرعة المقص في قطعه ، ومزاجه بالنسبة إلى الباشق بارد رطب لأنه أصبر نفسا منه ، وأقل حركة : وهو يشرب الماء شربا ضروريا كما يشربه الباشق ، ومزاجه بالنسبة إلى الصقر حار يابس ولذلك هو أجمع منه . ويقال

إن أول من ضربه على الصيد وأصطاد به بهرام جور : أحد ملوك الفرس ، وذلك أنه رأى يُؤْزَأِرُ طارداً قنبرة ، ويراوغها ، ويرفع معها ثم لم يتركها حتى صادها ، فأمر بتأديبه والصيد به .

الصنف الثاني

(الطير الجليل)

وهو المبرعنة بطير الواجب ، وبه تعنى رماة البندق ونحوها ، وتفتخر بإصابته وصرعته ويحتاج إليه في الرسائل الصيدية ، وفي كتابة قدم البندق ونحوها . وهو أربعة عشر طائراً ، وهي على ضربين .

الضرب الأول - طيور الشتاء - وهي التي يكثر وجدانها فيه - وهي عشرة طيور .
الأول الكركي - وهو طائر أخضر ، طويل الساقين ، في قدر الإوزة ، ويجمع على كركاء ؛ وفي طبعه خور يمله على التصاؤس ، حتى إنه إذا اجتمع جماعة من الكركاء لأبد لها من حارس يحرسها بالنوبة بينها . ومن شأن الذي يحرس منها أن يهتف بصوت خفي كأنه ينذر بأنه حارس فإنما قضى نوبته ، قام واحد ممن كان نائماً يحرس مكانه حتى يقضى كل منها نوبته من الحراسة ، ولا تطير متفرقة بل صفواً واحداً ، يقدمها واحد منها كالرئيس لها وهي تتبعه ، يكون ذلك حيناً ثم يخلفه آخر منها مقدماً حتى يصير الذي كان مقدماً مؤثراً ، وفي طبعها التناصُر والتعاضد .
ومن خاصتها أن أتناها لا تقعد للسفاد بل يسفدها وهي قائمة ، ويكون سفاده سريعاً كالعصفور . وذكر جميع بن عمير التميمي أن الكركاء تبيض في السماء ، ولا تقع فراخها ، وكذب المحدثون في ذلك وإن كان قد روي عنه أهل السنن .

قال القزويني في عجائب المخلوقات ، والكركي لا يمشي على الأرض إلا بإحدى رجليه

ويعلق الأخرى ، وإن وضعها وضعا خفيفا مخافة أن تحسّف به الأرض قال في "المصايد والمطارد" وهو من أبعد الطير صوتا يُسمع على أعيال . قال وإذا هتتم بجيئها في الفصل استبدل بذلك على قوة الشتاء . ويقال إن الكراكي تأتي إلى مصر من بلاد الترك . وفي طلبه وصيده تتغالي ملوك مصر تغاليا لا يدرك حده ، ويتفق في ذلك الأموال الجمة التي لانهاية لها . وكان لهم من علو الشأن بذلك مالا يكون لغيرهم . وأكله حلال بلا نزاع .

الثاني الإوز - بكسر الهمزة وفتح الواو - واحدته إوزة وجمعوه على إوزون والمراد هنا الإوز المعروف بالتركي ، وهو طير في قدر الإوز البلدي أبيض اللون . وله تجشّر في مشيته كالجلجل ، وهو من جملة طير الماء مقطوع بحل أكله .

الثالث اللقلق - وهو دون الإوز في المقدار ، لونه كلون الإوز الحيشي إلى السواد ، أبيض الجفن ، أصفر العين . ويعرف في مصر بالراق ، ويأتي إليها في مبادئ طلوع زرعها في زمن إتيان الكراكي إليها . ومن شأنها أن يتقدمها واحد منها كالليل لها ، ثم قد تكون صفا واحدا تمتد كالجلجل ودليلها في وسطها متقدم عليها بعض التقدم . وقد يصف خلفه صفيين ممتدّين لبقيايه في زاوية حادة حتى يصير كأنه حرف جيم بلا عرافة ، متساوية الطرفين . ومن خاصتها أنها إذا كبرت حلت في بياض بطونها وصدورها قطع سود ، والفرخ منها لا يستره ذلك .

الرابع الجُبْرَج - (يضم الحاء المهملة وسكون الموحدة وضم الراء المهملة وجم في الآخر) - وهو الجُبْرَئِي . قال في "المصايد والمطارد" ويقع على الذكر والأنثى ويجمع على جُبْرَيات وذَكَر فيه أُنْثى واجده وجمعه سبواء . وبعضهم يقول إن الجُبْرَج هو ذَكَر الجُبْرَئِي . قال في "المصايد والمطارد" وهو طائر في قسْرِ الديك ، كثير الرئيس : ويقال لها دَجاجة البرّ . قال في حياة الحيوان : وهي طائر طويل السنق ،

رَمَادَى اللون ، في مِثْقاره بعضُ طول ، يقال لذكر الجبارى الخُرب (يفتح الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وباء موحدة في الآخر) - ويجمع على حِرَابٍ وأخرَابٍ وخِرْيَان .

ومن خاصته أن الجارح إذا اعتنقها أرسلت عليه ذَرْقًا حاصلًا معها ، متى أحبت أرسلته ، فيه حدةٌ تَمُطُّ ريشه ، ولذلك يقال : مُسَلِّحُهَا سِلَاحُهَا . قال في حياة الحيوان : وهى من أشد الطير طَيْرَاتَا ، وأبعدها شَوْطًا ، فإنها تُصَاد بالبصرة فيوجد في حواصلها الحبة الخضراء التى شجرها البُطم ، ومتابها تُحْمَر بِلَاد الشام ، وإذا تَنَفَّ ريشها وأبطأ نباته ماتت كذا - قال وهى من أكثر الطير جَهْدًا فى تحصيل الرزق ، ومع ذلك تموت جُوعًا بهذا السبب . قال فى "المصايد والمطارِد" : وهى مما يُعَاف لأنها تأكل كلَّ شئ حتى الخنافس - وقال فى حياة الحيوان : حكما الحلُّ لأنها من الطيبات ، وأستشهد له بحديث الترمذى من رواية سَفِينَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : "أكلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جُبَارِي" ويقال لولدها البَحْبُور ، وربما قيل له نَهَارِكَا يقال لولد الكُرَّوان ليل .

الخامس التَّم - يفتح التاء وتشديد الميم - وهو طائر فى قدر الإوز أبيض اللون ، طويلُ العنق ، أحمرُ المِثْقَار ، وهو أعظم طيور الواجب وأرفعها قدرًا .

السادس الصُوغ - يضم الصاد المهملة وضمين معجمة فى الآخر - وهو طائر غثظت اللون من السواد والبياض ، أحمرُ الصدر ، وأكثر ميله إلى الخضرة والأشجار . الساج العُنَّاز - يضم العين المهملة وتشديد النون وزاى معجمة فى الآخر - وهو طائر أسود اللون ، أبيضُ الصدر ، أحمرُ الرجلين والمِثْقَار .

(١) لله وفتح الراء . أنظر القاموس .

(٢) ذكره المجد وغيره فى فصل الضاد المعجمة من باب العين المهمة وضبطه كصرد قتيبة .

الثامن العُقاب وقد تَهَلَّم ذكره في الكلام على الجوارح حيث هو معلود منها ومن طير الواجب؛ ومما يتعلق بهذا المكان أنها منها الأسود، والخوخية، والشَّعْغ، والأبيض، والأشقر. ومنها ما يَأْوِي الجبال، وما يَأْوِي الصحارى، وما يَأْوِي الفياض، وما يَأْوِي حول المُلْدَن.

وقد تَهَلَّم ذكر الخلاف في أن ذَكَرَها من جنسها أو من جنس آخر في الكلام على الجوارح. وحَكَمَها تحريم الأكل لأنها من ذوات الخَيْب من الطير، واختلف في قتلها هل هو مستحب أم لا فحزم الرافعي والنووي من أصحابنا الشافعية في الحج باستحباب قتلها. وحزم النووي في شرح المهذب بأنها من القسم الذي لا يستحب قتله ولا يكره، وهو ما يجتمع فيه نفع ومضرة، وبه جزم القاضي أبو الطيب رحمه الله. التاسع النسر يفتح النون، ويجمع في الفلة على أنْسَر. وفي الكثرة على نُسُور، ومثي أنْسَرًا لأنه ينْسَر الشيء ويتلوه. والنسر ذو منْزِر وليس بذى غَلَب وإنما له أظفار حِدَاد الخالب، وهو يَنْسِف كما يَنْسِف الديك. وزعم قوم أن الأنثى منه تبيض من نظر الذكر إليها وهي لا تحضن بيضها، وإنما تبيض في الأماكن العالية الظاهرة للشمس فيقوم حر الشمس للبيض مقام الحُضْن. والنسر حاذ البصر يرى الجيفة من أربعمائة فرسخ، وكذلك حاسة شمه في الغاية؛ ويقال إنه إذا شم الرائحة الطيبة مات لوقته؛ وهو أشد الطير طيارًا وأقواها جناحًا حتى يقال إنه يطير مابين المشرق والمغرب في يوم واحد. وإذا وقع على جيفة وعليها عقبان تأخرت ولم تأكل مادام يأكل منها، وكل الجوارح تخافه، وهو في غاية الشره والتهم في الأكل إذا وقع على جيفة وأمتلأ منها لم يستطع الطيران حتى يثب وتثبت يرفع بها نفسه طبقة في الهواء حتى يدخل تحت الريح، وربما صاده الضعيف من الناس في هذه الحالة، والأنثى منه تخاف على بيضها وفراخها الخفاش قَفْرُش في أوكارها ورق الدُّلَب. تنظر منه

انْتَفَاشٌ ، وهو من أَشَدَّ الطير حُزناً على فراق إلهه حتى إذا فارق أحدهما الآخر مات حُزناً .

وهو من أطول الطير أعماراً حتى يقال إنه يُعمر ألف سنة . وحكمه تحريم أكله لأنه يأكل الحَيْفَ .

العاشر الأنيسة - قال في حياة الحيوان : بذلك تسميه الرُماة وإنما أسمه الأنيس . قال : وهو طائر حادّ البصر، يشبه صوته صوتَ الجمل، وماواه قرب الأنهار والأماكن الكثيرة المياه الملتفة الأشجار، وله لونٌ حسنٌ، وتدير في معاشه . وقال ارسطو : إنه يتولد من الشَّقْرَاق والغراب . وذلك بين في لونه . ويقال إنه يحب الأس، وقبل الألب والتربة، وفي صغيره وقرقرته أعاجيبٌ ، حتى إنه ربما أنصح بالأصوات كالقُمرى، وضادّه الفاكهة واللهم وغير ذلك . ومن شأنه ألفة النياض . وحكمه الحل لأنه طيب غير مستحبّ . فإن صح تولده من الشَّقْرَاق والغراب فينبى تحريمه . والأنيسة ذات ألوان غثقة، بلنها ينزل إلى القُبّة، وعقها يشتمل على خضرة وزُرقة، ويقال إنها أشرف طيور الواجب وأعزها وجوداً .

الضرب الثاني طيور الصيف - وهي التي يكثر وجودها فيه، وهي أربعة أطياف . الأول الكى ^(١) بضم الكاف : وهو طير أخضر اللون إلى البياض، أحمر المنقار والحوصلّة، رجلاه قصيرتان إلى السواد .

الثاني الغرثوق - بكسر الغين المعجمة وفتح النون - ويقال فيه غُرثيق - بضم الغين وفتح النون، ويجمع على غُرانيق . قال الجوهري : وهو طائر أبيض من طير الماء طويل العنق، وتبعه الزخشرى على ذلك . وقال أبو خيرة : وسى غُرثيقاً لياضه . وقال صاحب " المصايد والمطاردة " الغرثيق كركى إلا أنه أخضر طويل المنقار ،

(١) لم نعرفه في حياة الحيوان ولم يذكر في معجم اللغة .

وقيل : لونه كلون الكركي إلا أنه أسود الصدر والرأس ، وله ذؤابتان في رأسه .
وقال : ومن خصائصها أن ريشها في شبيبته يكون رمادياً ، فإذا كبرت أسود وليس
ذلك في سائر الطير ، فإن الريش لا يتحول بياضه إلى السواد بل يتحول سواده إلى
البياض : كما في الغربان والصافير والخطاطيف .

الثالث المرزم - وهو طير أبيض في أطراف ريشه حمرة ، طويل الرجلين والعنق ،
وهو حلال الأكل .

الرابع الشبيط - بضم الشين المعجمة وفتح الموحدة والطاء المهملة ، ويسمى
اللقاق أيضاً ، ويعرف بالبلارح . وكنيته عند أهل العراق أبو خديج - وهو طائر أبيض ،
أسود طرفي الجناحين ، ورجلاه ومقارنه حمرة ، وهو يأكل الحيات ولكنه يوصف
بالقطة والذكاء . وفي حله عند الشافعية وجهان أحدهما في شرح المهذب والروضة
الحرمة وإن كان من طير الماء .

وسياتي الكلام على ما يجعل من هذه الطيور الأربعة عشر بأعناقها وما يجعل منها
بأسيافه فيما يتعلق بمصطلح الرماة في الكلام على كتابة قدم البندق في موضعه إن شاء
الله تعالى . وطيور الواجب كلها حلال إلا النسر والعقاب .

الصنف الثالث

(ما عدا الطير الجليل مما يُصاد بالحوارج وغيرها ، وهو على ضربين)

الضرب الأول ما يجعل أكله - وهو أنواع كثيرة لا يأخذه الحصر ، ونحن نقتصر
على ذكر المشهور من أنواعه .

فإنها النعام - وهو اسم جنس الواحدة نعام ، وهو طائر معروف مرغب من

صورتى جبل وطائر ولذلك تسميه الترك دواقش بمعنى طير جبل، وتسميه القُرس
 أشترمرك، ومعناه جبل وطائر. ويجمع النعامة على نعامات، ويسمى ذكراها الظليم؛
 ومن المتكلمين على طبائع الحيوان من لم يحطها طيرا وإن كانت تبيض لعدم طيرانها؛
 ومن الناس من يظن أنها متولدة من جبل وطير ولم يصح ذلك. ومساكنها الرمل،
 وتضع بيضها سطرا مستطيلا بحيث لو مد عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن
 الأثرى، ثم تغطي كل بيضة منها نصيبها من الحفص : لأنها لا تستطيع ضم جميع
 البيض تحتها، وإذا خرجت للطعم فوجدت بيض نعامة أخرى حضنته ونسيت
 بيضها، وربما حضنت هذه بيض هذه، وربما حضنت هذه بيض هذه؛
 ولذلك توصف في الطير بالحق، ويقال إنها تقسم بيضها أثلاثا فنه ماتحضته، ومنه
 ما تجعله غذاء لها، ومنه ما تفتحه وتجعله في الهواء حتى يتولد فيه الدود فتغذى
 به أفراسها إذا خرجت. وليس للنعام حاسة سمع ولكنه قوى الشم، يستغنى بشمه
 عن سماعه حتى يقال إنه يشم رائحة القناص من بعد؛ والعرب تقول إن النعامة
 ذهبت تطلب قرين فقطعوا أذنها. وهو لا يشرب ماء، وإن طال عليه الأمد،
 ولذلك يسكن البرارى التى لا ماء فيها. وأكثر ما يكون عنوها إذا استقبلت الريح.
 ومن خصائصها أنها تتلع العظم الصلب والمجر والحديد فتضميه معدتها حتى تدفعه
 كلاء، وتتلع الجمر فيطفئه جوفها، وإذا رأت في أذن صخبر لؤلؤة أو حلقة آخنتظفتها.
 وحكها حل أكله إجماعا. ومن خاصته أن مرارته مسمومة.

ومنها الإوزة - بكسر الهمزة وفتح الواو - وهو أسم جنس واحد إوزة، وجمعه
 على إوزون، وهو مما يحب السباحة فى البحر، وإذا خرج فرخه من البيضة سمح
 فى الحال، وإذا حضنت الأثى قام الذكر يحرسها لا يفارقها، ويخرج فرخها فى دون
 الشهر من البيضة. وهو من الطييات، وغذاؤه جيد إلا أنه بطيء الهضم.

ومنها البط، وهو من طيور الماء واحدة بطّة للذكر والأُنثى وليس بحرّي، وهو عند العرب من جملة الإوز .

ومنها القيرى - بكسر القاف، ويسمى مَلَاعِبَ ظله . وهو طائر صغير الجرم من طيور الماء، سريع الاختطاف، لا يزال مرفوفا على وجه الماء على جانب كطيرات الحداة، بهوى بإحدى عينيه إلى قعر الماء طمعا، ويرفع الأخرى حذرا، فإن أبصر في الماء ما يستقل بجملة من السمك أو غيره آتقض عليه كالسهم المرسل فانخرجه من قعر الماء، وإن أبصر في الجو جارحا، مرّ في الأرض . وبه يضرب المثل في الإقبال على الخير والإدبار عن الشر، فيقال: "كأنه قيرى، إن رأى خيرا تكلّ، أو رأى شرا تولى" .

ومنها القطّاس - ويقال له الفواص، وهو طائر أسود نحو الإوزة، ينوص في الماء فيستخرج السمك فيأكله، ويتم فيه في حياة الحيوان بجملة القيرى .

ومنها البجّاج - بفتح الباء المهملة وكسرهما وضمة، حكاة ابن معن الدمشقي - وابن مالك وغيرهما، وأقصحها الفتح وأضعفها الضم، والواحدة دجاجة والذكر والأُنثى فيه سواء . قال ابن سيده : وسميت دجاجة لإقبالها وإدبارها، يقال : دَجَّ القوم إذا مشوا بتقارب خطو، وقيل إذا أقبلوا وأدبروا، والفرخ يخرج من البيضة بالخصن، وتارة بالصنعة والتدفئة بالنار، وإذا خرج الفرخ من البيضة نخرج كاسيا، ظريفا، سريع الحركة، يُدعى فيجيب، ثم كلما مرّت عليه الأيام حتّى وهن حسنه . ومما يعرف به الذكر من الأنثى في حالة الصغر أن يعلق الفرخ بمقاره فإن اضطرب فهو ذكر، وإلا فهو أنثى . والدجاج يبيض في جميع السنة، وربما باضت الدجاجة في اليوم مرتين، ويتم خلق البيض في عشرة أيام وتخرج لينة القشر

فلذا أصابها الهواء تصلبت . وتشتمل البيضة على بياض وصُفرة ويسمى المَح ، ومن البياض يتخلق الولد ، والصفرة غذاء له في البيضة يتغذى من سُرته ، وربما كان للبيضة بياضان ، ويتخلق من كل بياض فرخ فلذا كبرت الدجاجة ، لم يبق ليضها مَحٌ وحيدٌ فلا يتخلق منه فرخ . ثم الدجاج من الطيور الدواجن في البيوت ، وقد ورد في سُنة ابن ماجه من رواية أبي هريرة رضى الله عنه أمر الاغنياء بالتحاذ الغنم وأمر الفقراء بالتحاذ الدجاج . قال عبد اللطيف البغدادي : أمر كل قوم من الكسب بحسب مَقْدُورِهِمْ .

ومن عجيب أمر الدجاجة أنها تنزها سائر السباع فلا تحامها فلذا مرة بها ابن آوى وهى على سطح رمت نفسها إليه ، وهى توصف بقلة النوم وسرعة الانتباه ، ويقال إن ذلك لخوفها وخور طباعها .

ومن الدجاج نوع يقال له الحبشى . أرقط اللون ، متوحش ، وربما ألف البيوت . والحكم في الجميع الحل .

ومنها الديك - وهو ذكر الدجاج ، ويجمع على دِيَكَةٍ ودِيُوك ، وهو أبه الطبيعة حتى أنه إذا سقط من حائط لم يكن له هداية ترشده إلى دار أهله ، ومع ذلك فقد خصه الله تعالى بمعرفة الأوقات حتى ربح الرافى من منعب الشافى رضى الله عنه أعماهد الديك المجرب وقافا لِمَتَوَلَّى والقاضى حسين .

ومن عجيب أمره أنه يَسْطُر أوقات الليل تقسيطا لا يحل فيه بشئ طال الليل أم قصر . لكن قد ورد في معجم الطبراني وغيره : إن الله سبحانه وتعالى ديكاً أبيض ، جناحه موشيان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ ، له جناحٌ بالشرق وجناحٌ بالمغرب ، رأسه تحت العرش ، وقوائم في الهواء ، يؤذّن كل سحر فيسمع تلك

الصبيحة أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين : الجن والإنس ، فعند ذلك يُجيبه
 دُيوك الأرض ؛ وحيثُذ فيكون الديك في ذلك تابعا . وقد ورد على أحاديث
 في النهى عن سب الديك ، ومدح الديك الأبيض ، والحث على أخذه .

ومن حيد خصال الديك أنه يسوى بين دجاجة : ولا يُؤثّر واحدة على الأخرى .
 ويقال إنه يبيض في السنة بيضة ؛ ويفرق بين بيضته وبيضة الدجاجة أن يبيضته
 أصغر من بيضة الدجاجة ، وهى ملقوة لا لتحديد في رأسها .

ومنها القطا - بفتح القاف : وهو طائر معروف واحده قطاة ويجمع على قَطَوَاتٍ
 وقَطَائِتْ ، وأكثر ما يبيض ثلاث بيضات ، ويسمى قطا لحكاية صوته : لأنه يصيح
 "قطا قطا" ولذلك تصفها العرب بالصلق . قال الجوهري ، وهو معدود من
 الحما ، وبه قال ابن قتبية ، وعليه جرى الرافعي في الحج والأطعمة : قال الشيخ
 محب الدين الطبري : والمشهور خلافه .

ثم القطا نوعان : كُدرى وجُونى ، وزاد الجوهري نوبا ثالثا وهو الغطاط ،
 فالكدرى غبر اللون ، رُقش البعاطون والظهور ، صفر الحلق ، قصار الاذنان .
 والجونى سُود بطون الأجنحة والقوائم ، وظهرها أغبر أرقط ، تملوه صُفرة ، وهى
 أكبر حرما من الكدرى ، تسدل كل جونية كُدرتين ، والكدرية تُفصح باسمها
 في صياحها ، والجونية لا تفصح بل تُقرقر بصوت في حلقها .

ومن خاصتها أنها لا تسير إلا جماعة . ومن طبعها أنها تبيض في القفر على مسافة
 بعيدة من الماء . وتطلب الماء من مسافة عشرين ليلة وفوقها ودونها . وتخرج من
 أفاحيصها في طلب الماء عند طلوع الفجر فتقطع إلى حين طلوع الشمس مسيرة
 سبع مراحل ، تترد الماء فتشرب ثم تهيم على الماء ساعتين أو ثلاثا ثم تعود إلى

الماء ثانية . والجئونية تخرج إلى الماء قبل الكُدْرِيَّة وهي توصف بالهداية فتأتي أفاحيصها ليلا ونهارا فلا تفصل عنها ؛ وتوصف بحسن المشي ، وبقلة النوم .

ومنها الكُرَّوَانُ - بفتح الكاف والراء - وهو طائر في قدر الدجاجة ، طويل الرجلين ، حسن الصوت ، لا ينام الليل ؛ ويجمع على كُرَّوَانٍ بكسر الكاف والألفين كُرَّوَانَةٌ .

ومنها المَجْلُ - بفتح الحاء المهملة والجم ، وهو طائر على قدر الحمام كالقطا ، أحمر المنقار والرجلين ؛ ويسمى دَجَاج البر ؛ ويقع على الذكر والأُنثى ؛ وقد يقال له القَبِجُ أيضا بفتح القاف ومكون الموحدة وجيم في الآخر ؛ يقال للذكر والأُنثى منه قَبِجَةٌ ، ويسمى الذكر منه البَقُوب ؛ والقَبِجُ بفتح القاف والموحدة وجيم في الآخر ؛ ويقال في الأُنثى منه سَجَلَةٌ . وهو صَيِّفَان : تَجْدِي وتِهَامِي ، فالنجدى أحمر الرجلين ، والتهامي فيه بياض وخضرة ؛ ومن شأنه أنه يأتي إلى مصر عند هيجان زرعها ويصبح صياحا حسنا ، تقول العامة : إنه يقول في صياحه : "طَلَبَ دَقِيقُ السَّبِيلِ" . ومن شأن الأُنثى منه إذا لم تَلْقَ ، أنها تتمرغ في التراب وتصبه على أصول ريشها فتَلْقَحُ ؛ ويقال : إنها تَلْقَحُ بسماع صوت الذكر ، وبريح يهب من قبيلهِ ؛ وإذا باضت ميز الذكر الذكور منها خضنها ، وتحضن الأُنثى الإناث . وكذلك في التربية ، وفرخها يخرج كاسيا يرغِبُ الريش كما في الدجاجة ؛ وفي "المصايد والمطارِد" أن القَبِجَ كثير السَّفَاد ، وأنه إذا اشتغلت عنه الأُنثى ورأى بيضها ، كسره . قال التوحدي : ويعيش المجل عشر سنين ويعمل عُشَّين ، يجلس الذكر في واحد والأُنثى في واحد ؛ وهو من أشد الطيور غيرة على أنثاه حتى إن الذكرين ربما قتل أحدهما الآخر بسبب الأُنثى ؛ فمن غلب منهما دانت له .

(١) هذا سطوف على القبح الاول اشارة الى لغة أخرى وليس سطوفا على البقوب كما قد يتوهم .

ومن طبعه أنه يأتي عَشَّ غيره فيأخذ بيضه ويحضنه، فإذا طارت الفراخ لحقت بأمهاتها التي باضتها؛ وفيه من قوة الطيران ما يظنه من لم يُحَقِّقه عند طيرانه أنه حجر رُمِيَ بِمِقْلَاعٍ لمرعته .

ومنها القُمَيْرِيُّ - بضم القاف وسكون الميم : وهو طائر معروف حسن الصوت، ويجمع على قَمَارٍ غير مصروف . قال في المحكم : ويجمع على قُمَرٍ أيضا ؛ والأشئ منه قُمَرِيَّةٌ، ويقال للذكر منه الْوَرَشَانُ - بفتح الواو والراء المهملة والشين المعجمة، ويقال له أيضا سَاقُ حَرٍّ . قال الْبَطْلَوِيُّ : وَيُمْنَى سَاقُ حَرٍّ حكاية لصوته كأنه يقول ذلك ، ويكنى أبا الأخضر، وأبا عمران، وأبا الناجية . قال ابن السمعاني : والقُمَيْرِيُّ منسوب إلى القُمَيْرِ ، وهي بلدة تشبه الحصَّ لبياضها . قال : وأظنها بمصر . وقال ابن سيده القُمَيْرِيُّ طير صغير، وعنده في المحكم من الحُتَامِ . ويقال : إن الهوام تهرب من صوت القماري . قال القزويني : ومن خاصية القماري أنها إذا ماتت ذكرورها لم تتزوج إناثها ؛ والْوَرَشَانُ الذي هو ذكر القُمَيْرِيِّ يوصف بالحنو على أولاده حتى إنه ربما قتل نفسه إذا رماها في يد القانص . قال عطاء : وهو يقول في صياحه "لِدُوا لِمَوْتِ وَأَبْنُوا لِقَرَابٍ" . ومنه نوع أسود مجازي يقال له النوى، شجى الصوت جلتا .

ومنها الفَاخِخَةُ - بالقاء والحاء المعجمة والتاء المثناة والجمع الفواخيت بفتح الفاء وكسر الخاء - وهي طائر من ذوات الأطواق ، مجازية في قدر الحُتَامِ ، حسنة الصوت ، ويقال إن الحيات تهرب من صوتها . حتى يحكى أن الحيات كثرت بأرض ، فشكا أهلها ذلك إلى بعض الحكماء، فأمرهم بنقل الفواخيت إليها فانقطعت الحيات عنها ؛ وفي طبعها الأفس بالناس ؛ وتعيش في الدور ، إلا أن العرب تسمها بالكُتْبِ فإن صوتها عندهم تقول فيه هذا أوان الرطب ، وهي تقول ذلك والنخل لم يُطْلِعْ بعد ، ولذلك تقول العرب في أمثالهم : "أَكْثَبُ مِنْ فَاخِخَةٍ" .

ومنها الدُّبِّيُّ - بضم الدال، وهو طائر صغير منسوب إلى دُبَيْس الرُّطْبِ - بكسر الدال، وذلك أنهم يُغَيَّرُونَ في النسب فيقولون في النسبة إلى النُّعْر دُهَيْرِيٍّ ونحو ذلك، وهو ضرب من الحمام، ثم هو أصناف: مصري، وحجازي، وعراقي؛ وكلها متقاربة، لكن أغربها المصري، ولونه الذكئ، وقيل هو ذكر الحمام. وفي طبع الدُّبِّيِّ أن لا يرى ساقطاً على وجه الأرض، بل في الشتاء له مَشَقٌّ، وفي الصيف له مَصِيفٌ، لا يعرف له وَرٌّ.

ومنها الشَّفَقِيُّ^(١) - بفتح الشين المعجمة وسكون الفاء ونون مكسورة بدلها ياء مشاة تحت ثم نون: وهو الذي تسميه العامة بمصر الحمام، وهو دون الحمام في المقدار ولونه الحمرة مع كُودِيَّة، وفي صوته ترجيع وتحزين. ومن شأنها أنها تحسن أصواتها إذا أخططت. ومن طبعه أنه إذا قَدَّ أَتَاهُ، لم يزل أعزَّب إلى أن يموت، وكذلك الأثي إذا قَدَّتْ ذكرها؛ وفيه ألفة للبيوت، وعنده احتقاس.

ومنها الدَّرَاجُ - بفتح الدال، وكنيته أبو الحجاج وأبو خَطَّار: وهو طائر ظاهر جناحيه أغبر وباطنها أسود، على خِفَّة القَطَا إلا أنه ألطف. وهو يطلق على الذكر والأثي؛ والملاحظ بعده من جنس الحمام لأنه يجمع بيضه تحت جناحه كما يفعل الحمام، والناس يعبّون عن صوته بأنه يقول "وَالشُّكْرُ تَكْوُمُ النِّعَمُ". ويقال إنه طائر مبارك، وهو كثير التاج، يبشر بقدوم الربيع؛ وهو يصلح بهبوب الشمال، وصفاء الهواء؛ ويسوء حاله بهبوب الجنوب حتى لا يقدر على الطيران.

ومنها العُصْفُورُ - بضم العين، وحكى ابن رَشِيْق في كتاب الفرائب فتحها، والأثي عُصْفُورَةٌ، وكنيته أبو الصَّفْو، وأبو مُحْرَز، وأبو مُزَاحِم، وأبو يعقوب. قال حمزة:

(١) القى في حياة الحيوان أنه بالكسر اهـ.

(٢) في حياة الحيوان والقاموس ضبطه بضم الدال أما القى بالفتح فهو التفض.

سمى صنفورا لأنه عصي وفز، وهو أنواع كثيرة وأشهرها المعروف بالثوري، وذكره
المُمران تحت النسقوف خوفا من الجوارح، فإذا خلت مدينة من أهلها ذهب
المصافير منها؛ وهو كثير السَفَاد حتى إنه ربما سَفَدَ في الساعة الواحدة مائة مرة،
ولفرخه تترب على الطيران حتى إنه يُدعى فيجيب. قال الجاحظ: بلغني أنه
يرجع من فرسخ.

ومنها الشَّعْرُورُ - بفتح الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة، وهو طائر أسود
فُوقِ الصَّفُور له صوت شجي، ويكون بأرض الشام كثيرا.

ومنها الحَزَارُ - بفتح الهاء والزاى المعجمة، طائر نحو الصَّفُور له صوت حسن
ويسمى العنْدَلِيب أيضا ويجمع على عَنَادِل.

ومنها البُلْبُلُ - بضم الموحدين وسكون اللام الاولى والثانية، وهو طائر أسود
فوق الصَّفُور، واجمجرى منه فوق ذلك؛ ويقال له الثُّغْر - بضم النون وفتح الغين
المعجمة وراء مهملة في الآخر، والكُھَيْت - بضم الكاف وفتح العين المهملة ومثناة
فوقية في الآخر، والجميل - بضم الجيم، وقد ثبت في الصحيحين من رواية أنس رضي
الله عنه أنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، وكان
لي أخ لأخي فطيم يقال له عُمَيْر فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاء قال:
يا أبا عُمَيْر، ما فعل الثُّغْر؟ لثُّغْر كان يلعب به".

ومنها السَّمَايُ - بضم السين المهملة وفتح النون ولا تشدد ميمه، وهو طائر معروف
فوق الصَّفُور ويجمع على سَمَائِيَّات: وهو من الطيور التي لا يعرف من أين تأتي،
بل يأتي في البحر الملح يفوص بأحد جناحيه في الماء ويقيم الآخر كالقُلْع للسفينة

(١) قال في حياة الحيوان أنه كسحون وكذلك ضبطه في القاموس بالضم.

(٢) لعل هذا اللفظ من زيادة الناصح.

تدفعه الريح حتى يأتى الساحل ؛ وكثيرا ما يوجد بيلاد السواحل ، وله صوت حسن . ومن شأنه أنه يسكت في الشتاء فإذا أقبل الربيع صاح .

ومنها الحسون - وتسميه أهل الجزيرة والشام وحلب وتوابعها زقية ، وهو طائر قطن ، ويسميه الأندلسيون أبو الحسن والمصريون أبو زقاية ، وربما أبدلوا الزاى منه ميتا ، وهو عصفور ذو ألوان : حمرة وصفرة وبياض وسواد وزرقه وخضرة ؛ وهو قابل للتعليم يسلم أخذ الشيء كالفلس ونحوه من يد الإنسان على البعد والإتيان به لصاحبه .

ومنها أبو برأقش - بكسر القاف وبالشين المعجمة : وهو طائر كالعصفور يتلون ألوانا ، وبه يضرب المثل في التلون .

ومنها الزاغ - بزاي وضين معجمتين بينهما ألف : وهو ضرب من الغربان صغير أخضر اللون لطيف الشكل حسن المنظر ، وقد يكون أحمر المنقار والرجلين ، وهو الذى يقال له غراب الزيتون ، سمي بذلك لأنه يأكل الزيتون .

ومنها الغداف - بضم الغين المعجمة وبالدال المهملة وإفاء في آخره ، وهو غراب ^(١) الغيط ويجمع على غدافان بكسر الغين ؛ قال ابن فارس : هو الغراب الضخم ، وقال العبدري : هو غراب صغير أسود لونه كلون الرماد ، وقد قال النوى في الروضة بتعريفه وإن كان الرافعي قد جزم بجملة ورجحه صاحب المهمات .

ومنها غراب الزرع - وهو غراب أسود المنقار ؛ وفيه وجه بالتحريم .

الضرب الثاني - ما يحرم أكله

وهو أنواع كثيرة أيضا .

منها الطاوس - ويجمع على طاويس ، وهو طائر في نحو مقدار الإوزة حسن

(١) القى في القاموس وسياة الحيوان غراب الغيط .

اللون ، والذكر منه غايه في الحسن ، له في رأسه ريش خضر قائمه كالشربوش ، وفي ذنبه ريش أخضر طويل في أحسن منظر ، وليس للأشئ شئ من ذلك ؛ وهو في الطير كالفرس في الدواب عزا وحسنا ؛ وفي طبعه الزهو بنفسه والخيلاء والإعجاب بريشه ، والأشئ منه تبيض بعد ثلاث سنين من عمرها ، وفي هذا الحد يكمل ريش الذكر ويتم لونه ، ويبضه مرة واحدة في السنة ، ويكون بيضه من اثني عشرة بيضة إلى ما حولها ، ولا يبيض متابها ، وسقاده في أيام الريح ، وفي الخريف يلقى ريشه كما يلقى الشجر ورقه حينئذ ، فإذا بدا طلوع أوراق الأشجار طلع ريشه ؛ وهو كثير العبت بالأشئ إذا حصنت وربما كسر بيضا ؛ ولذلك يحضن بيضه تحت الدجاج لكن لا تقوى الدجاجة على حضن أكثر من بيضتين منها ، وتجاهد الدجاجة بالطعمة والسقية وهي راقدة عليه ، كيلا تقوم عنه فيفسد بالهواء إلا أن ما تحضنه الدجاجة يكون ناقص البلية عما تحضنه أثناءه ، وليس له من الحسن والبهجة ما لذلك ؛ ومدة حضنه ثلاثون يوما ؛ وفرخه يخرج من البيض كالفرج كاسيا بالريش يلقط الحب للحال .

ومنها السندل - بفتح السين المهملة والميم وسكون النون وفتح الدال المهملة ولام في الآخر ، وقال الجوهرى : السندل بنيريم . وقال ابن خلكان : السندل بنير لام : وهو طائر يكون بأرض الصين والهند ؛ ومن خاصته أنه لا تؤثر النار فيه حتى يقال إنه يبيض ويخرج فيها ويستلذ بمكثه فيها ، ويتخذ من ريشه مناديل ونحوها فإذا أدمخت ألقيت في النار فتأكل النار ويحترق ولا تتأثر في نفسها . قال ابن خلكان في ترجمة يعقوب بن صابر المتجنق : رأيت منه قطعة شجينة مسوجة على هيئة حزام الدابة في طوله وعرضه ، فالقيت في النار فأثرت فيها ففيمس أحد جوانبها في الزيت وجعل في النار فأشتمل وبقي زبانا طويلا ثم أطفئ ، وهو على حاله

لم يتغير، قال : ورأيت بخط عبداللطيف البندادي أنه أهدي للظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب قطعة منه عرض ذراع في طول ذراعين ، فقيمت في الزيت وقربت من النار فاشتعلت حتى قفي الزيت ، ثم علبت بيضاء كما كانت ، وبعضهم يقول إنه وحش كالتحلب وإن ذلك يعمل من وبره .

ومنها البيضاء - بيضاء مفتوحتين الأولى منهما مخففة والثانية مشددة وغير معجمة بعدها ثم ألف ؛ وهو المعبر عنه بالثرة بدل مهملته مضمومة ، وقال ابن السمعاني في الأتساب : هي باسكان الباء الثانية ، وهي طائر أخضر اللون في قدر الحمام يحاكي ما يسمعه من اللفظ ؛ ثم هي على ضربين : هندية وهي أكبر جثة ومقارها أحمر ، ونوبي وهي أدونها ومقارها أسود ، ويقال : إن منها نوعا أبيض ، ويذكر أنه أهدي لمعز الدولة ابن بويه بيضاء بيضاء اللون سوداء المقار والجلين ، على رأسها ذؤابة فسقية ؛ وهي طائر صمت الأخلاق ، ثاقب الفهم ، له قوة على حكاية الأصوات وقبول التلقين ، تتخذ الملوك والأكابريتهم بما يسمع . ومن شأنه أنه يتناول طعمه برجله كما يتناوله الإنسان بيده ؛ والهندي منه أقرب إلى التعليم من النوبي .

ومنها أبو زريق - يرى مضمومة ثم راء مهملته وفي آخره قاف ، ويقال له القيق بكسر القاف والزريق بزيادة رأى معجمة مكسورة ثم راء مهملته ساكنة ثم ياء مثناة تحت وبعد الألف باء موحدة ؛ وهو طائر ألوف للناس يقبل التعليم ، سريع الإدراك لما يعلم ، وقد يزيد على البيضاء إذا أنجب ، بل إذا تعلم جاء بالحروف مبينة حتى يظن سامعه أنه إنسان ، بخلاف البيضاء فإنها لا تفصح كل الإفصاح .

ومن غريب ما يحكى في أمره ما حكاه صاحب "متطير الطير" أن رجلا خرج من بغداد ومعه أربعائة درهم ، لا يملك غيرها ، فوجد في طريقه جثة من فواخه

فاشتهراها بما معه ثم رجع إلى بغداد فعلقها في أقباص في حانوته ، نهبت عليها ريح باردة فانت كلُّها إلا واحداً كان أضيقها وأصغرها فتعل ذلك عليه وبات ليلته تلك يتهل إلى الله تعالى بالدعاء وينادى ياغيث المستغيثين أغنى ، فلما أصبح إذا ذلك الفرخ الذى بقى يصيح بلسان فصيح : ياغيث المستغيثين أغنى ، فأجتمع الناس عليه يسمعون صوته فأجتازت جارية لخليفة فأشترته منه بألف درهم .

ومنها الهددُ - بضم الهاءين وإسكان الدال المهملة بينهما ، وهو طائر معروف ذو خطوط موشية وألوان ، ويجمع على هَدَاهِدَ ، ويذكر عنه أنه يرى الماء من باطن الأرض كما يراه الإنسان في باطن الزجاج ، قُوَّةُ ركبها الله تعالى فيه ، ولذلك عُبِيَ به سليمان عليه السلام مع صغره كما قاله البيهقي في "شعب الإيمان" . ويقال : إنه كان دليلاً لسليمان عليه السلام على الماء ، وقصته مع سليمان مذكورة في التزويل . وقد ذكر الخضرى أن سبب تخلفه عن سليمان أنه رأى هُندلاً آخر ، فحكى له عظيم ملك سليمان ، فحكى له ذلك الهددُ عظيم ملك بلقيس باليمن ، فذهب ليكشف الخبر فلم يرجع إلا بعد العصر ، فلما عاد إليه توعده فارخى رأسه وجتاحيه تواضعا بين يديه ، وقال : يا بنى الله أذكر وقوفك بين يدي الله ! فأرتعد سليمان وعفا عنه .

ومنها الخطَّافُ - بضم الخاء المعجمة ويجمع على خَطَّاطِيفٍ ، وهو طائر في قدر العصفور ، أسود ، وباطن جناحيه إلى الحمرة ، والناس يسمونه عصفور الجنة لأنه يُعرض عن أقواتهم ويفتات البعوض والدُّباب . ومن شأنه السكنى في البيوت المعمورة بالناس في أفاحيص بينها من الطين ؛ ويختار منها السقوف والأماكن التي لا يصل إليه فيها أحد . وقد ذكر الثعلبي في تفسيره في سورة النمل أن سبب قرب الخطاطيف من الناس أن الله تعالى لما أحبط آدم إلى الأرض ، استوحش ، فأنسه الله تعالى بالخطَّاف وألزمه البيوت فهو لا يفارق بنى آدم أناساً ، وانحطس يعاديه

فلذلك إذا أفرخ جصل في عُشِّه قُضِيَانَ الكَرَفَسَ لِيُنْفِرَ الخُفَّاشَ عنها .
ومن عادته أنه لا يُفْرِخُ في عُشٍّ عتيق حتى يُطَيِّبَهُ بطين جديد، ولا يأتي شيئاً من
ذَرْقِهِ في عُشِّه بل يلقيه إلى ما شاء ؛ وإذا سمع حس الرعد يكاد يموت ، ويوجد
في عُشِّه حَجَرُ اليرْقَانِ وهو حجر صغير فيه خطوط بين الحمرة والسواد إذا علق على
من به اليرْقَانُ أو شرب من مُحَلَّاتِهِ بَرِيءٌ ؛ وإنما يأتي بهذا الحجر إذا أصاب فراخه
اليرْقَانُ ، ولذلك يحتال بعض الناس بلطخ فراخه بالزعفران ليظن أن اليرْقَانُ قد أصابها
فيأتي إليها بهذا الحجر فيؤخذ منه .

ومن الخطاطيف نوع آخر العُطْفُ قدرنا من هذا ، يَسْكُنُ شطوط الأنهار وجوانب
المياه ، وعشوا من أنواعه أيضا الذي يسميه أهل مصر الخُضَيْرِي ، وهو طائر أخضر
دون البَيْغَاءِ في المقدار لا يزال طائراً وهو يصبح ، يقتات التَّراشَ والذباب .

ومنها الصُّرْدُ - بضم الصاد وفتح المرحلة ودال مهمل في الآخر ، ويجمع على
صُرْدَانٍ . قال ابن قتيبة : وسمى صُرْدًا ، حكاية لصوته ، ويسمى الواق بكسر القاف ،
وكنته أبو كبير ، وهو طائر فوق العصفور ، نصفه أبيض ونصفه أسود ، ضخ
الرأس ، ضخ المنقار والبرائن ، لا يرى إلا في شَعْفَةٍ أو شجرة بحيث لا يقدَّر عليه أحد ،
وله صَفيرٌ مختلف . ومن شأنه أنه يصيد العصافير وما في معناها ، فيصفر لكل طير
يريد صيده بقلته ، يدعوهُ إلى التقرب منه فيأب عليه فيأكله ، والعرب تشاء به
وتنفر من صياحه ، وهو مما وردت الشريعة بالهوى عن قتله .

ومنها اللَّعَقَقُ - يعنين مهملتين مفتوحتين بينهما قاف ساكنة ، وربما قيل فيه
اللقَّعَق على القلب ، قال الجاحظ : سمى بذلك لأنه يَمُتُّ فراخه فيترُكهم أيما بلا
طعم . ويقال لصوته اللَّعَقَعَةُ : وهو طائر على قدر الحمامة في شكل الغراب وجناحه
أكبر من جناحي الحمامة ، ذلونين : أبيض وأسود ، طويل الذنب . ومن شأنه أنه

لا يأوى تحت سقف ولا يستظل به ، بل يهيج وكره في المواضع المشرفة ، وفي طبعه الزنا والخيانة ، ويوصف بالسرقة والخبث ، وإذا رأى حلياً أو عقداً ، اختطفه ؛ والعرب تضرب به المثل في جميع ذلك ، وإذا باضت الأنثى منه أخذت بيضها بورق الذهب خوفاً عليه من الخفاش ، فإنه متى قرب من البيض مذر وتغير من ساعته ، ويقال إنه يخبأ قوته كما يخبؤه الإنسان والجملة إلا أنه ينسى ما يخبؤه ، وبعضهم يعلنه في جملة الزبان ، وفيه وجه عندنا محل أكله .

ومنها الشُّقْرَاقُ - يفتح الشين المحجمة وسكون القاف وألف بين الراء المهملية والقاف الثانية ، ويحوز فيه كسر الشين أيضاً ، وربما قلبوه فقالوا الشُّرَاق ، ويسمى الأخیل أيضاً ، وهو طائر صغير بقدر الحمام أخضر مُشَبَّع الخُضرة ، حسن المنظر في أجنته سواد ، والعرب تُشام به . وفي طبعه الشر حتى إنه يسرق فراخ غيره وعنده الجاحظ نوعاً من الغربان ، ويكثر بيلاد الشام والروم ونُراسان . ولا يزال متباعداً من الإنس ، يالف الروابي ورُوس الجبال ، إلا أنه يحضن بيضه في عوالم العُمران التي لا تتألم الأيدي . وعُشه شديد البُيان ، وله مَشَقٌّ ومَصِيف . قال الجاحظ : وهو كثير الاستغاثة ، إذا مر به طائر ضربه ينجأه وصاح كأنه هو المضروب . وفيه وجه محل أكله .

ومنها القُرَابُ الأبقع - قال الجوهرى : وهو الذى فيه بياض وسواد ، ويسمى غراب البين أيضاً ، قال صاحب " المجالسة " سمي بذلك لأنه بان عن نوح عليه السلام حين أرسله لينظر الماء فذهب ولم يرجع . قال ابن قتيبة : وجعل فاسقا لأجل ذلك ، ويسمى الأعور إما لأنه يُمَصُّ إحدى عينيه لقوة بصره ، وإما لصفاء عينيه وحدة بصره من باب الأضداد . ومن طبعه الخيانة والسرقة والعرب تُشام به وتكره صوته . وقد سبق القول على ذلك في أوابد العرب من هذه المقالة .

ومن طبع الغراب الاستئثار عند السَّفاد وأنه يَسْفِلُهَا مواجهة مُلقاة على ظهرها ،
والأشْيُ تبيض أربع بيضات ونحسا ، وإذا خرجت الفراخ من البيض فرفضها
الأبوان لشاعة منظرها حينئذ تفتننى من البعوض والذباب الكائن في عَشْها حتى
ينبت ريشها فيعود الأبوان إليها، وعلَى الْأَشْيُ الْحَضْنُ وعلَى الذَّكَرُ أَنْ يَأْتِيَهَا بِالطَّعْمِ ؛
وفيه حَذَرٌ شديد وتناصُرٌ، حتى إنه إذا صلح الغراب مستنصرا آجتماع إليه عدة
من الغربان .

ومنها الغراب الأسود الكبير - وهو الجَلْبِيّ - وفيه وجه بجله .
ومنها الحِدَاةُ - بكسر الحاء والمعز الطائر المعروف ويجمع على حِدَاةٍ وحِدَاةٍ .
ومن ألوانها السُّودُ والرَّمْدُ ، وهى لا تصيد بل تختطف ، ومن طبعها أنها تَصَفُّفُ
فى الطيران وليس ذلك لشيء من الكواسر غيرها ، وزعم ابن وحشية وابن زهر أن
الحِدَاةَ وَالْعُقَابَ يتبدلان فتصير الحِدَاةُ عُقَابًا والعُقَابُ حِدَاةً . وربما قيل الغراب
بدل العُقَابِ ، ويقال : إنها تصير سنةً ذكرا وسنةً أنثى ، ويقال : إنها أحسن الطير
بجأورة لما جاورها من الطير حتى لو ماتت جوعا لاتعملو على فريخ جارتها . وفى طبعها
أنها إنما تختطف ممن تختطف منه من يده اليمنى دون اليسرى حتى يقال إنها عسراء ؛
وقد ثبت فى الصحيحين حل قتلها فى الحل والحرم .

ومنها الزَّمَّةُ - بفتح الزاء المهملة والهاء المعجمة ، وكنيتها أم جِصْرَانْ ، وأُمُ رَسَالَةَ
وَأُمُ عَجَبِيَّةٍ ، وأُمُ قَيْسٍ ، وأُمُ كَثِيرٍ . ويقال لها الْأَنْوُقُ بفتح الهمزة : وهى طائر أبيض بياض
وسواد فوقَ الحِدَاةِ فى المقدار ثا كل الحَيْفِ ، وهى معلودة فى بُفَاثِ الطير ، وهى
تسكن زمرس الجبال العالية وأبشعها من أماكن أعدائه ، ولذلك تضرب العرب المثل :

بيضه فيقولون : "أَعَزُّ مِنْ بَيْضِ الْأَنْثَى" والذكر لا يمكن من نفسه غير ذكرها
وتبيض بيضة واحدة وربما باضت بيضتين .

ومنها البومة - بضم الباء الموحدة وفتح الميم - للذكر والأنثى : وهو طائر من طير
الليل في قنر الإوزة ، لها وجه مستدير بالرش الثابت حوله ، يشبه وجه الأدمى
في صفرة عينين وتوقدهما ؛ ويقال للذكر منها الصدى والضوْع - بضم الضاد
المججمة - والقيادُ - بالقاء وتشديد المثناة تحت ، ويقال للأنثى الهامئة . وكنته الأنثى
أم الخراب ، وأم الصبيان ؛ ولها في الليل قوة سلطان لا يحتملها شيء من الطير ؛
تدخل على كل طائر في وكزه في الليل فتخرجه منه وتأكل فراخه وبيضه ، ولا تنام
الليل ، والطير يجملته يعاديا من أجل ذلك ، فإذا رأوها في النهار قتلوها وتتقوا ريشها ،
ومن ثم يجعلها الصيادون في شباكهم ليقع عليها الطير فيقتنصونها ؛ فهي لا تظهر
بالنهار لذلك . ونقل المسمودية في مزوج الذهب عن الجاحظ أنها إنما تتنصع من
ظهورها في النهار خوفا من أن تصاب بالعين لحسنها وجمالها ، لأنها تصور في نفسها
أنها أحسن الحيوان . ومن طبعها سكنى الخراب دون العامر .

ومن غريب ما يحكى ما ذكره الطرطوشى في "سراج الملوك" : أن عبد الملك بن مروان
أرق ليلة فاستدعى سميرا يحدثه ، فكان مما حدثه أن قال : يا أمير المؤمنين كان
بالبصرة بومة وبالموصل بومة فخطبت بومة الموصل إلى بومة البصرة بتها لأيتها -
فقال بومة البصرة : لا أفضل حتى تجمل في ضداقها مائة ضبعة خراب - فقالت بومة
الموصل : لا أقدر على ذلك الآن ولكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة
فعلت ؛ فاستيقظ لها وجلس للظالم .

(١) عبارة حيلة الحيوان فإذا رآها الطير . . . فتلها ونفن وهي أصوب .

ومنها البُوءة - بضم الباء وقح المعزة - قال الجوهري : وهو طائر يشبه البومة إلا أنه أصغر منها . وذكر ابن قتيبة في أدب الكاتب نحوه ، ويقال له البُوءة أيضا ؛ وهي من طير الليل أيضا ، ولا يخفى أنها التي يسميها الناس في زماننا المصاصة ويرسمون أنها تنزل على الأطفال فتمصُّ أوتقهم .

ومنها الخفَّاش - بضم الخاء المعجمة وتشديد الفاء وبالشين المعجمة ، ويجمع على خَفَّافِيش - وهو طائر غريب الشكل والوصف لا ريش عليه ، وأجنحته جلدة لاصقة بيديه ، وقيل لاصقة بجنبه ؛ وسمى خَفَّاشاً لأنه لا يبصر نهاراً ، وبه سمى الرجل أخفش ، والمائة تسمية الوطواط ، وقيل الخفَّاش الصغير ، والوطواط الكبير ، ويقال إن الوطواط هو الخفَّاش لا الخفَّاش . وليس هو من الطير في شيء ، فإن له أسناناً وخَصْبَتَيْن ، ويحيض ، ويضحك كما يضحك الإنسان ، ويقول كما يقول ذوات الأربع ، ويُرَضَّع ولده من ثدييه . ولما كان لا يبصر نهاراً آتمن وقتاً يكون بين الظلمة والضوء وهو قريب غروب الشمس : لأنه وقت هيجان البعوض فالبعوض يخرج في ذلك الوقت يطلب قُوَّته من دماء الحيوان ، والخفَّاش يخرج لطلب الطَّعم فيقع طالب رزق على طالب رزق ؛ ويقال إنه هو الذي خلقه المسيح عليه السلام من الطين ، ونفخ فيه فكان طيراً بإذن الله . قال بعض المفسرين : ومن أجل ذلك كان مبائناً لنيره من الطيور ، ولذلك سائر الطيور مُبْفَضَّةٌ له وتسطو عليه ؛ فما كان منها يأكل اللحم أكله ، وما كان منها لا يأكل اللحم قتله ؛ وهو شديد الطيران ، سريع القلب ، يقتات البعوض والذباب وبعض الفواكه ؛ وهو موصوف بطول العمر حتى يقال : إنه أطول عمراً من النَّسْرِ وتلد الأنثى ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة ، وكثيراً ما يَسْفِدُّ وهو طائر في الهواء ، وهو يحمل ولده

(١) أهتمز ما عدا من القوين بل ذكره في باب الهاء وتقدم في المصالح والوارد وكذا في القاموس ويقال بالضم .

معه إذا طار، تحت جناحه، وربما قبض عليه بفيه خنواً عليه، وربما أرضعت
الأنثى ولعها وهي طائرة . وفي طباعه أنه متى أصابه ورق الدُّلَبِ خنر ولم يطر،
وقد ورد النهى عن قتله .

فلذا عرف الكاتب أحوال الطير وخواصها، تصرف فيها بحسب ما يحتاج إليه
في نظمه ونثره كما في قول الشاعر :

وإذا السعادة لاحظتك عيونها، * ثم، فالتخايف كلهن أأن
وأصطد بها العتاة فهي حباثل، * وأقصد بها الجوزاء فهي عنان
إشارة إلى عظم العتاة وعدم القدرة على مقاومتها، ومع ذلك تنقاد بالسعد . وكما
في قول أبي الفتح كشاجم، مخاطباً لولده يطلب البر منه :

اتخذ في حلة في الكراكي * اتخذ فيك حلة الوطواط
أنا إن لم تربي في عتاة * فيربي ترجو جواز السراط
يشير إلى ما تقدم من أن في طبع الكركي بر والديه إذا كبرا، كما أن في طبع
الوطواط بر أولاده بحيث يحملها معه إلى حيث توجه؛ وكما في قول الشاعر :

مثل النهار يزيد إحصار الوري * نورا، ويعني أصغر الخفاش
إشارة إلى أن الخفاش لا يئصر نهاراً، بخلاف سائر أرباب الأبصار؛ وكما قيل
في وصف شارده عن القتال :

وهم تركوه أسلح من جباري، * رأى صقرا، وأشرده نعام
يريد ما تقدم مما يعرض للجباري من إرسالها سلحها على الخارج عند اقتناصه
لها، وأن النعام في غاية ما يكون في البرية من الشراد والتفار، ونحو ذلك مما
يمر بهذا المجرى .

(١) ورد هذا البيت في حياة الحيوان هكذا : وهم تركوه ... رأت

الصف الرابع (الحمام)

وقد اختلف في الحمام في أصل اللغة فقلل الازهرى عن الشافعى رضى الله عنه ان الحمام يطلق على كل ماعب وهدر وإن تفرقت أسماءه، فيدخل فيه الحمام، واليَمام، والبَّبابى، والقَمَارى، والقواخت وغيرها. ونهب الأصمعى إلى أن الحمام يطلق على كل ذات طوق كالقواخت والقهارى وأشبابها . وقيل أبو عبيد عن الكسائى سمعا منه أن الحمام هو الذى لا يألف البيوت، وأن الحمام هو الذى يألف البيوت لكن الذى غلب عليه إطلاق الحمام هذا النوع المخصوص المعروف . ثم هو على قسمين .

أحدهما ما ليس له اعتناء في الطيران من المسافة البعيدة . والثانى ماله اعتناء، ويسرى بالحمام الهدى وهو المراد هنا ؛ وقد أعنى الناس بشأنه في القديم والحديث، وأهتم بأمره الخلفاء : كالمهدى ثالث خلفاء بنى العباس، والوائى، والناصر وتنافس فيه رؤساء الناس بالعراق، لاسيما بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" أنهم تنافسوا في اقتنائه، ولججوا بذكره، وبالقوا في أمانته حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعة دنانير؛ ويقال إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار؛ وكانت تباع بيضة الطائر المشهور بالقراة بعشرين دينارا، وإنه كان عندهم قنطرة بأقسام الحمام كأقسام العرب، وإنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا الملوك من اتخاذ الحمام والمنافسة فيه والإخبار عنها، والوصف لأثرها والنعت لمشهورها، حتى وجه أهل البصرة إلى بكر بن قتيبة البكرانى، قاضى مصر، وكان في فضله وعقله ودينه ورعه ما لم يكن عليه قاض، بما مات لهم مع قنات، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه، وكان الحمام عندهم ممتجرا من المتاجر لا يرون بذلك بأسا .

وذكر المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" أن الحمام أول ما نشأ - معنى في الديار المصرية والبلاد الشامية - من الموصِل وأت أول من أعنى به من الملوك ونقله من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله في سنة خمس وستين وخمسمائة ، وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالقوا حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام . وقد أعنى بعض المصنفين بأمره ، حتى صنف فيه أبو الحسن بن ملاعب القواس البغدادي ، كتابا للناصر لدين الله العباسي ، ذكر فيه أسماء أعضاء الطائر ، وريشه ، والوشم التي توشم في كل عضو ، وألوان الطيور ، وما يستحسن من صفاتها ، وكيفية إفراخها ، وبعض المسافات التي أُرسلت منها ، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجري مجرى ذلك . وذكر في "التعريف" أن القاضي محي الدين بن عبد الظاهر صنف فيها كتابا سماه "تمائم الحمام" ويتعلق الغرض منها بأمور .

الأمر الأول

(ذكر ألوانها)

قال أبو الحسن القواس : وقد أكثر الناس من ذكر ألوانها ويرجع القصد فيها إلى ذكر ألوان ستة .

اللون الأول البياض - ومنه الأبيض الصافي ، والأشقر : وهو ما كان يعلوه حمرة ؛ فإن كان الغالب في شُقرته البياض ، قيل فضي ؛ فإن زاد ، قيل أشقر .
اللون الثاني الخضرة - إن كانت خضرته مُشبعة إلى السواد ، قيل أخضر مسق ؛ فإن كان دون ذلك ، قيل تبيخ الخضرة ؛ فإن كان دون ذلك ، قيل صافي الخضرة ؛ فإن تكثرت خضرته بأن لم يكن صافي الخضرة ، قيل أسمر .

اللون الثالث الصُّفْرَة - وهي عبارة عن أن تكون خضرته تميل إلى البياض، فإن كان صافياً، قيل أصفر قرطامى .

اللون الرابع الحمرة - إذا كان شديد الحمرة، قيل عُنَّابِيّ، فإن كان دون ذلك، قيل نَمْرِيّ، فإن كان دون ذلك، قيل خَلُوقِيّ، فإن كانت حمّته تضرب إلى الخضره، قيل أَكْغَمَا، فإن كانت حمّته تضرب إلى البياض، قيل أحمر صدقي .

اللون الخامس السواد - إذا كان شديد السواد لا بياض فيه، قيل أسود مُطْبَق، فإن كان لون سواده ناقصاً، قيل أسود أَخْلَس، فإن كان مسواده يضرب إلى الخضره، قيل أسود رَمَادِيّ، فإن كان في سواده مائية، قيل أسود بَرَّاق، فإن كان ساقاه أيضاً أسودين، قيل أسود حالك وأسود زَيْجِيّ .

اللون السادس النَمْرِيّ - وهو أن يكون في الطائر نقط بخالف بعضها بعضاً، ويختلف الحال فيه باختلاف كبير النقط وصِغَرِهَا، فتارة يقال مدَّرّ، وتارة يقال ملّمع، وتارة يقال أبرش، وتارة يقال مُوَكَّع، وتارة يقال أبقع، وتارة يقال أبلق، وتارة يقال دَبَّاسِيّ، وتارة يقال مدَّرع إلى غير ذلك مما لا يستوفى كثرة . ثم إن كان الطائر أكل العينين وحول عينيه حمرة، قيل ققيع، فإن كان أصفر العينين، قيل أصفر زَيْجِيّ، فإن كان أبيض العنق، قيل هَلَالِيّ، وهو أحسنها، والأصفر العين بعده، فإن كانت العين بيضاء وفيها حمرة، قيل زُمَانِيّ العين .

الأمر الثاني

(في عدد ريش الجناحين والذنب المعتد به وأسمائها)

أما الجناحان فإن فيهما عشرين ريشة، في كل جناح منهما عشر ريشات، الأولى منها - وهي التي في طرف الجناح - تسمى الصمة، والثانية وهي التي بعدها تسمى

المُضَافَةُ الرَّئِيسِيَّةُ ، والثَّانِيَّةُ هِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْوَاسِطِيَّةُ ، والرَّابِعَةُ هِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُضَافَةُ ، والخَامِسَةُ هِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُنْتَظَفَةُ ، والسادسة هِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُتَحَدِّدَةُ ، والسَّابِعَةُ هِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى النَّاظِفَةُ ، والثَّامِنَةُ هِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُؤَنَسَةُ ، والتَّاسِعَةُ هِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الزَّامِلَةُ ، والْعَاشِرَةُ هِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُحِينَةُ .

وبعضهم يسمي الأولى الصَّغِيرَةَ ، والثَّانِيَةَ الرَّقِيقَةَ ، والثَّالِثَةَ الْمُوَفِيَّةَ ، والرَّابِعَةَ الْبَاحِلَةَ ، والخَامِسَةَ الْحَيْرَةَ ، والسادسة الصَّرَافَةَ ، والسَّابِعَةَ مَمْسُكَةَ الرَّمْيِ ، والثَّامِنَةَ والتَّاسِعَةَ الْخَافِظَتَيْنِ ، والْعَاشِرَةَ الْمَلَكَةَ .

وربما كان في كل جناح إحدى عشرة ريشة فيسمى الطائر حينئذ أعلم .
ولهذه الريشات العشر عشر ريشات مع كل واحدة منها رادفة : وهي الريش الصَّفَّارُ الَّتِي تَغْطِي قَصَبَ الْجَنَاحِ مِنْ ظَاهِرِهِ ، ولكل ريشة من هذه الريشات العشر ريشة صغيرة تغطي قصبتها ، لكل واحدة منها اسم يخصها .

ومن ريش الجناح أيضا الخَوَافِي ، وهي الريش المسطَّر مع العشر ريشات الطَّوَالِ الْمُبْقَلِبُ رُؤُوسَهُ إِلَى مُؤَنَّرِ الْجَنَاحِ . وهي تسع ريشات ، الأولى منها تسمى الخَدَقَةُ ، والثَّانِيَةُ الرَّجْمَةُ ، والثَّالِثَةُ التَّرْوَةُ ، والرَّابِعَةُ الْحَزْزُ ، والخَامِسَةُ الْحَامِزَةُ ، والسادسة الْمَسْلَمَةُ ، والسَّابِعَةُ الْمَلَاظِمَةُ ، والثَّامِنَةُ الشَّعْثَةُ ، والتَّاسِعَةُ الْأَمْعَةُ . وبعضهم يسمي الأولى بِنْتُ الْمَلَكَةِ ، والثَّانِيَةَ الْإِبْرَةَ ، والثَّالِثَةَ الْمُقَشَّعَةَ ، والرَّابِعَةَ الصَّافِيَّةَ ، والخَامِسَةَ الْمُصْفِيَّةَ ، والسادسة الْمُصْفَرَّةَ ، والسَّابِعَةَ الزَّرْقَاءَ ، والثَّامِنَةَ السُّودَاءَ ، والتَّاسِعَةَ الْمَزْرُقَةَ . وعد فيها عاشرَةٌ تُسَمَّى الْمُخَضَّرَةُ . ولكل ريشة من الريشات التَّسْعُ ريشة صغيرة تغطي قصبتها . لها اسم يخصها أيضا .

وبعد الخوافي الغفار ، ولكل ريشة من الغفار ريشة صغيرة من باطنها تغطي قصبتها .

ومن ريش الجناحين المَقُومَات : وهي ثلاث ريشات في طَرَف الجناح ، تسمى الزوائد . ومن فوقها ثلاث ريشات صغاراً تغطي قصبتها ، تسمى القواشي ، وأصلها مع أصل^(١) أيضا .

وأما الذنب ، فالمعتبر فيه اثنتا عشرة ريشة من كل جانب : منه ست ريشات تسمى الأولى منها الفزالة ، والثانية العروس ، والثالثة الباشقة ، والرابعة الباقية ، والخامسة المجاورة ، والسادسة العمود ، ومن الجانب الآخر كذلك .

الأمر الثالث

(الفرق بين الذكر والأنثى)

وقد ذكروا بينهما فروقا ؛ منها أن الأنثى إذا تمشت ، قلت ريش الرجل اليسرى ؛ والذكر يفتقر الرجل الأيمن ، ومنها أن يرى الذكر مُقْتَدِرًا في الأرض مُسْتَبْسِطًا ، والأنثى بالفضد من ذلك ؛ ومنها أن ريش الذكر أعرض وأطول وأحسن استواء من الأنثى ؛ ومنها أن مذبح الذكر يكون عريضاً ومذبح الأنثى دقيقاً ؛ ومنها أن يكون وجه الذكر عريضاً والآنثى بالفضد من ذلك ؛ ومنها أن الأنثى إذا طارت فصحت جناحها والذكر إذا طار أخرج عَشْرَةً .

الأمر الرابع

(في بيان صفة الطائر الفارسي)

قال أبو الحسن القواس : علامته أن يكون رأسه مكعباً ، وعينه معتدلة ، غير فائقة ولا غائرة ، ولا فائرة ، ولا قلقة متزعجة ؛ وأن يكون متقاربه غليظاً قصيراً ؛ وأن يكون وسط المتخزين ، مكائم القرطمتين ، أهرت الشدقين ، واسع الصدر ، نقي الريش ،

(١) له مع أصل الزوائد أيضا كما يفيد المقام تأمل .

طويل الفخزين ، قصير الساقين ، غليظ الاصابع ، شق البراش ، طويل القوائم من غير إفراط .

ويستحب فيه قصر الذنب ، ودقته ، واجتماع ريشه من غير تفرق ، وأن يكون ظهره مستديلا وإلى القصير أقرب ؛ وأن يكون جوجوه : وهو جانب الصدر طويلا ممثلا ، وعظمه طويلا منتصبا ، وريش قوائمه وخوافيه مبينا متطابقا بعضه مع بعض من غير تفرق ولا جمع ، وأن يكون شديد اللحم ، مكتنزا غير رخو ولا رهيل . ويستحب فيه أيضا أن يكون قليل الرعدة عند الفزع ، سريع اللقط للحب ، خفيف الحركة والنهوض ، والتزول من غير طيش ولا اختلاط ، وأن يكون ظهره مسطحا لا أحذب ولا أوقص ، ويستحب فيه إذا وقف ، أن ينصب صدره ، ويرفع عنقه ، ويفتح ما بين نكديه شبه البازي .

ومن علامة قراءته أنه إذا طال عليه الطيران وأراد التزول على مسطحة ^(١) أن لا يلدج رجليه حتى يقع صدره على مسطحة لانه إذا دلى ساقيه ، كان عيبا عظيما يقولون قد انحلت سراويله بمعنى أنه قد أدنى جميع ما عنده من القوة والطاقة ؛ ويكره فيه دقة المفريز ، وطول الذنب ، وتفرق الريش .

الأمر الخامس

(التراسة في الطائر من حال صغره قبل الطيران)

قالوا من علامة الطائر الفاره في صغره أن يكون حديد النظر ، شديدا الحذر ، خفيف اللحم ، قليل الريش ، سريع النهضة ، كثير اللطفت في البلو ، ممتد العظم ، مستويا ، لطيف الذنب ، خارج العنق ، قصير الساقين ، طويل الفخزين ، محجلا ،

(١) لئلا الجار ويجروره من زيادة التامخ .

مذيل المتقار، مدقور القراطيم، مضاعف المتأخر، يلزم موضعا واحدا من صفه إلى ازدواجه، فإذا ازدوج على السطح يكون حريصا على طائرته، حسن الأخلاق معها لا يطردُها طرد الكلاب، ولا يقتل غيلة الذئب، قليل الدرق، كثير الدهن، مدلا بنفسه، كأنه يعلم أنه فار، فإن كان فيه بعض هذه الخصال، كانت فراسته على قدر ما فيه من ذلك.

قال أبو الحسن الكاتب : ومن علامة شهامة الفرج أن تكون فيه الحركة وهو تحت آبيه وأمه، وكلما جمعت له ثمنه تمتمها، خرج من تحتها ويمتلق للفرج، وأن يكون ريش رأسه كأن فيه جلحا، وريش جسده وجناحه مستطيلا عند نبعه من جسده، وأن يطول ريشه حتى يغطي ظهره ولا يتشر إلا بعد ذلك، وأن يكون من جوجو الصدر إلى مفرزه أقصر من بطنه إلى رأس برائه.

وفي الحمام طائر يقال له الأندم، وصفته أن يكون أسود المتقار ليس فيه بياض، ورأس متقاره وأصله سواء، لا تحيد في رأسه، عريض القراطيم، غليظ الشدين، منتشر المتخيرين، جهوري الصوت، غائر العين، قال أبو الحسن القواس : ولا تكون هذه الصفة إلا في الطائر الفاره الأصيل، الكريم الأب والأم.

الأمم السادس

(بيان الزمان والمكان اللاحقين بالإفراخ)

أما الزمان فاصلح أوقات التأليف أيلول، وتشرين الأول، وتشرين الثاني، وأذار، ونيسان، وإيار، فإذا وقع الإفراخ في شيء من هذه الأوقات كانت الفراخ أقوىاء، نجباء، أذكاء، ونهوا عن الإفراخ في كانون الأول، وكانون الثاني، وشباط، وآب، وتموز، وحزيران، فإن الذي يُفرخ فيه لا يزال ناقص البدن، قليل الفطنة، يلقي ريشه في السنة مرتين فيضعف.

وأما المكان فقد حكى عن إقليمين الهندي أن أولى ما أفرخ الحمام بالسطوح ،
 وذلك أن الفرخ يخرج من القشر فيلقى خشونة الهواء وحرّ الموضع فيصير له عادة
 ثم لا ينهض حتى يعرف وطنه ويتقلب إليه أبوه وأمه بالزقّ والعاقب فيعرف السطح
 حق المعرفة ، وينقل خلفهما فيعلمانه الصعود والهبوط . وربما أخذاه إلى الرعى
 بالصحرَاء فلا يكمل حتى يصير شهما عارفا بأمر الطيران . بخلاف ما إذا أفرخ
 بالسفل فإنه يتربّ جسده على برودة التّربة ولين الهواء ، فإذا كل وترقّ إلى السطح
 لقيه خشونة الهواء وقوّة الحرّ ، فيُحدّث له الحرّ الجأء فيؤاذه الجأء والدّق .

الأمر السابع

(في مسافة الطيران)

قد تهمّت أن طائرا طار من الخليج القسطنطيني إلى البصرة ، وأن الحمام كان
 يرسل من مصر إلى البصرة أيضا . وذكر ابن سعيد في كتابه "جنى المحل وجنى
 النمل" أن العزيز ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلث أن
 مارأى القراصية البعلبكية ، وأنه يجب أن يراها ، وكان بدمشق حمام من مصر وبمصر
 حمام من الشام ، فكتب الوزير بطاقة يأمر فيها من بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام
 المصري ويعلق في كل طائر حبات من القراصية البعلبكية وترسل ففعل ذلك فلم
 يمسّ النهار إلا وعنده قدر كثير من القراصية فطلع بها إلى العزيز من يومه . وذكر
 أيضا في كتابه "المغرب في أخبار المغرب" أن الوزير البازوري المغربي وزير
 المستنصر الفاطمي وجه الحمام من مدينة تونس من إفريقية من بلاد المغرب إلى
 مصر فجاء إلى مصر .

وقد ذكر أبو الحسن القواس في كتابه في الحمام أنَّ حماما طار من عبادان إلى الكوفة ، وأن حماما طار من التُّرَاوَذ إلى الأَبْلَةِ ونحو ذلك ، وسيأتي الكلام على أبراج الحمام بالديار المصرية في المقالة العاشرة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

النوع الخامس

(ما يحتاج إلى وصفه من نفائس الأحجار)

ويحتاج الكاتب إليه من وجهين : أحدهما من حيث غلاظة الملوك فلا بد أن يكون عارفا بصفات الجواهر وأثمانها ونفائسها وخواصها لأنه ربما جرى ذكر شيء من ذلك بحضرة ملكه ، فتكون مشاركته فيه زيادة في رفعة محله ، وعلو مقداره ، وهذا هو الذي عول عليه صاحب "مواد البيان" في احتياج الكاتب إلى ذلك . والثاني أن يحتاج إلى وصف شيء من ذلك مع هدية تصدر عن ملكه أو هدية تصل إليه ، مع ما يحتاج إليه من ذلك لمعرفة التشبهات والاستعارات التي هي عمود البلاغة ، فمن لم يكن عارفا بأوصاف الأحجار ، ونفائس الجواهر لا يحسن التعبير عنها ، ألا ترى إلى تشبهات ابن المعتز ووصفه لجواهر كيف تقع في نهاية الحسنى ، و غاية الكمال لمعرفة المشاهدة فهو يقول عن علم ، ويتكلم عن معرفة "وليس الخبر كالمعاني" وقد أضحى الناس بالتصنيف في الأحجار في القديم والحديث .

فمن صنف فيه في القديم من حكماء الفلاسفة أرسطوطا ليس ، وبلينوس ، وپافوس الإنطاكي .

ومن صنف فيه من الإسلاميين أحمد بن أبي خالد المعروف بأبي الجزار ، ويعقوب بن إسحاق الكِنْدِي وغيرهما . وأحسن مصنف فيه مصنف أبي العباس أحمد بن يوسف التِّفَافِي .

والذي يتعلق الغرض منه بذلك اثنا عشر صنفا .

الصف الأول

(الؤلؤ)

وهو يتكوّن في باطن الصّلف ؛ وهو حيوانٌ من حيوان البحر الملح له جلد عظمي كاللّزون ، وينوص عليه القوّاصون ، فيستخرجونه من قعر البحر ، ويضعون به فيستخرجونه منه . وله مفاصل كثيرة ، إلا أن بطن النفس منه بسرّ نديب من الهند ؛ وبكيش ، وعمّان ، والبحرين من أرض فارس ؛ وأنقره لؤلؤ جزيرة خاركة ، بين كيش والبحرين .

أما ما يوجد منه ببحر القزم وسائر بحار الججاز فريء ولو كانت الدرّة منه في نهاية الكبر : لأنه لا يكون لها طائل ثمن . وجيد اللؤلؤ في الجملة هو الشفاف الشديد البياض ، الكثير الوزن ، الكثير الشكل ، المستدير الشكل ، الذي لا تضريس فيه ، ولا قفّ طلع ، ولا أعوجاج . ومن عيوبه أن يكون في الحبة قفّ طلع ، أو أعوجاج ، أو يلصق بها قفّر أو دودة ، أو تكون مجوّفة غير مصمتة ، أو يكون قهبا متسعا .

ثم من مصطلح الجوهرين أنه إذا اجتمع في الدرّة أوصاف الجوّدة ، فما زاد على وزن درمين ، ولو حبة يسمّى درّا . فإن قصت عن الدرّمين ولو حبة سمّيت حبة لؤلؤ ، وإذا كانت زتها أكثر من درمين وفيها عيب من العيوب ، فإنها تسمّى حبة أيضا ؛ ولا عبرة بوزنها مع عدم اجتماع أوصاف الجوّدة فيها ، وتسمّى الحبة المستديرة الشكل عند الجوهرين القارة ، وفي عرف العامة المندرجة . ومن طبع الجوهر أنه يتكوّن قشورا رقاقا طبقة على طبقة حتى لو لم يكن كذلك فليس على أصل الخلقة بل مصنوع .

ومن خواصه أنه إذا سحق وسقى مع سمن البقر نفع من السموم .

وقال ارسطوطاليس : من وقف على حل اللؤلؤ من كباره وصغاره حتى يصير ماء رَجَاجاً ثم طَلَّى به البرص أذهبه ، وقيمة الدرّة التي زنتها درهمان وحة مثلاً أو وحتبان مع اجتماع شرائط الجودة فيها سبعة دنانير ؛ فإن كان اثنتان على هذه الصفة كانت قيمتهما اثني دينار كل واحدة ألف دينار لاغناقهما في النظم ، والتي زنتها مثقال وهي بصفة الجودة قيمتها ثلثائة دينار ، فإن كان اثنتان زنتها مثقال وهما بهذه الصفة على شكل واحد لا تفريق بينهما في الشكل والصبورة ، كانت قيمتهما أكثر من سبعة دنانير . وقد ذكر ابن الطوير في تاريخ الدولة الفاطمية أنه كان عند خلفائهم ذرّة تسمى البيّمة زنتها سبعة دراهم تجعل على جبهة الخليفة بين عينيه عند ركوبه في المواكب العظام على ما سياتي . ذكره في الكلام على ترتيب دولتهم في المسالك والممالك إن شاء الله تعالى .

ويضره جميع الأدهان ، والجوّهضات بأسرها لاسيما الليمون ، ووهج النار ، والعرق ، وذفر الرائحة ، والاحتكاك بالأشياء الناشئة ، ويبلوه ماء حامض الأترج إلا أنه إذا أُخِجَ عليه به قشره وقصّ وزنه ، فإن كانت صفوته من أصل تكونه في البحر فلا سبيل إلى جلاها .

الصف الثاني

(الباقوت)

قال بلينوس : وهو حجر ذهبي ، وهو حصي يتكون بجزيرة خلف سرّنديب من بلاد الهند بنحو أربعين فرسخاً ، دورها نحو ستين فرسخاً في مثلها ، وفيها جبل عظيم يقال له جبل الزّاهون يُخْدر منه الريح والسيولُ الباقوت فينْقَط ، والباقوت حصىاؤه . وهو الجبل الذي أحبط الله تعالى عليه آدم عليه السلام ، فإذا لم تُخْدر السيولُ منه

شيئا، عمد أهل ذلك الموضع إلى حيوان فذبحوه وسلخوا جلده وقطعوه قطعاً كباراً وتركوه في سفع ذلك الجبل فيختطفه سُور تآوى إلى ذلك الجبل فتصعد بالهم إلى أعلاه فيلصق بها الياقوت ثم تأخذه النور وتنزل به إلى أسفل فيسقط منه ماعلوه به من الياقوت؛ فإذا أخذ كان لونه مظلماً ثم يشف بملاقة الشمس ويظهر لونه على أى لون كان .

ثم هو على أربعة أضرب .

الضرب الأول الأحمر - ومنه البهرمان، ولونه كلون العُصْفَر الشديد الحمره الناصع في القوة الذي لا يشوب حرته شائبة، ويسمى الرَّمَانِيّ لمشايبته حبَّ الرَّمَانِ الراثي الحب، وهو أعلى أصناف الياقوت وأفضلها وأغلاها ثمتا .

ومنه الخيريّ : وهو شبيه بلون الخيريّ : وهو المشور، ويتفاضل في قوة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

ومنه الورديّ : وهو كلون الورد ويتفاضل في شدة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

وأردأ ألوانه الورديّ الذي يضرب إلى البياض، والسماقيّ الذي يضرب إلى السواد .
الضرب الثاني الأصفر - وأعلاه الجُلُنَارِيّ، وهو أشده صفرة، وأكثره شعاعاً ومائّة، ودونه الخُلُقَوِيّ، وهو أقلُّ صفرة منه، ودونه الرقيق وهو قليل الصفرة كثير الماء ساطع الشعاع .

وأردأ الأصفر ما قص لونه ومال إلى البياض .

الضرب الثالث الأبيض - ومنه المهاييّ : وهو أشدها وأكثرها ماءً وأقواها شعاعاً، ومنه الذكر : وهو أقلُّ من المهاييّ وأقلُّ شعاعاً وأصلبُ حجراً، وهو أدونُ أصناف

الياقوت وأقلها ثمنًا . وأجود الياقوت الأحمر البهرمانى والرمانى والوردى التير المشرق اللون الشفاف ، الذى يتقدّم البصر بسرعة ، وعيوبه الشعرة : وهى شبه تشقيق يرى فيه ، والسوس : وهو خروق توجد فيه باطنة ويعلوها شئ من ترابية المعلن .

ومن أربا صفاته قبح الشكل .

ومن خواص الياقوت أنه يقطع كل الحجارة كما يقطعها المس ، وليس يقطعه هو على أى لون كان غير المس .

ومن خواصه أيضا أنه لا ينكح على خشب العُسر الذى تجلى به جميع الأحجار ، بل طريق جلته أن يكسر الخزع البمانى ويحرق حتى يصير كالنودة ثم يسحق بالماء حتى يصير كأنه الزأ ثم يملك على وجه صفيحة من نحاس حجر الياقوت ، فينبجل ويصير من أشد الجواهر صقالة .

ومن خواصه أنه ليس لشيء من الأحجار المشقة شعاع مثله ، وأنه أهمل من سائر الأحجار المساوية له فى المقدار ، وأنه يصبر على النار فلا يتكلس بها كما يتكلس غيره من الحجارة الفضية ، وإذا خرج من النار برد بسرعة حتى إن الإنسان يضعه فى فيه عقب إخراجها من النار فلا يتأثر به ، إلا أن لون غير الأحمر منه كالصفرة وغيرها يتحول إلى البياض ، أما الحمره فلأنها تقوى بالنار ، بل إذا كان فى الفص نُكْة حمراء ، فلأنها تنسج بالنار وتنسج فى الحجر . بخلاف النكته السوداء فيه ، فلأنها تنقص بالنار فذهبت حرته بالنار فليس يياقوت بل ياقوت أبيض مصبوغ ، أو حجر يشبه الياقوت .

ومن منافسه ما ذكره أوطاطا ليس ، أن التخم به يمنع صاحبه أن يصيبه الطاعون إذا ظهر فى بلد هوفيه ، وأنه يعظم لاسه فى عيون الناس ، ويسهل عليه

قضاء الحوائج، وتنهى له أسباب المعاش، ويقوى قلبه ويشجعه، وأن الصاعدة لا تقع غلى من تحتم به . وإذا وضع تحت اللسان، قطع العطش . وأمعنانه أن يُحكَّ به ما يشبه من الأحجار، فإنه يجرُّها بأسرها ولا تؤثره فيه . قال التيفاشى : وقيمة الأحمر الخالص على ما جرى عليه العرف بمصر والعراق أن الحجر إذا كان زنته نصف درهم، كانت قيمته ستة مثاقيل من الذهب الخالص، والحجر الذى زنته درهم قيمته ستة عشر ديناراً، والحجر الذى زنته مثقال قيمته بلينارين القيراط، والحجر الذى زنته مثقال وثلاث قيمته ثلاثة دنانير القيراط إلى ثلاثة ونصف، ويزيد ذلك بحسب زيادة لونه ومائته وكبر جرمة حتى ربما بلغ مازنته مثقال من جده مائة مثقال من الذهب إذا كان بهرماناً نهايةً فى الصبغ والمائية والشعاع، قد نقص منه بالتحك كثير من جرمة، وقيمة الأصفر منه زنة كل درهم بلينارين، وقيمة الأزرق والمهاقى كل درهم بأربعة دنانير، وقيمة الأبيض على النصف من الأصفر، ويختلف ذلك كله بالزيادة والنقص فى الصبغ والمائية مع القرب من المعدن والبعد عنه، وقد ذكر ابن الطوير فى ترتيب مملكة الفاطميين أنه كان عندهم حجر ياقوت أحمر فى صورة هلال زنته أحد عشر مثقالاً يعرف بالحافر، يحمل على جبين الخليفة بين عينيه مع الدرة المتقدمة الذكر عند ركوبه .

الصبغ الثالث

(البَلْخَشُ)

قال فى مسالك الأبحار : ويسمى اللؤلؤ . قال بلينوس : وأعنفاده فى الأصل ليكون ياقوتاً إلا أنه أبعد عن الياقوتية علل من اليُس والرطوبة وغيرهما، وكذلك سائر الأحجار الحجر، ومعدن البلخش الذى يتكون فيه بنواحى بلخشان، والعجم

قول : بَدْخْشَانْ بذال معجمة وهي من بلاد الترك تناخم الصين . قال التيفاشي :
 وأخبرني من رأى مَعْدَنَه من التَّجَارِ أَنَّهُ وجد منه في المَعْدِنِ حجرا وفي باطنه مالم
 يكمل طبعه وأنقاده بعد ، والمجر مجتمع عليه ، وهو على ثلاثة أضرب : أحمر مَعْقَرٌ
 وأخضر زَرْجَدِيٌّ ، وأصفر ، والأحمر أجوده . قال التيفاشي : وليس لجميعه شيء من
 خواص الياقوت ومنافسه ، وإنما فضيلته تشبه به في الصَّبْغِ والمائية والشعاع
 لا غير . قال : وقيمته في الجنة غالبا على النصف من قيمة الياقوت الجيد . قال
 في مسالك الأبصار : وهو لا يؤخذ من مَعْدِنِهِ إلا بتعب كثير وإتقان زائد ، وقد
 لا يوجد بعد التعب والإتقان ، ولهذا عُرِفَ وجوده ، وعُلِّتْ قيمته ، وكثر طالبه ،
 والتفتت الأعناق إلى التحلي به . قال : وأنفس قطعة وصلت إلى بلادنا من البَلْخَشِ
 قطعة وصلت مع تاجر في أيام العادل كتيبا وأحضرت إليه وهو يلتمس ، وكانت
 قطعة جليظة مثلثة على هيئة المَشْطِ العُودِي . وهي في نهاية الحسن وغاية الجُودَةِ ،
 زتها خمسون درهما ، كاد المجلس يُضَيء منها ، فأحضر الصاحبُ تَيمُ الدين الحنفِيَّ
 الجوهريَّ وسأله عن قيمتها فقال له تَيمُ الدين الجوهري : إنما يعرف قيمتها من
 رأى مثله ، وأنا وأنت والسلطان ومن حضر لم نر مثله فكيف نعرف قيمتها ؟
 فأُجِبَ بكلامه ، وصالح عليها صاحبها .

الصف الرابع (عين المِرَّة)

قال التيفاشي : وهو في معنى الياقوت إلا أن الأعراض المقتضرة به انعقدت عن
 الباقوتية ، ولذلك إنما يوجد في مَعْدِنِ الياقوت المتقدم ذكره ، وتخرجه الرياح

(١) في ياقوت أنها في أهل طارستان متاحة لبلاد الترك .

والسبيل كما تخرج الياقوت على ما تقدم ، قال : ولم أجده في كتب الأحجار ، وكأنه
محدث الظهور بأيدي الناس ، والغالب على لونه البياض بإشراق عظيم ومائة رقيقة
شفافة ، إلا أنه ترى في باطنه نكتة على قدر ناظر الحجر الحامل للنور المتحرك في قص
مقلته وعلى لونه : على السواد ، وإذا تحرك القص إلى جهة ، تحركت تلك النكتة
بخلاف جهته . فإن مال إلى جهة اليمين ، مالت النكتة إلى جهة اليسار وبالعكس ،
وكذلك الأعلى والأسفل ، وإن كسر الحجر أو قطع على أقل جزء ، ظهرت تلك
النكتة في كل جزء من أجزائه ، ولذلك يسمى حين الحجر .

وأجوده ما اشتد بياض أبيضه وشفيفه ، وكثرت مائة النكتة التي فيه مع سرعة
حركتها وظهور نورها وإشراقها ؛ ولا يخفى أن حسن الشكل وكبر الحجم يزيدان
في قيمته كسائر الأحجار . قال التيفانى : والمشهور من منافعه عند الجمهور أنه يحفظ
حامله من أعين السوء . وتقل عن بعض ثقاة الجواهرين أنه يجمع سائر الخواص
التي في الياقوت البهرمانى في منافعه ، ويزيد عليه بأن لا ينقص ماله حامله ولا تعثره
الآفات ، وأنه إذا كان في يد رجل وحضر مصاف حرب وهزم حربه فالتى نفسه
بين القتلى ، رآه كل من يتر به من أعدائه كأنه مقتول متسحط في دمه ؛ وإن ثمة
بالهند مع قرب معدنه أغلى من ثمة ببلاد المغرب بكثير ، لعلهم بخواصه ؛ وقيمته
تختلف بحسب الرغبة فيه ؛ وإذا وقع ببلاد المغرب بيع المتقال منه بخمسة دنانير ،
ويزيد على ذلك بحسب الفرض .

وذكر التيفانى عن بعض التجار أن حجرا منه بيع في المعبر من بلاد الهند بمائة
ونحسين دينارا وأنه بيع منه حجر ببلاد القرس بسبع مائة دينار .

الصف الخامس

(الأس)

قال بليزوس في كتاب الأحجار : وأبدأ في معدنه لينعقد ذهباً ، فأبمدته العوارض عن ذلك ، وهو يتكون في معدن الباقوت المقسم ذكره وتخرجه الرياح والسيول من معدنه كما تخرج الباقوت ، وهو ضربان : أحدهما أبيض شديد البياض يشبه البلور يسمى البلوري لذلك ، والثاني يخالط بياضه صفرة فيصير كلون الزجاج القرمزي ، ويمر عنه بالزرق . قال الكندي : والذي عاينته من هذا الحجر ما بين انحرطلة إلى الجوزة ولم أر أعظم من ذلك .

ومن خواصه أنه يقطع كل حجر يمر عليه ، وإذا وضع على مسندال حديد ودق بالمطرقة لم ينكسر ، وغاص في وجه السندال والمطرقة وكسرها ، ولا يلتصق بشيء من الأجساد إلا هشيم ويحو القووش التي في الأحجار كلها . وإنما ينكسر بأحد طريقين : أحدهما أن يجعل داخل شيء من الشمع ويدخل في أنبوب قصب وينقر بمطرقة أو غيرها برفق بحيث لا يباشر جسمه الحديد ، فينكسر حينئذ ، أو يجعل في أسرب وهو الرصاص ويفعل به ذلك فينكسر أيضا .

ومن خواصه أن الذباب يشتهي أكله فما سقطت منه قطعة صغيرة إلا سقط عليها الذباب وأبتلعها أو طار بها ، متى أبتلع منه الإنسان قطعة ، ولو أصغر ما يكون تحرق أعضاء وقتلته على الفور . قال أرسطوطاليس : وبينه وبين الذهب حجة يشبه به حيث كان .

ومن خاصته أن كل قطعة تؤخذ منه تكون ذات زوايا قائمة الرأس : ست زوايا وثمان زوايا وأكثر ، وأقله ثلاث زوايا ، وإذا كسر لا ينكسر إلا مثلثا ،

وبه يتقب الذر والياقوت والزمرد وغيرها من جميع ما لا يعمل فيه الحديد من الأحجار كما يتقب الحديد الخشب، بأن يركب في رأس منقار حديد منه قطعة بقدر ما يراد من معة القَب وضيقه ثم يتقب به، فيتقب بسرعة .

ومن مفعته فيما ذكره ارسطوطاليس أن من كان به الحصاة الحادثة في المثانة في مجرى البول إذا أخذ حبة من هذا الحجر والصقيها في مروء نحاس مضطك الصاقا محكما ثم أدخل المروء إلى الحصاة فإنها تنقبها . قال أحمد بن أبي خالد : وبذلك عالج وصيفا الخادم من حصاة أصابته وأمتنع من الشق عليها بالحديد . وقال ابن بوسطر : وإذا علق على البطن من الخارج، نزع من المقيس الشديد ومن فساد المعدة؛ وقيمته الوسطى فيما ذكره التيفاشي أن زنة قيراط منه دينارين؛ ونقل عن الكندي أن أغلى ما شاهد منه ببغداد المثقال بثمانين دينارا وأرخص ما شاهد منه ببغداد أيضا المثقال بخمسة عشر دينارا، وأنه إذا بدرت منه قطعة كبيرة تصلح لقص قدر نصف مثقال يضاعف ثمنها على ما هو قدر الخردلة أو الفلفلة ثلاثة أضعاف وأربعة وخمسة .

الصنف السادس

(الزمرد)

يقال بالذال المعجمة والمهملية . قال بلينوس : والزمرد ابتداء لينتقد ياقوتا، وكان لونه أخمر إلا أنه لشدة تكاثف الحجرة بعضها على بعض عرّض له السواد وامتزجت الحجرة والسواد فصار لونه أخضر؛ ومعدنه الذي يتكون فيه في الصخور بين بلاد مصر والسودان خلف أسوان من بلاد الديار المصرية ، يوجد في جبل هناك ممتد كالجمر فيه معادن . قال في مسالك الأبصار : وبينه وبين قوص ثمانية أيام بالسير

المعتدل ولا عمارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه، والماء عنده على مسيرة نصف يوم أو أكثر في موضع يعرف بقدير أعين . فنه ما يوجد قطعاً صغيراً كالخصى منبهة في تراب المعدن وهي القصوص وربما أصيب العرق منه متصلاً فيقطع وهو القصب وهو أجوده . قال في مسالك الأبصار : وتلك المروق منبهة في حجر أبيض تستخرج منه بقطع الحجر . قال التيفاشي : و يوجد على بعضه تربة كالكحل الشديد السواد، وهو أشد خضرة وأكثر ماء . وقد ذكر المؤيد صاحب سماء في تاريخه أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله لما استولى على قصر الفاطميين بعد موت العاضد، وجد فيه قصبة زمرّد طولها أربعة أذرع وأنحوها .

وهو على ثلاثة أضرب .

الأول الذبَابِيّ - وهو شديد الخضرة، لا يشوب خضرته شيء آخر من الألوان : من صفرة ولا سواد ولا غيرها، حسب الصّبح، جيد المائية، شديد الشعاع، ويسمى ذبابيا لمشابهة لونه في الخضرة لون كبار الذباب الأخضر الربيعي : وهو من أحسن الألوان خضرةً وبصيصاً . قال في مسالك الأبصار : وهو أقل من القليل بل لا يكاد يوجد .

الثاني الرِّيحَانِيّ - وهو مفتوح اللون، شبيه بلون ورق الرِّيحَان .

الثالث السَّلَاقِيّ - وخضرته أشبه شيء بلون السَّاق .

الرابع الصَّابُونِيّ - ولونه كلون الصابون الأخضر، قال في "مسالك الأبصار" : وإذا استخرج الزُّمْرُود من المعدن، جُعِلَ في زيت الحَكَّانِ ثم لُفَّ في قطن وصِرَ في خرقة كَنَّان ونحوها، ولم يزل العمل في هذا المعدن إلى أثناء النّوَلَةِ الناصرية محمد ابن قلاوون فترك لكثرة كلفته .

وأفضل أنواعه وأشرفها الذبَابِيّ، ويزداد حسنه بكثر الحرم، وأستواء القصبة،

وعلم الأعوجاج فيها . ومن عيوب الذبابي اختلاف الصبغ بحيث يكون موضع منه مخالفا لموضع الآخر ، وعلم الاستواء في الشكل ، والتشعير : وهو شبه شقوق خفية إلا أنه لا يكاد يخلو منه ، والرخاوة ، وخفة الوزن ، وشدة اللآسة والصقال والنمو ، وزيادة الخصرة والمائية إذا ركب على البطانة ؛ وهو يخل بالنار ويتكلس فيها ، ولا يثبت ثبات الياقوت .

ومن خاصية الذبابي التي أمتاز بها عن سائر الأحجار أن الأفاعي إذا نظرت إليه ووقع بصرها عليه ، أفتقت عيونها . قال التيفاشي : وقد جربت ذلك في قطعة زمردي ذبابي خالص ، فحصلت أفعى وجعلتها في طشت وألصقته بشمع في رأس سهم وقربته من عينها فسمعت قعقة خفية كما في قتل صوايا فنظرت إلى عينيها فإذا هما قد برزتا على وجهها وضعت حركتها . وبهذه الخاصية يتجن الزمرد الخالص من غيره كما يتجن الياقوت بالصبر على النار .

ومن منافعها أن من أذمن نظره أنهب عن بصره الكلال ؛ ومن تقتم به دفع عنه داء الصرع إذا كان قد لبسه قبل ذلك ؛ ومن أجل ذلك كانت الملوك تعلقه على أولادها ؛ وإذا كان في موضع لم تخر به ذوات السموم ؛ وإذا سحبل منه وزن ثمان شعيرات وسقيته شارب السم قبل أن يعمل السم فيه ، خلصته منه ؛ وإذا تقتم به من به ثقت الدم أو أسهاله ، منع من ذلك ؛ وإذا علق على المنة من خارج ، نفع من وجعها ؛ وشرب حكاكته ينفع من الجذام . وقيمة الذبابي الخالص في الحجر الذي زنته درهم أربعة دنانير القيروط ، ويتضاعف بحسب كبره ، وينقص بحسب صغره ؛ إلا أنه لا ينقص بالصغر نقص غيره من الأحجار لوجود خاصيته في الكبير والصغير والمعوج والمستقيم . أما بقية أصناف الزمرد ، فإنه لا قيمة لها يستند بها لعدم المنافع الموجودة في الذبابي .

الصنف السابع

(الزبرجد)

وهو حجر أخضر يتكون في معدن الزمرّد؛ ولذلك يظنه كثير من الناس نوعاً منه إلا أنه أقل وجوداً من الزمرّد . قال التيفانى : أما في هذا الزمان فإنه لا يوجد في المعدن أصلاً، وإنما الموجود منه بأيدي الناس فصوص تستخرج بالنش من الآثار القديمة بالإسكندرية؛ وذكر أنه رأى منه قصاً في يد رجل أخبره أنه استخرجه من هناك، زنته درهم، لا يكاد البصر يقطع عنه لرقه مائه، وحسن صفائه . وأجوده الأخضر المعتدل الخضرة، الحسن المائية، الرقيق المستشف، الذي ينقده البصر بسرعة؛ ودونه الأخضر المفتوح اللون؛ وليس فيه شيء من خواص الزمرّد إلا أن إدمان النظر إليه يحلو البصر . وقيمة خالصه نصف درهم بدينار .

الصنف الثامن

(القيروذج)

وهو حجر نحاسي يتكون في معادن النحاس من الأبحرة الصاعدة منها، إلا أنه لا يوجد في جميع معادن النحاس؛ ومعدنه الذي يوجد فيه ينسابور، ومنه يجلب إلى مائر البلدان؛ ومنه نوع آخر يوجد في نساور إلا أن النيسابوري خير منه؛ وهو ضربان بسطاق^(١) وخلتجي، والخالص منه العتيق هو البسحاق وأجوده الأزرق الصافي اللون، المشرق الصفاء، الشديد الصقالة، المستوى الصبغ؛ وأكثر ما يكون فصوصاً؛ وذكر الكندي أنه رأى منه حجراً زنته أوقية ونصف .

ومن خاصته أنه يصفو بصفاء الجو ويكبر بكبرته وإذا مسه النهن ذهب حسنه وخير لوته، والعرق يطفى لوته، والمسك إذا باشره، أفسده وأذهب حسنه؛

(١) في مفردات ابن الطيار سنجاب ولعل ما في الاصل تصحيف .

وإذا وضع القص الجيد منه إلى جانب ما هو دونه في الجودة، أذهب بهجته؛ وإذا وضع إلى جانب الدهنج غلب الدهنج على لونه فأذهب بهجته ولو كان القص الغير وزج في غاية الحسن والجودة .

ومن منافعه أنه يحلو البصر بالنظر إليه ؛ وإذا سحق وشرب فقع من لدغ العقارب ؛ وقيمته تختلف باختلاف الجودة اختلافا كثيرا فربما كان القصان منه زتهما واحدة وثمن أحدهما دينار وثن الآخر درهم . وبالجمله فالتحمتجى الجيد على النصف من البسحاق الجيد . قال التيفاشي : وأهل المغرب أكثر الناس له طلبا وأشتم في ثمنه مغالاة، وربما بلغوا بالقص منه عشرة دنانير مغربية ويحرمون على الصخر به، وربما زعموا أنه يدخل في أعمال الكيمياء .

الصنف التاسع (الدهنج)

وقد ذكر أرسطوطاليس أنه أيضا حجر نجاسي يتكون في معادن النحاس يرتفع من أنجرتها وينعقد، لكنه لا يوجد في جميع معادن كرمان وبيجستان من بلاد فارس . قال : ومنه ما يؤتى به من غار بنى سليم من برية المغرب، في مواضع أخرى كثيرة . وأجود أنواعه أربعة : وهي الافرندي، والمهندى، والكرمانى، والكركى؛ وأجوده في الجملة الأخضر المشبع الخضرة، الشبه اللون بالزمررد، معرق بخضرة حسنة، فيه ألهة وعيون بعضها من بعض حسان، وأن يكون صلبا أملس يقبل الصقالة .

ومن خاصته في نفسه أن فيه رخاوة بحيث إنه إذا صنع منه آنية أو نصب للسكاكين ومربت عليه أعلامد ستين ، ذهب نوره لرخاوته وأجمل ، ولذلك إذا حلك انحك سريعا ، وإذا خرط خرزا أو أوانى أو غير ذلك ، كان في خرطه سهولة ،

وإذا وقع في الزيت أشتدت خضرته وحسن، فإن غُفِلَ عنه حتى يطول لبثه في الزيت، مال إلى السواد .

ومن منافعه أنه إذا مسح به على مواضع لدغ العقرب، سكنه بعض السكون ؛ وإذا سحق منه شيء وأذيب بالخل وذلك به موضع القوبة الحادثة من المرة السوداء، أذهبها .

ومن عجيب خواصه أنه إذا سقى من سُحَّالته شارب سُمِّ قومه بعض النفع ؛ وإن شرب منه من لم يشرب سماً، كان سماً مفراطاً يَنْقُطُ الأَمْعَاءُ، وَيُلْهَبُ البِلْدَنُ ، ويحدث فيه سماً لا يبرأ سراً^(١)، لا سيما إذا حُكَّ بمجديدة ؛ ومن أمسكه في فيه ومصه أضربه ؛ وقيمته أن الأفریدی الخالص منه كل متقال بمِثْقَالَيْنِ من الذهب، ويوجد منه فصوص وغيرها . وقد ذكر بقوب بن إسحاق الكندي أنه رأى منه صحيفة تسع ثلاثين رطلا .

الصف العاشر

(البُور)

قال بليونس : وهو حجر بُورْقِي وأصله الباقوتية إلا أنه فعلت به أعراض عن بلوغ رتبة الباقوت ؛ وقد اختلف أصحاب الشافعية رحمهم الله في قعاسته على وجهين، أحدهما أنه من الجوهر النقيس كالباقوت ونحوه، والثاني أنه ليس بنفسين لأن قعاسته في صناعته لا في جوهره . ويوجد بأماكن منها بركة العرب من أرض الحجاز وهو أجوده، ومنه ما يؤتى به من الصين وهو دونه ، ومنه ما يكون ببلاد الفرنجة وهو في غاية الجودة، ومنه معادن توجد بأرمينية تميل إلى الصفرة الزجاجية . وقد ذكر التيفاشي أنه ظهر في زمنه معدن منه بالقرب من مراكش من المغرب

(١) في مفردات ابن الجار برّا . وهي أرض .

الأقصى إلا أن فيه شعيرا، وكثر عندهم حتى فرش منه الملك المغرب مجلس كبير: أرضا وحيطانا . ونقل عن بعض التجار أن بالقرب من غزنة من بلاد الهند على مسيرة ثلاثة عشر يوما منها بينها وبين كاشغر، جبلين من بلور خالص مطليين على وادٍ بينهما وأنه يُقَطَّعُ في الليل لتأثير شعاعه إذا طلعت عليه الشمس بالنهار في الأعين . وأجوده أصفاه وأقواه وأشغف وأبيضه وأسلمه من التسمير، فإن كان مع ذلك كبير الحرقم، آنية أو غيرها كان غاية في نوعه . وقد ذكر الكندي أن في البلور قطعاً تخرج كل قطعة منه من المعدن أكبر من مائة من . ونقل التيفاشي : أنه كان بقصر شهاب الدين الغوري صاحب غزنة أربع خوابٍ للاء كل خابية تسع ثلاث رَوَايا ماء على حامل من بلور، كل محمل مائتين ثلاثة قناطير إلى أربعة . وذكر أيضا أنه رأى منه صورة ديك مخروط من صنعة الفرج إذا صب فيه الشراب ظهر لونه في أظفار الديك .

ومن خاصيته ما ذكره أوفرستس الحكيم أنه يذوب بالنار كما يذوب الزجاج ويقبل الصبيغ .

ومن خاصيته أيضا أنه إذا استقبل به الشمس ووجه موضع الشعاع الذي يخرج منه إلى حرقية سوداء، احترقت وظهر فيها النار .

ومن منافعه أن من تحتم به أو قلعه عليه لم يرمم سوء . وقيمته تختلف بحسب كبير آنيته وصفرها وإحكام صنعها . قال التيفاشي : وبالجملة فالقطعة التي تحمل^(١) منه رطلا إذا كانت شديدة الصفاء سالمة من التسمير، تساوي عشرة دنانير مصرية .

(١) مراده وزن ولكنه كثيرا ما يستعمل بعض لغات العامة .

الصنف الحادى عشر

(المرجان)

وهو حجر أحمر في صورة الأشجار المتشعبة الأغصان؛ ومعدنه الذى يتكون فيه بموضع من بحر القلزم بساحل إفريقية، يعرف بمسمى الخرز، ينبت بقاعه كما ينبت النبات، وتعمل له شبك قوية مثقلة بالرصاص، وتدار عليه حتى يلتصق فيها، ويجذب جذبا عنيقا فيطلع فيها المرجان. وربما وجد ببعض بلاد القريجة إلا أن الأكبر والأكثر والأحسن بمسمى الخرز، ومنه يجلب إلى بلاد المشرق. ولأهل الهند فيه رغبة عظيمة، وإذا أخرج، حك على مسن الماء، ويحل بالسنبادج المعجون بالماء على رخصة فيظهر لونه، ويحسن؛ ويتقب بالفولاذ أو الحديد المسقى. وأجوده ما عظم حرمة، وأستوت قصباته، وأشتلت حمرته، وسلم من التسويس؛ وهو خروق توجد في باطنه حتى ربما كان منه شيء خاير كالعظم؛ وأردؤه مامل منه إلى البياض أو كثرت عقدته وكلف فيه تشطيب، ولا سبيل إلى سلامته من العقد لوجود التشعب فيه، فإن اتفق أن تقع منه قطعة مصمتة مستوية لا عقد فيها ولا تشطيب، كانت في نهاية الجودة. وقد يوجد منه قطع كبار تصحمل إلى صاحب إفريقية فيعمل له منها دوى وأنضبة سكاكين. قال التيفاشي: رأيت منها بحيرة طول شبر ونصف، في عرض ثلاث أصابع، وأرتفاع مثلها، بنطائها في غاية الحمره وصفاء اللون. وقد ذكر ابن الطوير في تاريخ الدولة الفاطمية بالديار المصرية وترتيبها: أنه كان خلفاء الفاطميين دواة من المرجان تحمل مع الخليفة إذا ركب في المواكب العظام أمام راجب على فرس، كما ساقى ذكره في الكلام على المسالك والممالك، في المقالة الثانية فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ومن خاصته في نفسه أنه إذا ألقي في الخل لآن وأبيض؛ وإن طال مكثه فيه

أنخل، وإذا آتخذه منه خاتم أو غيره وليس جميعه بالشمع ثم نقش في الشمع بإبرة بحيث ينكشف رجم المَرْجَلات وجعل في خل النحر الحاذق يوما وليلة أو يومين وليتين ثم أخرج وأزيل عنه الشمع، ظهرت الكتابة فيه حفرًا بتأثير النخل فيه، وبقية الخاتم على حاله لم يتغير. قال التيفاشي: وقد جربنا ذلك مرارا، ومتى ألقى في الدهن ظهرت حُمرة وأشرق لونها.

ومن منافعه فيما ذكره الإسكندر أنه إذا حلق على المصروع أو من به القُرْس، فغمه، وإن أحرق وأستق به، زاد في بياض الأسنان وقلع الحفر منها وقوى اللثة، وطريق إحراقه أن يعمل في كوز نحاس ويطين رأسه ويوضع في تَوْر ليلة، وإذا صحق وشربه من به صسر البول، فغمه ذلك، ويحلل أورام الطحال بشره، وإذا حلق على المَعِدَة نفع من جميع ظلهما كما في الزُّمرد، وإذا أحرق على ما تقدم وشرب منه ثلاثة دوايق مع دائق ونصف صمغ عربي بياض البيض وشرب بماء بارد، نفع من نَقَث الدم. قال التيفاشي: وقيمته بأفريقية غشيا الرطل المصري من خمسة دنانير إلى سبعة مغربية، وهي بقدر دينارين إلى ما يقاربهما من الذهب المصري، وبالإسكندرية على ضعف ذلك وثلاثة أضعافه، ومن أسكندرية يحمل إلى سائر البلاد، ويختلف سعره بحسب قرب البلاد وبعدها، وقلته، وكثرته، وصغره، وجودته، وردائه، وحسن صنعته.

الصفنف الثاني عشر

(البازهر الحيواني)

وهو حجر خفيف هش. وأصل تكوُّنه في الحيوان المعروف بالألَّيل يتخوم الصين. وإن هذا الحيوان هناك يأكل الحيات، قد أعتاد ذلك غذاء له، فيحدث عن ذلك

وجود هذا الحجر منه على ماسياتي بيانه، وقد اختلف الناس في أى موضع يكون من هذا الحيوان، فقيل إنه يتكون في مآقي عينيه من الدموع التي تسقط من عينيه عند أكل الحيات ويترتب الحجر حتى يكبر فيحتمل فيسقط عنه. وقيل يكون في قلبه فيصاير لأجله ويدبح ويستخرج منه . وقيل في مرارته . قال أرسطاطاليس : وله ألوان كثيرة منها الأصفر والأخضر المشرب بالحرارة والمشرّب بالياض . وأعظم ما يوجد منه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل . وأجوده الخالص الأصفر الخفيف المش . ويستدل على خلوصه بكونه ذا طبقات رقائق متراكبة كما في اللؤلؤ، وبه قبط خفية سود، وأن يكون أبيض المحك مر المذاق . قال التيفاشي : وكثيرا ما يُشّص فتصنع حجارة صغار مطبقة من أشياء مجموعة تشبه شكل الباذهر الحيواني ولكنها تميز عن الباذهر الحقيقي بأن المصنوع أغبر كمد اللون ساذج غير منقط، والباذهر الحقيقي الخالص أصفر أو أخضر بصفرة فيه نقط صغار كالتمش ، وطبقاته أرق من طبقات المصنوع بكثير، وهو أحسن من المصنوع وأهش وعظمه أبيض .

ومن خاصته في نفسه أن احتكاكه بالأجسام الخشنة يحنّثه ويغير لونه وسائر صفاته حتى لا يكاد يعرف . وقد ذكر التيفاشي أنه كان معه حجر منه ، فجعله مع ذهب في كيس وسافر به فأحتك بالذهب فتغير لونه ونقص وزنه حتى ظن أنه غير عليه ، وأنه ربطه بعد ذلك في خرقة وتركه أياما فصار في الصفة إلى ما كان، إلا أنه بقي على نقص ماذهب منه .

ومن منافعه دفع السموم القاتلة وغير القاتلة، حارة كانت أو باردة : من حيوان كانت أو من نبات ؛ وأنه ينفع من عضّ الحوام ونهشها ولدغها ، وليس في جميع الأحجار ما يقوم مقامه في دفع السموم . وقد قيل إن معنى لفظ باذهر النافى للسم ، فإذا شرب منه المسموم من ثلاث شعيرات إلى اثنتي عشرة شعيرة مسحوقة

أو مسحوكة أو محكوكة على المبرّد بزيت الزيتون أو بالماء ، أخرج السم من جسده بالمرق ، وخلصه من الموت . وإذا سحق وقرّ على موضع النمشة جذب الدم إلى خارج وأبطل فعله . قال ابن جمع : وإن حُكّ منه على مسنّ في كل يوم وزن نصف دائق وسقيته الصحيح على طريق الاستعداد والأحياط ، قاوم السموم القتّالة ولم تحمّس له غائلة ولا إفارة خلط ، ومن تحمّس منه يوزن أثقّى عشرة شعيرة في فصّ خاتم ثم وُضع ذلك الفصّ على موضع اللدغة من المقارب وسائر الهوام ذوات السموم ، نفع منها نفعا بينا ، وإن وضع على فم الملدوغ أو من سقى سما نفعه . قلت : هذه هي الأحجار النفيسة الملوكة التي تلتفت الملوك إليها وتعنى بشأنها ، أما غيرها من الأحجار كالبنفش ، والعقيق ، والجَزَع ، والمِفْطاطيس ، واليشم ، والسبع ، والألّازورد وغيرها مما ذكره المصنفون في الأحجار فلا اعتداد به ولا نظر إليه ولذلك أهملت ذكره .

النوع السادس

(نفيس الطيب)

ويحتاج الكاتب إلى وصفه عند وصوله في هدية وما يجري مجرى ذلك ، والمعتبر منه أربعة أصناف .

الصنّف الأوّل

(المسك)

وهو أجّلها . قال محمد بن أحمد التيمي المقلّبي في كتابه "طبيب المروس" : وأصل المسك من دابة ، ذات أربع ، أشبه شيء بالظبي الصغير ، قيل لها قرن واحد ، وقيل قرنان ، غير أن له نايتين رقيقين أبيضين في فكّه الأسفل خارجين من فيه قائمين

في وجهه كالخيزر . قال بعض أهل المعرفة بالمسك : وهو فضل دموى يجتمع من جسمها إلى سرتها ، بمنزلة المواد التي تنصب إلى الأعضاء في كل سنة في وقت معلوم ، فيقع الورم في سرتها ويجتمع إليها دم غليظ أسود فيشتد وجهها حتى تمسك عن الرعي وورود المياه حتى يسقط عنها .

ثم قيل إن تلك الظباء تصاد وتذبح وتؤخذ سررها بما عليها من الشعر ، والمسك فيها دم عيظ : وهي النوايح ، فإن كانت النابغة كثيرة الدم ، اكتفى بما فيها ، وإن كانت واسعة قليلة الدم ، زيد فيها من غيرها ، ويصب فيها الرصاص المذاب ويحاط بالجلوس وتعلق في حلق مستريح أربعين يوما ، ثم تخرج وتعلق في موضع آخر حتى يتكامل جفافها وتشتد رائحتها ، ثم تُصير النوايح في مزاول مسفارة وتخيطنها الثعالب وتعملها . وقيل إنه ينبت لهذه الظباء حين يعرض لها هذا العارض بناء كالنارة في طول عظم الذراع لتأتي الظباء فضك سررها بذلك البناء تنسقط النوايح ، حتى إنه يوجد في تلك المراعاة ألوف من النوايح ما بين رطب وبيامد .

ثم قيل إن هذه الظباء توجد بغازات بين الصين وبين التبت والصغد من بلاد الترك ، وإن أهل التبت يلتقطون ما قرب إليهم ، وقد قيل إن المسك يحبل إلى التبت من أرض بينها وبين التبت مسيرة شهرين .

وبالجملة فإنه تختلف أسماء أنواعه باختلاف الأماكن التي ينسب إليها ، إما باعتبار أصل وجوده فيها ، وإما باعتبار مصيره إليها . وأجوده في الجملة ما طلب مرعى عليه ، ومرعى طلبه النبات الذي يتخذ منه الطيب كالسنبل ونحوه ، ولا يخفى أن بعض نبات الطيب أطيب رائحة من بعض حتى يقال إن منه ما رائحته كرائحة المسك . وقيل أجوده ما نكل في الظبي قبل بينوته عنه . وقال أحمد بن يعقوب : وأجود المسك في الرائحة والنظر ما كان تخافا تشبه رائحته رائحة التفاح اللباني ،

وكان لونه ينقلب عليه الصُّفرة ، ومقاديره وسطا بين الحلال والراق ، ثم ما هو أشد سوادا منه إلا أنه يقاربه في الرأى والمنظر ، ثم ما هو أشد سوادا منه ، وهو أدناه قدرا وقيمة . قال : وبلغنى عن تجار الهند أن من المسك صنفين آخرين يُفقدان من نبات أرض : أحدهما لا يفسد بطول المكث ، والثانى يفسد بطول المكث ، والمشهور منه عشرة أصناف .

ونحن نوردنا على ترتيبها فى الفضل مقلما منها فى الذكر الأفضل فالأفضل على ما رتبته أحمد .

الأول الثبتي - وهو ما حمله التجار من الثبتي إلى ثراسان على الظهر لطيب سرعاه ، وحمله فى البر ، دون البحر .

الثانى الصنفى - وهو ما حمل من الصنفى من بلاد الترك على الظهر إلى ثراسان .
الثالث الصنفى - وإنما قصبت رتبته لأن سرعاه فى الطيب دون مرعى الثبتي ، ولما يسلطه من صفوة هواء البحر بطول مكثه فيه . وأفضل الصنفى ما يؤتى به من خانقو : وهى مدينة الصين العظمى ، وبها ترسو مراكب تجار المسلمين ، ومنها يحمل فى البحر إلى بحر فارس ، فإذا قرب من بلد الأبله ارتفعت رائحته ، وإذا خرج من المركب جادت رائحته وذهبت عنه رائحة البحر .

الرابع الهندى - وهو ما يحمل من الثبتي إلى الهند ثم يحمل من الهند إلى الديبل ثم يحمل فى البحر إلى سيرااف من بلاد العجم ، وثمان من البحرين ، وصدن من اليمن ، وغيرها من النواحي . وسبب انحطاط رتبته عن الصنفى وإن كان من جنس الثبتي مع أنه أقرب مسافة من الصنفى ما ذكره المسعودى : أنه إذا حمل إلى الهند أخذته كفرة الهند فطغخوه على أصنامهم من العام إلى العام ثم يتكلمونه بغيره ، وبيعته مسدنة الأصنام فيطول مكثه على الأصنام تضعف رائحته . على أن مجد بن العباس قد فضل الهندى على الصنفى لقرب مسافة حمله فى البحر .

الخامس القنبارى - ويرقى به من بلد تسمى قنبار بين الصين والتبت . قال
أحمد بن يعقوب : وهو مسك جيد إلا أنه دون التبتى فى القيمة ، والجوهر ،
واللون ، والرائحة . قال : وربما غلطوا به فنسبوه إلى التبتى .

السادس الطغرغزى - وهو مسك رزين يضرب إلى السواد ، يرقى به من
أرض الترك الطغرغز وهم التتر ، وهو بطل السحق ، ولا يسلم من الخشونة إلا أنهم
ربما غلطوا به أيضا .

السابع القصارى - ويرقى به من بلد يقال لها القصار بين الهند والصين .
قال ابن يعقوب : وقد يلحق بالصفى إلا أنه دونه فى الجوهر والرائحة والقيمة .
الثامن الجزيرى - وهو مسك أصغر ، حسن الرائحة ، يشابه التبتى إلا أن فيه زفارة .
التاسع الجليل - وهو مسك يرقى به من السند من أرض الموليان ، وهو كبير
الخواص حسن اللون إلا أنه ضعيف الرائحة .

العاشر المصارى - وهو أضعف أصناف المسك كلها وأدناها قيمة ، يخرج
من النافخة التى زيتها أوقية زنة درهم واحد من المسك .

قلت : أما المسك الدارى فإنه منسوب إلى دارين : وهى جزيرة فى بحر فارس
معدودة من بلاد البحرين ترسو إليها مراكب تجار الهند ، ويحمل منها إلى الأقطار
وليست بمسك للمسك .

الصف الثاني

(العنبر)

قال محمد بن أحمد التيمي : والأصل الصحيح فيه أنه ينبع من صخور وعيون
فى الأرض ، يجمع فى قفار البحر ، فإذا تكاثف اجتذبه النعانة التى هى فيه على

أقنطاره من موضعه الذى تعلق به، وعلقاً على وجه الماء، وهو حار ذائب فتقطع له
الريح وأمواج البحر قطعاً كباراً وصغاراً ترمى به الريح إلى السواحل، لا يستطيع
أحد أن يدنو منه لشدة حره وفورانه، فإذا أقام أياماً وضربه الهواء جمد، فيجمعه
أهل السواحل. قال أحمد بن يعقوب: وربما ابتلعت سمكة عظيمة يقال لها
الكال وهو فائر فلا يستقر في جوفها حتى تموت فتطفو ويطرحها البحر إلى الساحل
فيشق جوفها ويُستخرج منها، ويسمى العنبر السمكى، والعنبر المبلوع. قال التيمي:
وهو في لونه شبه النار، ردىء في الطيب: للسهوة التي يكتسبها من السمك.
قال: وربما طرح البحر القطعة العنبر فيصيرها طائر أسود كالخطاف فيعرف عليها
بجحاحيه، فإذا سقط عليها ليختطف بمقاربه منها تعلق مقاربه وغاليه بها فيموت
ويبقى ويبقى مقاربه وغاليه فيها، ويعرف بالعنبر المتأقيرى.

قال التيمي: ولأهل سواحل البحر التي يوجد بها العنبر يحب ركوبها مؤدبة
تعرف العنبر، يسرون عليها في ليل القمَر على شاطئ البحر فإذا رأت العنبر وقد نام
راكبها أو غفل، بركت بصاحبها حتى ينزل عنها فيأخذها.

قال التيمي: وألوان العنبر مختلفة. منها الأبيض: وهو الأشهب، والأزرق،
والرمادى، والجزازى: وهو الأبرش، والصفاح: وهو الأحمر، وهما أدنى العنبر.
قدراً. قال: وأفضل العنبر وأجوده ما جمع قوة رائحة، وذكاء بغير زطارة.

قال أحمد بن يعقوب: وأنواع العنبر كثيرة، وأصنافه مختلفة، ومعادنه متباينة.
وهو يتفاضل بمادته ويجهره، والذي وقفت على ذكره منه ستة أضرب.

الأقول الشجرى... وهو ما يقذفه بحر الهند إلى ساحل الشجر من أرض
الين. قال: وهو أجود أنواع العنبر، وأرفعه، وأفضله، وأحسنه لوناً، وأصفاه جوهرًا
وأغلاه قيمة.

الثاني الزنجي - وهو ما يقذفه بحر البربر الآخذ من بحر الهند في جهة الجنوب إلى سواحل الزنج وما والاها ، قال التيمي : وزعم الحسين بن يزيد السيرا في أنه أجود المعبر وأفضله ، ويؤتى به منها إلى عدن ، ولونه البياض .

الثالث السلاطلي - قال التيمي : وأجوده الأزرق الدسم الكثير الشعر ، وهو الذي يستعمل في الفوال .

الرابع القاقلي - وهو ما يؤتى به من بحر قاقلة من بلاد الهند إلى عدن من بلاد اليمن ، وهو أشهب جيد الريح ، حسن المنظر خفيف ، وفيه بلس يسير ، وهو دون السلاطلي لا يصلح للفوال إلا عن ضرورة ، وهو صالح للذرائع والمكاسات .

الخامس الهندى - وهو ما يؤتى به من سواحل الهند الداخلة ، ويحمل إلى البصرة وغيرها ، ومنه نوع يؤتى به من الهند يسمى الكرك بالوس ، يأتون به إلى قرب عمان تستقر به منهم اصحاب المراكب .

السادس المغربى - وهو ما يؤتى به من بحر الأندلس فصحله الثمار إلى مصر ، وهو اردا الأنواع كلها ، وهو شبيه في لونه بالمعبر الشحرى . قال التيمي : وفيما يطبه فيه .

قال التيمي : ومن المعبر صنف يعرف بالندي ، وتقل عن جماعة من أهل المعرفة أن دابة تخرج من البحر شبيهة ببقر الوحش فتلقيه من دبرها فيؤخذ وهو لين يمتد فإكان منه صلب الرائحة حسن الجوهر فهو أفضله وأجوده . قال : وهو أصناف أحدها الشحرى : وهو أسود فيه صفرة ، يتخضب اليد إذا لمس ، ورائحته كرائحة المعبر اليابس ، إلا أنه لا بقاء له على النار . وإنما يستعمل في الفوال إذا عثر المعبر السلاطلي ، ومنه الزنجي : وهو نظير الشحرى في المنظر ودونه في الرائحة : وهو أسود بنير صفرة ، ومنه الخمرى : وهو يتخضب اليد وأصول الشعر خضبا جيدا ، ولا ينفع في الطيب .

قلت : اما المعروف في زماننا بالمعبر مما يلبسه النساء وإنما يقال له النَّد، وفيه جزء من المعبر . قال في نهاية الأرب : وهو على ثلاثة أضرب .

الأول المثلث - وهو أجودها وأعطرها ، وهو رُكَّب من ثلاثة أجزاء : جزء من المعبر الطيب ، وجزء من العود الهندى الطيب ، وجزء من المسك الطيب .

الثانى وهو دونه أن يعمل فيه من المعبر الخام الطيب عشرة مثاقيل ، ومن النَّد المتبقى الجيد عشرة مثاقيل ، ومن العود الجيد عشرون مثقالا .

الثالث - وهو أدناها أن يؤخذ لكل عشرة مثاقيل من الخام عشرة مثاقيل من النَّد المتبقى وثلاثون مثقالا من العود ، ومن المسك ما أحب .

الصف الثالث

(العود)

قال التيمي : أخبرني أبي عن جماعة من أهل المعرفة أنه شجر عظيم شتهت ببلاد الهند ، فنه ما يعلب من أرض قشيمر الداخلة : من أرض سرنديب ، ومن قسار ، وما اتصل بتلك النواحي ، وأنه لا تصير له رائحة إلا بعد أن يمتق . ويقتشر فإذا قشر وجفف ، حمل إلى النواحي حينئذ . قال : وأخبرني بعض العلماء به أنه لا يكون إلا من قلب الشجرة ، بخلاف ما قارب القشمر كما في الآبنوس والمُتاب ونحوهما من الأشجار التي داخلها فيه دعانة وما في خارجها خشب أبيض ، وأنه يقطع ويقطع ظاهره من الخشب الأبيض ، ويدفن في التراب سبعين حتى تأكل الأرض ما داخله من الخشب ويبقى العود لا تؤثر فيه الأرض .

وحكى محمد بن العباس أنه يكون في أودية بين جبال شاهقة ، لا وصول

لأحد إليها لصعوبة مسلكها، فيتكسر بعض أشجاره أو يتعفن بكثرة السيول لِمَمَرِ
الزَّمان فتأكل الأرض ما فيه من الخشب وينقُ صميمُ العود وخالصه فتجزئه النبل
وتُحَرِّجُه من الأودية إلى البحر فتقذفه الأمواج إلى السواحل فيلقطه أهل السواحل
ويجمعونه فيمونه . ويقال إنه يأتي به قوم في المراكب إلى ساحل الهند فيقفون على
البعد بحيث لا ترى أشخاصهم، ثم يطلعون ليلا فيضعونه بفرصة تلك البلاد، ويخرج
أهل البلد نهارا فيضعون بإزماته بضائع ويتركونها إلى الليل، فيأتي أصحابُ العود فن
أعجبه ما بإزاء متاعه أخذه ولا تركه ؛ فيزيدونه حتى يسجبه فأخذه، كما يحكي
في السُّمُورِ وغيره في ساكني أقصى الشمال .

وأجود العود ما كان صلباً، رزينا، ظاهر الرطوبة، كثير المائية والشمعية، الذي
له صبر على النار، وظلماً، وبقاء في الثياب .

أما اللون فافضله الأسود والأزرق الذي لا يبيض فيه ؛ ثم منهم من يفضل
الأسود على الأزرق ؛ ومنهم من يفضل الأزرق على الأسود .
وهو على ثمانية عشر ضرباً .

الأول المنثلي - نسبة إلى معدنه ؛ وهو مكان يقال له المنثلي من بلاد الهند .
قال محمد بن العباس الخشبي : وهو أرفع أنواع السُّود وأفضلها وأجودها وأبقاها
على النار وأعقبها بالثياب . على أن التجار لم تكن تجلبه في الجاهلية وإلى آخر الدولة
الأموية^(١)، ولا ترضف في حمله للراة في رايحة إلى أن دخل الحسين بن برمك إلى بلاد
الهند هارباً من بني أمية ، ورأى العود المنثلي فاستجاده ورغب التجار في حمله ،
فلما غلب بنو العباس على بني أمية ، وحضر بنو برمك إليهم وقربوهم، دخل الحسين

أبن يرمك يوما على المنصور فراه يتغير بالعود القمارى فأعلمه أن عنده ماهو أطيب منه، فأمره بإحضاره، فأحضره إليه فاستحسبته، وأمر أن يكتب إلى الهند يحمل الكثير منه، فاشتهر بين الناس وعز من يوشذ، وأحتمل ما فيه من مرارة الرائحة وزعارتها لأنها تقتل القمل وتنتع من تكوُّنه في الثياب^(١).

الثاني القامرونى - وهو ما يجلب من القامرون : وهو مكان مرتفع من الهند. وقيل القامرون أسم لشجر من شجر العود ؛ وهو أغل العود ثما وأرفعه قدرا .

قال التيمي : وهو قليل لا يكاد يجلب إلا في بعض الحين ؛ وهو عود رطب جدا، شديد سواد اللون، وزين، كثير الماء . وذكر الحسين بن يزيد السيرافى أنه ربما ختم عليه فانقطع وقيل الختم للينه . قال : ويكون فيه ما قيمة المن منه مائتا دينار .

. الثالث السمندورى - وهو ما يجلب من بلاد سمندور، وهى بلد سفالة الهند، ويسمى لطيب رائحته ريحان العود، وبعضه يفضل بعضا . قال التيمي : وتكون القطعة الضخمة منه متا واحدا .

الرابع القمارى - وهو ما يجلب من قمار، وهى أرض سفالة الهند، وبعضه يفضل بعضا أيضا، وتكون القطعة منه نصف رطل إلى مادن ذلك .

الخامس القاقلى - وهو ما يجلب من جزائر بحر قاقلة، وهو عود حسن اللون، شديد الصلابة دسم، فيه ريحانية حمرة، وله بقاء في الثياب إلا أن قناره ربما تغير على النار فيدنى أن لا يستغنى إلى آخره .

السادس الصنفي - وهو ما يجلب من بلد يقال لها الصنف ببلاد الصين، وهو من أحلى الأعواد وأبقاها في الثياب . قال التيمي : ومنهم من يفضلها على القاقلى^(٢) ويرى أنه أطيب وأعبق وأمن من القنار، وربما قتموه على القمارى أيضا . قالوا :

(١) في الأصل تلوه وهو تصفيف (٢) في ياقوت . وهو من أود العود لافرق بينه وبين الخشب الألبس .

وأجود الصَّنْفِيّ الأسود الكثير الماء، وتكون القطعة منه متاً وأكثر وأقل. ويقال إن شجره أعظم من شجر الهندي والتماري.

السابع الصندفوري - وهو ما يحلب من بلاد الصندفور من بلاد الصين، وهو دون الصَّنْفِيّ. ويقال إنه صِنْفٌ منه ولذلك كانت قيمته لاحقة بقيمته، وفيه حسن لون وحلاوة رائحة، ورزانة، وصلابة؛ إلا أنه ليس بالقطع الكبار.

الثامن الصَّبِيّ - ويؤتى به من الصَّين، وهو عود حسن اللون، أول رائحته تشاكل رائحة الهندي إلا أن قُتَارَهُ غير محمود، وتكون القطعة منه نصف رطل وأكثر وأقل.

التاسع القطفي - وهو عود رطب حلوي طيب الرائحة، وهو نوع من الصَّبِيّ. العاشر القسور - وهو عود رطب حُلُو طيب الرائحة؛ وهو أعذب رائحة من القطفي إلا أنه دونه في القيمة.

الحادي عشر الكلهي - وهو عود رطب يعضغ، وفيه زَعَارَةٌ، وشدة حرارة للدّهانة التي فيه، وهو من أعبق الأعواد في الثياب وأبقاها.

الثاني عشر العولاني - وهو عود يحلب من جزيرة العولات بنواحي قمار من أرض الهند.

الثالث عشر اللوقيني - وهو ما يحلب من لوقين: وهي طرف من أطراف الهند وله نَمْرَةٌ في الثياب إلا أنه دون هذه الأعواد في الرائحة والقيمة.

الرابع عشر الماطلاني - وهو ما يحلب من جزيرة ما نطاء، وقيمته مثل قيمة اللوقيني، وهو خفيف ليس بالحسن اللون. قال أحمد بن العباس: وهو قطع كبار، مُلَسٌّ لا عُدَّةَ فيها إلا أن رائحته ليست بطيبة وإنما يصلح للأدوية.

الخامس عشر القنبذل - ويؤتى به من ناحية كله ، وهي ساحل الزنج ، وهو يشبه القمارى إلا أنه لا طيب رائحته .

السادس عشر السمولى - وهو عود حسن المنظر ، فيه حمرة وله بقاء في الثياب ، السابع عشر الرانجى - وهو عود يشبه قرون الثيران ، لا ذكاء له ، ولا بقاء في الثياب .

الثامن عشر المحرم - سمي بذلك لأنه قد وقع بالبصرة فشكل الناس في أمره ، فحرمه السلطان ومنعه فسمى المحرم ، وهو من أدنى أصناف العود ، وجعل بعضهم بين الصبني والقاقلى صنفًا قال له المظلي يؤتى به من الصين ، وهو عود صلب خفيف حسن المنظر إلا أنه قليل الصبر على النار . وقد ذكر أحمد بن العباس بعد ذلك أصنافا من العود ليست بذات طائل . منها الأفليق - وهو عود يؤتى به من أرض الصين ، يكون في العظم مثل الخشب الرانجى الغلاظ يباع المن منه بدينار وأقل وأكثر . والعود الطيب الريح في مشوره ، وداخله خشب خفيف مثل الخلاف ، وإذا وضع على الحجر وجد له في أوقله رائحة حلوة طيبة ، فإذا أخذت النار منه ظهرت منه رائحة رديئة كرائحة الشعر .

الصنف الرابع (الصندل)

وهو خشب شجر يؤتى به من سفالة الهند ، وهو على سبعة أضرب .
الأول المقاصيرى - وهو الأصفر ، الدسم ، الرزين ، الذى كأنه مسح بالزعفران الذى الرائحة . وأختلف في سبب تسميته بالمقاصيرى فقل نسبة إلى بلد تسمى

(١) الذى في ميم البلدان لما قوت أنها كوة وأما كة فقد قال إنها فرسة بالهند له .

مقاصير؛ وقيل إن بعض خلفاء بني العباس اتخذ لبعض أمهات أولاده ومخاطبة مقاصير منه؛ وهو شجر عظام يُقطع رطباً، وأجوده ما أصفر لونه وذكت رائحته ولم يكن فيه زعارة. قال التميمي: وهو يدخل في طيب النساء: الرطب واليابس؛ وفي البرميكات، والمثلثات، والدوائر، ويقتد منه قلائد، ويدخل في الأدوية؛ ويقال إن صاحب اليمن الآن يعمل له منه الأيسرة وإنه يأمر بقطع ما يحمل منه من اليمن إلى غيرها من البلاد قطعاً صغاراً حتى لا يكون منها ما يسل سريراً لغيره من الملوك.

الثاني الأبيض منه الطيب الريح - وهو من جنس المقاصيرى المتقدم ذكره لا يخالفه في شيء إلا في البياض؛ ويقال إن المقاصيرى هو باطن الخشب وهذا الأبيض ظاهره.

الثالث الجوزى - وهو صلب العود أبيض، يضرب لونه إلى السمرة، ويؤتى به من موضع يقال له الجوز، وهو طيب الرائحة إلا أنه أضعف رائحة من الذى قبله.

الرابع السوس ويقال الكاوس - وهو صندل أصفر طيب الرائحة إلا أن رائحته زعارة؛ ويستعمل في الدوائر، والمثلثات: في الطيب والبخورات.

الخامس، يضرب لونه إلى الحمرة - وهو على نحو من الذى قبله.

السادس صندل جعد الشعرة - لا بساطة فيه إذا شقق بل يكون فيه تجمع كما في خشب الزيتون، وهو أذكى أصناف الصندل إلا أنه لا يستعمل في شيء سوى البخورات والمثلثات.

السابع أحمر اللون - وهو خشب حسن اللون، تهيل الوزن لا رائحة له، إلا أنه يقتد منه المنجورات والمخروطات كالنوى وقطع الشطرنج ونحوها مع ما يدخل فيه من الأعمال الطيبة.

قلت : هذا ما يحتاج الكاتب إلى وصفه من أصناف الطيب النفيسة مما يهدى
أو يرد هدية، ويجرى ذكره في مكاتبات الملوك، أما ما عدا ذلك من أصناف الطيب
كالسُئيل، والقرنفل، والكافور، فليس من هذا القبيل .

النوع السابع

(ما يحتاج إلى وصفه من الآلات : وهي أصناف)

الصنف الأول

(الآلات الملوكية)

ويحتاج الكاتب إلى وصفها عند وصف المواكب الخفيفة ، التي يركب فيها
السلطان وهي عدة آلات .

منها الخاتم يفتح التاء وكسرهما، وحكى فيه ابن قتيبة والجوهري وغيرهما ختام
وخاتم، وهو ما يحصل في الإصبع من الخلي، وهو مأخوذ من الختم، وهو الطبع : سمي
بذلك لأنه يختم بنقشه على الكتب الصادرة عن الملوك . وسأني في الكلام على
ختم الكتب " أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب إلى بعض ملوك
الأعاجم فقبل له أنهم لا يقرعون كتابا غير مختوم فأتخذ خاتما من ورق وجعل نقشه
مجد رسول الله وأقرضه به في ذلك الخلفاء بعده ، ثم توسعوا فيه إلى أن جعلوا
للكتب طابعا مخصوصا وأفردوا له ديوانا سموه " ديوان الخاتم " وأقرضوا الملوك
أثرهم في ذلك، ثم غلب بمملكتنا وماناهزها الأكفأ في المكاتبات بالصاق، وصار أسم
الخاتم مقصورا على ما يحصل في الإصبع خاصة سواء كان فيه نقش أم لا ، وصارت
الملوك إنما تلبس الخواتم يفصوص الجواهر من اليواقيت ونحوها تجالا ، وربما
بشئت بها في تأمين الخائف علامة للرضا عليه والصفح عما جناه وأقرضه .

ومنها المِندِيل بكم الميم ، وهو مِندِيل يُجْعَل في المِطْلَقَةِ المشدودة في الوسط مع الصلوق وغيره ، ثم جرى اصطلاح الملوك على البعث به في الأمانات كما تقدم في الخاتم ؛ والمِندِيل آلة قديمة للوك ؛ فقد حكى أنه كان للأفضل بن أمير الجيوش أحد وزراء الفاطميين مائة بئلة معلقة على أوتاد من ذهب ، على كل بئلة منها مِندِيل من لونها ؛ ولم يكن المندِيل من آلات الخلافة بل إنما كان من آلات البردة على ما سيأتى ذكره في الكلام على ترتيب الخلافة في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها التَّحْتُ ، ويقال له السرير : وهو ما يجلس عليه الملوك في الموكب ؛ ولم يزل من رسوم الملوك قديما وحديثا ، رفعة لمكانت الملك في الجلوس عن غيره حتى لا يساويه غيره من جلسائه ؛ وقد أخبر تعالى في كتابه العزيز أنه كان لسليمان عليه السلام كرسي يقول له ” وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ” ورايت في بعض التواريخ أنه كان له كرسي من طاج مُغْنَى بالذهب .

ثم هذه الأيسرة تختلف باختلاف حال الملوك ، فتارة تكون من أبنية : رُحَام ونحوه ، وتارة تكون من خشب ، وتارة من قُرُوسٍ مَحْشُوءَةٍ متراكبة ؛ وقد حكى أنه كان للملوك القُرُوسُ سرير من ذهب يجلسون عليه ؛ وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو أمير مصر يجلس مع قومه على الأرض غير مرتفع عليهم ، ويأتيه القُرُوسُ ومعه سرير من ذهب ؛ يجلس معه على الأيدي ، فيجلس عليه فلا يمنعه عمرو من ذلك ، إجراء له على عادته في الملوك فيما قيل ، لما عقده له من النعمة وأخضعه معه من المهد .

ومنها المِظْلَةُ ، وأسماها بالفارسية الجتر بنون بين الجيم والزاي المعجمة ، ويعبر عنها العاقة الآن بالقبَّة والعلير : وهي قبة من حرير أصفر ، تجعل على رأس الملك ، على رأس رمحيد أمير يكون راجيا بجذء الملك ، يُظْلَلُ بها حالة الركوب من الشمس في الموكب

العظام، وسيأتى ذكرها فى الكلام على ترتيب المملكة فى الدولة الفاطمية . وهذه الدولة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها الرِّقَّةُ : وهى لباس لرقبة فرس السلطان من حرير أصفر، قد طُوِّزَت بالذهب الزَّرْكُش حتى غلب عليها وصار الحرير غير مرئى فيها، تشدُّ على رقبة فرس الملك فى المواكب العظام لتكون مضاهية لما يركب به من الكنبوش الزركش المنعقلى لظهر القرس وكَفَلَه .

ومنها الفَاشِيَّةُ، وهى غاشية سُرُج من أديم مخروزة بالذهب، يظنها الناظر كقلاها ذهباً، يلقبها على يديه يميناً وشمالاً .

ومنها الجفناه، وهى قَوسان أشبهان قوساً الشبه، برفيتين من زركش، وعدة تضاهى عدة مركوب السلطان كأنهما معدَّان لأن يركبهما السلطان، يعلوهما مملوكان من الممالك السلطانية قريبي الشبه أيضاً، على رأس كل منهما قُبعة من زَرْكُش مشابه للآخر .

ومنها المِنَظَّةُ بكسر الميم : وهى ما يشدُّ فى الوسط، وعنقها يبرأ أهل زماننا بالحياصة، وهى من الآلات القديمة فقد روى أن أمير المؤمنين : على بن أبى طالب رضى الله عنه كان له مِنَظَّةٌ . وهذه الآلة قد ذكرها فى "التعريف" فى الآلات الملوكية، على أن ملوك الزمان لم تجر لهم عادةً بشدِّ مِنَظَّةٍ، وإنما يُلْبِسُها الملكُ للأمرءاء عند لباسهم الخلع والتشاوريف، وهى تختلف بحسب اختلاف الرتب، فمنها ما يكون من ذهب مرصع بالقُصُوص، ومنها ما ليس كذلك .

ومنها الأعلام : وهى الرايات التى تمجِّل خلف السلطان عند ركوبه، وهى من شعار الملوك القديمة، وقد ورد أن النبی صلی الله علیه وسلم كان یَقْدُّ لأمرءاء

سراياه الرابات عند بطنها ، ثم قد يسبر عن بعضها بالمصائب جمع عصاية : وهي الأگوية ، أخذنا من عصاية الرأس : لأن الراية تصيب رأس الرمح من أعلاه ، وقد يبر عنها بالسناجق جمع سنجق ، والسنجق باللغة التركية معناه الطعن ؛ سميت الراية بذلك لأنها تكون في أعلى الرمح ، والرمح هو آلة الطعن يسمى بذلك مجازا .

ومنها الطبول ، ويقال لها الدبادب ، والبوقات ، والزرمر المعروف بالصهان الذي يضرب به عشية كل ليلة بياب الملك وخلفه إذا ركب في المواكب ونحوها ، وهي المعبر عنها بالبللغانات ، وهي من شعار الملوك القديم . وقد ذكر في "مسالك الأبحار" أن الطبل في بلاد المغرب يختص ضربه بالسلطان دون غيره من كل أحد كما سيأتي ذكره في الكلام على مملكة المغرب في المسالك والممالك إن شاء الله تعالى . والسر فيها إرهاب العدو ، وتخذيذه كما كتب به أرسطو في كتاب "السياسة" للإسكندر ، أو تهوية الغوس وتشجيعها على الحرب كما قاله الفزالي رحمه الله في "الإحياء" وكتب كثرت أعدادها ، كان أنعم لشان الملك وأبلغ في رفعة شأنه . وقد حكى أن دبابد الإسكندر كانت أربعين حملا .

قلت : وقد ذكر في "التمريف" من جملة الآلات الملوكية الدواة ، والقلم ، والمروملة . ولا يخفى أنها بالآلات الكأب ألبق وإن كان السلطان لا يستغني عنها ، وسيأتي الكلام عليها في الكلام على آلات الكتابة من هذه المقالة إن شاء الله تعالى .

الصنف الثاني

(آلات الركوب - وهي عتة آلات)

منها السرج - وهو ما يقعد فيه الراكب على ظهر الفرس ، واشكال قوابله مختلفة ، ثم من السرج ما يكون مثنى بالنهب ، وهو مما يصلح للوك .

ومنها ما يكون مغشى بالفضة البيضاء؛ وكل منها قد يكون منقوشا وقد يكون غير منقوش، ومنها ما يكون بأطراف فضة، ومنها ما يكون ساذجا .

ومنها اللجام - وهو الذى يكون فى فكّ الفرس يمنة من الجحاح؛ وقولبه أيضا مختلفة؛ ثم منها ما يكون مطليا بالذهب، ومنها ما يكون مطليا بالفضة، ومنها ما يكون ساذجا، ومنها ما يكون رأسه وجنباه على بالفضة، ومنها ما يكون غير على .

ومنها الكنبوش - وهو ما يستر به مؤخر ظهر الفرس وكفله؛ وهو تارة يكون من الذهب الزركشى، وتارة يكون من الخايش : وهى الفضة الملبسة بالذهب، وتارة يكون من الصوف المرقوم؛ وبه يركب الفضة وأهل العلم .

ومنها العباعة بالآلة - وهى التى تقوم مقام الكنبوش .

ومنها المِهْمَازُ - وهو آلة من حديد تكون فى رجل الفارس، فوق كعبه، فوق الخلف وما فى معناه؛ ومؤخره أصبع محدد الرأس إذا أصاب جانب الفرس تحركت وأسرعت فى المشى أو جلت فى السَّو. وهو تارة يكون من ذهب محض، وتارة يكون من فضة، وتارة يكون من حديد مطلى بالذهب أو الفضة؛ وقد اعتاد القضاة والعلماء فى زماننا تركه .

ومنها الكُور - وهو ما يقعد فيه الراكب فى ظهر النجيب : وهو المَجِين، والعرب تسميه الرَّحْل؛ ثم قد يكون مقتمه ومؤخره مغشى بالذهب أو الفضة، وقد يكون غير مغشى .

ومنها الزَّمام - وهو ما يقاد به النجيب؛ ويضبطه به الراكب كما يضبط الفارس الفرس بالعتان .

ومنها الرَّكَّابُ - وهو ما يجعل فيه الرجل عند الركوب، وكانت العرب تتعاده

من الجلالة والخشب ، ثم حُدِلَ عن ذلك إلى الحديد . قال أبو هلال العسكري :
في كتابه "الأوائل" وأول من اتخذ من الحديد المَهْلَبُ بنُ أَبِي صُفْرَةَ ، وكانت
رُكْبُ العرب من خَشَب فكان الفارس يَصُلُّ الراكب بركابه فيوهن مِرْقَقَه .^(١)
ومنها السَّوْط - وهو ما يكون بيد الراكب يَضْرِبُ به الفرس أو النجيب ،
وأهل زماننا يعبرون عنه بالمِقْرَعَة لأنه يُقَرَّعُ به المركوب إذا تهاوس ، وهو بدل من
الفضيب الذي كان للخطباء على ما سيأتي ذكره في الكلام على ترتيب الخلافة
في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

الصنف الثالث

(آلات السفر، وهي عدة آلات)

منها المِصْحَقُ بكسر الميم : وهي تَحْمِلُ على أعلام قُبَّة ، وله أربعة سواعد : ساعدان
أمامها وساعدان خلفها ، تكون مغطاة بالجوخ تارة وبالحرير أخرى ، تَحْمِلُ على بغلين
أو بعيرين يكون أحدهما في مقدمتها ، والآخر في مؤخرتها ، إذا رَكِبَ فيها الراكب
صار كأنه قاعد على سرير ، لا يلحقه أزعاج ، وقد جرت عادة الملوك والأكابر
باستصحابها في السفر خشية ما يَعرِضُ من المرض .

ومنها المِخْمَلُ بكسر الميم الأولى وفتح الثانية : وهو آلة كالمِصْحَقِ إلا أنه يحمل على
أعلى ظهر الجمل بخلاف المِصْحَقِ فإنها تحمل بين جملين أو بغلين .

ومنها الفَوَائِيسُ ، جمع فائوس ، وهي آلة كُرِيَّة ذات أضلاع من حديد ، منشأة
بخرقة من رقيق الكتان الصافي البياض يتخذ للاستضاءة بفرز الشمعة في أسفل باطنه

(١) لعله المركوب .

(٢) ضبطه في القاموس والصاحح كبلس . ولعل ما في الأصل لغة ثانية نظرا لكونه آلة .

فِيَشْفُ عَنْ ضَوْئِهَا ، وَمِنْ شَأْنِهَا أَنْ يَحْمِلَ مِنْهَا اثْنَانِ أَمَامَ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ فِي السَّفَرِ فِي اللَّيْلِ :

وَمِنْهَا الْمَشَاعِلُ جَمْعُ مَشَعَلٍ : وَهِيَ آلَةٌ مِنْ حَدِيدٍ كَالْقَفَصِ مَفْتُوحُ الْأَعْلَى ، وَفِي أَسْفَلِهِ حَرَقَةٌ لَطِيفَةٌ ، تَوْقِدُ فِيهِ النَّارَ بِالْخَطْبِ فَيَسُطُ ضَوْؤُهُ ، يَحْمِلُ أَمَامَ السُّلْطَانِ وَنَحْوِهِ فِي السَّفَرِ لَيْلًا أَيْضًا .

وَمِنْهَا الْحِكَايَمُ جَمْعُ حَيَّةٍ ، وَيُقَالُ لَهَا الْقُسْطَاطُ وَالْقَبَّةُ أَيْضًا : وَهِيَ بَيْوتٌ تَتَّخِذُ مِنْ نَحْرَقِ الْقُطْنِ الْغَلِيزِ وَنَحْوِهِ ، تَحْمِلُ فِي السَّفَرِ لَوَايَا الْحَرْ وَالْبَرِّ ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَتَّخِذُهَا مِنَ الْأَدِيمِ ، وَقَدْ آمَنَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى " وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ " وَالْمُلُوكُ تَنْتَاهِي فِي سَعْيِهَا ، وَتَنْتَاهِي بِكُرْهَا . وَمَسَائِي فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ النُّوَلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ أَنَّهُ كَانَ لِبَعْضِ خُلَفَائِهِمْ حَيَّةٌ تَسْمَى الْقَاتُولُ سَمِيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ قَرَأَشًا مِنَ الْقَرَأِشِيِّينَ وَقَعَ مِنْ أَعْلَى عَمُودِهَا فَمَاتَ لَطُولُهُ .

وَمِنْهَا الْخُرَكَاهُ : وَهِيَ بَيْتٌ مِنْ خَشَبٍ مَصْنُوعٌ عَلَى هَيْئَةِ مَخْصُوصَةٍ وَيُنَشِئُ بِالْجُودِ وَنَحْوِهِ ، تَحْمِلُ فِي السَّفَرِ لَتَكُونَ فِي الْخَلِيمَةِ لِلْبَيْتِ فِي الشِّتَاءِ لَوَايَا الْبَرِّ .

وَمِنْهَا الْقُدُورُ جَمْعُ قَدْرٍ : وَهِيَ الْآلَةُ الَّتِي يَطْبِخُ فِيهَا وَتَكُونُ مِنْ نَحَاسٍ غَالِبًا ، وَرَبَّمَا كَانَتْ مِنْ بَرَامٍ . وَالْمُلُوكُ تَنْتَاهِي بِكَثْرَتِهَا وَعِظَمِهَا : لِأَنَّهَا مِنْ دَلَائِلِ كَرَمِ الْمَلِكِ وَكَثْرَةِ رِجَالِهِ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِعَظِيمِ قَدْرِ مَا كَانَتْ الْجِنُّ تَعْمَلُهُ لَهُ مِنَ الْقُدُورِ بِقَوْلِهِ " يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ " .

وَمِنْهَا الْأَتَائِي ، وَهِيَ الْآلَةُ الْمَثَلَّةُ الَّتِي تَمْلَأُ عَلَيْهَا الْقُدُورُ عِنْدَ الطَّبْخِ ، وَتَكُونُ مِنْ حَدِيدٍ .

ومنها النار التي يوقد بها للطبخ ونحوه؛ وقد تقدم في الكلام على 'يران العرب ذكر نار القريء، وهي نار كانت تُرفَعُ ليلا ليرأها الضيف فيهتدى بها إلى الحى .

ومنها الحَفَانُ جمع جَفَنَةٍ : وهي الآنية التي يوضع فيها الطعام؛ وقد تقدم في الكلام على القدور أنها مما كانت الجفن تعمله لسلطان عليه السلام أيضا . وقد كانت العرب تختار يكبر الحَفَانِ لدلالاتها على الكرم ، وفي ذلك يقول الأعمش في مدح المَحَلَّقِ لَيْلَةَ بات عليه :

ففى الذَّامِ عَنِ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفَنَةٌ * بَكَايَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَهْنِئُ

قبل أراد بالشيخ العراقي كسرى، فثبه جفته بجفته .

ومنها حَيَاضُ الماء : وهي حياض من جلد تحمل في السفر ليقى الماء فيها لسيى الدواب ونحوها، وكبر قدرها دليل على رِفْعَةِ قدر صاحبها ونظامته : لدلالاتها على كثرة دوابه، وأتساع عسكره .

الصنف الرابع

(آلات السلاح ؛ وهي عدة آلات)

منها السَّيْفُ : وهو معروف . وسيأتى في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة أنه مأخوذ من قولهم : ساف إذا هَلَكَ لأنه به يقع الهلك .

وأعلم أن السيف إن كان من حديد ذَكَرَ : وهو المعبَّر عنه بالقولاذ، قيل سيف فُولَاز ، وإن كان من حديد أنثى : وهو المعبَّر عنه في زماننا بالحديد ، قيل سيف أُثَيْث ؛ فإن كان منه من حديد أنثى وحده من حديد ذكر كما في سيوف الفَرَسِيَّةِ ، قيل سيف مُدْكَر ؛ ويقال إن الصاعقة إذا تزلت إلى الأرض وردت ، صارت حديدا، وربما حفر عليها وأخرجت قطيعة سيوفا، فتجىء في غاية الحُسْنِ والمُضَيَّاءِ .

(١) هكذا في الأصل ولعلها مصحقة عن بردت .

ثم إن كان عريض الصبيح ، قيل له صفيحة ؛ وإن كان عمداً لطيفاً ، قيل له قَصِيْب ؛ فإن كان قصيراً قيل أتر ؛ فإن كان قصراً بحيث يحمل تحت الثياب ويُستعمل عليه ، قيل مشمل بكسر الميم ؛ فإن كان له حد واحد وجانبه الآخر جاف ، قيل فيه صمصامة ، وبهذا كان يوصف سيف عمرو بن معدى كرب فارس العرب . فإن كان فيه حُرُوز مستطيلة قيل فيه ققارات ، وبذلك سمي سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذا الققار ، يروى أنه كان فيه سبع عشرة ققارة . ثم تارة ينسب السيف إلى الموضع الذي طبع فيه ، فيقال فيما طبع بالهند هندی ومُهَنْد ، وفيما طبع باليمن يَمَان ، وفيما طبع بالمشارف : وهي قُرَى من قُرَى العرب قريبة من ريف العراق ، قيل له مَشَرَفِي ؛ فإن كان من المعدن المسمى قُساس وهو معدن موصوف بجودة الحديد قيل له قُسامي ، وتارة ينسب السيف إلى صاحبه كالسيف الشريفي نسبة إلى قَيْن من قِيُون العرب اسمه سُرَيْج معروف عنهم بحسن الصنعة . ويوصف السيف بالحسام : وهو القاطع أخذاً من الحسم : وهو القطع ، وبالصارم : وهو الذي لا ينو عن الضربة . والناس يبالغون في تحلية السيوف فتارة تُرَصَّع بالجواهر ، وتارة يُحَلَّوْنَها بالذهب ، وتارة يملونها بالفضة ؛ وإن كان الاعتبار إنما هو بالسيف لا بالحلية .

ومنها الرُّخ : وهو آلة الطعن . والرياح ضربان : أحدهما متخذ من القنأ ، وهو قَصَب مسدود الداخل ، ينبُت ببلاد الهند يقال للواحدة منه قنأة ، ويقال لمقامها أنابيب ، ولَمَقْلَها كُتُوب ؛ فإن كانت قد نشأ في نباته مستقيماً بحيث لا يحتاج إلى تثقيف ، قيل له الصُّبْعَة - بفتح الصاد وسكون العين المهملتين ، وإن احتاج إلى تقويم مقوم قيل له مثقف . ويوصف القنأ بالخطي - بفتح الخاء المعجمة ، نسبة إلى

(١) له مدق (٢) كذا بالأصل . ومواجه طمئة كافي المخصص والسان .

انحطت : وهى بلدة بالبحرين تجلب إليها الرماح من الهند ، ويتقل منها إلى بلاد العرب ، وليست تثبت القنا كما توهمه ابن أصبغ في أرجوزته المنهبة .
 الثانى ما يتخذ من الخشب كالزان ونحوه ، ويسمى الذابل (بالذال المعجمة وكسر الموحدة) .

ويقال للعديد الذى فى أعلى الرُخ السنان ، وللذى فى أسفله الرُخ والعقب .
 ويوصف الرُخ بالأسمر : لأن لون القنا السُمرة ، وبالعسال : وهو الذى يضطرب فى هزّه ، وباللذن : وهو اللين ، وبالسُمهرى نسبة إلى بلدة يقال لها سُمهرة من بلاد الحبشة ، وقيل إلى السُمهرة ، وهى الصلابة .

ومنها الطبر ، وهو باللغة الفارسية الفأس ، ولذلك يسمى الشكر الثلب بالطبرزد يعنى الذى يكسر بالفأس . وإلى الطبر تنسب الطبر داريّة : وهم الذين يحملون الأبطال حول السلطان على ما سياتى ذكره فى الكلام على ترتيب المملكة فى المسالك والممالك إن شاء الله تعالى .

ومنها السكين ، وسبقت ذكرها فى آلات النواة فى الكلام على آلات الكتابة وإنما سميت سكيناً لأنها تُسكن حركة الحيوان . وتسمى المئدة أيضاً لأنها تقطع مدى الأجل ، وهذه الاشتقاقات أولى بآلة الحرب من آلة الكتابة . وحاصل الأمر أن السكين تختلف أحوالها بحسب الحاجة إليها ، فتكون لكل شىء بحسب ما يناسبه .

ومنها القوس ، وهى مؤنثة . والقسي على ضربين : أحدهما العربية ، وهى التى من خشب فقط ، ثم إن كانت من عود واحد قيل لها قضيب ، وإن كانت من فلقين قيل لها فلق . الثانى الفارسية : وهى التى تُركب من أجزاء : من الخشب والقرن والعقب والفراء . ولأجزائها أسماء يخص كل جزء منها اسم ، فوضع اسمك

الراى من القوس يسمى المقيض ، ويجرى السهم فوق قَبْض الراى يسمى كَيْد القوس ، وما يُعْطَف من القوس يسمى مِية القوس ، وما فوق المقيض من القوس ، وهو ماعلٍ بين الراى يسمى رأس القوس ، وما أسفله ، وهو ماعلٍ يسار الراى يسمى رجل القوس .

ومنها النشاب ، والنبل ، فالنبل ما رُمى به عن القسي العربية ، والنشاب ما رُمى به عن القسي الفارسية حكاة الأهرى ، ويجرى الوتر من السهم يسمى الشوق ، وحديدُه يسمى النصل ، والرِيشُ يسمى القنْدُ ، والسهم قبل تركيب الرِيش يسمى القِدَح (بكسر القاف وسكون الدال المهملة) .

ومنها الكِنَانَةُ ، ويقال لها الجعبة : وهي بكسر الكاف : وهي ظَرْف السهام ، وتكون ثائرة من جلد ، وثائرة من خَشَب .

ومنها الدَّبُوسُ ، ويسمى العامود : وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها فى قتال لابس البيضة ومن فى معناه . ويقال إن خالد بن الوليد رضى الله عنه به كان يقاتل .

ومنها العصا : وهي آلة من خشب تفيد فى القتال نحو إفادة الدبوس .

ومنها البيضة : وهي آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه ، وليس فيه ما يرسل على القفا والأذن ، وربما كان ذلك من زَرْدٍ .

ومنها المنقَرُ ، بكسر الميم : وهو كالبيضة إلا أن فيه أطرافا مسدولة على قفا اللابس وأذنيه ، وربما جعل منها وقاية لأذنه أيضا ، وقد تكون من زَرْدٍ أيضا .

ومنها الدرْعُ : وهو جُبَّة من الزَرْد المنسوج يلتهبها المقاتل لوقاية السيوف والسهام ، وهي تذكر وتؤنث ، وقد أخبر الله تعالى عن داود عليه السلام أنه ألين

له الحديد فكان يعمل منه الدروع بقوله تعالى ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَبَازِيرَ السَّرْدِ﴾ وقوله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ ولذلك تنسب الدروع الفاتحة إلى تسحج داود عليه السلام .

ومن الدروع ما يقال لها السِّلْوِيَّةُ نسبةً إلى سَلَوَى ، قريةٌ من قُرَى اليمن ، وربما قيل دُرُوعٌ حَطْوِيَّةٌ بضم الحاء المهملة نسبةً لحطوم رجل من عبد القيس .
وأعلم أن لبس العرب في الحرب كان الزرد ، أما الآن ، فقد غلب عمل القِرَقَلَاتِ من الصفائح المتخذة من الحديد المتواصل بعضها ببعض .

ومنها التُّرس : وهو الآلة التي يتق بها الضرب والرمي عن الوجه ونحوه ، وتسمى الجُنَّةُ أيضاً بضم الجيم أخذاً من الاجتنان وهو الاختفاء ، وربما قيل لها الجَفَّةُ بفتح الحاء المهملة والجيم ، ثم هي تارة تكون من خشب ، وتارة تكون من حديد ، وتارة تكون من عيدان مضموم بعضها إلى بعض بخيوط القطن ونحوه ، فإن كانت من جلد ، قيل لها دَرَقَةٌ بفتح الدال والراء المهملتين .

الصنف الخامس

(آلات الحصار ، وهي عدة آلات)

منها المَتَجِيقُ ، بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر النون الثانية وسكون الياء وقاف في الآخر ، وحكى ابن الجواليقي فيه كسر الميم ، وحكى فيه أيضاً منجوق بالواو ومَتَجِيقٌ بإبدال النون الثانية ميماً ، وهو اسم أعجمي ، فإن الجيم والقاف لا يجمعان في كلمة عربية ، ويجمع على مجانيق ومناجيق . قال الجوهرى : وأصله من مجى نيك وتفسيره بالعربية ما أجودنى . قال ابن خلكان : تفسير من وتفسير جى ايش ، وتفسير نيك جيد ، قال ابن قتيبة في كتابه "المعارف" وأبو هلال العسكري

(١) لعلز بادتلوا ومن تحريف النسخ . والصواب حطوية نسبة إلى حطم رجل الخ . أنظر اللسان والقاموس .

في "الأوائل" : وهو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وزنه خفيف ، وفيه تجعل كفة المتجنيق التي يعمل فيها الجحر ، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الجحر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه .

وأول من وضع المتجنيق جديمة الأبرش ملك الحيرة على العرب . وذكر الواحدى في تفسير سورة الأنبياء : أن الكفار لما أضرموا النار لإحراق إبراهيم عليه السلام لم يقدرُوا على القرب من النار ليقوه فيها ، فقامم اللعين إبليس فعلهم وضع المتجنيق فعملوه وألقوه فيه فقتلوا به في النار ، فكان أول متجنيق عمل .

ومما يلتحق بالمتجنيق الزيارات : وهي ألوالب والحبال التي يجذب بها المتجنيق حتى يخطأ أعلاه ليرى به الجحر .

ومنها السهام الخطاية ^(١) ، وهي سهام عظام يرى بها عن قسي عظام تور بلوالب يحترق بها ويرى عنها فتكاد تحرق الجحر .

ومنها مكاحل البارود ، وهي المدافع التي يرى عنها بالنفط . وحالها مختلف : فبعضها يرى عنه بأسمهم عظام تكاد تحرق الجحر ، وبعضها يرى عنه ببندق من حديد من زينة عشرة أرتال بالمصرى إلى ما يزيد على مائة رطل ؛ وقد رأيت بالإسكندرية في الدولة الأشرفية ، شعبان بن حسين ، في نيابة الأمير صلاح الدين بن عزام رحمه الله ، بها مدفعا قد صُنع من نحاس ورصاص وقيد بأطراف الحديد رُمى عنه من الميدان ببندقية من حديد عظيمة محمأة ، فوقع في بحر السلسلة خارج باب البحر ، وهي مسافة بعيدة .

(١) لعله مصحف وأقضى يؤخذ من المخصص أن السهم الخطاي هو السهم الخيط الحاد يقل هذا منه كما يفيد التفسير بعد تأمل .

ومنها قوارير النَّقِطِ، وهي قدور ونحوها يجعل فيها النَّقْطُ ويرى بها على الحصون والقلاع للإحراق، على أن القوارير في اللغة اسم للزجاج وإنما استعملت في آلات النَّقْطِ مجازاً .

ومنها الستائر، وهي آلات الوقاية من الطوارق، وما في معناها مما يستتر به على الأسوار والسفن التي يقع فيها القتال ونحو ذلك .

الصنف السادس

(آلات الصيد، وهي عدة آلات)

منها قوس البُنْدُقِ (ويسمى الجَلَاهِقِ) قوس يتخذ من القنأ ويلف عليه الحرير ويفترى، وفي وسط وتره قطعة دائرية تسمى الجوزة، توضع فيها البُنْدُقَةُ عند الرمي .
ومنها الجراوة، وهي آلة من جلد يجعل فيها البُنْدُقُ الطين الذي يرى به عن القوس المقدم ذكره .

ومنها الشباك، وهي آلة تتخذ تمعد من خيطان وتصب لأقتناص الصيد، وكذلك تطرح في الماء فيصاد بها السمك .

ومنها الرِّبَاطَةُ، وهي آلة من خشب مستطيلة كالرَّحْجِ مَجْوُوفَةٌ الداخل يجعل الصائد بُنْدُقَةً من طين صغيرة في فيه، وينفخ بها فيها فتخرج منها بحمّة فتصيب الطير قترمه، وهي كثيرة الإصابة .

ومنها النَّصْحُ، وهو آلة مَقْوَسَةٌ لها دَقَّتَانِ تَخْتَمَانِ قسراً، وتعاقدان في طرف شظية ونحوها إذا أصابها الصيد، أنطبقت عليه .

ومنها الصَّيَّانِيرُ جمع صَيَّانَةٍ، وهي حليدة مَعْقَفَةٌ مَحْدَدَةُ الرَّأْسِ يصاد بها السمك .

الصنف السابع (آلات الماملة، وهى عدة آلات)

منها الميزان، وهو أحد الآلات التى يقع بها تقدير المقترات، فالموازين قديمة
الوضع قال تعالى: ﴿وَالْمِيزَانَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا
الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ وأمر شعيب عليه السلام قومه بإقامة
القسط بالوزن كما أخبر تعالى عنه بقوله ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾. قال أبو هلال
السكرى: وأول من اتخذ الموازين من الحديد عبد الله بن عامر. قال: وأول
من وضع الأوزان سمير اليهودى، وذلك أن الجحاج ضرب الدراهم بأمر عبد الملك
أبن مروان ونهى أن يضربها أحد غيره، فضربها سمير فأمر الجحاج بقتله لأجرائه
عليه. فقال سمير: أنا أدلك على ما هو خير للساكنين من قتلى، فوضع الأوزان: وزن
النف، ونمحية، وثلاثة، إلى وزن رُبع قيراط، وجعلها حديدًا، ففعا عنه. وكان
الناس قبل ذلك إنما يأخذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره، وأكثرها يؤخذ عددًا.
ومنها الذراع، مؤنثة، وهى إحدى الآلات التى تقدر بها المقادير أيضًا، بها تقدر
الأرضون، ويقاس البرزوما فى معناه، ولم تزل الناس قديمًا وحديثًا يتعاملون بها على
اختلافها، وقد ورد ذكرها فى القرعانات الكريم فى قوله تعالى ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا
سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾. وقد ذكر الماوردى فى الأحكام السلطانية سبع أذرع.
أحداها العمريّة، وهى الذراع التى قدرها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى
الله عنه لمسح سواد العراق. قال موسى بن طلحة: وطولها ذراع وقبضة وإبهام.
قال الحكم بن حنيفة: حمّد عمر رضى الله عنه إلى أطولها ذراعًا وأقصروا ذراعًا،
فجمع منها ثلاثة وأخذ الثلث منها وزاد عليها قبضة وإبهامًا قائمة، ثم ختم فى طرفها
بالرصاص، وبعت بذلك إلى حذيفة وعثمان بن حنيف فمسطها بها السواد.

الثانية الهاشمية ، وتسمى الزيادة . قال : وهي أربع وعشرون إصبعاً ، كل إصبع سبع شعيرات مُتَعَدِّلاتٍ معتضات ، ظَهراً لبطن ، كل شعيرة عرض سبع شَعَرَاتٍ من شعر الرِّدْوَنِ ؛ وهذه الذراع التي يمتد لها الفقهاء في الشرعيات ، وبها قدروا البريد المعتبر في مسافة قصر الصلاة وغيرها ، وربما صَبَّروا عنها بذراع الملك ؛ وسميت بالهاشمية لأن أبا جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس اعتبرها وعمل بمقتضاها في المساحة وتبعه سائر خلفائهم على ذلك ، وبنو العباس من بني هاشم ، فسبغت إلى بني هاشم مبالغةً لأنَّ هَـتَمَهُم من خلفاء بني أُمَيَّة . قال الماوردي : وتسمى الزَّيَادِيَّةُ : لأنَّ زياداً مسح بها السَّوَادَ أيضاً .

الثالثة البِلَالِيَّةُ ، وهي أقص من الهاشمية المقدم ذكرها ثلاثة أرباع عُشرها ؛ وإنما سميت البِلَالِيَّةُ لأنَّ بلال بن أبي رَدَّةَ بن أبي موسى الأشعري هو الذي وضعها ، وذكر أنها ذراعُ جَدِّه أبي موسى .

الرابعة السَّوَدَاءُ ، وهي دون البلالية بإصبعين وثلاثي إصبع ؛ وأول من وضعها الرشيد ، قدرها بذراع خادم أسود ، كان قائماً على رأسه . قال الماوردي : وهي التي يتعامل بها الناس في ذرع البزِّ والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر .

الخامسة البُومُيَّيَّةُ ، وهي دون السَّوَدَاءِ بثلاثي إصبع ؛ وأول من وضعها أبو يوسف صاحبُ أبي حنيفة . قال الماوردي : وبها يَدْرَعُ القضاةُ السُّورَ بِنَقْدَادَ .

السادسة القصبية ، وهي أقص من الذراع السَّوَدَاءِ بإصبع وثلاثي إصبع ؛ وأول من وضعها ابن أبي ليلى القاسمي . قال الماوردي : وبها يتعامل أهل كَلَوَانِي .

السابعة المهرانية، قال الماوردي : وهي بالذراع السوداء نواطن وثلاث ذراع ، وأول من وضعها المأمون ، وهي التي يتعامل بها في حفر الأنهار ونحوها .
ومنها المقص (بكسر الميم) وهو الآلة المعروفة ، ويُتفَع به في أمور مختلفة .

الصف الثامن

(آلات اللَّيْب ؛ وهي عدة آلات)

منها التَّد (بفتح النون وسكون الراء المهملة) وهو من حِكِّم الفُرْس ؛ وضعه أَرْدَشِيرُ بْنُ بَابَكٍ أَوَّلُ طبقة الأكاسرة ، من ملوكهم ، ولذلك قيل له رَدَشِير ، وضعه مثالا للدنيا وأهلها ، فرتب الرقعة آفئ عشر بيتا بعدد شهور السنة ، والمهاريك ثلاثين قطعة بعدد أيام الشهر ، وجعل الفصوص بمشابة الأفلاك ، ورميها مثل قلعها ودورانها ، والنَّقْطُ فيها بعدد الكواكب السيارة كل وجهين منها سبعة ، وهي الشمس ، ويقابله البك ، والبنج ، ويقابله الدو ، والجهار ، ويقابله الثا ، وجعل ما يأتي به اللاعب من النقوش كالقضاء والقنَدَر : نارة له ونارة عليه ، وهو يصرف المهاريك على ما جاءت به النقوش ، إلا أنه إذا كان عنده حُسن نظر عرف كيف يتالى وكيف يتحيل على اللَّيْب وقهر خصمه ، مع الوقوف عند ما حكمت به الفصوص كما هو مذهب الأشاعرة ؛ لكن قد وردت الشريعة بذهبه قال صلى الله عليه وسلم " مَنْ لَبَّ بِالرَّدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا تَحَمَّسَ يَدُهُ فِي لَحْمِ خَيْرٍ " وفي رواية " مَلُوءٌ مِنْ لَبِّ بِالرَّدَشِيرِ " . وفي تحريره عند أصحابنا الشافعية وجهان ، أحدهما الصحيح ، والثاني الكراهة . وإذا قلنا حرام ، فالأصح أنه صغيرة وقيل كبيرة .

ومنها الشَطْرَجُ ، بفتح الشين المعجمة أو السين المهملة لفتان ، والأولى منهما

(١) التي في القاموس أنه بكسر الشين ولا يفتح أوله وفي لسان العرب أن الكدريه أجود ليكون من باب يردخل .

أنفصح، وهو فارسيّ معرّب، وأصله بالفارسية شش رنك، ومعناه ستة ألوان وهي الشاه (والمراد بها الملك) والفرزان، والقيل، والفرس، والرّخ، والبيدق، ثم الشطرنج من أوضاع حكماء الهند وحِكَمِهِمْ . وضعه صمصم بن داهر الهنديّ لبهلبهيب ملك الهند مساواة لأردشير بن بابك في وضعه الترد، وعرضه على حكماء زمانه ففضّوا بتفضيله، ثم عرضه على الملك وعرفه أمره، فقال : أحتمك على، فتمتّ عليه عدد تضعيف بيوته، من قصة إلى نهاية البيوت، فاستصغرهمته وأنكر عليه مواجهته بطلب زُرّيسير، فقال هذه طليّتي فأمر له بذلك، فحسّبه أرباب دواوينه فقالوا لللك : إنه لم يكن عندنا مراقب القليل من ذلك، فأنكر ذلك فأوضحوه له بالبرهان، فكان إعجابه بالأمر الثاني أكثر من الأوّل . قال ابن خلكان : ولقد كان في نفي من هذه المبالة شيء حتّى اجتمع في بعض حُصْنِ الإسكندرية فأوضح لي ذلك وبيّنه، وذلك أنه ذكر أنه ضاعف الأعداد إلى البيت السادس عشر، فأثبت فيه اثنين وثلاثين ألفا وسبعمائة وثمانية وستين حبة، وقال : تجعل هذه الجملة مقدار قَدَحٍ، ثم ضاعف السابع عشر إلى البيت العشرين فكان فيه وية، ثم أنقل من الويات إلى الإردب، ولم يزل يُضعّفها حتّى انتهى في البيت الأربعين إلى مائة ألف إردب وأربعة وسبعين ألف إردب وسبعمائة واثنين وستين إردبا وثلاثي إردب، وقال : هذا المقدار شونة، ثم ضاعف الشون إلى بيت الخمسين فكانت الجملة ألفا وأربعا وعشرين شونة، وقال : هذا المقدار مدينة؛ ثم إنه ضاعف ذلك البيت إلى الرابع والستين، وهو نهايتها، فكانت الجملة ست عشرة ألف مدينة وثلثمائة وأربعا وثمانين مدينة، وقال : تعلم أنه ليس في الدنيا مدن أكثر من هذا العدد قال الصلاح الصفديّ في شرح اللامية : وآخر ما اقتضاه تضعيف رقعة الشطرنج ثمانية عشر ألف ألف ست مرّات، وأربعمائة وستة وأربعون ألفا خمس مرّات،

وسبعائة وأربعة وأربعون ألفا أربع مرات ، وثلاثة وسبعون ألفا ثلاث مرات ، وسبعائة وتسعة آلاف مرتين ، ونعمائة وأحد وخمسون ألفا وسبعمائة وخمسة عشرة حبة علدا .

قال الشيخ شمس الدين الأنصارى : إذا جمع هذا العدد هرما واحدا مكعبا ، كان طوله ستين ميلا ، وعرضه كذلك ، وأرضاه كذلك ، بالميل الذى هو أربعة آلاف ذراع .

واللعب بالشطرنج مباح ؛ وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازى رحمه الله فى "المهذب" أن سعيد بن جبيرة الإمام الكبير التامى المشهور كان يلعب الشطرنج عن استبدار . وعن يضرب به المثل فى لعب الشطرنج الصولى : وهو أبو بكر محمد ابن يحيى بن عبد الله بن العباس بن صول تكين الكاتب ؛ ويقال إن المامون كان لا يبيد لعب الشطرنج ، فكان يقول : عجبا منى كيف أدبر ملك الأرض من الشرق إلى الغرب ولا أحسن تدبير رقة : ذراعين فى ذراعين . ثم فى حله عند أصحابنا الشافعية ثلاثة أوجه أحصاها أنه مكروه والثانى أنه مباح والثالث حرام ، فإن أقرن به رهن من الجانين أو أحدهما ، فإنه محرم بلا نزاع .

الصننف التاسع

(آلات الطرب : وهى آلة آلات)

منها العود : وهو آلة من خشب نخفة ؛ له عنق ورأسه ممال إلى خلفه ، وهو آلة قديمة ، وتسميه العرب المزهر بكسر الميم ، وهو أغر آلات الطرب وأرضها قدرا وأطيبها سمعا ، حتى يقال إنه قيل له هل يسمع أحسن منك ؟ فقال : لا ، وأمال رأسه إلى خلفه فهى مائلة لأجل ذلك .

ومنها الجُنك، قال في "التعريف": وهو آلة مُحَدَّثَةٌ طيبة النَّعْمَةِ، لذيذ المِجَاع يقارب العود في حسنه، وشكله مِباين لشكل العود، ورأسه مِمال إلى أسفل؛ يقال إنه قيل له: هل يُسَمِّعُ أحسنُ منك؟ فقال: نعم، يريد العود.

ومنها الرَّبَابُ (يفتح الراء): وهي آلة مِجْوُفَةٌ مِركب عليها خُصْلَةٌ لطيفة من شعر مِئْت عليها بقوس ووتر من شعر فيسمع لها حِسٌّ طَيِّبٌ؛ وأكثر من يمانها العرب.

ومن أنواعها نوع يبرعه بالكُنْبَجَة لطيف القدر في تدويره؛ أطيب حساً وأشهى من الرَّبَاب.

ومنها الدُّفُّ (يضم الدال): وهو معروف، ثم إن كان بغير صُئُوج، وهي المِعبَر عنها في زمننا بالصرابير، حلَّ سَمَاعُهُ، أو بصُئُوج، فالأصحُّ كذلك.

ومنها الشَّابَّةُ (يفتح الشين): وهي الآلة المتخذة من القَصَبِ المِجْوُف، ويقال لها البراع أيضاً تسمية لها بأسم ما اتَّخَذَتْ منه، وهو البراع يعني القصب، وربما عُبِّرَ عنها بالزِّمار المِراقِيّ؛ وتصحيح مذهب الشافعي رضى الله عنه يختلف فيها فالرافعي رحمة الله يميز سماعها والتَّوَوِيُّ يمنع من ذلك.

الصنف العاشر

(المسكات والآلات؛ وهي علة أشياء)

منها الخُرُّ: وهي ما تُتخذ من عَصَبِ العَنَبِ خاصَّةً؛ وهي مُحَرَّمَةٌ بِنَصِّ القِرْآن. قال تعالى: ﴿لَا يَأْكُلُ الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُمْ﴾ وأبو حنيفة يبيحها للتدلي والمطش، ولم يُنَجِّح عند الشافعية إلا لإساعة لقعة المِغْصُوصِ خاصَّةً؛ وشاربها يحدُّ بالأنفاق؛ وحكم بنجاستها تغليظاً في الزجر عنها، وأباح أبو حنيفة المُلْتَكَّ: وهو ما ذهب ثلثه وبقي ثلثه وقال بطهارته، وجرى عند أصحابنا الشافعية وجه بالطهارة.

أما المتخذ من الزبيب والتمر وما شاكله ، فإنما يقال له نَيْذٌ ، وقد ذهب الشافعي رضي الله عنه إلى القول بتجسيه والحدُّ بشربه وإن لم يثبته منه إلى قدر يحصل منه سُكْرٌ . ومنع أبو حنيفة الحدَّ في القدر الذي لا يُسْكِرُ ؛ ثم لخص أسماء كثيرة باعتبار أحوال فتسمى الخمر لأنها تُخَمِّرُ العقلَ : أى تقطيه ، والخبثُ لأنها تُخْجِي الجسد ، والمُقَارَ لأنها تعافر الذنَّ : أى تطول متبها فيه إلى غير ذلك من الأسماء التي تكاد تتجاوز مائة .

ومنها الإبريق : وهو الإناء الذي يُصَبُّ منه ؛ والإبريق في أصل اللغة ماله نرطوم يصبُّ منه .

ومنها القَدْحُ : وهو إناء من زجاج ونحوه يصبُّ فيه من الإبريق المقدم ذكره . ومنها الكَأْسُ : وهو القَدْحُ بعد امتلائه ، ولا يسمى كَأْسًا إذا كان فارغا بل قَدَسًا كما تقدم .

ومنها الكُوبُ بالباء الموحدة : وهو الذي لأُخْرَوَة له يُسَكُّ بها ، أما إذا كانت له عروة ، فإنه يقال له كوز بالزاي المعجمة .

قلت : والعَجَبُ ممن يُنْجِبُ طَبِئَاتِهِ في حياته الدُّنْيَا ، ويفوز بها وَصْفُهُ المرارة وطبعه إزالة العقل الذي به تُدْرِكُ اللذة ، ويفوت النعيمُ المقيمُ في دار البقاء ! فقد ورد "أن من شرب الخمر في الدُّنْيَا لم يَلْعَمْهَا في الآخرة" . قال العلماء : إذا رآها ، لا يشبهها ولم تطلبها نفسُه ، وقد وصف الله تعالى حال نمر الجنة بقوله : "يَطُوفُ فِيهِمْ وَلَدَانُ مُخْلِذُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ" . وأتبع ذلك بكال النعمة في قوله : "وَقَا كِهَيَّ مِمَّا يَنْفَعُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَوْنَ وَخُورٍ عَيْنٍ كَأَمْثَالِ اللُّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ حَرَاءً مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا" .

اللهم لا عيشَ إلَّا عيش الآخرة ! فلا تحرمنا خير ما عندك بشر ما عندنا .
ومنها الحَشِيشَةُ التي يأكلها سَفَلَةُ الناس وأرذلهم ، وتسميها الأطباء الشَّهْدَانِج ،
وصبر عنها ابن البيطار في مفرداته بالقَنْبِ الهِنْدِي . وهي مضمومة شرطاً ، مضرّة طبعاً ،
تُفسِد المزاج ، وتؤثر فيه الجَفَافُ وغلبة السوداء ، وتفسد النهن ، وتورث مَسَاةَ
الأخلاق ، وتُحطُّ قدر متاعها عند الناس إلى غير ذلك من الصفات الذميمة
المتكررة . وكلام القاضي حُسين يدل على أنه لا يجمد متاعها وإن فُسِّقَ ، فإنه قال :
وغير الخمر مثل البَنج ، وجَوْزِ مَائِلٍ ، والأَقْيُون لا يجمد متاعها بهال ، بل إن تعمد تناوله
فُسِّقَ به ، وإن تناوله غَطّاً أو للتداوى به ، لم يُفسَقْ ، وقد أفرد ابن القسطلاني
الحشيشة بتصنيف سماه "تَكْرِمَةُ المَعِيشَةِ" ، في ذم الحشيشة " ذكر الكثير من معانيها
ومساوى متاعها ، أعادنا الله تعالى من ذلك .

النوع الثامن

(بما يحتاج إلى وصفه الأفلاك والكواكب ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان ما يقع عليه اسم الفلك وعدد أكره^(١) ، وما بين كل كرتين

وحركة الأفلاك في اليوم واللييلة)

أما ما يقع عليه اسم الفلك ، فالمراد بالأفلاك السموات . قال صاحب "مناج
الفكر" : توأطأت الأمم على تسمية أجرام السموات أفلاكاً ، وقال ابن قُتَيْبَةَ
في "أدب الكاتب" : الفلك مَدَارُ النجوم الذي يضمها ، وأخرج بقوله تعالى بعد

(١) في القاموس الأكره لنية في الكرة . وقد جمعها المؤلف على هذه اللفظة في المتن أن أكره جمع كرة

مقلوب اللام إلى موضع الفاء فانظره .

ذكر النجوم : "وكل في فلك يسبحون" قال : وسمى فلكاً لاستدارته ومنه قيل فلك الميزان لاستدارتها .

وأما شكل الفلك وهيئته ، فقد اختلف علماء الهيئة في ذلك : فذكر الأكثرون منهم أنها كرية لا مسطحة ، لأن أسرع الأشياء حركة السموات وأسرع الأشكال حركة الكرة لأنها لا تثبت على مكان من الأمكنة إلا بأصغر أجزائها .

وأما عدد أكره ، فقد ذكر الجمهور من علماء الهيئة : أن الفلك عبارة عن تسع أكره متسقة ، ملتفة بعضها فوق بعض التفاف طبقات البصلة ، بحيث يماس محتب كل كره سفلى مقعر كره أخرى علياً إذ لا خلاء بينهما عندهم . قالوا : وأقرب هذه الأكره إلى الأرض كره القمر ، ثم كره عطارد ، ثم كره الزهرة ، ثم كره الشمس ، ثم كره المريخ ، ثم كره المشتري ، ثم كره زحل ، ثم كره الكواكب الثابتة ، ثم كره الفلك الأطلسي ، وسمى بالأطلس لأنه لا كواكب فيه ، ثم الفلك المحيط . وسمى^(١) فلك الكل ، وفلك الأفلاك ، والفلك الأعلى ، والفلك الأعظم ، وحكى الوهمي في "كتاب الآراء والديانات" أن بعض القدماء ذهب إلى أن كره الشمس أعلى من سائر كرات الكواكب ، وبعدها كره القمر ، وبعدها كره الكواكب المتغيرة ، ثم كره الكواكب الثابتة . والمتفلسون من الإسلاميين لما حكمت عليهم نصوص الكتاب والسنة بالاعتصار على ذكر سبع سموات ، زعموا أن الفلك الثامن من الأفلاك التسعة هو الكرمي ، والفلك التاسع هو العرش . وذهب بعض القدماء من علماء الهيئة إلى أن فوق الكرة التاسعة كره عشرة هي المحركة لسائر الأكره . وذهب آخرون إلى أن وراء نهاية الأجرام السماوية خلاء لا نهاية له ، وذهب بعض الفلاسفة إلى أن وراءها عالم الصورة ، ثم عالم النفس ، ثم عالم السياسة ، ثم عالم الملة الأولى ، ويعنون به الباري تعالى عن الجهة . والصابئة يسمون هذه العوالم أفلاكا .

(١) أحله في الأصل ولم نثرطيه بعد البحث .

وأما ما بين كل كرتين ، فذهب أهل الهيئة إلى أنها مترابطة لاختلاف بينها لكن قد ورد الشرع بما يخالف ذلك ، فأطبق القصاص من أهل الأرض على أن بين كل سماء وسماء مئتمائة سنة ؛ وفي سنن الترمذي أن بين كل سماء وسماء واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة .

وأما حركة الأفلاك اليومية ، فإن الفلك الأطلس المقدم ذكره يتحرك بما في ضمنه في اليوم واليلة حركة واحدة دورية على قطبين مائلين يسميان قطبي العالم أحدهما عظمى تقطع هذا الفلك نصفين تسمى دائرة معدل النهار ، لأن الشمس متى حلت بها ، احتلت النهار في سائر الأقطار ، وتقاطع هذه الدائرة دائرة أخرى متوهمة تقسم هذا الفلك نصفين على هطتين متقابلتين ، يصير نصفها في شمالي معدل النهار ونصفها الآخر في جنوبيه ، ويسمى منطقة البروج ، وهذه الدائرة ترسمها الشمس بحركتها الخاصة في السنة الشمسية ، ومن ثم قسمت اثني عشر قسما ويسمى كل قسم منها برجاً .

المقصد الثاني

(في ذكر الكواكب ومحلها من الأفلاك ؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الكواكب السبعة السيارة)

وهي زُحل ، والمُشَرِّق ، والمِرِّيخ ، والشمس ، والزُّهرة ، وعُطَارِد ، والقمر ويتعلق القول بها من جهة مراتبها ، وأشتقاق أسمائها ، ومقادير أبعادها من الأرض ، وقدر حط كل كوكب منها .

(١) في الملاحظ القريري : [ويضم الفلك خط من دائرة تقسمه نصفين ... وتسمى هذه الدائرة دائرة معدل النهار .] قل في مائة الأمل سقلا من الناحية وورد :

فأما القمر، فمأخوذ من القمرة : وهى البياض، سمي بذلك لبياضه ؛ وقد تقدم
أن فللك أقرب الأفلاك إلى الأرض، وهو المعبر عنه بالسما الدنيا، ودوره ألف
ومائة وخمسة وثمانون ميلاً، وهو جزء من تسعة وثلاثين جزءاً من الأرض، وبُعده
عن الأرض مائة ألف وسبعة آلاف وخمسمائة وتسعون ميلاً . وهو يسمى هلالاً
الليلة الأولى والثانية والثالثة، ثم هو قمر إلى آخر الشهر . ويسمى في ليلة أربع عشرة
بالبدر، قيل لمبادرته الشمس قبل الغروب، وقيل لتمامه وأتملاه كما قيل لعشرة آلاف
بدرة لأنها تمام العدد ومنتهى ؛ ويستمر ليلة في آخر الشهر، وربما استمر ليلتين
فلا يرى بمعنى أنه يختفى فلا يرى، ويسمى هذا الاختفاء المَرَار .

وأما عطارد، فعناه النافذ في الأمور، ولذلك سمي الكاتب، وهو في الفلك الثانى
بعد فللك القمر، ودوره قمره سبعمائة وعشرون ميلاً، وهو جزء من اثنين وعشرين
جزءاً من الأرض، وبُعده ما بينه وبين الأرض مائتا ألف وخمسة آلاف وثمانمائة ميل .
وأما الزهرة، فمأخوذة من الزاهر وهو الأبيض، سميت بذلك لبياضها ؛ وهى
في الفلك الثالث من القمر، ودوره قمرها ستة آلاف وسبعة وأربعون ميلاً، وهى
جزء من ستة وثلاثين جزءاً من الأرض، وبعدها عن الأرض خمسمائة ألف وخمسة
وثلاثون ألفاً وستمائة وأربعة عشر ميلاً .

وأما الشمس، فسميت بذلك لشبهها بالشمسة : وهى الواسطة التى فى المَحَقَّة
لأن الشمس واسطة بين ثلاثة كواكب سُفْلِيَّة : وهى القمر وعطارد والزهرة، وبين
ثلاثة عُلوِيَّة : وهى المريخ والمشتري وزحل، وذلك أنها فى الفلك الرابع من القمر؛
ودور قمرها مائة ألف وثمانمائة وثمانون ميلاً ؛ وهى مثل الأرض مائة وست
وستون مرة وربع وثمن مرة، وبُعدها عن الأرض ثلاثة آلاف ألف وخمسة آلاف
واثنان وتسعون ألفاً ومائة وثلاثة وأربعون ميلاً .

(١) أى بطلوه قبل غروب الشمس .

وأما المَرِّيجُ، فمأخوذ من المَرَج : وهو شجر تحتك أغصانه فتورى النار، فسمى بذلك لشبهه بالنار في أحمراره ، وقيل المَرِّيجُ في اللغة هو المسمم الذى لا ريش له ، والمسمم الذى لا ريش له يتوى في سيره ، فسمى النجم المذكور بذلك لكثرة التوائه في سيره ؛ وهو في الفلك الخامس من القمر ، وهو مثل الأرض مرة ونصفا ؛ وبُعْدُه عن الأرض ثلاثة آلاف ألف وتسعمائة ألف وأثنا عشر ألفا وثمانمائة وستة وستون ميلا .

وأما المُشْتَرَى ، فسمى بذلك لحسنه كأنه اشتري الحسن لنفسه ، وقيل لأنه نجم الشراء والبيع عندهم ؛ وهو في الفلك السادس من القمر ، ودور قرصه أحد وتسعون ألفا وتسعمائة وتسعة وسبعون ميلا ، وهو مثل الأرض خمس وسبعون مرة ونصف وثكن مرة ، وبُعْدُه عن الأرض ثمانية وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف وثمانية وستون ألفا ومائتا ميل .

وأما زُحَلٌ ، فمأخوذ من زَحَلَ إذا أبطأ ، سمي بذلك لبطئه في سيره ، وقد فسره بعض المفسرين قوله تعالى "النَّجْمُ الثَّاقِبُ" ودور قرصه تسعون ألفا وسبعمائة وتسعة عشر ميلا ، وبُعْدُه عن الأرض ستة وأربعون ألف ألف ومائتا ألف وسبعمائة وسبعة وسبعون ميلا ، وأهل المغرب يسمون زُحَلَ المُقَابِلَ ، ويسمون المَرِّيجَ الأحمر ، ويسمون عطارد الكاتب .

والقُرْسُ يسمون الكواكب السبعة بأسماء بلغتهم فيسمون زحل كيوان ، والمشتري تير ، والمريخ بهرام ، والشمس مهر ، والزهرة أناهيد ، وعطارد هرمس ، والقمر ماه . وأعلم أن لكل من هذه الكواكب السبعة حركتين ، إحداها قسرية ، وهي حركته بمجره فلك الكل في اليوم واللييلة حركة تامة ، وتسمى الحركة السريعة ، والثانية حركة ذاتية يتحرك فيها هو بنفسه من المغرب إلى المشرق وتسمى الحركة البطيئة ،

ويختلف الحال فيها بالسير باختلاف الكواكب فكل واحد منها سيرٌ بخصه ؛ وهذه الحركة في القمر أينُ لمرّة سيره ، إذ يقطع الفلكَ بالسير من المغرب إلى المشرق في كل ثمانية وعشرين يوما مرة . وقد مثل القدماء من الحكماء للحركتين المذكورتين بمثالين ، أحدهما بحركة السفينة براكبها إلى جهة جريان الماء وتحرك الراكب فيها إلى خلاف تلك الجهة ، والثاني تحرك نملة تدبُّ على دُولاب إلى ذات الشمال والدُولاب يدور إلى ذات اليمين .

الضرب الثاني

(الكواكب الثابتة)

وهي الكواكب التي في الفلك الثامن على رأى عالمه الهيئة ، وسميت ثابتة لأنها ثابتة بمكانها من الفلك لا تتحرك من المغرب إلى المشرق ، كما تتحرك السبعة السيارة ، إلا حركة يسيرة جدًا ، وإنما تتحرك بحسب حركة فلك الكل بها من المشرق إلى المغرب في اليوم واللييلة ؛ والذي يحتاج إلى ذكره منها الكواكب المشهورة هما تُتَعَرَفُ به الأزمنة على ما تقدم ذكره ، أو ما يدخل تحت الوصف والتشبيه .
وهي ثلاثة أصناف .

الصنف الأول

(نجوم البروج التي تنقل فيها الشمس في فصول السنة)

وهي اثنتا عشرة صورة في اثني عشر برجاً ، بعضها من منازل القمر ، وبعضها من صور أخرى جنوبيّة وشمالية ، وبعضها من كواكب متفرقة لا تنسب إلى صورة .
الأول الحمل : وهو الكَبَشُ ، وهو صورة كبش على خط وسط السماء مُقَدَّمَةٌ في المغرب ومؤخره للمشرق ، وأوّل ما يطلُّ منه قُوه وهو الكوكب الجنوبيّ المنفرد من

الكوكبين الشماليين من مَفْصِلِ اليَدِ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى قرنيه الكوكبان الجنوبيان
المقتربان مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى عينه اليمنى الكوكبُ الشَّمَالِيُّ المَضْيُ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ،
وعلى عينه اليسرى كوكبٌ خَفِيَ بِقَرَبِ الشَّمَالِ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى حَاشِيَةِ أَنْوَرِ مِثْلِهِ ،
وعلى مَفْصِلِ يَدِهِ الكوكبانُ الشَّمَالِيَانِ اللَّذَانِ عَلَى عَقِبِ الرَّجْلِ الْيَسْرَى مِنَ الثَّرْيَا ،
وهو الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْبُطَيْنُ ، ويده وساقاه ممتدان إلى الشمال ، وكأنه إنما يظهر منه
يد واحدة ورجلٌ واحدة ، والثريا على طرف أَلْتَيْهِ .

الثاني الثَّوْرُ : وهو صورة ثور على خط وسط السماء ، مُقَدَّمَةٌ إِلَى الْمَشْرِقِ وَمُؤَخَّرَةٌ
إِلَى الْمَغْرِبِ ، وظهوره إلى الشمال ، ويده ورجلاه إلى الجنوب ، وعلى مؤخره أربعة
كواكب تسمى الْقَطْعُ أَي هِيَ مَوْضِعُ ذَنْبِهِ الْمَقْطُوعِ ، وَالذَّبْرَانُ وَجْهَهُ ، وَرَكْنُ
الذَّبْرَانِ قَدُهُ ، وَالْكوكبُ الْمَضْيُ الَّذِي فِي الذَّبْرَانِ عَيْنُهُ ، وَكوكبان خارجان عن الذَّبْرَانِ
قَرْدَةُ قَرْنَيْهِ ، وقرنه الآخر كوكبٌ متباعد عن الذَّبْرَانِ نَفْسِهِ إِلَى الشَّمَالِ ، وليس وجهه
مستويا ولكنّه شبيه بالمقطوع الذي جُمِلَ خَدُّهُ عَلَى رَأْسِ عُنُقِهِ ويده منحطتان إلى
الجنوب ، ويظهر منه رجلٌ واحدة ويدان ، وَذَنْبُهُ أَهْرٌ ، والثريا خارجة عنه إلى الشمال
وكذلك اللَّطْفَةُ ، وهى ثلاثة أنجم تشبه الثريا بين الثريا والذَّبْرَانِ وليستا من صورته .

الثالث الثَّوْمُ : وهو المعبر عنه في أَلْسِنَةِ النَّاسِ بِالْحَوْزَاءِ . قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ يُونُسَ
الْحَاسِبُ فِي كِتَابِهِ فِي " هَيْئَةِ الصُّورِ الْفَلَكِيَّةِ " : وَالنَّاسُ مَخْطُوتُونَ فِي ذَلِكَ وَإِنَّمَا
الْحَوْزَاءُ هِيَ الصُّورَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِالْجَبَّارِ فِي الصُّورِ الْجَنُوبِيَّةِ ، وَقَدِمَ الثَّوْمُ الْأَيْمَنُ بَعْضُ
كَوَاكِبِ الْجَبَّارِ الَّتِي عَلَى تَاجِهِ . قَالَ : وَالثَّوْمُ عَلَى خَطِ وَسْطِ السَّمَاءِ جَسَدَانِ
مُتَصِقَانِ بِرَأْسَيْنِ ، يظهر لكل واحد منهما يد واحدة ورجل واحدة ، وَالرَّأْسَانِ
فِي جِهَةِ الْمَشْرِقِ ، وَرَجُلَاهُمَا فِي جِهَةِ الْمَغْرِبِ ، وَالْفَرْعُ الشَّامِيُّ هُوَ الرَّأْسَانِ ، وَيَدُهُ

البنى^١ وهى التى فى جهة الشمال هى الذراع البانى والمضىء من الذراع البانى يسمى
الشعرى الغميصاء، ويده اليسرى تمتدة إلى التوايح.

الرايع السرطان : وهو صورة سرطان على وسط السماء، رأسه إلى الشمال ومؤثره
إلى الجنوب، والثرة على صدره، وعينه كوكبان خفيان تحت الثرة يدعيان بالجمارين
وزيادته كوكبان فيهما خفاء، وأحدهما أضوا من الآخر، يكونان شماليين من التوهم
ومؤثره كعب الأسد.

الخامس الاسد، فى وسط السماء، فقه مفتوح إلى الثرة، وعلى رأسه كواكب
مضيئة، والطرف على عنقه، والجهة على صدره، وقلبه الكوكب الجنوبي المضىء من
الثرة، وهو عظيم النور، وكاهله كواكب خفية خارجة عن الطرف والجهة إلى الشمال
وانحرافان خاصرتيه، والصرفة ذنبه، وكفه المتقدمة فى آخر السرطان، وكفه الأخرى
بعد هذه الكف إلى المشرق، ورجله الأولى تخرج من الكوكب القبل من الخرتين
إلى الجنوب، والأخرى تحت هذه للشرق، وكبده كوكب يتوسط مع الجهة شمالي
منها، وسائر فاراته إلى المشرق.

السادس السدراء، فى وسط السماء. قال حسين بن يونس : والعرب تسميها
السنبلة، وهو خطأ، وإنما هى حاملة السنبلة، ورأسها فى الشمال يميل إلى المغرب
ورجلها فى الجنوب، وهى مستقبلية المشرق وظهرها إلى المغرب. قال : ورأسها
كواكب صفار مستديرة كاستدارة رأس الإنسان تكون جنوبية من كوكبي الخرتين
ومنكباها أربعة كواكب تحت هذه إلى الشرق، وجناحها الأيمن ستة كواكب
كهية الجناح.

السابع الميزان، وهو صورة ميزان^(١)، كفتها إلى جهة المشرق وقبها إلى جهة
المغرب، والملك الأعزل على قبها من الجهة البنى ومقابله كوكب آخر على قبها

(١) فى الصباح «الميزان مذكور» قبل تأييد المؤلف له باعتبار أنه صورة.

من الجهة الشمالية، وكوكب آخر خارج من وسطها إلى المغرب على ملاققتها، وهو على قصبة السُّبُلَةِ؛ وكوكبان من النَّفَرِ على غامله مع كواكب أُخَر؛ وِزْبَانِيَّ العُقْرَبِ كَفَتَاهُ .

الثامن العُقْرَبِ، وهو صورة عَقْرَبٍ على وسط السماء، رأسه في المغرب وذَنَبُهُ في المشرق، وإحدى رِجْلَيْهِ في الجنوب، والأخرى في الشمال، والنَّفَرُ على رأسه والِزْبَانِيَّانِ اللِّذَانِ هما كَفَتَا المِيزَانِ زُبَانِيَاهُ، وعيناه كوكبان خفيان فيما بينهما وبين الإكليل، والإكليل على صدره، والقلب هو قلبه، ويَاطُ القلب كوكبان خفيان والقلب في وسطهما، وهو خارج عنهما إلى الشمال، والشُّوْلَةُ ذَنَبُهُ، والكواكب التي على طرفها جهته، وإبرته لَطْعَةٌ مستطيلة فيما بين الشُّوْلَةِ والنَّاعِمِ الصَّادِرَةِ؛ ففيه من منازل القمر خمسُ منازلٍ : وهى النَّفَرُ، والِزْبَانِيَّانِ، والإكليل، والقلب، والشُّوْلَةُ؛ وأظهر ما تكون صورة العُقْرَبِ وهو على الأنف عند الغروب؛ ففيه من منازل القمر ثلاثُ منازلٍ : الإكليلُ والقلبُ والشُّوْلَةُ .

التاسع القَوْسُ، ويسمى الرامى، ونجوم هذا البرج نصفه شبه فرس، وهو مؤخره إلى جهة المغرب، ونصفه وجه إنسان تقوس وهو في جهة المشرق، ورأسه في الشمال وجلاه في الجنوب؛ والنَّاعِمِ الوارِدة على وسطه، وهو على الجسد الذى يشبه بدن القوس، وذنبه يشبه لَطْعَةٌ مستطيلة مع كوكب صغير تحته والكواكب دَعَانُ أَى النَّاعِمِ، والبلْدَةُ على مَقْبِضِ القوس ويده اليمنى قابضة على رأس الممهم، وهى كواكب تكون تحت لَطْعَةٍ صغيرة قريبة منها .

العاشر الجَنِيْ : وهو صورة جَنِيٍّ مستلقٍ على ظهره مُقَدَّمُهُ في المغرب ومؤخره في المشرق، وظهره للجنوب ويده وجلاه إلى الشمال، وهو شبهه بالمنقلب إلى القوس

وقرناه إلى بطنه، وله إلى القوس، وليس له إلا يد واحدة، والكوكب الشمالى من سعد الذابج أحد قرتيه، والجنوبى منه قرنه الآخر، وكوكب آخر خفى تحت سهم القوس غربى سعد الذابج له، وعلى كفيه سعد بلح، وعلى وركه سعد السعود، والمضى من سعد السعود حتى وركه وشق الحوت الجنوبى على ظهره، وطرف يده ثلاثة كواكب مضيتة يقرب اللاح فيها خفاء، وطرف رجله الكوكب المسى رأس التلو.

الحادى عشر الدلو: وهو صورة رجل قائم يمد يده رأسه إلى الشمال، ورجلاه إلى الجنوب، وظهره إلى المشرق، ووجهه إلى المغرب، والكواكب التى تسمى الحياة من سعد الأخبية رأسه، ويده اليسرى من فوق رأسه حتى تنزل إلى الدلو الذى عن يمينه، وسعد الأخبية مرققة الأيسر، وبطنه يسمى الحرة، ودلوه أربعة سعدود من السعود السبعة التى ليست من منازل القمر، هى سعد تأشرة، وسعد الملك، وسعد الوهام وسعد المالح، وكل سعد منها كوكبان، وعلى رجله اليسرى كوكب عظيم النور، وعلى رجله اليمنى كوكب أبيض يقرب فى العظم من الذى قبله، والفرغ المقدم خارج عن صورته إلى الشمال.

الثانى عشر الحوت: وهو صورة سمكتين إحداهما المتزلة التى تسمى أصحاب المنازل بطن الحوت وهى شمالية، والثانية جنوبية عنها، وهى أطول منها وأخفى الكواكب، والكواكب السبعة السيارة ترسم الجنوبية منهما بمسيرهن، وشق السمكة الجنوبية ثلاثة من السعود السبعة التى من غير منازل القمر هى سعد الحمام وسعد البارح وسعد الماطر، وليس الفرغ المؤخر فى جسم الحوت بل خارج عنه إلى الشمال والمغرب.

الصنف الثاني

(نجوم منازل القمر التي يتنقل فيها القمر من أول الشهر إلى الثامن والعشرين منه)
وهي ثمان وعشرون منزلة يداخل أكثرها صور البروج الاثني عشر المتقدمة .
الأولى الشَّرطان ، والشَّرطان ثنية شَرط ، وهو العلامة كأنه سمى بذلك لكونه
علامة على طلوع الفجر عند طلوعه ، وتسمى أيضا التَّلحُّع والناطح : لأنها عند أصحاب
الصور قرنا الجمل ؛ وهما كوكبان نيران بينهما قلب قوسين ، أحدهما في الشمال
والآخر في الجنوب إلى الجانب الجنوبي ، ومنها كوكب الطف منه يعد معه أحيانا
ولذلك يسمى بعضهم هذه المنزلة الأشرار على الجمع لا على التثنية ، وهذه الثلاثة
الكواكب إذا ظهرت في المشرق ، ظهرت كأنها مقلوبة منكسة ، وواحد منها أحمر
مضي وتحت آخر خفي والثالث في الشمال وهو أحمر مضي .

الثانية البُطينُ ، تصغير بطن ، وإنما صُغرَ فرقا بينه وبين بطن الحوت الآتي ذكره
في جملة المنازل ، والبُطينُ ثلاثة كواكب مثل أُنَافِ القَدَرِ : وهي الشكل المثلث
الذي ينصب عليه القَدَر عند الطبخ ؛ وهي على القرب منها في موضع بطن الجمل من
الصورة ؛ وواحد منها مضي وأثنان خفيان ، والخفيان يطلعان قبل المضي .

الثالثة الثُّريا ، ويسمى النجم علما عليها ، وبه فسر قوله تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾
وهي ستة أنجم صغار يظنها بعض الناظرين سبعة أنجم ، وهي في شكل مثلث متساوي
الساقين ، وبين نجومها نجوم صغار جدًا كالرشاش ، ومطلعها إلى الشمال عن مطلع
الشَّرطينِ والبُطينِ ، وأول ما يطلع منها ويغيب هو الجانب العريض دون الأنفاذ
منها ؛ وهي عند أصحاب الصور بالقرب من عمل ذَنَب الثور المقطوع . قال ابن
يونس : وليست من صورة الثور ، وبعضهم يسميها آية الجمل لقربها منه .

الرابعة الدبران ، ويسمى تالي النجم لكونه يطلع تلو الثريا ، وربما سمي حادي النجم لذلك ، ويسمى أيضا المُجْتَنَحَ وعين الثور ، وهذه المنزلة سبعة أنجم تشبه شكل الدال ، واحد منها مضى أحمر عظيم النور ، وأسم الدبران واقع عليه في الأصل ثم غلب عليه وعلى باقي المنزلة . وهذه الكواكب السبعة عند أصحاب الصور هي رأس الثور ، وأول ما يطلع منه طرف الدال ، ويكون رميا إلى الجنوب وفتحها إلى الشمال ، والكوكب الأحمر المضى هو آخر ما يطلع منها ، والعرب تقول للكوكبين القريين منه : كُتَّابُه ، والباقي غَنَمُه ، وربما قالوا : قَلَّاصُه ، ويقولون في خرافاتهم : إِنَّ الدَّبْرَانَ خُطِبَ الثَّرِيَّا إِلَى الْقَمَرِ فَقَالَتْ : مَا أَصْنَعُ يُسْبِرُونِ ؟ فساق إليها الكواكب المسماة بالقِلَاصَ مَهْرًا ، فهربت منه فهو يطلبها أبدا ، ولا يزال تابعا لها ، ومن ثم قالوا في أمثالهم : «أَرْفَى مِنَ الْحَادِي وَأَعْدَر مِنَ الثَّرِيَّا» .

الخامسة المَقَمَّة ، سميت بذلك تشبيها بدائرة تكون في عُنُقِ الفرس ، وقد مر القول طيبا في الكلام على أوصاف الخيل ، وهي ثلاثة كواكب محيية صغار تسمى الأثافي ، وهي على أعلى القدم اليسرى من التوهم المعبر عنه بالجوزاء .

السادسة المُنْعَةُ : وهي خمسة أنجم على شكل الصُّوْلِحَانِ : أربعة منها على خط مستقيم ، الثالث منها يسمى قوس الجوزاء ، والخامس منعطف إلى جهة الجنوب مقدار شبر في رأى العين ، وسميت مُنْعَةً لَانْعَاطَافِهَا أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِمْ : هَنَمْتُ الشَّيْءَ إِذَا عَطَفْتَهُ ، وبعضهم يسميها التَّحِيَّةُ ، وهي عند أصحاب الصور خلاف لأحد التوهمين المعبر عنهما بالجوزاء ، ويقال : المنعة قوس الجوزاء يرى بها ذراع الأسد ، وقال ذلك يزعم أنها ثمانية أنجم في صورة قوس من مقبضا النجمان اللذان يقال

(١) المراد بالحادي الدبران كما تقدم في كلامه وكما يشير إليه قول الشاعر : * كما وفق قلاص النجم حاديا ٥

ورفع في الأصل الجارى وهو تصحيف .

(٢) الذى فى القاموس واللسان فى مادة (ح ن ع) أنها تحية وجمعها تحايا .

لها الهنة، وبعضهم يقول : إن الهنة كوكبان مقتربان ، الشمال منهما أضوءهما وحذاءهما ثلاثة كواكب تسمى الصَّحَّابِي ربما عدل القمر قتل بها .

السابعة الذراع : وهي كوكبان : أحدهما نير والآخر مظلم ، بينهما قدر سوط في رأى العين ، وفيها بينهما كواكب صغار تسميها العرب الأظفار ، وسميت هذه المتزلة بالذراع لأنها عندهم ذراع الأسد والأسد ذراعان : مقبوضة وفيها يترك القمر ، وهي جنوبية ، وسميت مقبوضة لأن الأثرى أرفع منها في السماء ، ولهذا سميت بمسوفة ، وهي مثلها في الصورة ، وأصحاب الصور يعملون هذه الذراع في صورة الكلب الأصفر ، وربما عدل القمر عن المقبوضة قتل بها .

الثامنة الثرة ، وهي قطعة كقطعة صحاب يحملها أصحاب الصور على صدر السرطان . وسميت ثرة لأن إلى جانبها نجمين صغيرين هما عند العرب على متخري الأسد ، وتسميها الجارين ، وقيل إنها لما كانت أمام جبهة الأسد شبت بشئ ثره من أنفه ، ويقال إنها فم الأسد ومنخراه ، وتسمى اللهاة أيضا وتشبه بالمعالف .

التاسعة الطوف ، وهي كوكبان خفيان مقتربان بين يدي الجبهة ، سمي بذلك لموقعهما موقع عني الأسد ، وقدامهما ستة كواكب صغار تسميها العرب الأشفار اثنتان منها في نسق الطوف ، والأربعة البواق بين يديه .

العاشرة الجبهة ، ثلاثة كواكب نيرة قد عدل أوسطها إلى الشرق ، فهي لذلك على شكل مثلث مستطيل القاعدة قصير الساقين ، وإلى الجنوب عنها نجم أحمر مضى جتا يسمى قلب الأسد يرسمه المنجمون في الأسطرلاب ، وأصحاب الصور يعملون الجبهة على كتف الأسد .

الحادية عشرة الخرائتان ، وتسمى الزرة وعُرف الأسد والزبرج ، وهما كوكبان نيران بينهما في رأى العين مقدار ذراعين ، وهما مقرضان ما بين المشرق والمغرب ،

يتمتدان عند التوسط مع خط الاستواء، وسميا الخراتان تشبيهاً بتقنين في السماء، ومنه تحرت الإبرة، وتحت هذين النجمين تسعة أنجم صغار. وسميت الزهرة لشعر يكون فوق ظهر الأسد مما على خاصرته، وعلوا الجميع أحد عشر كوكباً منها نجمان هما الخراتان والتسعة الشعر.

الثانية عشرة الصرفة: وهي كوكب نير، وهو عند أصحاب الصور قنط الأسد والقنط وعاء القضيبي، وبالقرب من هذا الكوكب سبعة أنجم صغار طمس ملاصقة له، وسمى هذا الكوكب بالصرفة لأنصراف الحر عند طلوعه مع الفجر من المشرق وأنصراف البرد إذا غرب مع الشمس؛ ويقال الصرفة ناب النهر لأنها تنفترعن فصل الزمانين، ويشكل مع الخراتان مثلثاً له زاوية قائمة وإحدى ساقيه أطول من الأخرى وفي قاعدته قصر.

الثالثة عشرة العواء، وهي خمسة كواكب نيرة على شكل لام، كان اختر أبداؤها من الشمال وعطفها من جهة الجنوب لكن المصطف منها أربعة والمنعطف واحد، ويقال لها أيضاً وركي الأسد، وتشبهها العرب بكلاب تعوى خلف الأسد لأنها وراءه، ولذلك سميت العواء، وأصحاب الصور يجعلونها في السبلية على صدرها.

الرابعة عشرة السماء، وهو السماء الأعزل: وهو كوكب نير ميل لونه إلى الزرقاء وسمى سماءاً لكونه قريباً من سمت الرأس، وسمت الرأس أعلى ما يكون من الفلك وسمته العرب الأعزل لأنه يطلع إلى جانبه نجم مضى يسمونه السماء الرياح لكوكب صغير بين يديه، والأعزل لاشيء بين يديه ففرق بينهما، وأحدهما جنوبي، وهو المنزل، وأصحاب الصور يثنون الماكين: الأعزل والرايح في صورة العذراء، وهي السبلية، والعرب تجعلها ساق الأسد، وربما عدل القمر فزل بجزي الأسد، وهو أربعة كواكب بين يدى السماء الأعزل، يقال لها عرش السماء، وتسمى أيضاً

(١) في لسان العرب كأنها كتابة ألف ... ويقال كأنها نون.

الحِباء، والأحمال، والتُّراب، وهذه الميزة حد ما بين المنازل الجمانية والمنازل الشامية،
فما كان أسفل من مَطْلَمه فهو يمانى ، وهو شِقْ الجنوب، وما كان فوقه فهو شامى،
وهو شِقُّ الشَّمال .

الخماسة عشرة النَفَرُ، ثلاثة كواكب خفية على حُطِّ فيه تقويس، وسميت بذلك
لخفاها مأخوذة من النَفَرَةِ التي تستر الذنب وتخفيه يوم القيامة، ومنه النَفَرُ الذى
فوق الرأس، وقيل لأنها زُيَّافُ القُرب، وقيل مأخوذة من النَفَرَةِ : وهى الشعر الذى
فى طرف ذَنب الأسد؛ وأصحاب الصور يحملونها بين ساقَي الأسد .

السادسة عشرة الزُّبَّانُ ، وهما كوكبان تَبْرَأُ هـا عند العرب يد القُرب يترس
بهما : أى يدفع عن نفسه، وأصحاب الصور يحملونها كَقَفَى الميزان، و بينهما فى رأى
العين قدر قامة الرجل .

السابعة عشرة الإكْبِيلُ ، وهو ثلاثة كواكب مجتمعة فى خفاء النَفَرِ مصطفة
معتزلة، بين كل كوكب وكوكب منها قدر ذراع فى رأى العين، سميت بذلك لأنها
فوق جهة القُرب كالنَّاج، وهى عند أصحاب الصور على عمود الميزان .

الثامنة عشرة القَلْبُ ، وهو كوكب أحمر يُرْمَضُ مضطرب قريب من الجهة بين
كوكبين خفيين تسميهما العرب نِبَاطَى القلب أى علاقته ، وسمته أصحاب الصور
قَلْبًا لوقوعه موضع القلب من صورة القُرب ؛ والقلوب أربعة هذا أحدها، والثانى
قَلْبُ السمكة ، والثالث قلب الثور ، والرابع قلب الأسد . وحيث ذكر القلب على
الإطلاق دون إضافة فالمراد قلب القُرب هذا .

التاسعة عشرة الشَّوْلَةُ، وهى كواكب متقاطرة على تقويس فى بُرْج القُرب أشبه
شئ بِذَنب القُرب إذا شالته، ولذلك سميت الشَّوْلَةُ، وفى الشَّوْلَةِ كوكبان خفيان

ملتصقان يظهران كأنهما كوكب واحد مشقوق يسميان الإبرة والحمة ، وخلفهما نجم صغير لا يرايهما يقال له التابع . وقال قوم : إنما يتزل القمر الشؤلة على المخازاة ولا يخط إليها لأنها متصدرة عن طريقه ، وربما نزل بالسفار فيا بين القلب والشؤلة ، وهي ستة كواكب بيض منعطفة .

العشرون النعام ، وكواكبها ثمانية ، منها أربعة يمانية نيرة تشكل مربعا فيه أطراف تسمى الواردة وهي المتزلة ، وسميت واردة : لأنها لما كانت قريبة من المجرة شبت بنعام وردت نورا ، والأربعة الأخرى تسمى النعام الصاذرة : لأنها لما كانت بعيدة من المجرة شبت بنعام وردت ثم صدرت ، والواردة التي هي المتزلة عند أصحاب الصور واقعة في يد الراى الذى يجذب بها القوس .

الحادية والعشرون البلدة ، وهي فرجة في السماء مستديرة شبه الرقعة ليس فيها كواكب ، والبلدة في كلام العرب الفرجة من الأرض ، ويقال لصدر الإنسان البلدة لأنها قطعة مستطيلة ، ويدل عليها ستة كواكب مستديرة صفار خفية تشبه القوس ، وبعضهم يسميها الأذنى لأن بالقرب منها كواكب تسميها العرب البيض لقربها من النعام ، وربما عدل القمر قزلب بالأذنى ، وأصحاب الصور يجعلون البلدة على جهة الراى .

الثانية والعشرون سعد الذابح ، وهو كوكبان صغيران بينهما فى رأى العين أقل من قدر ذراع ، أحدهما مرصع فى ناحية الشمال والأخر منخفض فى ناحية الجنوب سمي سعدا لانهمال الأمطار فى أيام طلوعه ، وسمى ذابحا لقوة البرد فى إبان طلوعه فتصوت المواشى يرده ، وقيل سمي ذابحا لأن بالقرب من نجمة الشمالى نجما صغيرا كأنه ملتصق به ، تقول العرب : هو شأنه الذى تدبج ، ولذلك جعلوا الذابح صفة لسعد

بغلاف سائر السعود ، فإنها يضاف إليها ما بصلحا كما قاله الزجاج في مقمّته أدب الكاتب ؛ وأصحاب الصّور يثنون هذا السعد في موضع قرّئ الجلّدى من الصورة .
الثالثة والعشرون سعد يُلح ، وهو نجحان أيضا يشبهان سعدا النابج في المسافة التي بينهما لكن أحد الكوكبين خفي ، وهو الذي يُلح ، وهذا السعد عند أصحاب الصّور على كعب ساكب الماء القريب من صورة الدّلّو ، وسمي يُلح لأنه في أيام طلوعه تفيض الأنهار وتزيد الآبار ، فكان الأرض أبتلعت ما معها ، وقيل لأنه يطلع في الوقت الذي قيل فيه "يَا أَرْضُ أَبْلِي مَا لَكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلِي" زمن نوح (عليه السلام) .

الرابعة والعشرون سعد السعود ، وعلته كوكبان أيضا على ما هتم في السعدين من البعد ، وقيل هو ثلاثة كواكب أحدها نير والآخران دونه في النور ، وأصحاب الصّور يثنونه على صلب ساكب الماء القريب من صورة الدّلّو ، وربما قصر القمر فقل سعد تأمّرة ، وهو أسفل من سعد السعود ، ويسمى أصحاب الصور نجمة بالحسين ، وهما في مؤخر الجلّدى ، ومنهم من يثبت سعد السعود نجما واحدا .

الخامسة والعشرون سعد الأخبية ، والناس مختلفون فيه ؛ فمنهم من يقول : إنه كوكب واحد حوله ثلاثة كواكب مثلثة تشبه رجل بطة والكوكب هو السعد والثلاثة أخبية ؛ ومنهم من يجعل الكوكب الذي في وسط الثلاثة عمود الخبياء ، وهو عند أصحاب الصّور على الكتف الشرقية من جسد ساكب الماء ، وسمي سعد الأخبية لخروج الخبيات فيه من الثمار والحشرات ، وكانت العرب تترك به لأخضرار الود فيه .

السادسة والعشرون القَرغ المَقبّم ، ويقال فيه مقم الدّلّو والفرغ الأول والفرغ الأعلى وعرقوة الدّلّو المليء ، وهو كوكبان نيران بينهما في رأى العين نحو من خمسة أذرع ؛ وأصحاب الصّور يزعمون أن الشمال منهما على متن الفرس .

السابعة والعشرون القَرُغُ المؤنث، ويقال له مؤنر النُّلُو السفلى، وهو كوكبان يشبهان ما تقدم، أحدهما شمالي والآخر جنوبي، وهما عند أصحاب الصور على مؤنر القوس، وربما قصر القمر قتل في الكَرَب الذي في وسط العَرَّاق، وربما نزل ببلدة الطلب.

الثامنة والعشرون الحُوت، وهو آخر المنازل، ويقال لها السمكة، وتسمى الرِّشَاء أيضا، وهي ثمانية عشر كوكبا تشكل شكل سمكة رأسها في جهة الشمال وذنبها في جهة الجنوب، وفي الشرق منها كوكب يُر، يسمى مُرَّة الحوت، وبطن الحوت، وبطن السمكة، وقلب السمكة، وربما عدل القمر قتل بالسمكة الصغرى، وهي من السمكة الكبرى في الشمال مثل صورتها إلا أنها أعرس منها وأقصر، وأصحاب الصور يجعلون الكوكب الثامن الحوت في حد المرأة المسلسلة، ورأسها هو الشمالي من القَرُغ المؤنث.

الصنف الثالث

(من النجوم الثوابت ما ليس داخلا في شيء من البروج ومنازل القمر مما هو مشهور مما ذكرته العرب في شعرها، وشبهت به، وضربت به الأمثال)

وهي عدة نجوم.

منها بنات نعش : وهي سبعة أنجم على القرب من القطب الشمالي، منها أربعة في صورة نعش وثلاثة أمامه مستطيلة، وهي المعبر عنها بالبنات، وتعرف هذه بنات نعش الكبرى، وبالقرب منها سبعة أنجم على شكلها.

ومنها الجدي الذي تعرف به القبلة، وهو نجم صغير على القرب من القطب الشمالي يستدل به على موضع القطب، ويقال له جدي بنات نعش الصغرى.

ومنها القَرَقَدَانِ ، وهما كوكبان متقاربان معلودان في نبات تَعِش .
ومنها الشَّهَاءُ ، وهو كوكب خفي في نبات تَعِش الكبري ، والناس يَتَحَنُّونَ به
أبصارهم لظفائه .

ومنها السَّيَّاحُ الرَّاحُ ، وهو غير الأعزَلِ المقدم ذكره في منازل القمر ، سمي راحاً
لكوكب يَقلُّه ، يقول العرب : هو رُحُّه بخلاف الأعزل فإنه الذي لأرُحِّ معه .
ومنها النَّسْرُ الواقع ، وهو ثلاثة أنجم كأنها أظاف ، سمي الواقع لأنهم يجعلون اثنين
منه جَنَاحيه ويقولون : قد ضمهما إليه كأنه طائر وقع .
ومنها النَّسْرُ الطَّائِرُ ، سمي بذلك لأنهم يجعلون اثنين منه جَنَاحيه ، ويقولون : قد
بسطهما كأنه طائر ، والمائة تسميه المِيزَانُ .

ومنها الكَفُّ الخَضِيبُ ، وهو كف الثَّيِّبِ الميسوط ، ولما كف أخرى يقال
لها الجَلَمَاءُ ، وهي أسفل من الشَّرَطِينِ .
ومنها الصَّيْقُ ، وهو في طَرْفِ المَجَرَّةِ الأيمن ، وعلى أثره ثلاثة كواكب يَنْتَهِي بِهَا
لها الأَقْلَامُ ، وهي من مواقع الصَّيْقِ .

ومنها سُهَيْلٌ ، وهو كوكب أحمر متفرّد عن الكواكب ولقرابه من الأَفَقِ كأنه
أَبَدًا يضطرب ، وهو من الكواكب اليمانية ، قال ابن قُتَيْبَةَ : ومطلعه عن يسار
مُسْتَقْبِلِ قِبْلَةِ الْعِرَاقِ . قال : وهو يُرَى في جميع أرض العرب ، ولا يرى في شيء
من بلاد أَرَمِينِيَّةَ .

ومنها الشَّعْرَانِ : العبورُ ، وكانت تعبد في الجاهلية لقوله تعالى : ” وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ
الشَّعْرَى ” وهي في الجوزاء ، والشَّعْرَى النَّمِصَاءُ ، ومع كل واحدة منهما كوكب
يقال له المِرْزَمُ .

ومنها سعد ناشرة، وسعد الملك، وسعد البهائم، وسعد الممات، وسعد الباربع، وسعد مطر؛ وكل سعد منها كوكبان، بين كل كوكبين في رأي العين قدر ذراع فهي متناسقة؛ وهذه السعد الستة غير السعد الأربعة المتقدمة في منازل القمر؛ تكون جملة السعد عشرة.

فإذا عرّف الكاتب أحوال الأفلاك والكواكب وأسمائها وصفاتها، عرف كيف يصفها عند احتياجه إلى وصفها، وكيف يبرّحها عند جريان ذكرها.

كما قال بعضهم يمدح بعض الرؤساء :

لَا زِلْتَ تَبْقَى وَتَرْقَى لِلْعَالِ أَبَدًا * مَا دَامَ لِلسَّبْعَةِ الْأَفْلَاكِ أَحْكَامُ
مَهْرٌ وَمَاهٌ وَكِوَانٌ وَيَهْرٌ مَعَا * وَهَرْمُسٌ وَأَنَاهِيدٌ وَبَهْرَامُ

مشيرا بذلك إلى ذكر الأفلاك السبعة، وما لها من الكواكب السبعة السيارة بالأسماء الفارسية المقدم ذكرها.

وكما قال الطغراني في لامية العجم :

وَأَنْ عَلَّانِي مَنْ دُونِي، فَلَا عَجَبٌ * لِي أَسْوَةٌ بِأَحْطَاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلٍ

مشيرا إلى كون فلک زحل أعلى من فلک الشمس لما تقدم أنها في الرابع، وهو في السابع.

وكما قال بعضهم يصف خضرة السماء، وما لها من الكواكب :

كَأَنَّ سَمَاءَنَا وَالشَّهْبُ فِيهَا * وَأَصْفَرُهَا لَا كَبْرَهَا مَرَاخِمُ
بَسَاطُ زُرْمِدٍ ثَبُرَتْ عَلَيْهِ * دَنَائِرٌ يَخَالِطُهَا دَرَاهِمُ

وكما قال ذوالرقة وقد ذكر الثريا :

يَلْفُ حُلَى آثَارَهَا دَرَانُهَا * فَلَا هُوَ مَسْبُوقٌ وَلَا هُوَ يَلْحَقُ
بِعَشْرِينَ مِنْ صُفْرِ النُّجُومِ كَأَنَّهَا * وَلِيَّاهُ فِي الْخَضِرَاءِ لَوْ كَانَ يَنْطَلِقُ

قَلَّاصٌ حَدَاها رَاكِبٌ مَتَعَمٌّ * إلى الماء من جَوْزِ التَّنُوفَةِ مُطْلَقٌ

مشيرا إلى ما تخفهم من خطية الدبران الثريا وهربها منه وإمهارة إياها بالقلاص :
وهي النجوم التي حولها .

وكما قال أبو الفرج البيهقي ذا كرا حال غنيم يرحى له الظهور :

سَتَخْلُصُ من هذا السَّرايرِ وأَيْمًا * هَلَاكٌ تَوَارَى في السَّرايرِ فما خَلَصَ

مشيرا بذلك إلى حالة توارى القمر حالة السراير ثم خلوصه عند إهلاكه .

النوع التاسع

(مما يحتاج الكاتب إلى وصفه الملوّيات مما بين السماء والأرض ،

وهي على أصناف)

الصفن الأول

(الريح)

وهي مؤنثة ، يقال هبت الريح تهبُّ هبوا ، وتجمع على رياح ، وقد دل الاستقراء على أنها حيث وردت في القرآن الكريم في معرض العذاب ، كانت بلفظ الإفراد وحيث وردت في معرض الرحمة ، كانت بلفظ الجمع . قال تعالى في جانب العذاب :
”فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ“ وقال : ”إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا“ وقال في جانب الرحمة : ”وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ“ وقال جلّت قدرته : ”اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا“ إلى غير ذلك من الآيات . ومن ثم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أشتتت الريح قال : ”اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيحًا“ ولا تجعلها ريحًا“ وقد ورد القرآن الكريم بأن الله تعالى هو الذي يرسلها ، قال تعالى :
”اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا“

وذهبت الفلاسفة إلى أنها تحدث عن الطبيعة، وأن سبب ذلك دُخان يرتفع من الأرض فيضربه البرد في أرضه فيتنكس ويحتمل على الهواء ويمزجه الهواء بشدة فيحصل الريح .

وأصول الرياح أربعة :

الأولى الصَّبا : وهى التى تأتى من المشرق، وتسمى القبول أيضا : لأنها في مقابلة مستقبل المشرق، قال في صناعة الكُتاب : وأهل مصر يسمونها الشرقية : لأنها تأتى من مَشرق الشمس ، وهى التى تُصيرها النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب كما أخبر صلى الله عليه وسلم بقوله : ” نُصِرْتُ بالصَّبا “ .

الثانية الدُّبُورُ ، ومهَّبا من مغرب الشمس إلى حد القطب الجنوبي ، وسميت الدُّبُورُ لأن مستقبل المشرق يستدبرها ، وتسمى الغربية لميولها من جهة المغرب ، وبها هلكَتْ عاد كما أخبر عليه السلام بقوله : ” وَأَهْلِكَتْ عَادٌ بِالدُّبُورِ “ .

الثالثة الشَّمالُ ، ويقال فيها شَمَالٌ وشَمَالٌ وشَامِلٌ ومهموزا وغير مهموز ، ومهَّبا من حد القطب الشمالى إلى مغرب الشمس ، وسميت شَمَالًا لأنها على شمال من مستقبل المشرق ، قال في صناعة الكُتاب : وتسمى البحرية لأنها يُسار بها في البحر على كل حال .

الرابعة الجنوبيَّة ، ومهَّبا من حد القطب الأسفل إلى مطلع الشمس ، وتسمى بالديار المصرية القِبْلِيَّةَ لأنها تأتى من القبلة فيها ، وتسمى بها أيضا المِريسيَّةُ لأن في لُحمة القبلة بلاد المِريسي : وهم ضرب من السودان ، وهى أردأ الرياح عند أهل مصر . وقال النحاس : وكل ريح جاءت من مَهَيٍّ ريحين تسمى النَّجَاءُ ، سميت بذلك لأنها تكبت عن مهَابِّ هذه الرياح وعذلت عنها ، قال في ” فقه اللغة “ : وإذا

جاءت بَنَفِيسٌ ضَعِيفٌ وَرَوِّجٌ فَهِيَ النِّسِيمُ ؛ وَإِنْ أَتَدَّتْ شَيْلَةً قِيلَ لَهَا النَّالِجَةُ ؛
فَإِنْ حَرَكْتَ الْأَغْصَانَ تَحْرِيكًا شَدِيدًا وَقَلَعْتَ الْأَشْجَارَ قِيلَ زَعَزَعٌ ؛ فَإِنْ جَاءَتْ
بِالْحَصْبَاءِ قِيلَ حَاصِبَةٌ ؛ فَإِذَا هَبَّتْ مِنَ الْأَرْضِ كَالْمَسْمُودِ نَحْوِ السَّمَاءِ قِيلَ لَهَا
إِعْصَارٌ . وَقَدْ وَرَدَ بِهَا الْقُرْآنُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ” فَاصْبَاْهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ “ وَالْعَامَّةُ
تَسْمِيهَا الرُّوْبَعَةَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي يَشِيرُهَا ، وَمَنْ تَمَّ سَمَاهَا التَّرَكُّ
نَسِيمٌ بِكَ يَعْنِي الشَّيْطَانَ ؛ فَإِذَا كَانَتْ بَارِدَةً ، فَهِيَ الصَّرَصَرُ . وَقَدْ وَقَعَ ذِكْرُهَا
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ” إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا “ ؛ فَإِذَا لَمْ تُلْقَعْ شَجَرًا وَلَمْ يَحْمَلْ
مَطَرًا ، فَهِيَ الْعَقِيمُ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ هَادٍ : ” إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ “
كَانَتْ لَا مَطَرَ فِيهَا .

الصَّنْفُ الثَّانِي

(السَّحَابُ)

وهو الأجرامُ الَّتِي تَحْمِلُ الْمَطَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يُنْشِئُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
كَأَخْبَرَ بِقَوْلِهِ : ” وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ “ وَيُسَوِّقُهَا إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ كَمَا بُيِّنَتْ
فِي الصَّحِيحِ ” أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ صَوْتًا مِنْ صَحَابَةٍ : أَسْقَى حَدِيقَةَ فُلَانٍ “ .

وذهب الحكماء إلى أَنَّهُ بُحَّارٌ مُتَصَاعِدٌ مِنَ الْأَرْضِ مُرْتَفِعٌ مِنَ الطَّبَقَةِ الْحَارَّةِ إِلَى
الطَّبَقَةِ الْبَارِدَةِ فَيَتَجَلَّلُ وَيَتَكَثَّفُ وَيَنْقَدِرُ فَيَصِيرُ سَحَابًا . قَالَ النَّعَلِيُّ فِي ” فَتَاهِ اللُّغَةِ “ :
وَأَوَّلُ مَا يَنْشَأُ يَقَالُ لَهُ النَّشْرُ ؛ فَإِذَا انْتَسَحَبَ فِي الْهَوَاءِ ، قِيلَ لَهُ سَحَابٌ ؛ فَإِذَا تَغَيَّرَتْ
بِهِ السَّمَاءُ ، قِيلَ لَهُ تَغَامٌ ، فَإِنْ سَمِعَ صَوْتَ رَعْدِهِ مِنْ بَعِيدٍ قِيلَ فِيهِ عَقَرٌ ؛ فَإِذَا أَظْلَمَ ،
قِيلَ عَارِضٌ .

وقد أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قَوْمٍ هَادٍ بِقَوْلِهِ : ” فَلَبَّسُوا رَأْسَهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا

هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌ ۖ فَإِنْ كَانَ بِحَيْثُ إِذَا رُئِيَ ظَنَّ أَنَّ فِيهِ مَطَرًا ، قِيلَ لَهُ مُجَلَّةٌ ۖ
 فَإِنْ كَانَ السَّحَابُ أَيْضًا ، قِيلَ لَهُ مَزْنٌ ۖ فَإِذَا هَرَأَقَ مَائِهِ ، قِيلَ جَهَامٌ ، وَقِيلَ
 الْجَهَامُ هُوَ الَّذِي لَا مَطَرٌ فِيهِ .
 وقد أُولِعَ أَهْلُ النِّظْمِ وَالتَّرْبُوصَةِ وَتَشْبِيهِهِ .

الصنف الثالث

(الرعد)

وهو صوت هائل يُسَمَعُ مِنَ السَّحَابِ ، وَقَدْ اختلفَ فِي حَقِيقَتِهِ فَرَوَى أَنَّهُ
 صَوْتُ مَلَكٍ يَزْحَرُ بِهِ السَّحَابُ ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ ۖ وَالنَّصِيرِيَّةُ مِنَ الشَّيْخَةِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ
 صَوْتُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ زَعَمُوا أَنَّ مَسْكَنَهُ
 السَّحَابُ ۖ وَذَهَبَتِ الْفَلَّاسِفَةُ إِلَى أَنَّهُ دُخَانٌ يَتَّبَعُ مِنَ الْأَرْضِ وَيَرْتَفِعُ حَتَّى يَتَّصِلَ
 بِالسَّحَابِ وَيَدْخُلُ فِي تَضَاعُيفِهِ وَيَرِدُ فَيَصِيرُ رِيحًا فِي وَسْطِ النَّفْسِ ، فَيَتَحَرَّكُ فِيهِ بِشِدَّةٍ
 فَيَحْصِلُ مِنْهُ صَوْتُ الرِّعْدِ ، وَيُقَالُ مِنْهُ رَعَدَتِ السَّمَاءُ ۖ فَإِذَا زَادَ صَوْتُهَا ، قِيلَ
 أَرْتَجَسَتْ ۖ فَإِذَا زَادَ ، قِيلَ أَرَزَمَتْ وَدَوَّتْ ۖ فَإِذَا أَشْتَدَّ ، قِيلَ قَصَفَتْ وَقَعَقَعَتْ ۖ
 فَإِذَا بَلَغَ النِّهَايَةَ ، قِيلَ جَلَجَلَتْ وَهَلْهَلَتْ .

الصنف الرابع

(البرق)

وهو ضوء يُرَى مِنْ جَوَانِبِ السَّحَابِ ، وَقَدْ اختلفَ فِيهِ أَيْضًا فَرَوَى أَنَّ الرِّعْدَ
 صَوْتُ مَلَكٍ يَزْحَرُ بِهِ السَّحَابُ وَأَنَّ الْبَرْقَ ضَعْفُكَ ۖ وَالنَّصِيرِيَّةُ مِنَ الشَّيْخَةِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ
 ضَعْفُكَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا ، وَالْفَلَّاسِفَةُ يَقُولُونَ إِنَّهُ دُخَانٌ يَرْتَفِعُ

من الأرض حتى يتصل بالسحاب كما تقدم في الرد ، ثم تهوى حركته فيشتعل من حرارة الحركة الهواء والدخان فيصير نارا مضئة وهو البرق ؛ ويقال ومض البرق إذا لمع لمعانا قويا ، وأومض إذا لمع لمعانا خفيا ؛ فإن أطمع في المطر ثم ظهر أن لا مطر فيه ، قيل خُلب .

الصنف الخامس

(المطر)

وهو الماء الذي يخلق الله تعالى في السحاب ويسوقه إلى حيث يشاء . . .
وقد ذهب الحكماء إلى أنه بخار يتصاعد (من الأرض أيضا فيه أو في حرارة الشمس أو فيها) فيجتمع ، وربما أطأت الرياح على جمعه بأن تسوق البهض إلى البعض حتى يتلاحق ؛ فإذا انتهى إلى الطبقة الباردة تكاثف وصار ماء ومخاطر كالبخار الذي يتصاعد من القدر ويتمى إلى غطاء القدر وعند أدنى برودة ينعقد قطرات .

ثم للطر زمان يكثر فيه ، وزمان يقل فيه ، وقد رتب العرب ذلك على أنواء الكواكب التي هي منازل القمر ، وجعلوا لكل منها نوما ينسب إليه . قال أبو حنيفة الدينوري في "كتاب الأنواء الكبير" : كانت العرب تقول : لا بد لكل نوء كوكب من أن يكون فيه مطر ، أو ريح ، أو غيم ، أو حر ، أو برد . ينسبون ما كان فيه من ذلك إليه ؛ وقد اختلف في معنى النوء فذهب ذاهبون إلى أن النوء في اللغة النهوض ، وذهب الفراء إلى أنه السقوط والميلان ؛ وذهب آخرون إلى أنه يطلق على النهوض والسقوط جميعا ، على أنهم متفقون أن العرب كانت ترى الأمر للسقوط

(١) كنا بالأندلس ولعل الصواب من الأرض أيضا أو من حرارة الشمس أو منهما .

دون الطلوع، فمن ذهب إلى أن المراد بالنوء السقوط يحريه على بابه، ومن ذهب إلى أن المراد بالنوء النهوض يقول: إنما سمي نوءاً لطلوع الكوكب لا لسقوط الساقط، ومنهم من يطلق النوء على السقوط وإن كان موضوعه في اللغة النهوض من باب التناؤل كما يقال للدينغ سليم وللهلكة مفازة، على أن بعضهم قد ذهب إلى أن الكوكب ينوء بمعنى ينهض ثم يسقط، فإذا سقط فقد مضى نوءه ودخل نوء الكوكب الذي بعده، قال أبو حنيفة الدينوري: وهو التأويل المشهور الذي لا ينزع فيه لأن الكوكب إذا سقط النجم الذي بين يديه، أطل هو على السقوط وكان أشبه حالاً بحال الناهض. وقد عثنا أبو حنيفة ثمانية وعشرين نوءاً بعد منازل القمر المتقدمة الذكر، وذكر أن بعضها أجهر وأشهر من بعض.

الأول نوء الشريطين، وهو ثلاث ليال، وأثره محمود عندهم.

الثاني نوء البطين، وهو ثلاث ليال، وليس بمذكور عندهم ولا محمود. قال ابن الأعرابي: يقال إنه ماناء البطين والدبران أو أحدهما فكان له نظر، إلا كاد ذلك العام يكون جدياً.

الثالث نوء الثريا، وهو خمس ليال وقيل سبع، وأثره محمود عندهم مشهور.

الرابع نوء الدبران، وهو ثلاث ليال وقيل ليلة، وليس بمحمود عندهم، ولم يسمع في أشعارهم له ذكر.

الخامس نوء الهقعة، وهو ست ليال، ولا يذكرون نوءاً إلا بنوء الجوزاء التي الهقعة رأسها، والجوزاء مذكورة النوء مشهورة.

السادس نوء الهقعة، وهو ثلاث ليال لا يكاد ينفرد عن نوء الجوزاء.

السابع نوء الدراع المقبوضة، وهي خمس ليال، وقال ابن كاسة: ثلاث ليال،

وهو أول أنواء الأسد ، وأثره محمود عندهم موصوف ؛ وربما نسب إلى المِرْزَم ، وهو أحد كوكبي الذراع المذكورة ، وربما نسب إلى الشَّعْرَى الثَّمِيصَاءِ ، وهو كوكبها الآخر الذي هو أنور من المِرْزَم ؛ وقد ذكر العرب مع الذراع المقبوضة الذراع المبسوطة فتجمعهما معا في النوء ، وهما لا يتوآآن معا بل ولا يطلعان معا ، لكن لكثرة صحبة إحداها للآخرى في الذكر واجتماعهما في اسم واحد مع تجاورهما وكونهما عُضْوَيَّ صورة واحدة ، وهى صورة الأسد .

الثامن نوء الثَّقَرَةِ ، وهو سبع ليال ، وله عندهم ذكر مشهور .
التاسع نوء الطَّرْفَةِ ، وهو ست ليال ، ولم يسمع به مفردا لغلبة الجهة الآتية
الذكر عليه .

العاشر نوء الجهة ، وهو سبع ليال ، وذكره مشهور ليسهم .
الحادى عشر نوء الزُّبَرَةِ ، ونوعها أربع ليال ، وقلما تنفرد لغلبة الجهة عليها أيضا .
الثانى عشر نوء الصَّرْفَةِ ، وهو ثلاث ليال ، ولا يكاد يوجد لها ذكر عندهم
في أشعارهم .

الثالث عشر نوء العَوَاء ، وهو ليلة واحدة ، وليس من الأنواء المشهورة .
الرابع عشر نوء السَّيَّكِ الأعزَلِ ، وهو أربع ليال ، وله ذكر مشهور ، وكثيرا ما يذكر
معه السَّيَّكِ الرابع ، وليس له نوء منه ولكنهما متقاربان في الطلوع ، وحيلتذ أفراد
السَّيَّكِ الرابع بالنوء خطأ .

الخامس عشر نوء النَّفَرِ ، وهو ثلاث ليال ، وقيل ليلة ، وما بينه وبين نوء الهنعة
المتقدمة الذكر من أنواء الأسد ، وهى ثمانية أنواء أولها الذراع ، وآخرها نوء السماء ؛
وليس له في السماء نظير في كثرة الأنواء .

- السادس عشر نوء الزباني، وهو ثلاث ليال .
- السابع عشر نوء الإكليل، وهو أربع ليال .
- الثامن عشر نوء القلب، وهو ليلة واحدة، وليس بمحمود .
- التاسع عشر نوء الشولة، وهو ثلاث ليال، وقيل يذكر .
- العشرون نوء النعائم، وهو ليلة واحدة، وليس له ذكر .
- الحادي والعشرون نوء البليدة، وهو ثلاث ليال، وقيل ليلة .
- الثاني والعشرون نوء سعد النائم، وهو ليلة واحدة .
- الثالث والعشرون نوء سعد بلع، وهو ليلة واحدة .
- الرابع والعشرون نوء سعد السعد، وهو ليلة، وليس بمحمود، ولا مذكور .
- الخامس والعشرون نوء سعد الأخبية، وهو ليلة واحدة .
- السادس والعشرون نوء القرغ المقطم، وهو أربع ليال، وله ذكر مشهور .
- السابع والعشرون نوء الفرغ المؤنر، وهو أربع ليال، وله ذكر أيضا .
- الثامن والعشرون نوء الحوت، وهو ليلة واحدة، وليس بالمذكور من حيث إنه يغلب عليه ما قبله وما بعده فلا يذكر . قال أبو حنيفة السِّنُورِيُّ : والأيلام في هذه الأنواء تابعة للبالى لتقدم الليل عليها، قال : وإنما جعلوا لهذه النجوم أنواء موقوتة وإن لم تكن جميع فصول السنة مظنة الأمطار لأنه ليس منها وقت إلا وقد يكون فيه مطر، وقال ابن قتيبة : أول المَطَر الوَشْمِيُّ سمي بذلك لأنه يسمُّ الأرض بالنبات، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم . قال التتالي عن أبي عمرو : إقبال الشتاء الحريف، ثم الوَشْمِيُّ، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم .

الصنف السادس

(الثلج)

وهو شيء ينزل من الهواء كالقطن المنبثوق فيقع على الجبال وعلى سطح الأرض
تُذيب الشمس منه ملاقته شدة حرارتها، ويبقى في أماكن مخصوصة من أعلى
الجبال بالأمكنة الباردة جميع السنة؛ وقد ذكر الحكماء أنه يُخار يتصاعد من الأرض
إلى الهواء كما يتصاعد المطر فيصبيه برد شديد قبل أن ينغقد قطرات فيساقط أجزاء
لطيفة، ثم ينغقد بالأرض إذا نزل إليها؛ ويوصف بشدة البرد وشدة البياض؛
وساوى الكلام على ما ينقل منه من الشام إلى ملوك الديار المصرية في خاتمة الكتاب
إن شاء الله تعالى .

الصنف السابع

(البرد بفتح الراء)

. وهو حب يسقط من الجو؛ وقد ذكر الحكماء أنه بخار يتصاعد من الأرض
أيضا ويرفع في الهواء فلا تتركه البرودة حتى يجتمع قطرات، ثم تتركه حرارة من
الجوانب فتتجمد برودتها إلى مواطنها فتتغمد؛ وحب هذا البرد متفاوت المقادير منه
ما هو قدر الخيش فما دونه، ومنه ما هو فوق ذلك؛ ويذكر أنه يقع منه ما هو بقدر
بيض الحمام واللجاج . قال الحكماء : ولا يتصور وقوعه إلا في الخريف والربيع
ويوصف بما يوصف به الثلج من شدة البرد وشدة البياض ، ويُشبه به أسنان
الإنسان الناصعة البياض .

الصنف الثامن

(قوس قزح)

وهو قوس يظهر في الجوّ من حمرة وخضرة ، وقد ورد النهى عن تسميته قوس قزح ، وتسميته قوس الله لأن قزح أسم للشيطان . قال الحكماء : والسبب فيه أن الهواء إذا صار رطباً بالمطر مع أدنى صبغالة صار كالمرآة ، والمخاض له إذا كان الشمس في قفاه يرى الشمس في الهواء كما يرى الشمس في المرآة ، ويشترك ذلك الضوء بخار الرطب فيتولد منه هذا القوس .

قال الحكماء : ويكون له ثلاثة ألوان يعنون حمرة بين خضرتين أو خضرة بين حمرتين ، وربما لا يكون اللون المتوسط ، ويكون مرتفعاً أرضاً قريباً من الأرض ، فإن كان قبل الزوال ، رُئِيَ ذلك القوس في المغرب ، وإن كان بعد الزوال ، رُئِيَ في المشرق ، وإن كانت الشمس في وسط السماء ، فلا يمكن أن يرى إلا قوساً صغيراً في الشتاء إن اتفق .

وفيه تشبيهات للشعراء يأتي ذكرها في آخر المقالة العاشرة إن شاء الله تعالى .

الصنف التاسع

(المسألة)

وهي الدائرة التي تكون حول القمر . قال الحكماء : والسبب فيها أن الهواء المتوسط بين البصر وبين القمر صقيل رطب ، فيرى القمر في جزء منه ، وهو الجزء الذي لو كان فيه مرآة لرؤي القمر فيها ، ثم الشيء الذي يرى في مرآة من موضع لو كانت فيه مرآة كثيرة محيطة بالبصر ، وكانت موضوعة على تلك النسبة فيرى

الشيء في كل واحدة من المراتي ، فإذا تواصلت المراتي رؤى في الكل ، فُتْرَى
حيثُذ دائرة .

ولأهل النظم والثر فيها وصف وتشبيه .

الصنف العاشر : (الحَرُّ)

وسلطانه أو اِحْرَ فصل الربيع وأوائل فصل الصيف ، والسبب فيه مسامتة
الشمس للرؤوس ، قسنته نائرة في الهواء وحرم الأرض ، لاسيما الججاز وما في معناه .
وأهل النظم ، والثر موعون بوصف شدة حظه .

الصنف الحادي عشر (البَرْد)

وسلطانه أو اِحْرَ فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء .
وأهل النظم والثر مكثر من ذكره ووصفه ، حتى إنه زبما أفرد بعضُ الناس
ماتيل فيه وفي وصفه بالتصنيف .

الصنف الثاني عشر (المَبَاءُ)

وهو الذي يحصل من ضوء الشمس عند مقابلتها كوة يدخل منها الضوء ، فيكون
شبه عمود ممتد من الكوة إلى حيث يقع ضوء الشمس من الأرض ، وفيه أجزاء
لطيفة متفاوتة مُحَسَّسٌ بالنظر دون اللمس ؛ وقد شبه الله تعالى به أعمال الكفار .

في القيامة فقال جل من قائل : "وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا" ومن الناس من يزعم أن الواحدة من أجزائه هي المراد بالذرة المذكورة في القرطان بقوله تعالى : "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" ولأهل النظم والثر أيضا فيه الوصف والتشبيه .

النوع العاشر

(مما يحتاج الكاتب إلى وصفه الأجسام الأرضية،

وهي على أصناف)

الصنف الأول

(الجبال، والأودية، والفقر)

فاما الجبال فهي أوتاد الأرض ، أرسى الله تعالى بها الأرض حيث مادت لها . دحاها الله تعالى على الماء . وقد روى أن الكعبة كانت رابية حمراء طافية على وجه الماء قبل أن يدحو الله الأرض ، وأن الأرض منها دُحيت ، فلما مادت وأُرسيت بالجبال ، كان أول جبل أرسى منها جبل أبي قبيس بمكة المشرفة فلذلك هو أقرب الجبال من الكعبة مكانا . وقد قل أن قاف جبل يحيط بالدنيا عنه لتفرع جميع جبال الأرض ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وتوصف الجبال بالعظمة في القدر والمؤثر وصعوبة المسلك ، وما يجري مجرى ذلك .

وأما الأودية ، فهي وهاد في خلال الجبال جعلها الله تعالى مجارى للسيل ونبات الزرع ومدارج الطرق وغير ذلك . وتوصف بالآتساع وبُعد المسافة والعُمق ، وربما وصفت بخلاف ذلك .

وأما التفار، فهي البراري المتسعة الأرجاء الخالية من الساكن . وتوصف بالسعة
وبعد المسافة وقلة الماء والإيجاش وصعوبة المسلك، وما يجري مجرى ذلك .

الصنف الثاني

(المياه الأرضية ؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول — الماء المالح

ووقع في لغة الإمام الشافعي رضي الله عنه الماء المالح ؛ وهو أحد العناصر
الأربعة ، وسبأ في الكلام على الأرض في المقالة الثانية أنه يحيط بالأرض من
جميع جهاتها إلا ما اقتضته الحكمة الإلهية لمارة الدنيا من كشف بعض ظاهرها
الأعلى ، وأنه فترعت منه بحار منبهة في جهات الأرض لتجري السفن فيها بما ينفع
الناس ؛ وقد ذكر الحكماء أن في الماء المالح كثافة لا توجد في الماء العذب ، ومن
أجل ذلك لا ترسب فيه الأشياء الثقيلة كما ترسب في الماء العذب ، حتى يقال : إن
السفن التي تفرق في البحر المالح لا تبلغ أرضه بخلاف التي تفرق في الأنهار فإنها تنزل
إلى قعرها . وشاهد ذلك أنك إذا طرحت في الماء العذب بيضة دجاجة ونحوها
غرق فيها ، فإذا أذبت في ذلك الماء ملحا بحيث يظلم على الماء وطرحت
فيه البيضة ، عات ؛ وقد اختلف في الماء المالح هل هو كذلك من أصل الخلقة
أو عرضت له الملوحة بسبب الملاقاة من سبخ الأرض على مذهبين ؛ ومن خصائص
البحر المالح أنه في غاية الصفاء حتى إنه يرى ما في قعره على القرب من سطه .
ويوصف البحر بالسعة والطول والعرض وكثرة المجائب حتى يقال في المثل "حدثت
عن البحر ولا حرج" .

الضرب الثاني — الماء العذب

قالت الحكماء والسبب فيه أن الأميرة تتصاعد من قعر الأرض فتدخل في الجبال وتحتبس فيها ، ولا تزال تتكامل وتتصلب منها مياه عظيمة فتنبعث لكثرتها . وهو على ثلاثة أنماط :

النمط الأول — ماء الأنهار ، وهي ما بين صغار وكبار وقريبة المدي وبعيدته ، وقد وردت الأخبار بأن أفضلها خمسة أنهار ، وهي سيحون ، وجيحون ، والدجلة ، والفرات ، ونيل مصر ، والنيل أفضل الخمسة وأعذبها وأخفها ماء على ما ساقى ذكره في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى ، وفي الأنهار الكبار تسير السفن .

النمط الثاني — العيون : وهي مياه تتبع من الأرض وتعلو إلى سطح الأرض ثم تسرح في قُبَى قد حُفرت لها ، وهي منبثة في كثير من الأقطار .

النمط الثالث — البئار : وهي حفائر تُحفر حتى ينبثق الماء من أسفلها ويرتفع فيها ارتفاعا لا يبلغ أعلاها ، وقد اختلف في الماء الذي ينبع من الأرض هل هو الذي نزل من السماء أو غيره ، فذهب فاهبون إلى أنه هو الذي نزل من السماء محتجين لذلك بقوله تعالى : " وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ " الآية ، وذهب آخرون إلى أن الذي ينبع من الأرض غير الذي نزل من السماء محتجين بقوله تعالى : " فَتَفْتَحُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَجَرَّاءَ الْأَرْضِ جُيُوشًا " . ويوصف الماء للاستحسان بالعذوبة ، والصفاء ، والرقّة ، والحلّة ، وشدة البرد ، وفي معناه الشبّ . وينسب في شدة البرد بالزلال : وهو ما يترتب داخل الثلج في تجاوزه فيوجد فيه فيكون من أشد الماء برداً .

الصنف الثالث

(النبات ؛ وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول — في أصل النبات

قد ذكر المسعودي في مروج الذهب : أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض ، خرج من الجنة ، ومعه ثلاثون قَصِيْبًا مودعة أصناف الثمر ، منها عشرة لها قشر : وهي الجوز ، واللوز ، والجلوز ، والفستق ، والبُلوط ، والشاه بلوط ، والمُسْتَوْبِر ، والتَارِيْج ، والرَّمان ، والنَّشَاطُش . ومنها عشرة لثمرها نوى : وهي الزيتون ، والرطب ، والمشمش ، والخوخ ، والإجاص ، والفِيْدَاء ، والتين ، والعناب ، والمُحِيطِي^(١) ، والأزْوَرد . ومنها عشرة ليس لها قشر ولا نوى : وهي التفاح ، والسفرجل ، والكمثرى ، والعناب ، والتين ، والأترج ، والخرنوب ، والثوت ، والفيتاء ، والطبخ .

المقصد الثاني

(فيما تختص به أرض دون أرض من أنواع النبات)

اعلم أن النبات منه ما يوجد في كثير من الآفاق ، ومنه ما يختص ببعض الأماكن دون بعض ؛ وقد حكى أبو بكر بن وحشية في كتاب الفلاحة البعلية : أن ببلاد سِجِّيلَاس من جنوبي بلاد المغرب الأقصى شجرة ترتفع نصف قامة أو أربع ، ورقها كورق الغار ، إذا عمل منها إكليل ولبسه الرجل على رأسه ومشي أو عدا أو عمل عملاً ، لم يتم مادام ذلك الإكليل على رأسه ، ولا يناله من ضرر السهر وضعف القوة ما ينال من سهر وعمل . وفي بلاد إفريقية شجرة إذا قعد الإنسان تحتها نصف ساعة مات ، وإن مسها مأس أو قطع منها غصنا أو ورقة أو هزها مات .

(١) كذا في المفردات لأبن الططار أيضا ولكن في القاموس (وكتامة رجيح) تظل فيه لغة مائة .

قلت ومما يختص بأرض دون أرض البلسان : وهو شجرة لطيفة على نحو ذراع
تنتفع فروعا ، لا تثبت في سائر الدنيا إلا في الديار المصرية بموضع مخصوص من بلدة
يقال لها المطرية ، على القرب من مدينة عين شمس ، وتسمى من بئر هناك ؛ ويقال إنه
أغتسل فيها المسيح عليه السلام ولذلك النصارى يعظمون البلسان ويبركون به .

المقصود الثالث

(في ذكر أصناف النبات التي أولع الكُتّاب والشعراء بوصفها وتشبيهها :
وهي على ضرب)

الضرب الأول — ماله ساق

وهو الشجر ، وأكثر ما أولع أهل النظم والنثر بحارها أو ثورها ، في الوصف
والتشبيه ثما ونظا : كالأوز ، والتُسْتِي ، والحُلُوز ، وهو البُنْدُق ، والشاه بلوط :
وهو القَصْطَل ، والصُّنْبُور ، والرُّمَان ، والجُلْثَار ، والإجاص ، والقَرَّاصيا ، والزُّعْرور ،
والخَوْخ ، والمِشْمِش ، والعُتَاب ، والتِّيْق ، والعِنْب ، والتَّيْن ، والثَّوْت ، والتَّفَّاح ،
والسُّفْرَجَل ، والكُكْرَى ، والتَّفَّاح ، والخَرْبُوب ، والأُتْرُج ، والنَّارَنْج ، واليَمُون ،
والطَّلح ، والبلح ، والبُسْر ، والتمر ، والزَّائِج : وهو جوز الهند ؛ والتَّجَّار يسمونه النَّارَنْجِيل .
وربما وقع الوصف والتشبيه لبعض أصول الشجر : كالنخل والكرم وغيرهما .

الضرب الثاني — ماله ساق له ساق

وقد أولعوا بالوصف والتشبيه منه ؛ فمن ذلك الزرع : من البُر والشعير ونحوهما ،
ويبعث ذلك نور الباقلاء ، وكذلك الخشخاش ، والكَكَّان ، والبَطِيخ الهندي : وهو
الأخضر ، والخُرَّاساني : وهو العَبْدَلِي ؛ نسبة إلى عبد الله بن طاهر ، فإنه أول من نقله

من نحرسان إلى مصر، والبطيخ الصفيّ : وهو الأصفر، والرستيتو : وهو المعروف بالأنفاق، والقنّاء، والجيار، والباذنجان، والسليج : وهو اللّفت، والجَزَر، والثوم، والبصل، والكراث، والريّاس، والهليون، والتّناع، وغير ذلك .

الضرب الثالث — الفواكه المشمومة

والذي أولع بوصفه وتشبيهه منه الورد على اختلاف ألوانه : من أحمر، وأبيض، وأصفر، وأزرق، وأسود، والسيرين، والبان، والخلاف، والنيلوفر، والبنفسج، والقرع، والياسمين، والأش، والزعفران، والريّان .

الضرب الرابع — الأزهار

والذي وقع الولوع بوصفه وتشبيهه من ذلك الحيريّ : وهو المشور : من أصفر أو أزرق، والسومن، والأديرون : وهو ورد أصفر له ريح، والخزّم : وهو الخزاي، والشقيق^(١) . ويسمى الشقاق، ويقال له شقائق النّمان : لأن النّمان بن المنذر حيّ ظهر الكوفة وبه هذا النبات فعُرف به، والبهار : وهو نور أحمر، والأقحوان، وغير ذلك .

الضرب الخامس — الرياض

وهي الأماكن المستعملة على الانتجار، والأزهار، والمياه الحارية ونحو ذلك . وقد أتمق جَوَابُ الأرض على أن متراعات الأرض أربعة مواضع : وهي سُند سمرقند، وشعب برّان، ونهر الأبلّة، وغُوطَة دِمَشَق . وقد أكثر الشعراء في وصف الرياض وولع الكُتّاب بمثل ذلك .

(١) ناله والحققة في السان أن الشقاق لا واحد له أو واحدته شقيقة وطل قلناك فانظرو .

الطرف الثالث من الباب الأول من المقالة الأولى

(في صنعة الكلام، ومعرفة كيفية إنشائه، ونظمه، وتأليفه : وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في الأصول التي يلزم الكلام عليها : وهي سبعة أصول)

الأصل الأول

(المعرفة بالمعاني . والنظر فيه من وجهين)

الوجه الأول

(في شرف المعاني ، وفضلها)

أعلم أن المعاني من الألفاظ بمنزلة الأبدان من الثياب . فالألفاظ تابعة ، والمعاني متبوعة ؛ وطلب تحسين الألفاظ إنما هو لتحسين المعاني ؛ بل المعاني أرواح الألفاظ وغايتها التي لأجلها وُضعت ، وطبها بُنيت ؛ فاحتياج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى أشد من احتياجه إلى تحسين اللفظ : لأنه إذا كان المعنى صوابا واللفظ مضطربا ساقطا عن أسلوب القصاحة ، كان الكلام كالإنسان المشوه الصورة مع وجود الروح فيه ، وإذا كان المعنى خطأ كان الكلام بمنزلة الإنسان الميت الذي لأروحه فيه ، ولو كان على أحسن الصور وأجملها .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" : ومما رأيته من المتبحرين لهذا الفن الذين حصلوا منه على القشور ، وقصروا معرفتهم على الألفاظ المسجوعة الغثة ، التي لا حاصل وراعى ، أنهم إذا أنكرت هذه الحالة عليهم ؛ وقيل لهم إن

الكلام المسجوع ليس عبارة عن تواطؤ الفقر على حرف واحد فقط ، إذ لو كان عبارة عن هذا وحده لأمكن أكثر الناس أن يأتوا به من غير كلفة ، وإنما هو أمر وراء هذا ؛ وله شروط متعلّقة ؛ فإذا سمعوا ذلك أنكروه لظنهم عن معرفته ؛ وإذا أنكروا عليهم الاقتصار على الألفاظ المسجوعة ، وهُدُوا إلى طريق المعاني ، يقولون : لنا أسوة بالعرب الذين هم أربابُ الفصاحة ؛ فإنهم إنما اعتنوا بالألفاظ ، ولم يعتنوا بالمعاني اعتمادهم بالألفاظ . فلم يكن فيهم جهلهم فيما أرتكبوه حتى آذعوا الأسوة بالعرب فيه فصارت جهالتهم جهالتين . قال : ولم يعلموا أن العرب ، وإن كانت تعنى بالألفاظ فصاحتهم وتنهبا فإن المعاني أقوى عندهما ، وأكرم عليها ، وأشرف قدرا في نفوسها . ولما كانت الألفاظ عنوان المعاني وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحها ، وزينوها وبالقوا في تحسينها : ليكون ذلك أوقع لها في النفس ، وأذهب بها في الدلالة على القصد . ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعا - لَدَّ لسامعه خفيظته ، وإذا لم يكن مسجوعا لم يأنس به أنسه في حالة السجع ؛ فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسّنوها ورقّقوا حواشيها وصقلوا أطرافها ، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ فقط ؛ بل هي خدمة منهم للمعاني ، فصار ذلك كإبراز صورة الحسناء في الخلل الموشاة والأثواب المحبرة ؛ فإننا قد نجد من المعاني الفاترة ما شوّه من حسنة بكنانة لفظه وسوء العبارة عنه .

قال أبو هلال العسكري رحمه الله : ومن عرف ترتيب المعاني واستعمل الألفاظ على وجوهها بقّة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى ، تهيأ له فيها من صنعة الكلام ما تهيأ له في الأولى . ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي ، وحولها إلى اللسان العربي . فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من تكمل لإصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال .

قال في "المثل السائر" : وأعلم أن المعاني الخطابية قد حُصرت أصولها، وأول من تكلم في ذلك حكيم اليونان ؛ غير أن الحصر كلّي لا جزئي ، ومَحَال أن تُحصَر جزئيات المعاني وما يتفرع عليها من التفرعات التي لا نهاية لها ، لا جرم أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفة صاحب هذا العلم ، ولا يفتر إليه ؛ فإن البدوي البادئ راعى الإبل ما كان يترشئ من ذلك بفهمه ، ولا يخطُر بباله ، ومع هذا ؛ فإنه كان يأتي بالسحر الحلال إن قال شعرا أو تكلم شرا . قال : ولقد فَاوَضْنِي بعضُ المتفلسفين في هذا ، وأنساق الكلام إلى شيء ذكره لأبي علي بن سينا في الخطابة والشعر ، وذكر ضربا من ضروب الشعر اليوناني يقال له اللوغازيا ، وقام فاحضر كتاب الشفاء لأبي علي ووقفني على ما ذكره ، فلما وقفت عليه استعجته ؛ فإنه طَوَّل فيه وعَرَّض كأنه يخاطب بعض اليونان وكل هذا الذي ذكره لنو ، لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا ، ثم مع هذا جميعه فإن معول القوم فيما يذكر من الكلام الخطابي أنه يُورد على مقدمتين ونتيجة ، وهذا مما لم يخطُر لأبي علي بن سينا ببال فيما صاغه من شعر أو كلام مسجوع عمله ، وعند إفاضة في صَوِّغ ما صاغه لم يخطُر المقدمات والنتيجة له ببال ، ولو أنه فكر أولا في المقدمتين والنتيجة ، ثم أتى بنظم أو تر بعد ذلك ، لما أتى بشيء يُنتفع به ، ولطال الخطب عليه . قال : بل إن اليونان أنفسهم لما نظمو ما نظموه من أشعارهم ، لم ينظموه في وقت نظمهم وعندهم فكرة في مقدمتين ونتيجة ، وإنما هذه أوضاع توضع وتطول بها مصنفات كتبهم في الخطابة والشعر ، وهي كما يقال :

فَمَاقِعٌ لَيْسَ لَهَا طَائِلٌ * كَأَنَّهَا شِعْرُ الْإِيوَرْدِيِّ

الوجه الثاني

(في تحقيق المعاني ، ومعرفة صوابها من خطئها ، وحسنها من قبحها .
وقد قسم صاحب الصناعتين المعاني على خمسة أصناف)

الصنف الأول

(ما كان من المعاني مستقيماً حسناً : كقولك رأيت زيدا ،

وهو أعلى الأنواع الخمسة وأشرفها)

قال في الصناعتين : والمعنى الصحيح الثابت ينادى على نفسه بالصحة ، ولا يحوج
إلى التكلف لصحته حتى يوجد المعنى فيه خطياً .

فأما المعنى المستقيم الجزل من النظم ، فمن الوعظ قول الثوريين تَوَلَّى بِذَمِّ طُولِ
الحياة :

يَوَدُّ الْفَقِيُّ طُولَ السَّلَامَةِ وَالْفَقِيُّ * فَكَيْفَ تَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ ؟

يَكَادُ الْفَقِيُّ بَعْدَ أَحْتِمَالٍ وَحَمِيَّةٍ * يَتَوَّه إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُحْمِلُ

وقول أبي المتاهية في الوعظ بزوال العز والنعمة بالموت :

وَكَانَتْ فِي جِوَاهِرِكَ لِي عِظَاتٌ * وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعِظُ مِنْكَ حَيًّا !

وفي وصف الأيام قول أبي تمام :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا * عَجَائِبٌ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ

ومن الممدوح قول أمية بن أبي الصلت :

عَطَلْتُكَ زَيْنٌ لِأَمْرِي إِنْ جَبَوْتَهُ * بِسَبَبٍ وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ يَزِينُ

وليس بشيء لِأَمْرِي بَذْلٌ وَجْهَهُ * إِلَيْكَ كَمَا بَعْضُ السُّؤَالِ يَشِينُ

وقول أبى تمام :

يَسْتَعْدِبُونَ مِنِّي أَمْ كَانَهُمْ * لَا يَشْتُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوا

وقول الآخر :

مُّمُّ الْأَوَّلَى وَهَبُوا لِلْجِدِّ أَنْفُسَهُمْ * فَسَيُالُونَ مَا نَالُوا إِذَا حُدُّوا

ومن الفخر قول مَعْن بن أَوْس :

لَعَمْرُكَ مَا أَهْدَيْتُ كَفَى لِرَيْبَةٍ * وَلَا حَمَلْتِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي !
وَلَا قَادَنِي سَمِيحِي وَلَا بَصْرِي لَهَا * وَلَا دَلَّتْنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي !
وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ تُصِيبْنِي مُصِيبَةٌ * مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ قَتْلِي !
وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيَّتْ لُكْزِي * مِنَ الْأَمْرِ لَا يَمِشِي لِي مِثْلُهُ مِثْلِي !
وَلَا مُؤَثِّرٌ تَقْبِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ * وَأَوْثَرُ ضَيْغِي مَا أَقَامَ، عَلَى أَهْلِي !

وقول الآخر :

وَلَسْتُ بِنَظَارٍ إِلَى جَانِبِ الْغِنَى * إِذَا كَانَتِ الْعَلِيَاءُ فِي جَانِبِ الْفَقْرِ

وقول الشفري :

أَطِيسُلُ مِطَالَّ الْجُوعِ حَتَّى أَمِيتَهُ * وَأَضْرِبُ عَنْهُ الْقَلْبَ صَفْصَفًا فَيَبْهَلُ
وَلَوْلَا اجْتِنَابُ الْعَارِ لَمْ يُلَفْ مَشْرَبٌ * بُسَاسٌ بِهِ إِلَّا لَدَى وَمَأْكَلُ

ومن الغزل قول جرير :

إِنَّ الْيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ * قَتَلْتَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِنَ قَتْلَانَا
يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَتَ بِهِ * وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقٍ اللَّهُ أَرْكَانَا

وقول النظام :

تَوَهَّمَهُ طَرْفِي فَأَلَمَ خَلْدَهُ * فَصَارَ مَكَانَ الْوَهْمِ مِنْ نَظَرِي أَثَرُ

وَصَافَهُ قَلْبِي فَأَلَمْ كَفِّهِ * فَمِنْ صَفَحِ قَلْبِي فِي أَنَامِلِهِ خَفَرُ
وَمَرَّ بِفِكْرِي خَاطِرًا بَغَرَحْتُهُ * وَلَمْ أَرْ خَلْقًا قَطُّ يَجْرَحُهُ الْفِكْرُ .

ومن التشبيب قول القائل :

وَمِنْ نَجَاحِي أَنِّي أَحْرَبُ إِلَيْهِمْ * وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أَرَىٰ وَهُمْ مَعِي
وَيَطْلُبُهُمْ عَنِّي وَهُمْ فِي سَوَادِيهَا * وَيَسْتَأْفِقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلَعِي

وقول الآخر :

إِنْ لَمْ أَزُرْ رَبَّكُمْ سَعْيًا عَلَىٰ حَدَقِي * فَإِنَّهُ وَدَّيْ مَنْسُوبٌ إِلَى الْمَلَقِ
تَبَّتْ يَدِي إِنْ شَتَنِي عَنْ زِيَارَتِكُمْ * بِيضُ الصَّبَاحِ وَلَوْ سَلَّتْ بِهَا طُرُقِي

ومن الحكمة قول المتنبي :

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْبِ النَّفْسِ فَإِنْ تَجِدْ * ذَا عَقَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

وقول الآخر :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَنْتَرِبْ مِرَارًا عَلَى الْقَدَى * ظَلِمْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصِفُ مَشَارِبُهُ؟

وقول الآخر :

وَلَسْتَ بِمُسْتَقْبِي أَخَا لَا تُؤْمِسُهُ * عَلَى شَعَثِ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهْتَبُ؟

ومن المهجور قول الطرماح في تميم :

تَمِيمٌ يَطْرُقُ اللَّوْمَ أَهْدَىٰ مِنَ الْقَطَا * وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتْ

وقول الآخر :

لَوْ أَطْلَعَ الْفُرَابُ عَلَى تَمِيمٍ * وَمَا فِيهَا مِنَ السَّوَاءِ شَابَا

إلى غير ذلك من معاني الشعر الحسنة البهيجة الراقية .

ومما يفرط في هذا السلك من النثر ما يجئني أن أعرابيا وقف على عبد الملك بن مروان برملة الأولى فقال : رحم الله امرأ لم تبيح أذناه كلامي ، وقدم معاذة من سوء مقامي ، فإن البلاد مجتدبه ، والحال مسفيه ؛ والحياه زاجر ، يمنع من كلامكم ، والفقر عاذر ، يدعو إلى إخباركم ؛ والدعاء إحدى الصلتين ، فرحم الله امرأ أمر بغير ؛ أودعا بغير .

ومعاني القاضى الفاضل هي التي ترقص لها القلوب ، وتطرب لها الألباب ، ويهجم قبولها على النفوس من غير حاجب ولا بواب . فن ذلك قوله :

”يا بنى أيوب لو ملكتم الدهر لا متطيتم ليلته أدايم ، وقلدتم أيامه صواريم ، وأقنتم شموسه وأفساره في الهياك دنائير ودرام ، وأياكم أعراس وما تم فيها على الأموال ماتم ، والجود في أيديكم خاتم ، ونفس حاتم في قفس ذلك الخاتم“ .

فهذا هو السحر الحلال ، والمعاني التي تخضع لها شئ الجبال ، ولا يقال فيه قيل ولا قال .

الصنف الثاني

(ما كان مستقيا قبيحا كقولك قد زيدا رأيت)

قال في ”الصناعين“ وإنما قبح لأنك أفسدت نظام اللفظ بالتقديم والتأخير . وهذا النوع يسميه علماء المعاني التعقيد . وسماه ابن الاثير في ”المثل السائر“ المأخلة المعنوية ، وهو تقديم ما الأولى به التأخير : كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول ونحو ذلك ؛ وهو من المنموم المرفوض عند أهل الصناعة : لأن المعنى يحتل به ويضطرب ، قال في ”المثل السائر“ وهو ضد

الفصاحة : لأن الفصاحة هي الظهور والبيان ، وهذا عاير عن هذا الوصف ، فن ذلك قول بعضهم :

فأصبحت بعد خطبها * كأن قفراً سوماً قلباً

يريد فأصبحت بعد خطبها قفراً كأن قلباً خط رسوماً فقدم خبر كأن ، وهو خط عليها بفاء مختلا مضطرباً ، وأقبح منه وأكثر اختلالاً قول الفرزدق :

إلى ملك ما أمه من محارب * أبوه ، ولا كانت كليب نصاهره

يريد إلى ملك أبوه ما أمه من محارب ، والمعنى ما أم أبيه من محارب ، يمدحه بذلك ذماً لمحارب ، وكذلك قوله ، يمدح خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله في الناس إلا ملوكا * أبو أمه حتى أبوه يقاربه

يريد وما مثله في الناس حتى يقاربه إلا ملوكاً أبو أمه أبوه ، وهو خاله ، قلباً استعمل فيه التقديم والتأخير في غير موضعه جاء مشوهاً رثاً كما تراه . قال الوزير "ضياء الدين ابن الأثير" : وقد استعمل الفرزدق من التعاضل كثيراً كأنه يقصد ذلك ويتعمده لأن مثله لا يبيء إلا متكلفاً مقصوداً ، وإلا فلماذا ترك مؤلف الكلام نفسه تجرى على مجيئها وطبيعتها في الاستعمال ، لم يعرض له شيء من هذا التعقيد ، ألا ترى أن المقصود من الكلام معدوم في هذا النوع ، إذ المقصود من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى ، فلماذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ، ذهب المراد به . ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرها .

الصنف الثالث

(ما كان مستقيماً ولكنه كُذِبَ : كقولك حَمَلْتُ الجبل ،
وشربت ماء البحر، وما أشبه ذلك)

وأعلم أن المعاني المستعملة في الشعر والكتابة أكثرها جارية على هذا الأسلوب خصوصاً المعاني الشعرية ، فإنه مقدمات تخيلية تُوجب في النفس انقباضاً وانسحاباً على ما هو مقرر في علم المنطق . وقد قال في "الصناعتين" إن أكثر الشعر مبنى على الكذب والاستحالة : من الصفات الممتنة ، والنموت الخارجة عن العادة ، والألفاظ الكاذبة : من قذف المُحَصَّنات ، وشهادة الزور ، وقول البهتان ، ولا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأفعله . قال : وليس يراد منه إلا حُسن اللفظ وجودة المعنى ، فهذا الذي سَوَّغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه . وقيل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب في شعره . فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام ، والصدق يُراد من الأنبياء عليهم السلام . قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصمبح رحمه الله في كتابه تحرير التصحير : وأنا أقول قد اختلف في المبالغة ، فقوم يرون أن أجود الشعر أكذبه ، وخير الكلام ما بُولِغ فيه ، ويحتجُّون بما جرى للناطقة الديبانية مع حسان بن ثابت رضي الله عنه في استدراك النافذة عليه تلك المواقع المحجبة في قوله :

لنا الجفَنَاتُ الغُرَيْلَمَنُ بالصُّحَى * وأسَيَانُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمًا

فإن النافذة إنما عاب على حسان ترك المبالغة ، والقصة مشهورة . قال : والصواب مع حسان وإن رُوي عنه انقطاعه في يد النافذة ، وقوم يرون المبالغة من عيوب الكلام ، ولا يرون من محاسنه إلا ما خرج مَخْرَجَ الصدق ، وجاء على مَنَهِجِ الحقي ، ويرون أن المبالغة من مَنَعَفِ المتكلم وتَجَزَّه عن أن يمتنع معنى ، أو يفرع

معنى من معنى، أو يحلّ كلامه شيئا من البديع، أو ينتخب ألفاظا موصوفة بصفات الحسن، ويجيد تركيبها؛ فإذا عجز عن ذلك كله عدل إلى المبالغة يسد بها خلة ويتم قصصه؛ لما فيها من التهويل على السامع، ويدعون أنها ربما أحالت المعاني فأخرجتها عن حدّ الإمكان إلى حدّ الامتناع. قال: وعندى أن هذين المنهيين مردودان. أما الأول فنقول صاحبه إن خير الكلام ما بولغ فيه، وهذا قول من لا ننظر له لأننا نرى كثيرا من الكلام والأشعار جاريا على الصديق المحض خارجا مخرج البحث، وهو في غاية الجفوة، ونهاية الحسن، وتام القوة، وكيف لا والمبالغة ضرب واحد من المحاسن، والمحاسن لا تحصر ضرورها؛ فكيف يقال إن هذا الضرب على أفرادها يفضل سائر ضروب المحاسن على كثرتها؛ وهذا شعر زهير والحطيئة وحسان؛ ومن كان مذهبه توخى الصديق في شعره غالباً، ليس فوق أشعارهم غاية ملتقى؛ ألا ترى إلى قول زهير:

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ أَمْرِي مِنْ خَلِيقَةٍ * وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعَلَّمُ
وإلى قول طرفة:

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَا الْفَقْرَ * لَكَا لَطُولِ الْمُرْتَى وَنِيَاهُ فِي الْيَدِ
وإلى قوله:

سُبَيْدَى لَكَ الْإِيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزِدْ
وإلى قول الحطيئة:

مَنْ يَقْعِلِ الْخَيْرَ لَا يَدْمُ جَوَازِيَهُ * لَا يَنْهَبُ الْعُرْفَ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
فإنك تجد هذه الأشعار في الطبقة العليا من البلاغة، وإن خلت من المبالغة؛ والذي يدل على أن مذهب أكثر الفحول ترجيح الصديق في أشعارهم على الكذب

مارؤى عن الحرورية امرأة عمران بن حطان قاضى الصُفْرِيَّة من الخوارج أنها قالت له يوما : أنت أعطيت الله تعالى عهدا أن لا تكذب فى شعرك ، فكيف قلت :

فُهناكَ بِحَزَاةٍ بَنُ ثَوءٍ رِكَانُ أَصْحَجَ مِنْ أَسَامِهِ .

فقال : يا هذه إن هذا الرجل فتح مدينة وحده وما سمعت بأسد فتح مدينة قط ، وهذا حسان يقول :

وإنما الشعرُ بئسَ المرءُ يَعْرِضُهُ * على المَجَالِسِ إن كَيْسًا وإن حَقًّا
وإنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ * يَبْتَ إِذَا أَنْشَدَتْهُ : صَدَقًا

على أن هؤلاء الفحول وإن رَجَّحوا هذا المذهب ، لا يَكْهُون ضِدَّهُ ، ولا يَصْحَلُونَ فضله ، وقلَّبا تخلو بعض أشعارهم منه إلا أن تَوَخَّى الصديق كان الغالب عليهم ، وكانوا يكثرُونَ منه ، وَمَنْ أَكْثَرُ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ كَمَا أَنَّ النَّابِضَةَ وَمَنْ تَابَعَهُ عَلَى مَذْهَبِهِ لَا يَكْهُون ضِدَّ الْمُبَالَغَةِ ، وإلا فكل احتجاج جاء به على الثَّمانِ فى الاعتذار جار مجرى الحقيقة كقولهِ :

حَافَتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً * وليس وراء الله السرَّ مَنَهِبٌ

فغائب الكلام الحسن بترك المبالغة فقط مخطئ ، وعائب المبالغة على الإطلاق غير مصيب ، وخير الأمور أوساؤها .

والتحقيق أن المبالغة إذا لم تخرج عن حدِّ الإمكان ، ولم تَجْرِ بِجَرَى الْكُذْبِ المحض ، فإنها لا تُكْتَم بِجَالٍ ، كقول قيس بن الخَطِيم :

طَلَعَتْ أَبْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ طَلْعَةَ نَازِرٍ * لَهَا نَفْدٌ لَوْلَا الشَّمَاعُ أَضَاءُهَا
مَلَكَتْ بِهَا كَفَى فَأَنْهَرَتْ فَقَهَا * يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مِنْ وَرَاءِهَا

فإن ذلك من جيد المبالغة ، إذ لم يكن خارجاً مخرج الاستعانة مع كونه قد بلغ النهاية في وصف العائنة ؛ وكذلك قول أبي تمام .

يَكَادُ تَنْقِلُ الْأَرْوَاحُ لَوْ تُرِكَتُ * مِنَ الْجُسُومِ إِلَيْهَا حِينَ تَنْقِلُ

فإنه لم يقع بصحيح المبالغة وقربها من الوقوع فضلاً عن الجواز بتقديم كاد ، حتى قال : لو تُرِكَت ، قال : وهذا أصح بيت سمعته في المبالغة وأحسنه ، وعلى حده ورد قول شاعر الحماسة ، وقد بالغ في مدح مملوحه فقال :

رَهْنَتْ يَدِي بِالْعَجِزِ عَنْ شُكْرِ رَءٍ * وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكْرِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعَتْهُ * وَلَكِنْ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فإن هذا الشاعر ألقي بيده وأظهر عجزه ، وأعترف بقصوره عن شكر رءه المدح ، وفطن أنه لو اقتصر على ذلك ، لاحتل أن يقال له : عجزك عن شكره لا يدل على كثرة رءه : لاحتال أن يكون لضعف مادتك عن الشكر ، إذ لا يلزم من عجز الإنسان عن شيء تعظيم ذلك الشيء ولا بُدَّ : لاحتال أن يكون العجز لضعف الإنسان ، فأعترز عن ذلك بقوله :

* وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكْرِ مَزِيدُ *

ثم تم المعنى بأن قال للشُّكْرِ ، للمبالغة في الشكر ، فإن شكورا معدول عن شاكر المبالغة كما تقدم ، ثم أظهر عذره في عجزه بأن قال في البيت الذي يليه :

* وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعَتْهُ *

ثم ذيل هذا المعنى بإخراج بقية البيت مخرج المثل السائر ليكثر دورانه على الألسنة فيحصل تجديد مدح المدح كل حين ، والتنويه بذكره في كل زمان حيث قال :

* وَلَكِنْ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ *

أما إذا خرجت المبالغة عن حدّ الإمكان، وجرّت مجرى الكذب المحض، فإنها مذمومة في الشرع، وإن كان الشعراء يستريحون مثل ذلك، ولا يتحاشون الوقوع فيه. وقد أخبر تعالى عنهم بالكذب بقوله: "أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ^(١) وَانَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ" وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَيْبِدٍ: * أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ" *

إشارة لذلك أيضا .

فمن المبالغة في الشعر المنتهية إلى حدّ الكذب قول البُخَرِيِّ:

وَلَوْ قَسَتْ يَوْمًا مَجْلَهَا بِحَقَائِبِهَا * لَكَانَ سَوَاءً لَابِلُ الْجَمَلِ أَوْ سَعٍ
وَصَفَهَا بِرِقَّةِ الْخَصْرِ وَغَلِظَ السَّاقِ حَتَّى جَعَلَ مَجْلَهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَى سَاقِهَا أَوْسَعَ مِنْ
حَقَائِبِهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَى خَصْرِهَا؛ وَأَبْلَغَ مِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ:
مِنْ الْهَيْبِ لَوْ أَنَّ الْخَلَائِلَ صُبِّرَتْ * لَهَا وَثُخَاءٌ جَالَتْ عَلَيْهَا الْخَلَائِلُ
بِجَعْلِ الْخَلَائِلِ يَحُولُ فِي جَمِيعِ بَنَاتِهَا، لَكِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَدْحِ فِي شَيْءٍ لِأَنَّ الْخَلَائِلَ
لَوْ صَارُوا شَأْنًا لِلرَّأَةِ، لَكَانَتْ فِي غَايَةِ الدَّمَامَةِ حَتَّى تُصِيرَ فِي خِلْقَةِ الْجُرُودِ وَالْمِرِّ^(٢).
وَأَبْلَغَ مِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ.

وَرَحِبُ صَدْرِ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ * كَوْثَمُهُ، لَمْ يَضِقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدٌ
بِجَعْلِ صَدْرِهِ فِي السَّعَةِ وَالرَّحْبِ أَوْسَعَ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَيَحْوُهُ قَوْلُ الْآخَرِ:
وَيَوْمَ كَطُولِ النَّهْرِ فِي عَرْضِ مِثْلِهِ * وَوَجْدِي مِنْ هَذَا وَهَذَا أَطْوَلُ
إِلَّا أَنَّهُ أَسْتَعْمَلَ الْعَرْضَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، إِذِ الدَّهْرُ يُوصَفُ بِالطُّولِ لَا بِالْعَرْضِ،
وَهُوَ قَدْ جَعَلَ لَهُ طَوْلًا وَعَرْضًا؛ وَيَقْرُبُ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ:

كَفَى بِجِسْمِي مُحْوَلًا أَنِّي رَجُلٌ * لَوْلَا غَخَاطَتِي إِيَّاكَ، لَمْ أَبْنِ^(٣)

(١) الجروماتك الجيم (٢) المشهور في الرواية لم ترفى وهي التي شرح عليها التكمي .

بجعل كلامه هو الذي يدل عليه من شدة التحول . قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصم : وما يجرى به التثليل في باب المبالغة قول بعض العرب يذم إنسانا بقوله : فلان تكون له الحاجة فيغضب قبل أن يطلبها ، وتكون إليه فريدها قبل أن يفهمها . وقول بعض بلغاء الكُذِّب : إن من النعمة على المتني عليك أن لا يخلو من مساعد ، ولا يخشى من معاند ، ولا تطحقه قبيصة المكذِّب ، ولا يكرهه عوز الأوصاف بالطلب ، ولا ينتهي من القول إلى منتهى إلا وجد بعده مقتضى ووراء منتهى . وسيأتي من المبالغة في أوصاف الخيل والسلاح ، وغيرها في قسم الأوصاف من ذلك ما فيه مقتضى إن شاء الله تعالى .

الصفة الرابع

(ما كان محالا : وهو ما لا يمكن كونه البتة : كقولك آتيتك أمس ، وأتيتك غدا ، وما أشبه ذلك)

قال في الصناعتين : فإن اتصل الكذب بحال ، صار كذبا محالا كقولك : رأيت قاعدا قائما ، ومررت بيقظان نائم ، فإنه كذب للإخبار بخلاف الواقع ، ومحال لعدم إمكان الجمع بين التقيضين ، وقد هتَم في النوع الثالث أن أكثر الشعر مبنئ على الكذب والاستحالة : من الصفات المتنعة ، والنوع الخارجة عن المادة ، وذلك في الكذب مما لا نزاع في كثرته في الشعر كما هتَم .

أما المحال فإنه قليل الوقوع ، نادر في النظم والنثر ، معدود من المايب ، محكوم عليه بالرد .

فمن ذلك قول عبد الرحمن بن عبد الله القس :

وإني إذا ما الموت حلّ بنفسي ، * يزال بنفسي قبل ذلك فأفهم

قال العسكري : هذا من الحال الذي لواجه له ، قال : وهو شبهه بقول القائل :
إذا دخل زيد الدار ، دخل عمرو قبله ، ثم قال : وهذا عين الحال المنتع الذي
لا يجوز . يريد أنه قد توقف كل من الأسيرين على الآخر لأنه لا يوجد إلا به فيلزم
النور ، وهو محال ، فيحكم فيه بالبطلان وقطع النور .

ومما يلحق بالحال ويخطر في سلكه تناقض المعاني وأضرابها .

فمن ذلك قول المسيب بن عيسى في وصف ناقة :

فَسَلَّ حاجتها إذا هي أعرضت * بجيصة مُرَّج اليدين وساع
فَكَانَتْ قَنْطَرَةً بموضع كورها * ملساء بين غوايض الأسراع
وإذا أظفت بها ، أظفت بكلكلي * بيض الفرائض مجفّر الأضلاع

قال في "الصناعتين" : وهذا من المتناقض لأنه قال بجيصة ، ثم قال موضع
كوريها قنطرة ، وهي مجفرة الأضلاع فكيف تكون جيصة وهذه صفتها ؟
وقريب منه قول الحطّية :

حَرَجٌ بلاوُدٌ بالكناس كأنه * متطوّف حتى الصباح يلور
حتى إذا ما الصبح شقَّ عموده * وعلاه أسطع من سناه مثير
وحصى الكتيب بصفحته كأنه * خبث الحديد أطارهنّ الكير

زعم أنه لم يزل يطوف حتى أصبح وأشرف على الكتيب ، فمن أين صار الحصى
بصفحته ؟ . وقول المرقش الأصغر :

صَحَّ قلبه عنها على أن دُرَّة * إذا خطرَتْ دارت به الأرض قائما
وكيف صحها عنها من إذا ذكرت دارت به الأرض ؟ .

الصفة الخامسة

(ما كان غلطاً : وهو أن تريد الكلام بشئ قَسْبِقَ لسانك إلى خلافه ، كقولك :

ضَرَبَنِي زَيْدٌ وَأَنْتَ تَرِيدُ ضَرْبَ زَيْدًا)

قال في "الصناعتين" : فإن تَمَعْنْتَ ذلك ، صار كَدَبًا ، وهذا النوع أكثر وقوعا من الذي قبله ، قال : وقد وقع فيه الفحول من الشعراء .

وأصناف الغلط في المعاني كثيرة : فمن ذلك الغلط في الأوصاف ؛ وهي على وجوه : منها وصف الشئ بخلاف ما هو عليه وذكره بما ينافيه .

فمن غريب هذا النوع قول الراعي في وصف المسك :

يَكْهُو الْمَفَارِقَ وَاللِّبَاتِ ذَا أَرْجٍ * من قُصِبِ مُتَلَفِ الْكَافُورِ دَوَاجٍ

فجعل المسك من قُصِبِ الطَّيِّ ، وهو مِعَاهُ ، وجعل الطَّيِّ يتلف الكافور فيتولد منه المسك ، وهذا من طرائف الغلط . وقريب منه قول زُهَيْرٍ يصف الضَّفَادِعَ :

يَخْرُجْنَ مِنْ شَرَابَاتٍ مَاؤُهَا طَحِيلٌ * علِ الْجُنُوعِ تَحَافُ النَّمِّ وَالْفَرَاقَا^(١)

ظن أن الضفادع يخرجن من الماء مخافة النور ، ونسومها فيه . وقريب منه قول ذِي الرُّمَّةِ :

إِذَا أَمَجَّابَتِ الظُّلُمَاءُ ، أَحْضَتْ رُؤُوسَهَا * عُلِينَ مِنْ جَهْدِ الْكَرَى وَهِيَ ضُلَعٌ

فوصف الرؤوس بالضلَع . قال ابن فَرَوَةَ : ما أغفلت هذا ، ولقد قلت لذي الرمة : ما علمت أحدا أضلع الرؤوس غيرك ، قال : أجل .

(١) في السان يَحْفَنُ فما في الاصل رواية له :

قال في الصناعتين : ومما لم يُسمع مثله قط قول عدى بن زيد في النمر :
والمُشْرِفُ المَيْلَبُ يسعى بها * أخضر مطموكا بماء الحريص
فوصف النمر بالحضرة ، والحريص الصحابة تَحْرِصُ وجه الأرض أى تَقْشُرُهَا ،
ومنه سميت إحدى الشجراج في الرأس الحارصة لأنها تشق الجلد .
ومنها وصف الشيء على خلاف المهود والعادة المعروفة .
فمن ذلك قول المرار :

وخالٍ على خديك يسئو كأنه * ستا البدر في دَحْجَةٍ بادٍ دُجُونُهَا
والمعروف أن الحِلْيَانَ سُدٌّ أو مُعَمَّرٌ ، والخلود الحسان إنما هي البيض ، فأتى
هذا الشاعر بقلب المعنى ، ومثله قول الآخر :

كأنما الحِلْيَانُ في وجهه * كواكبٌ أحلقنَ بالبدر
قال أبو هلال العسكري : ويمكن أن يُحْجَجَ لهذا الشاعر بأن يقال : تشبيه
الحِلْيَانِ بالكواكب من جهة الاستدارة لا من جهة اللون .
ومن ذلك قول امرئ القيس في وصف الفرس أيضا :

وللسوط أهُوبٌ وللساق دِرَّةٌ * وللزجر منه رَقْعٌ أخرجَ مُهَذَّبِ
قال أبو هلال العسكري : فلو وصف أخسَ حمير وأضعفه ، ما زاد على ذلك ،
وقول القائل :

صَبَبْنَا عليها ظالمينَ سَيَاطِلَنَا * فطارت بها أيدٍ سَرَّاعٍ وأرجُلُ
بفعل ضربها بالسوط من باب الظلم لأنها لا تتوجه إلى ذلك ؛ ومن ذلك قول
امرئ القيس :

وَأَرْكَبُ في الرُّوعِ خَيْفَانَةً * كَسَا وجهَهَا سَعَفٌ مُنْتَشِرٌ

شبه ناصية الفرس بسعف النخلة لطولها، وإذا غطى الشعر عين الفرس لم يكن كريما .

ومثله قول طرفة يصف ذنب البعير :

كَأَنَّ جَنَاحِي مَضْرَجِيٍّ، تَكْتَفَأُ * حِفَافِيهِ، شُكَا فِي الْعَسِيبِ بِمَسْرِدٍ
بَجَلِ ذَنْبِهِ كَثِيفًا، طَوِيلًا عَرِيضًا، وَإِنَّمَا تُوصَفُ الْجَانِبُ بِخَفَةِ الذَّنْبِ
وَرِقَّةِ الشَّعْرِ .

ومنها أن يجرى في مقاصد المعاني على خلاف المألوف المعروف ، وذلك قول
جُنَادَةَ :

مَنْ جِئَا أَتَيْتُ أَنْ بُلَّغْتَنِي * مَنْ تَحَوَّلَتْهَا نَاجٍ فِينَاهَا
لِكَيْ يَكُونَ فِرَاقٌ لَا لِقَاءَ لَهُ * وَتُضْمِرُ النَّفْسُ بِأَسْمَاءٍ سَلَاها
فَإِذَا تَمَتَّى الْمَحَبُّ لِلْحَبِيبِ الْمَوْتَ لَهَا ذَا عَمَى أَنْ يَتَمَّى الْبَيْضُ لِبَيْضِهِ ؟
وقول الآخر :

وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِقَتْلِهَا مِنْ حُبِّهَا * كَيْمَا تَكُونَ خَصِيمَتِي فِي الْمُحْتَرِ
فَذَكَرَ أَنَّ شَلَّةَ الْحَبِّ حَلَّتْهُ عَلَى قَتْلِ مَحْبُوبَتِهِ حَتَّى تَخَاصِمَهُ فِي الْحَشْرِ لَطْلَبِ حَقِّهَا،
وَشَلَّةُ الْحَبِّ لَا تَجْمَلُ إِلَّا عَلَى الْإِكْرَامِ وَالْبِرِّ، عَلَى أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ تَكْرَمُهُ، فَتَتْرَكَ حَقَّهَا
لَهُ حَتَّى لَا يَطُولَ وَقُوفُهَا مَعَهُ لِلْخَصَامِ، وَقَوْلُ تُصِيبُ :

فَإِنْ تَصِيبِي، أَصْلَكَ وَإِنْ تَعُودِي * بِهِجْرٍ بَعْدَ ذَاكَ، فَلَا أَبَالِي
وَالْعَاشِقُ يَلَاطِفُ قَلْبَ مَحْبُوبِهِ وَلَا يُجَاهِدُهُ، وَيَلَايِنُهُ وَلَا يُلَاجِئُهُ .

الأصل الثاني

(من صناعة إنشاء الكلام النظر في الألفاظ؛ والنظر فيها من وجهين)

الوجه الأول

(في فضل الألفاظ وشرفها)

قد تقدم في الكلام على المعاني أن الألفاظ من المعاني بمنزلة الثياب من الأبدان فالوجه الصحيح يزداد حسنا بالخلل الفاتحة ، والملابس البهيّة ، والقبیح يزول عنه بعض القبح : كما أن الحسن ينقص حسنه بركته ثيابه وعدم بهجة ملبوسه ، والقبیح يزداد قبحا إلى قبحه . فالألفاظ ظواهر المعاني ، تحسن بحسنها وتقبح بقبحها ؛ وقد قال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" : ليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والحجوي والقروي والبديوي ، وإنما هو في جودة اللفظ ، وصفاته . وحسنه وبهائه ، ونزاهته وقائه ، وكثرة طلاويه ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف . قال : وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما تقدم من نموه . ثم قال : ومن الدليل على أن مدار البلاغة تحسین اللفظ أن الخطيب الرائعة ، والأشاعر الرائعة ، ما عملت لإفهام المعاني فقط لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام ، وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صناعته ، وورق ألفاظه ، وجودة مقاطعه ، وبديع مبادئه ، وغريب مبانيه ، على فضل قائله ، وفهم منشئه ؛ وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني ، وتوحي صواب المعاني أحسن من توحي هذه الأمور في الألفاظ ، فلهذا يتأق الكاتب في الرسالة ، والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة ، ويالنون في تجويدها ، ويُنون في ترتيبها ، ليُدلوا على براعتهم

وَحَدِّقِهِمْ بِصَنَاعَتِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ فِي الْمَعَانِي لَطَرَحُوا أَكْثَرُ ذَلِكَ فَرَمَحُوا كَمَا كَثِيرًا ،
وَأَسْقَطُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ تَعْبًا طَوِيلًا ، وَأَيْضًا إِنْ الْكَلَامُ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ حُلُولًا عَذْبًا ،
وَسَيْلًا سَهْلًا ، وَمَعْنَاهُ وَسَطًا ، دَخَلَ فِي جَمَلَةِ الْجَيِّدِ ، وَجَرَى مَعَ الرَّائِعِ النَّادِرِ ،
كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَلَا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ ، * وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَائِجُ ،
وَشُدَّتْ عَلَى حُذْبِ الْمَهَارَى رِحَالُنَا * وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ ،
أَخَذَنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ، * وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمِطِيِّ الْأَبَاطِيعُ

وَلَيْسَ تَحْتَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ كَثِيرُ مَعْنَى ، وَهِيَ رَائِقَةٌ مُعْجِبَةٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ : وَلَا
قَضَيْنَا الْحَجَّ وَمَسَّحْنَا بِالْأَرْكَانِ ، وَشُدَّتْ رِحَالُنَا عَلَى مَهَازِيلِ الْإِبِلِ ، وَلَمْ يَنْظُرْ بَعْضُنَا
بَعْضًا ، جَمَلًا تَحَدَّثَ وَتَبْسِيرَنَا الْإِبِلُ فِي بَطُونِ الْأَوْدِيَةِ ، وَإِذَا كَانَ الْمَعْنَى صَوَابًا
وَاللَّفْظُ بَارِدًا نَازِلًا كَلَفَ مَسْتَهْجِنًا مَقْهُوْطًا ، وَمِنْهُمَا مَرْدُودًا ، كَقَوْلِ أَبِي الْعَتَاهِيَّةِ
فِي أَبِي عَثَانَ سَعِيدِ بْنِ وَهَبٍ :

مَاتَ وَاللَّهِ سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ * رَحِمَ اللَّهُ سَعِيدَ بْنَ وَهَبٍ
يَا أَبَا عَثَانَ أَبْكَيْتَ عَيْنِي * يَا أَبَا عَثَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

الوجه الثاني

(الالفاظ المفردة، وبيان ما ينبغي استعماله منها، وما يجب تركه)

اعلم أن الذي ينبغي أن يستعمل في النظم والنثر من الالفاظ هو الراق البهج الذي
تقبله النفس، ويميل إليه الطبع، وهو الفصيح من الالفاظ دون غيره .

والفصيح في أصل اللثة هو الظاهر البين، يقال أفصح الصبح إذا ظهر وبان
ضوءه، وأفصح اللبن إذا تجلت عنه رغوته وظهر، وأفصح الأعجمي وفصح إذا

أبان بعد أن لم يكن يُبينُ ، وأصبح الرجل عما في نفسه ، إذا أظهره . قال في المثل
 السائر : وأهل البيان يَقُونُ عند هذا التفسير ، ولا يكتشفون عن السر فيه . قال :
 وبهذا القول لا تبتين حقيقة الفصاحة لأنه يلزم أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا
 لم يكن فصيحاً جيداً ، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحاً ؛ على أنه قد يكون اللفظ
 ظاهراً لزيد ولا يكون ظاهراً لعمرو ، فيكون فصيحاً عند واحد دون آخر ، وليس
 كذلك ، بل الفصيح ما لم يُتخلف في فصاحته : لأنه إذا تحقق حدة الفصاحة وعُرفَ
 ما هي ، لم يبق في اللفظ المختص بها خلاف ؛ وأيضاً فإنه لو جرى بلفظ قبيح ينبو
 عنه السمع ، وهو مع ذلك ظاهر بين ، فينبغي أن يكون فصيحاً ، وليس كذلك لأن
 الفصاحة وصفٌ حُسن اللفظ لا وصفٌ قبيح . قال : وتحقيق القول في ذلك أن
 يقال : الكلام الفصيح هو الظاهر البين ، والظاهر البين أن تكون الألفاظ مفهومة
 لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتب لغة ؛ وإنما كانت بهذه الصفة لأنها
 تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم ؛ وإنما كانت مألوفة
 الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حُسْنها ، وفلك أن أرباب
 النظم والنثر غرّبوا اللغة باعتبار ألفاظها ، وسبّروا وقسموا فاختاروا الحُسْن من الألفاظ
 فاستعملوه ، ونفّوا القبيح منها فلم يستعملوه ، فحُسْنُ الألفاظ سبب استعمالها دون
 غيرها ، واستعملها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها ؛ فالفصيح إذن من الألفاظ هو
 الحُسْن . ثم قال : والمرجع في تحسین الألفاظ وقبحها إلى حاسة السمع ، فما يستلذه
 السمع منها ويميل إليه هو الحُسْن ، وما يكرهه وينفر عنه هو القبيح ، بليل أن السمع
 يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشُّخْرُور ، ويميل إليهما ؛ ويكره صوت الغراب
 وينفر عنه ، وكذلك يكره نقيق الحمار ، ولا يجد ذلك في صهيل الفرس ؛ والألفاظ مجارية
 هذا المجرى ، فإنه لا خلاف في أن لفظة المُرْتَة والدَّيْمَة يستلذهما السمع ، ولفظة البُعاق

قيحة يكرها السمع ، والألفاظ الثلاثة من صفة المظهر ومعناها واحد ، وأنت ترى لفظي المُرَّةَ والدَّيَّةَ وما جرى مجراها مألوفة الاستعمال وترى لفظ البُعاق وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل ، وإن استعمل فإما يستعمله جاهل بحقيقة القصاحة أو من ذوقه غير سليم ، لا جرم أنه ذم وقبح فيه ، ولم يلتفت إليه ، وإن كان عربياً محضاً من الجاهلية الأقدمين ، فإن حقيقة الشيء إذا علمت ، وجب الوقوف عندها ، ولم يُعْرَجْ على ما نخرج عنها .

إذا علمت ذلك فلا يوصف اللفظ المفرد بالحسن حتى يتصف بأربع صفات :

الصفة الأولى

(أن لا يكون غريباً : وهو ما ليس مأثور استعمال ولا ظاهر المعنى)
ويسمى الوحش^(١) أيضاً ، نسبة إلى الوحش لبقاره وعدم تأنسه وتألفه ، وربما قلب قيل الحوشى نسبة إلى الحوش : وهو الثَّار . قال الجوهري : وزعم قوم أن الحوش بلاد الجن وراء رمل يرين ، لا يسكنها أحد من الناس ، فالغريب والوحش^١ والحوشى كله بمعنى .
ثم الغريب على ضربين .

الضرب الأول - ما أعاب استعماله مطلقاً : وهو ما يحتاج في فهمه إلى بحث وتقيب ، وكشف من كتب اللغة : كقول ابن جحدر .
حَلَقْتُ بِمَا أَرَقَلْتُ حَوْلَهُ * هَمَزَجَلَةُ خَلَقَهَا شَيْظُمُ
وما شَبَقْتُ مِنْ شَوْفَةٍ * بها من وحى الجن زيزيم

فالإرقال ضرب من السير : وهو نوع من الخبب ، يقال منه أرقلت الناقة تُرقل إرقالا ، والهمزجلة الناقة السريعة ، وقال أبو زيد : الهمزجلة الناقة النجبة الراحلة .

(١) كذا في النسخة . أيضاً وفيه تسامح لأن الثمارسى لا نحاش لالحاش انظر القاموس .

وَالشَّيْظُمُ الشَّدِيدُ الطَّوِيلُ وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْإِبِلِ وَالْخَيْلِ وَالْأَنْثَى شَيْظُمَةٌ . وَالشَّبْرَقَةُ الْقَطْعُ ، يُقَالُ شَبْرَقْتُ الثَّوْبَ أَشْبَرَقُهُ شَبْرَقَةً إِذَا قَطَعْتَهُ ، وَشَبْرَقْتُ الطَّرِيقَ إِذَا قَطَعْتَهَا وَالتَّبَوُّفَةُ الْمَفَازَةُ ، وَيُقَالُ فِيهَا تَبَوُّفَةٌ أَيْضًا . وَالْوَحْيُ هُنَا الصَّوْتُ الْخَفِيُّ ، يُقَالُ سَمِعْتُ وَحَاةَ الرَّمَدِ : وَهُوَ صَوْتُهُ الْمُتَدُّ الْخَفِيُّ ، وَقَوْلُهُ زَيْزَرَمٌ حِكَايَةً لِأَصْوَاتِ الْجَنِّ إِذَا قَالَتْ زَى زَى ؛ وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ يَقُولُ حَلَفْتُ هَذِهِ الْحَلْفَةَ بِمَا سَارَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ الشَّدِيدَةُ السَّيْرِ الْعَظِيمَةِ الْخَلْقُ ، وَمَا قَطَعْتُ مِنْ مَفَازَةٍ لَا يُسْمَعُ فِيهَا إِلَّا أَصْوَاتُ الْجَنِّ ؛ وَهَذَا بِمَا لَا يُوقِفُ عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِكَدٍّ وَتَعَبٍ فِي كَشْفِهِ وَتَبَعِهِ مِنْ كَتَبِ اللُّغَةِ .

الضرب الثاني - ما يحتاج إلى تدقيق النظر في التصريف وتخرج اللفظ على وجه
بيد : كلفظ ممرج من قول الصباغ .

وَمُقَلَّةٌ وَحَاجِبَةٌ مُرَجَّجَةٌ . وَفَاحِمَةٌ وَمَرَسِيَةٌ مُسَرَّجَةٌ

فَالْمُقَلَّةُ شَحْمَةُ الْعَيْنِ ، وَالْحَاجِبُ مَعْرُوفٌ ، وَالْمُرَجَّجُ الْمُقْوَسُ مَعَ طَوْرِ وَدَقَّةٍ فِي طَرَفِهِ وَالْفَاحِمُ الشَّعْرُ الْأَسْوَدُ الَّذِي لَوْنُهُ كَلَوْنِ الْقَحْمِ ، وَالْمَرَسِيَّةُ الْأَنْفُ ، وَصِفَةُ بِكَوْنِهِ مُسَرَّجًا إِمَّا أَنَّهُ كَالسَّيْفِ الْمُرَيَّجِيِّ فِي الدَّقَّةِ وَالْإِسْتَوَاءِ ، وَالْمُرَيَّجِيُّ نَسْبَةٌ إِلَى قَيْنٍ يُسَمَّى مُرَيَّجًا تَنْسِبُ إِلَيْهِ السُّيُوفُ ، وَإِمَّا أَنَّهُ كَالسَّرَاجِ فِي الْبَرَقِ وَاللَّمَعَانِ ؛ أَوْ مِنْ قَوْلِهِمْ سَرَّجَ لِقَهُ وَجْهَهُ إِذَا بَهَّجَهُ وَحَسَّنَهُ . فَهَذَا وَمِثْلُهُ بَمَا لَا يَقِفُ عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَ التَّصْرِيفَ وَأَتَقَنَهُ .

إِذَا قَرَّرْنَا ذَلِكَ فَأَعْلَمْنَا أَنَّ اللفظ يختلف في القرابة وعدمها باختلاف النسب والإضافات ؛ فَقَدْ يَكُونُ اللفظ مَأْلُوفًا مُتَدَاوِلًا الْإِسْتِمَالِ عِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ فِي كُلِّ زَمَنٍ ، وَقَدْ يَكُونُ غَرِيبًا مُتَوَحِّشًا فِي زَمَنٍ دُونَ زَمَنٍ ، وَقَدْ يَكُونُ غَرِيبًا مُتَوَحِّشًا عِنْدَ قَوْمٍ ، مُسْتَعْمَلًا مَأْلُوفًا عِنْدَ آخَرِينَ .

وهو أربعة أصناف .

الصنف الأول

(المالوف المتداول الاستعمال عند كل قوم في كل زمن)

وهو ما تداول استعماله الأوّل والآخِر من الزمان القديم وإلى زماننا : كالسماء والأرض ، والليل والنهار ، والحز والبرد ، وما أشبه ذلك ؛ وهو أحسن الإلفاظ ، وأعنيها ، وأعلاها درجة وأعلاها قيمة ؛ إذ أحسن اللفظ ما كان ما لوفاً متداولاً كما تقدم ؛ وهذا لا يقع عليه اسم الوحشيّ بحال . قال في : " المثل السائر " وأنت إذا نظرت إلى كتاب الله العزيز الذي هو أفصح الكلام ، وجدته سهلاً سليماً ، وما تضمنته من الكلمات الغريبة يسيراً جداً . هذا وقد أنزل في زمن العرب العَرَباء ، وألفاظه كلها من أسهل الألفاظ ، وأقربها استعمالاً وكفى بالقرآن الكريم قُلوّةً ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ، " ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل مثل أمّ القرآن وهي السبع المثاني " يريد فاتحة الكتاب . وإذا نظرت إلى ما أشتملت عليه من الألفاظ ، وجدتها سهلة قريبة يفهمها كل أحد حتى صبيان المكاتب وعوام السوقة ، وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة ، فإن أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله ، وفهم العامة معناه ؛ وهكذا فتتكن الألفاظ المستعملة في سهولة فهمها وقرب متناولها ؛ والمقتضى بالفاظ القرآن يكتفى بها عن غيرها من جميع الألفاظ المثورة والمنظومة ؛ وقد كانت العرب الأوّل في الزمن القديم تتعاضد اللفظ الغريب في نظمها ونثرها ، وتميل إلى السهل وتستعذبه ؛ ويكفي من ذلك كلام قيسمة بن بُنيم لما قدم على امرئ القيس في أشياخ بني أسد يسألونه العفو عن دم أبيه ، فقال له : " إنك في المحل والقدر من المعرفة بتصرف الدهر وما تحذثه أيامه وتنقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعظ ، ولا تبصير من مجرب ، ولك من سؤدد منصبك وشرف أعزّاك ، وكرم أصلك في العرب تحبّ محمداً ما حبل عليه :

من إقالة العثرة ورجوع عن الحقوة ؛ ولا تتجاوز الميم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصنف ما يطول رغباتها ، ويستغرق طلباتها ، وقد كان الذى كان : من الخطب الجليل ، الذى عمت رزقته زارا واليمن ، ولم تخصص بذلك كندة دوتنا : للشرف البارح الذى كان مجرأ ولو كان يُقضى هالك بالأنفس الباقية بعده لما نجلت كرائمنا بها على مثله ، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أنثره على أولاه ؛ ولا يلحق أقصاه أدناه ؛ فأحد الحالات فى ذلك أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بنى أسد أشرقا . ييتا ، وأعلاها فى بناء المكرمات صوتا ، فقدناه إليك بنسمة تذهب مع شقرات حسامك بباقي قصرته ، فنقول : رجل امتحن بهالك عزيز فلم يستل تخيمته إلا تمكينه من الانتقام . أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها ، فهى أوف تجاوز الحسبة فكان ذلك فداء رجعت به القصب إلى أجفانها لم يرددها تسليط الإحن على البرءاء . وإما أن وادعنا إلى أن ترفع الحوامل قسدا الأثر وتعد الخمر فوق الزايات .

فبكى أمرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه فقال .

”لقد علبت العرب أنه لا كفاء مجر فى دم ، وإنى لن أعتاض به جملا ولا ناقة ، فأكتسب به سبة الأيدى ، وقت العضد ، وأما النظرة فقد أوجبتا الأجنة فى بطون أمهاتنا ، وإن أكون لعظما سيبا ، ومسترفون طلائع كندة من بعد ذلك ، تحمل فى القلوب حقا وفوق الأسة علقا .

إذا جالت الحرب فى مأزق ، تصافح فيه المنايا الخوسا !

أهيمون أم تصرفون ؟ “ قالوا بل تصرف بأسوا الاختيار وأبلى الاجترار ، بمكروه وأذيه ، وحرب ولبه .

ثم نهضوا عنه وقبيصة يمثّل :

لَمَلَّكَ أَنْ تَسْتَوْحِمَ الرَّوْدَ إِنْ غَدَتْ * كَأَنَّنَا فِي مَازِنِ الْحَرْبِ مُنْطَرِ
فقال أمرؤ القيس لا والله ! ولكن أستعذبه ، فرويدا ينفرج لك دُجَاهَا عَنْ
فُؤْسَانِ كِنْدَةَ وَكَاتِبِ حَمِير . ولقد كان ذكر غير هذا بي أولى إذ كنت نازلا بربي ،
ولكنك قلت فأوجبت .

فقال قبيصة ما يتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب ، فقال أمرؤ القيس هو ذاك .
قال في : " المثل السائر " فيُنظر إلى هذا الكلام من الرجلين : قبيصة وأمرؤ
القيس حتى يدع المتعمقون تعمقهم في استجمال الوحش من الألفاظ . فإن هذا
الكلام قد كان في الزمن القديم قبل الإسلام بما شاء الله ، وكذلك هو كلام كل
فصيح من العرب مشهور ، وما عداه فليس بشئ . قال : وهذا المشار إليه هاهنا
هو من جزل كلامهم ، وهو على ما تراه من السلاسة والعذوبة ، وإذا تصفحت
أشعارهم أيضا وجدت الوحش من الألفاظ قليلا بالنسبة إلى المسلسل في القم
والسمع ، وعلى هذا المنهج في الجزالة والمسحولة يجري من النظم قول أمرؤ القيس :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ ، * كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ

وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِتَجْدٍ مُؤَمَّلٍ * وَقَدْ يُدْرِكُ التَّجْدُ الْمُؤَمَّلُ أَمْثَالِي

فانظر إلى هذين البيتين ليس فيهما لفظة غريبة ، ولا كره مع ما فيها من الجزالة
وكذلك أبيات السَّمُولِ المشهورة وهي :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَنْتَسِ مِنَ اللَّؤْمِ عِرْضُهُ * فَكُلُّ رِذَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ

وَأَنْ هُوَ لَمْ يَجْمَلْ عَلَى النَّفْسِ صَبِيحًا ، * فَلَيْسَ لِي حُسْنِ النَّاءِ سَبِيلٌ

تُغَيِّرُنَا أَنَا قَلِيلٌ صَبِيحُنَا * فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلٌ

وَمَا ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا * عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلٌ

يُقَرَّبُ حُبُّ الْمَوْتِ أَجَالَنَا لَنَا * وَتَكْرَهُهُ أَجَاهُكُمْ قَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ فِي فِرَاشِهِ * وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَبِيلُ
وَأَسْبَاقُنَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَنَشْرِيقٍ * بَهَا مِنْ فِرَاجِ الدَّارِعِينَ قُلُولُ
مُعَوَّدَةٌ أَنْ لَا تُسَلَّ نَصَاهَا * فَتَقْعُدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ

إذا نظرت ماتمضته هذه الآيات من الجزالة، خطتها زبراً من الحديد مع ما هي عليه من السهولة والمُدبوبة وأنها غير فظة، ولا غليظة. وقد ورد للعرب في جانب الرقة من الأشعار ما يكاد تدب لرقته القلوب: كقول عروة بن أدبنة:

إِنِ اتَى زَعَمْتَ فَوَادِكَ مَلَهَا * خُلِقْتَ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَى مَا
بِيَضَاءَ بَاكَهَا النِّعْمُ فَصَافَهَا * بِلَاقَةٍ فَادَقَهَا وَأَجَلَهَا
حَبِيتَ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتَ لِصَاحِبِي: * مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَهَا !
وَإِذَا وَجِلْتُ لَهَا وَسَاوَسَ سَاوَةٌ * شَفَعَ الضَمِيرُ إِلَى الْفَوَادِ فَسَلَهَا
وَقَوْلُ يَزِيدَ بْنِ الْعَلَقَرِيِّ فِي مَحَبَّتِهِ مِنْ بَنِي حَرَمٍ:

بَنَفْسِي مِنْ لَوْمَةٍ بَرِّ بَنَانِهِ * عَلَى كَيْدِي، كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهُ

وإذا كان هذا قول ساكن الغلاة، لا يرى إلا شيعة أو قيصومة ولا يأكل إلا ضبا أو يربو طاء، فما بال قوم سكنوا الحضر، ووجدوا رقة العيش يتعاطون وحشي الكفاظ وشغف العبارات؟ ولا يخلد إلى ذلك إلا جاهل بأسرار الفصاحة، أو عاجز عن سلوك طريقها، فإن كل أحد ممن حصل على نبذة من علم الأدب يمكنه أن يأتي بالوحشي من الكلام، إما بأن يقطع من كتب اللغة، أو يتلقفه من أربابها. وأما الفصيح المتصف بصفة الملاحاة، فإنه لا يقدر عليه ولو قدر عليه لما علم أين يضع يده في تأليفه وسبكته.

قال : وإن مارى في ذلك مُمارٍ ، فلينظر إلى أشعار علماء الأدب من كان يُسار إليه حتى يعلم صحة ذلك ؛ فإن ابن دُرَيْد قد قيل إنه أشعر علماء الأدب وإذا نظرت إلى شعره ، وجدته بالنسبة إلى شعر الشعراء المجيدين مُتَحَطًّا ، مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأدب عَشْرَ مِئْسَارٍ ما علمه ، وأين شعره من شعر العباس ابن الأحنف ؟ وهو من أوائل الشعراء المُجَدِّين ، وشعره كثر نسيم على عَذَبَاتِ أغصان ، أو ككُلُوباتٍ طَلَّ على طَرْدِ رِيحَانٍ ، وليس فيه لفظة واحدة غريبة يُحتاج إلى استخراجها من كَلْبٍ من كتب اللغة ، كقوله :

وإني لِيُضِيئِي قَلِيلُ نَوَالِكِ * وإن كنتُ لأَرْضَى لَكُمْ قَلِيلِ

بِحُرْمَةِ مَا قَدْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ * مِنَ الْوَدِّ إِلَّا عُدُوهُ بِجَمِيلِ

وقوله في محبوبته قَوْز :

يَا قَوْزُ يَا مَنِيَّةَ عَبَّاسٍ * قَلْبِي يُغْدِي قَلْبَكَ الْقَاسِي

أَسَأْتُ إِذْ أَحْسَنْتُ ظَنِّي بِكُمْ * وَالْحَزَمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ

يُقَلِّقُنِي شَوْقِي فَأَتَيْتُكُمْ * وَالْقَلْبُ مَمْلُوءٌ مِنَ الْيَاسِ

وهل أعذب من هذه الأبيات ؟ وأعلق بالخطر، وأسرى في السمع ؟ ولعلها تسهر راقصات الأجفان ، وعن مثلها تناخر السوابق عند الزَّهَانِ ، ومن الذي يستطيع أن يسلك هذه الطريق التي هي سَهْلَةٌ وَعَصِيَّةٌ ، قُورِيَّةٌ مَبِيدَةٌ ؟ . وقد كان أبو العاتية أيضا في غُرَّةِ الدولة العباسية ، وشعر العرب إذ ذاك موجود كثيرا ، وإذا تأملت شعره وجدته كالماء الجارى ، رَقَّةً أَنْفَاطٍ ، وَلَطَافَةً سَبَكٍ ، وليس بريك ولا واهٍ ، وأنظر إلى قصيدته التي يمدح بها المهديّ ويشبّه بجاريته عتب وهى :

أَلَا مَا لِسَيِّدَتِي مَا لَهَا * تَبَلُّ ، فَأَجِئْ لِي إِذَا لَفَا

ألا إن جاريةً للإمام * م قد أسكن الحسنُ مِرْياها
لقد أتعَبَ اللهُ قَلْبِي بها * وأتعَبَ في اللومِ مَدَامَا
كَأَنَّ بَعْثِي فِي حَيْثُ مَا * سَلَكْتُ مِنَ الْأَرْضِ تِمْنَامَا
فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى الْمَدِينِ قَالَ مِنْ جِئْتِهِ :

أَتَيْتُ الْخِلَافَةَ مُقَادَّةً * إِلَيْهِ تُجَرَّرُ أَذْيَالُهَا
فَلَمْ تَكُ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ * وَلَمْ يَكُ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ * لَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا
وَلَوْ لَمْ تُطْعَمْ نِيَاتُ الْقُلُوبِ * لَمَا قَبِلَ اللهُ أَعْمَالَهَا

فهذه الأبيات من أرق الشعر غزلاً ومديحاً، وقد أذن لمديحها الشعراء من أهل ذلك العصر، وهي على ما ترى من السلاسة واللطافة على أقصى الغايات، حتى قال بشارٌ عند سماع المهدى لها من أبي التماهية : "انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار عن أصواته" يريد هل زال عن سريره طرباً بهذا المديح . وعلى هذا الأسلوب كان أبو نؤاس في السهولة والسلاسة والرقّة ، ولذلك قدّم على شعراء عصره مع ما فيه من خول الشعراء ومفلقهم كسلم بن الوليد وغيره ، وذلك لرقّة شعره وبهولته : كقوله في محبته جنان :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي أَقْنَيْتُ عُمْرِي * بِمَطْلَبِهَا وَمَطْلَبِهَا عَسِير
فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ مَسِيلاً إِلَيْهَا * يُقَرِّبُنِي وَأَصْبَحْتُ الْأُمُور
حَاجِبَتْ وَقُلْتُ : قَدْ حَبَّتْ جَنَانٌ * فَيَجْمَعُنِي وَلِأَيِّ الْمَسِيرِ

فانظر إلى هذه الأبيات ليس فيها لفظة منغلقة، وكذلك سائر شعره؛ وكان هو وأبو التماهية كأنما يتفقان من كس واحد . ومن لطيف ما يحكى في توافقي طريقتهما .

وأُتِّمِدَ مَاخَذَهَا أَنْ أَبَا نُؤَاسٍ جَلَسَ يَوْمًا إِلَى بَعْضِ التُّجَّارِ يَبْتَغِي دَافِعًا لَهُ وَجَمَاعَةً مِنَ الشُّعْرَاءِ فَاسْتَسْقَى أَبُو نُؤَاسٍ مَاءً فَلَمَّا شَرِبَ قَالَ :

• عَذَّبَ الْمَاءُ وَطَابَا •

ثُمَّ قَالَ : أَجِيزُوهُ ، فَاخْذُ أُولَئِكَ الشُّعْرَاءُ يَتَرَدَّدُونَ فِي إِجَازَتِهِ وَإِذَا هُمْ بِأَبِي النَّهْأَةِ مَجْتَازًا فَقَالَ : مَا شَأْنُكُمْ مَجْتَمِعِينَ ؟ فَقَالُوا كَيْتَ وَكَيْتَ وَقَدْ قَالَ أَبُو نُؤَاسٍ :

• عَذَّبَ الْمَاءُ وَطَابَا •

فَقَالَ أَبُو النَّهْأَةِ بِجِزَالِهِ :

• حَبَلْنَا الْمَاءَ شَرَابًا •

فَسَجَّوْا قَوْلَهُ عَلَى الْغُورِ مِنْ غَيْرِ تَلْبِثٍ ، فَهَذَا هُوَ الْكَلَامُ الْمُسَهَّلُ الْمُنْتَعِجُ تَرَاهُ يُطْمَعُكَ أَنْ تَأْتِيَ بِمَثَلِهِ ، فَإِذَا حَاولْتَ مِمَّا لَيْسَ بِهِ رَاغٍ عَنْكَ كَمَا يَرُوحُ الثَّعْلَبُ ، وَهَكَذَا يَتَّبِعِي أَنْ يَكُونَ مَنْ خَاضَ فِي كِتَابَةِ أَوْ شَعْرِ ، فَإِنْ خَيْرَ الْكَلَامِ مَا دَخَلَ الْأَذَنَ بِغَيْرِ إِذْنٍ .

وَمِنَ الشُّرُوفِ سَمِيدُ بْنُ حَمِيدٍ : وَأَنَا مَنْ لَا يُجَاوِزُكَ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يَفْطِنُكَ عَنْ جُرْمِهِ ، وَلَا يَسْتَدْعِي رِيكَ إِلَّا مِنْ طَرِيقَتِهِ ، وَلَا يَسْتَعِظُكَ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ بِالذَّنْبِ ، وَلَا يَسْتَمِيلُكَ إِلَّا بِالْاعْتِرَافِ بِالْجُرْمِ ، نَبَتْ بِي عَنْكَ غِرَّةُ الْحَدَاثَةِ ، وَرَدَّنِي إِلَيْكَ الْحُنُكَةُ ، وَبَاعَدَنِي مِنْكَ التَّهَمَةُ بِالْأَيَّامِ ، وَقَادَنِي إِلَيْكَ الضَّرُورَةُ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَسْتَقْبِلَ الصَّبِيْعَةَ بِقَبُولِ السُّنْدُرِ ، وَتَجِدْتَ النِّعْمَةَ بِأَطْرَاحِ الْحِقْدِ ، فَإِنَّ قَدِيمَ الْحُرْمَةِ وَحَدِيثَ التَّوْبَةِ يَحْتَمِلَانِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْإِسَاعَةِ ، وَإِنْ أَيْامُ الْقُدْرَةِ وَإِنْ طَالَتْ قَصِيْرَةُ ، وَالْمُنْعَةُ بِهَا وَإِنْ كَثُرَتْ قَلْبَةُ ، فَعَلَّتْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فَانْظُرْ إِلَى قُوَّةِ هَذَا الْكَلَامِ فِي سَهْوَتِهِ ، وَقُرْبِ مَاخُذِهِ مَعَ بُعْدِ تَسَاوُلِهِ وَالْإِتِّمَادِ بِمُشَاكَلِهِ . وَأَجْزَلُ مِنْهُ مَعَ السَّهْوَةِ قَوْلُ الشَّعْبِيِّ لِلْحَجَّاجِ ، وَأَرَادَ قَتْلَهُ لَخْرُوجِهِ عَلَيْهِ

مع ابن الأشعث : "أجلبب بنا الحناب، وأحزن بنا المنزل، فاستعسلنا الحنار، واكتحلنا السمر، وأصابنا فتنة لم تكن فيها بررة أقياء، ولا فجرة أقوياء" معناه عنه .
قال صاحب الصناعتين : وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا يكذب ، ويستقصصونه إذا وجدوا الفاظه كزرة غليظة ، وجامسية غريبة ، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلسا عذبا ، وسهلا حلويا ، ولم يعلموا أن السهل أمتع جانبيا ، وأعز مطلبيا ، وهو أحسن موقعا ، وأعذب مستمعا ، ولهذا قيل "أجود الكلام السهل الممتنع" وكان المفضل يختار من الشعر ما يقل تداول الرواة له ، ويكثر الغريب فيه . قال المسكوي : وهذا خطأ في الاختيار : لأن الغريب لم يكثر في كلام إلا أفسده ، وفيه دلالة على الاستكراه والتكلف .

ووصف الفضل بن سهل عمرو بن مسعدة فقال : هو أبلغ الناس ، ومن بلاشته أن كل أحد يظن أنه يكتب مثل كتبه ، فلذا رامها ، تعذرت عليه ،
وقال العباس بن ميمون : قلت للسيد : ألا تستعمل الغريب في شعرك ؟ فقال ذلك عني في زمان ، وتكلف مني لو قلته ، وقد رزقت طبعها وأتساعا في الكلام ، فانا أقول ما يعرفه الصغير والكبير ، ولا يحتاج إلى تفسير ، ثم أنشدني :

أيا رب إني لم أريد بالذي به * مدحتُ عليا غير وجهك فارحم

قال في الصناعتين : فهذا كلام عاقل يضع الكلام موضعه ، ويستعمله في إياه .
ومن كلام بعض الأوائل : تلخيص المعاني رفقي ، والتشادق في غير أهله قصص ، والنظر في وجوه الناس عي ، ومس الخفية هلك ، والاستمانة بالغريب عجز ، والخروج عما عني عليه الكلام إسهاب ، فأجود الكلام ما كان جولا سهلا ، لا يتناقض معناه ، ولا يستبهم مقزاه ، ولا يكون مكثودا مستكرها ، ومتوعرا متقعرا ، ويكون بريثا من

الثالثة، عاريا من الزئامة، فالكلام إذا كان لفظه غثا، ومعرضه رثا، كان مردودا، ولو احتوى على أجل معنى وأنبه، وأرفه وأفضله . قال في "المثل السائر": أما البداوة والسنجينة، فتلك أمة قد خلت، ومع أنها قد خلت وكانت في زمن العرب العاربة فإنها قد عيبت على مستعملها في ذلك الوقت فكيف الآن، وقد غلب على الناس رقة الحضر؟

الصنف الثاني

(الغريب المتوحش عند كل قوم في كل زمن)

وهو ما لم يكن متداول الاستعمال في الزمن الأول ولا ما بعده، بل كان مرفوضا عند العرب كما هو مرفوض عند غيرهم، ويسمى الوَحْشِيُّ الغليظ، والعِكر، والمتوَعَر وهو على ثلاثة أضرب :

الضرب الأول

(ما يعاب استعماله في النظم والنثر جميعا)

قال في "المثل السائر": والناس في قبح استعماله سواء، لا يختلف فيه عمرى بآد، ولا قروى متحضر . قال : وليس وراءه في القبح درجة أخرى، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله شيء من معرفة هذا الفن أصلا، وهو ما يجده سمك، ونبا عنه لسانك، وتقل عليك التلق به، على أنه قد وقع منه ألفاظ لبعض الشعراء المُفْلِقِينَ من العرب والمحدثين . فمن ذلك لفظ الجَحِيش في قول تأبط شرا من أبيات الحماسة :

يَطْلُ بِحَمَامَةٍ وَيُمَيِّ بِسَيْرِهَا • جَحِيشًا وَيَعْرِوِي طُهورَ الْمَسَالِكِ

فإن لفظة جَحِيشٍ من الألفاظ المُنكَرَةِ القبيحة، قال في "المثل السائر" : وبالله العجب ! أليس أنها بمعنى فَرِيد ؟ وفريدٌ لفظة حَسَنَةٌ رائعةٌ لو وضعت في هذا البيت موضع جَحِيشٍ لما أخلَّ شيء من وزنه، فتأبط شرا ملوم من وجهين : أحدهما استعمله القبيح، والثاني أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعلل عنها؛ وأقبح من ذلك لفظ أَطْلَحَمَ في قول أبي تمام :

قد قلتُ لما أَطْلَحَمَ الأمرُ وأَنْبَعَثَ * عَشْوَاءُ تَالِيَةً غُبَسًا دَهَارِيماً

فإن لفظة أَطْلَحَمَ من الألفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين من أنها غريبة ، وأنها غليظة في السمع، كريمة على اللُوق ؛ وكذلك لفظة دَهَارِيْس في آخر البيت المذكور .

وعلى حدِّ ذلك ورد لفظ جَيَّرَ في قوله من أبيات في وصف فرس :

نِمْ مَنَاعُ الدُّنْيَا حَبَاكَ بِهِ * أَرْوَعُ لَاجِيَرٍ وَلَا جِيَسُ

فلفظة جيدر وحشية غليظة؛ وأغلظ منها لفظة جَفَعَتْ في قول أبي الطَّيِّبِ المتنبي :

جَفَعَتْ وَهْمَ لَا يَحْفَحُونَ بِهَا بِهِمْ * شَيْمٌ عَلَى الْحَسْبِ الْآخَرُ دَلَامِلُ

فإن لفظة جَفَعَ مُرَّةَ الطعم ، وإذا مرَّتْ على السمع أَقْشَعَرَّ منها ، وكان له مندوحة عن استعمالها فإنَّ جَفَعَتْ بمعنى فَخَرَتْ وهما في وزن واحد، فلو أتى بلفظ فَخَرَتْ وَفَخَرُونَ مكان جَفَعَتْ وَيَحْفَحُونَ، لاستقام وزن البيت وحِطِّي في استعماله بالأحسن، فهو في ذلك كَتَأَبَّجَ شَرًّا في لفظة بجيش في توجه الملامة عليه من وجهين .

قال في "المثل السائر" : وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على هؤلاء الفحول من الشعراء ؟

هذا ما أورده ابن الأثير من هذا النوع؛ ويشبه أن يكون منه لفظ الحقلد

في قول زهير :

تَقِيْ تَقِيْ لَمْ يُكَكَّرْ غَنِيْمَةً * يَنْهَكُهُ ذِي قُرْبَى وَلَا يَحْتَلِدُ

والحقلد السيئ الخلق، قال في «الصناعيين» : وقد أخذ الرواة على زهير في لفظة الحقلد فاستبعضوها، وقالوا: ليس في لفظ زهير أنكر منها، وكذلك لفظ الجريش في قول أبي الطيب في مدح سيف الدولة بن حمدان وأسمه علي :

مُبَارَكُ الْأَسْمِ أَغْرُ الْقَلْبِ * كَرِيمُ الْجَرِشِيِّ شَرِيفُ النَّسَبِ

لفظ الجريشي مما يكرهه السمع، وينبوعه اللسان، والجريشي بمعنى النفس فجعل اسمه مباركا، ولقبه أغر، وهسه كريمة، ونسبه شريفا، وذلك أنه كان يسمى علياً وهو أسم مبارك لمواقفة أسم أمير المؤمنين : علي كرم الله وجهه ويلقب سيف الدولة وهو لقب أعز إلى مشهور، وأغر أخذنا من غرة القرم لأنها أشهر ما فيها، ووصفه بكرم النفس إما باعتبار الحسب والعراقة، وإما باعتبار بذل المال وكثرة العطاء، وأشار إلى شرف نسبه باعتبار عراقة في بيت الملك وعراقة حصيه .

الضرب الثاني

(ما يعاب استعماله في الشردون النظم)

وهذا الضرب مما ذكر صاحب المثل السائر أنه استخرجه بفكره، ولم يجد فيه قولاً لغيره . قال : وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهي إلى ما أورده من الأمثلة، ولربما أنكره بعد ذلك إما عنادا وإما جهلا لعدم اللوق السليم عنده، ثم ذكر منه أمثلة .
منها لفظ شريفة من قول الفرزدق :

ولولا حياة، زيدت رأسك شجة * إذا سبرت ظلت جوائنها تنجلي
شربنة شملة من يرميها * يسيبه ولو بين النخاسي والطفلي

(١) في القاموس «الحقلد في قول زهير الأثم» ويظه في لسان العرب .

قال : لفظة مُشْمَخِرَةٌ من الألفاظ الغريبة التي يسوغ استعمالها في الشعر ، وهي هاهنا غير مستكرهة إلا أنها لو وردت في كلام مشور من كتاب أو خطبة ، لعيت على استعمالها .

ومنها لفظة مُشْمَخِرٌ الواردة في أبيات بشرى في وصفه لقاء الأسد حيث قال :

وَأَطْلَقْتُ الْمُهَنْدَ عَنْ يَمِينِي * قَدَّ لَهُ مِنَ الْأَضْلَاعِ عَشْرًا

فَخَرَّ مُضْرَجًا بِدَمٍ كَأَنِّي * هَنَمْتُ بِهِ بِنَاءَ مُشْمَخِرًا

وكذلك في قول البعري في قصيدته التي يصف فيها إيوان كسرى :

مُشْمَخِرٌ تَمَلَّوْا لَهُ شُرَفَاتٌ * رُفِعَتْ فِي رُغُوسٍ رَضُوى وَقُدُسٍ

فإن لفظة مُشْمَخِرٌ لا يحسن استعمالها في الخطب والمكاتبات ، ولا بأس بها في الشعر ، وقد وردت في خطب الشيخ الخطيب ابن نباتة كقوله في خطبة يذكر فيها أحوال يوم القيامة : أَقْمَطَرُ وَبَالُهَا ، وَأَشْمَخَرُ نَكَالُهَا ، فإ طابت ولا ساءت .

ومنها لفظة الكَنُهور من أوصاف السحاب كقول أبي الطيب :

يَا لَيْتَ بَاكِئَةً تَجَاوِي دُمُوعَهَا * نَظَرْتُ إِلَيْكَ كَمَا نَظَرْتُ قَتَمِيزًا

وَتَرَى الْفَضِيلَةَ لَا تَرُدُّ فَضِيلَةً * الشَّمْسُ تُشْرِقُ وَالسَّحَابُ كَنُهورًا

لفظة الكَنُهور لا تهاب نظما ، وتهاب نثرا .

ومنها لفظة العِريس ، وهو اسم الناقة الشديدة فإن هذه اللفظة يسوغ استعمالها في الشعر ولا يُعاب مُستعملها كقول المتنبي :

وَمَهْمَهِ جُبْتُ عَلَى قَدِي * تَحْجِزُ عَنْهُ الرَّمَامُ الدُّلُ

فإنه جمع هذه اللفظة ولا بأس بها ، ولو استعملت في الكلام المشور من

الخطب لما طابت ولا ساحت ؛ وقد جاءت موحدة في شعر أبي تمام في قوله :
 هي العزمس الوجناء وابن ميمية * وجاش على ما يجيد الدهر خافض
 ومنها لفظة الشدنية في قول أبي تمام أيضا .

* ياموضع الشدنية الوجناء *

وهي ضرب من النوق ، فإن الشدنية لاتعاب شعرا وتعاب لو وردت في كتابة
 أو خطبة . هذا ما أورده في "المثل السائر" لهذا الضرب من الأمثلة . ثم قال :
 وهكذا يجرى الحكم في أمثال هذه الألفاظ ؛ وعلى هذا فاعلم أن كل ما يسوغ استعماله
 في الكلام المنشور يسوغ استعماله في الكلام المنظوم ، وليس كل ما يسوغ استعماله
 في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المنشور . قال : وذلك شيء استنبطته
 وأطلمت عليه لكثرة ممارستي هذا الفن ، ولأن النوق الذي عندي دلني عليه ،
 فمن شاء أن يقلدني فيه ، والا فليئين النظر حتى يطلع على ما أطلعت عليه .
 والأذهان في مثل هذا المقام تتفاوت ، على أن الشيخ سعد الدين التفتازاني رحمه الله
 قد تابعه على ذلك في شرح التلخيص فلا أعلم أقله في ذلك أم ذوقه أداه إليه ؟ .

الضرب الثالث

(مايلب استعماله بصيغة دون صيغة)

قال في "المثل السائر" : وهذا الضرب من هذه الصناعة بمنزلة عليّة ، ومكانة شريفة ،
 وجل الأسرار اللفظية منوط به . قال : وقد لقيت جماعة من مدعي فنّ الفصاحة
 وفروضهم وفلوضي ، وسألهم وسألوني ، لما وجدت أحدا منهم يتقن معرفة هذا
 الموضع كما ينبغي ، وقد استخرجت فيه أشياء لم أُمسّق إليها فإن اللفظة الواحدة قد

تنتقل من هيئة إلى هيئة، أو من صفة إلى صفة، فتنقل من القبح إلى الحسن وبالعكس فيصير القبيح حسناً، والحسن قبيحاً، والمرجع في ذلك إلى الذوق الصحيح والطبع السليم، وقد نبه منه على تسعة أخطاء .

النمط الأول - ما يرجع فيه الأسم في الاستعمال على الفعل، وذلك في مثل لفظ *خَوَدَ*، فإنها عبارة عن المرأة الناعمة، فإذا نقلت إلى صيغة الفعل، قيل *خَوَدَ* على وزن *فَعَلَ* بتشديد العين ومعناها أسرع . يقال : *خَوَدَ* البعير إذا أسرع في مشيه، فهي على صيغة الأسم حسنة راجحة، قد وردت في النظم والثر كثيراً، وإذا جاءت على صيغة الفعل، لم تكن حسنة كقول أبي تمام :

وإلى بني عبد الكريم تَوَاهَقَتْ * زَيْتُكَ النِّعَامُ رَأَى الطَّرِيقَ فَخَوَدَا^(١)

إلا أن لفظة *خَوَدَ* قد استعملت على غير هذا الوجه في بعض المواضع فزال منها بعض القبح وإن لم تلحق بدرجة الرائق الحسن، كقول بعض شعراء الحماسة :

أَقُولُ لِنَفْسِي حِينَ خَوَدَ رَأْيَا : * رُوَيْلِكَ لَمَّا تُسْتَفْقِي حِينَ مَشْفَقِي

رُوَيْلِكَ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَجْلِي * عَمَايَةَ هَذَا الْعَارِضِ الْمُنَاقِي

والرأى النعام، والمراد أن نفسه فزت وفزعت، شبه بإسراع النعام في فراره وفزعه فلما أورد ذلك على سبيل المجاز، زال بعض القبح . قال : وهذا يدركه الذوق الصحيح فهي في بيت أبي تمام صيغة سمجة، وهاتان بينين، ويقاس على ذلك أشباهه ونظائره .

النمط الثاني - ما يرجع فيه فعل الأمر والمستقبل في الاستعمال على الفعل الماضي وذلك في مثل لفظة *وَدَعَ*، وهي فعل ماض ثلاثي لا يهمل بها على اللسان، ومع ذلك

(١) في النسخ السائر - التلام - وكذا في ديوان أبي تمام .

فإنها لا تستعمل على صيغتها الماضية إلا جاءت غير مُسَحَّسَةٍ، فإذا استعملت على صيغة الأمر أو الاستقبال، جاءت حسنة بهجة راتحة، أما على صيغة الأمر فكما في قوله تعالى: "قَدَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا" ولم ترد في القرآن الكريم إلا على هذه الصيغة، وأما على صيغة الاستقبال فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد واصل في شهر رمضان فواصل معه قوم، فقال: "لَوْ مَدَّ لَنَا الشَّهْرُ لَوَاصِلًا وَصَالًا يَدْعُ لَهُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ" وقد استعملها أبو الطَّيِّبِ على هذا الوجه في قوله:

تَسْعَمُ بِقَاتِهَا كُلَّ سَلَهَةٍ * وَالضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْهُ فَوْقَ مَا يَدْعُ

بجاءت في كلامه بهجة راتحة، وأما الماضي من هذه اللفظة، فلم يستعمل إلا شاذًا ولا حُسْنَ له، كقول أبي العتاهية:

أَثَرُوا فَلَمْ يَدْخُلُوا قِيَوْمَهُمْ * شَيْثًا مِنَ الثَّرْوَةِ الَّتِي جَمَعُوا
وَكَانَ مَا قَلَّمُوا لَأَنْفُسِهِمْ * أَعْظَمَ نَفْعًا مِنَ الَّذِي وَدَّعُوا

فلم تقع في كلامه من الحسن موقعًا، ولا أصابت من العِلَالَةِ غَرَضًا، وهذه لفظة واحدة لم يتغير شئ من أحوالها سوى أنها نقلت من صيغة إلى صيغة، وكذلك لفظة وَذَرَفْنَا لَمْ تَتَغَيَّرْ شَيْئًا، وتستعمل على صيغة الأمر كقوله تعالى: "وَذَرَهُمْ يَكُونُوا وَيَسْتَعْمِلُوا"، وتستعمل مستقبلية أيضًا كقوله تعالى: "سَأُصَلِّيه سَقَرًا وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ"، ولم ترد في القرآن الكريم إلا على هاتين الصيغتين؛ وكذلك في غير القرآن الكريم من فصيح الكلام، أما في حالة الماضي، فإنها أقبح من لفظة وَدَّعَ، وقد استعملت ماضية مع شذوذ، وهذه لم تستعمل أصلاً.

الخط الثالث — ما يرجع فيه الأفراد في الاستعمال على التنزيه، وذلك في مثل لفظ

(١) كان عليه أن يحل قوله تعالى: "وَدَّعَ أَذَاهُمْ".

الأخْذَج ، فإنها يحسن استعمالها في حالة الأفراد دون التثنية ؛ فإما وردت فيه مفردة بجات حسنة راجعة ، قول الصَّمَّة بن عبد الله من شعراء الحماسة :

لَقَلْتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي * وَجِئْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيَنَّا وَأَخْلَدَا

ومما ورد فيه لفظ التثنية بقاء قليلا مستكرها قول أبي تمام :

يَا دَهْرُ قَوْمٍ مِنْ أَخْلَعِكَ فَقَدْ * أَصْبَحْتَ هَذَا الْأَكَامَ مِنْ تُرْقَاك

هكذا ذكره في المثل السائر ، ثم قال : وليس لذلك سبب إلا أنها جاءت موحدة في أحدهما فَصَحَّتْ ، وجاءت مشناة في الآخر فقبِحت .

التمط الرابع - ما يرجع فيه الأفراد في الاستعمال على الجمع ، وذلك كلفظة الأرض فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مفردة ، سواء أفردت بالذكر عن السماء كما في قوله تعالى : "وَاللَّهُ أَتَعْلَمُ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا" أو قرنت بالسماء مفردة كما في قوله تعالى : "وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَهْبِطَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ" أو مجموعة كما في قوله تعالى : "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ" ولو كان استعمالها بلفظ الجمع نستحسنها ، لكان هذا الموضع وشبهه به أليق لمقابله الجمع في السموات ، ولما أراد أن يأتي بها مجموعة قال : "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ" وكذلك لفظة البُقعة ، وكذلك لفظة طَيْف في ذكر طَيْف الخيال ، فإنها تجمع على طُيُوف ، وهي في حالة الأفراد من أرق الألفاظ والطفها ، فإذا جمعت زالت عنها تلك الطلاوة ، وفارقتها تلك البهجة ، ولذلك وردت في القرآن الكريم بلفظ الأفراد قال تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ أَتَوْا إِذَا مِنْهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ" . ولم تزل الشعراء في القديم والحديث يستعملونه بلفظ الأفراد فيقع أحسن موقع ، ولم يلبسوا باستعماله مجموعا ، قال في المثل السائر : ويافه العجب ! من هذه اللفظة ومن أختها

علة ووزن، وهي ضيف فإنها تستعمل مفردة ومجموعة، وكلاهما في الاستعمال حسن رائق، قال: وهذا مما لا يعلم السر فيه، والنوق السليم هو الحاكم في الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجري مجراها، وكذلك يجري الحكم في جميع المصادر، فإنها في حالة الأفراد أحسن منها في حالة الجمع، وقد جاء منها بعض ألفاظ مجموعة بلفحات غنة مستكرهة، كما في قول عترة:

فإن يراً فلم أتت عليه * وإن يفقد فحق له الفقد

فالفقد جمع مصدر من قولنا: فقد يفقد فقد، وليس له من الرواق والطلاوة ما لمفردة، وهو لفظ قديد، وإن كان جائزاً من جهة العربية.

الخط الخامس - ما يترجى فيه الجمع في الاستعمال على الأفراد كلفظة اللب الذي هو العقل، فإن استعملها بصيغة الجمع في غاية الحسن والبهجة والطلاوة، وقد ورد بهذه الصيغة في غيره وضع من القرمان الكريم، كقوله تعالى: "وَلْيَذْكُرُوا الْأَنْبَاءَ" وقوله: "وَمَا يَذْكُرُوا إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" إلى غير ذلك من الآيات الوارد فيها ذلك بصيغة الجمع، أما في حالة الأفراد فإنها قليلة الاستعمال مع أنها لفظة ثلاثية خفيفة على النطق، بعيدة المضارح، ليست بمسثقلة ولا مكروهة، قال في المنل السائر: ولما تأملت القرمان الكريم ودققت النظر في رموزه وأسراره، وجدت هذه اللفظة قد روعي فيها الجمع دون الأفراد فإن أضيف إليها، حسن استعمالها، وساغ في طريق الفصاحة إيرادها. أما إضافتها فكقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر النساء: "مَا رَأَيْتُ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِبِّ الْحَائِضِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ بِمَعَشَرِ النِّسَاءِ" وأما الإضافة إليها فكقول جرير:

إِنَّ الْعِيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ * قَتَلْنَنَا، ثُمَّ لَمْ يُخَيِّنَ قَتَلَنَا

يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا يَجْرَاكَ بِهِ * وَهَنْ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا

قال في المثل السائر : فإن صرّيت هذه اللفظة عن الجمع والإضافة ، لم تأت حسنة . قال : ولا تجد دليلا على ذلك إلا مجرد الذوق السليم ؛ وكذلك لفظة كوب فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مجموعة ، وهي وإن لم تكن مستقبحة في حالة الإفراد ، فإن الجمع فيها أحسن . وأنظر إلى ما عليها من الطلاوة والمساينة في قوله تعالى : ” يَكُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلِطُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكُلْسٍ مِنْ مِّعِينٍ ” وعلى هذا التحول لفظ رَجَا بالقتصر ، ومعناه الجانب ، فإنها قد وردت في القرآن بلفظ الجمع في قوله تعالى : ” وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ” أى جوانبها ، ولم تستعمل مفردة : لأن الجمع يَكْسِبُها من الحسن ما لم يوجد لها حالة الإفراد ؛ فإن أضيفت حالة الإفراد كرجا البئر ونحوه ، حسنت كما في حالة الجمع . قال في المثل السائر : وليس كذلك لفظ الصُوف والأصواف ، وإن كان لم يرد في القرآن الكريم إلا مجعولا حيث قال تعالى : ” وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَمًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ” لأن لفظ الصوف مستحسن في حالة الإفراد كما في حالة الجمع . قال : وإنما قُبِحَ ذكره في قول أبي تمام :

كَانُوا بِرُودِ زِمَانِهِمْ قَتَصْتَعُوا * فَكَأَنَّمَا لَيْسَ الزَّمَانُ الصُّوفَا

لأنها جاءت مجازية في نسبتها إلى الزمان . قال : وعلى هذا التهجّج وردت لفظة جِرْ وأخبار فإنها مجموعة أحسن منها مفردة ، ولم ترد في القرآن الكريم إلا مجموعة .

الخط السادس - ما يترجى فيه بعض الجوع في الاستعمال على بعض كما في جمع صائب من قولك : سهم صائب ، فإنه يقال في الجمع سهام صواب وصائبات وصيَّب بالتشديد ، وهذه الجوع كلها حسنة ، راجعة ، مُعْجِبَةٌ ، دائرة على ألسنة أرباب الشعر والنظم ، ويقال في جمعه أيضا صيَّب على وزن كُتِبَ ، وهو جمع قبيح ،

مر فوض الاستعمال، ثقيل على النطق، جاف عن السمع، وقد استعمله أبو نؤاس في شعره حيث قال :

مَا أَحَلَّ اللَّهُ مَا صَنَعَتْ * عَيْنُهُ تِلْكَ الْعَشِيَّةَ فِي

قَتَلَتْ إِنْسَانَهَا كَيْدِي * لِيَسْهَمَ لِلرَّدَى صُيُبُ

بغيات غثة كريمة نابية عن السمع، نافرة عن اللسان؛ وكذلك الجمع في قيد، فإنه يجمع على قيود، وهو جمع سائغ القبول، شائع الاستعمال، ويقال في جمعه أيضا أقياد، وهو من الجوع المستكرمة الخارجة عن الاستعمال، وقد ورد في قول عوف القوافي من أبيات الحماسة :

نَهَبَ الرُّقَادُ فَمَا يَحْسُ رُقَادُ * مِمَّا تَجَبَّكَ وَنَامَتِ الْعَوَادُ

لِمَا أَتَانِي مِنْ عَيْنَةٍ أَنَّهُ * أَمَسَتْ عَلَيْهِ تَطَاهَرُ الْأَقْيَادُ

فلم يحسن ولم يرُق، وكذلك القول في جمع قبة، فإنه يجمع على قباب وهو جمع حسن دائر على السنة الفصحاء من أهل النظم والثر، ويجمع أيضا على قُبُب، وليس بمستحسن، وإن كان هو في الكراهة دون أقياد في جمع قيد، وقد استعمله ابن محنك التميمي في قوله :

مَاذَا تَرَيْنَ أَتَدْنِيهِمْ لِأَرْحَلِنَا * فِي جَانِبِ الْبَيْتِ أَمْ نَتْنِي لَمْ قُبَا ؟

فلم يحسن تحسن قباب بل جاءت كريمة مستشعة؛ وأعجب ما في هذا الباب أن الجمع قد يكون متفقا في لفظة واحدة إلا أنها مختلفة المعنى فيختلف الاستعمال في الجمع باختلاف المعاني حتى لو جمع في مكان جمع لم يحسن استعماله وإن كان جائزا من جهة العربية : كلفظ العين، فإنها تطلق من جملة مدلولاتها على العين الباصرة، والعين من الناس، وهو التيه منهم، والعين الباصرة تجمع على

عيون، والعين من الناس تجمع على أعيان، وقد شذ هذا الموضع على المتنبي في قوله :

وَالْقَوْمُ فِي أَعْيَانِهِمْ نَزَرٌ * وَالْحَيْلُ فِي أَعْيَانِهَا قَبْلُ

يجمع العين الباصرة على أعيان في الموضعين، قال في "المثل السائر": وكانت النوق
يأبى ذلك ولا يحده على اللسان حلاوة وإن كان جائزا، وأعجب من ذلك كله أنك
ترى وزنا واحدا من الألفاظ، فتارة تجمد مفردة حسنا، وتارة تجمد جمعه حسنا،
وتارة تجمدهما جميعا حسنين .

فما مفردة أحسن من جمعه خبرور : وهو قرخ الحباري، فإنه يجمع على حبارير
ومفردة أحسن من جمعه ، وكذلك طنبور وطنابير، وعرقوب وعراقيب، وما
أشبه ذلك .

ومما جمعه أحسن من مفردة بهلول وبهليل، وطموم وطاميم، وهذا ضد الأول .
ومما مفردة حسن وجمعه حسن جمهور وجاهير، وعرجون وعراجين، وما
أشبه ذلك .

الخط السابع - ما يترجح فيه أحد صور الوزن الواحد باختلافه بالحركة والسكون
كلفظ التثالث والرابع إلى العشر، فإنها في حالة سكون الوسط كلها حسنة سائغة الاستعمال
فإذا تحركت أوساطها قلت ثلث، ورُبع، وخمسة وكذلك إلى عشر، فإن الحسن
من ذلك جميعه ثلاثة وهي الثلث، والخمسة، والسادس أما الربع، والسبع، والثمن،
والتسع، والعشر فليس كذلك في حسنة . قلت : إنما يظهر ذلك في السبع، والتسع،
والعشر خاصة فإن الثقل ظاهر فيها، أما الربع والثمن فإنهما في الحسن مع تحريك
الوسط كالثلث، والخمسة، والسادس، وقد ورد القراءان بتحريك الوسط فيهما في سورة
النساء حيث قال تعالى : "وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ

لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَ الثَّمَنُ بِمَا تَرَكْتُمْ" وأى حُسن وفصاحة بعد وروده في القرآن الكريم ؟

النقط الثامن - ما تدرج فيه أبنية بعض أسماء الفاعلين في الاستعمال على بعض كَأَسْمِ الْفَاعِلِ الْمَبْنِيِّ مِنْ فَعَلَ بفتح الفاء وكسر العين، فإنه يبنى على فاعل وفعل بكسر العين وفعلان نحو حمَدَ فهو حامد ، وَحَمِدَ ، وَحَمَدَانٌ ، وَفَرِحَ فهو فرحٌ ، وفارح ، وفرحانٌ ، وَغَضِبَ فهو غضبانٌ ، وغاضبٌ ، فالأفعال الثلاثة على وزن واحد، وصيغُ أسماء الفاعلين المبنية منها مخلفةٌ في الأحسن الغالب استعمالها ، فحامد من حمَدَ أحسن من حمِدَ وَحَمَدَانٌ ، وَفَرِحَ من فرِحَ أحسن من فارح وفرحان، وغضبان من غَضِبَ أحسن من غاضب ، وإن كان جائزاً ؛ وقد جاء بناء أَمَمَ الفاعل من فرِحَ على فارح في قول بعض شعراء الحماسة :

فأنا من حُزِنَ وإن جَلَّ جَارِعٌ * وَلَا يُسْرُورُ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحٌ

فلم يحسن كسب فرِحَ ، أما ما جاء منه على وزن فُعَلَةٍ نحو هُمَزَةٍ وَلَمَزَةٍ وَجُتِمَةٍ وَنُومَةٍ وَلَكِنِيَّةٍ وَلَحْنَةٍ ، وما أشبه ذلك ، فقد قال في "المثل السائر" : الغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة .

النقط التاسع - ما يدرج من أوزان الأفعال بعضها على بعض كلفظة فعل وأفعل فإن لفظة فعل لها موضع تستعمل فيه : ولفظة أفعل لها موضع تستعمل فيه ، تقول : وقعت إلى فلان إذا جلست إليه ، وأقمتك ظارب الجمل ، إذا ركبت عليه ، ولا يحسن أن تقول أقمتك إلى فلان وقعت على ظارب الجمل ، وإن كان ذلك جائزاً ، وكذلك أقفل وأقموعل فإنك تقول أعشَبَ المكان ، فإذا كثرت عُشْبُهُ قلت : أعشَوَشَبَ فلفظة أقموعل للتكثير، وهي على ما فيها من تكرار الحروف طيبةٌ

عَذْبَةً، وكذلك سائر ما في وزنها نحو أَخْشَوْشَ الْمَكَانِ، وَأَغْرَوْرَقَتِ الْعَيْنُ، وَأَحْلَوْتُ
الطِّعْمَ، وما أشبه ذلك، قال في "المثل السائر": وهذا كله مما أخذته بالاستقراء،
وفي اللغة مواضع كثيرة من ذلك لا يمكن استقصاؤها.

فانظر إلى ما فعله اختلاف الصيغة بالألفاظ، وعليك بتفقد أمثال هذه الكلمات
لتعلم كيف تضع يدك في استعمالها، فكثيرا ما يقع فجول الخطباء والشعراء في مثلها،
ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرّت به الألفاظ عرضها على فوقه الصحيح،
فما يحده الحسن منها موحّداً وحده، وما يحده الحسن منها مجمّوعاً جمعه؛ وكذلك
يمرّ الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ.

الصف الثالث

(المتوجّش في زمن دون زمن)

وهو ما كان متداولاً الاستعمال في زمن العرب، ثم رُفِضَ وترك بعد ذلك،
وبهذا لا يعاب استعماله على العرب لأنه لم يكن عندهم وحشياً، ولا لديهم غريباً.
كما سيأتي التنبيه عليه، وإنما يعاب استعماله على غيرهم ممن قُصِرَ فهمهم عنه، وقُلّتْ
معرفةً بهم به؛ وقد كان كلام العرب مشحوناً به في نظمهم وشعرهم، دأبوا على الاستعمال
في مخاطباتهم ومحاوراتهم، غير معيب ولا ملوم عليه؛ وانظر إلى ما تضمنته خطبهم
وأشعارهم من الغريب ترى ذلك عياناً؛ فمن ذلك قول أبي النظم الهذلي:

أَبَى الْمُضَيِّمَةِ نَائِبٍ بِالْعَظِيمَةِ مُتَخَلِّفٍ الْكَرِيمَةِ جِلْدَ غَيْرِ ثَيَّابِينَ
حَامِي الْحَقِيقَةِ نَسَّالُ الْوَدِيقَةِ مِعْشَاتُ الْوَسِيقَةِ، لَا نَكْسَ وَلَا وَكْنَ
رَبَاءَ مَرْقَبَةٍ مَنَاعُ مَغْلَبَةٍ * وَهَابُ سَلْهَةٍ، قَطَاعُ أَقْرَانِ
هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ حَمَالُ أَلْوِيَةٍ * شَهَادُ أُنْدِيَةٍ سِرْحَانُ قَبَائِنِ

وقول أعرابي في وصف إبل : **كُومٌ بهَّازٌ ، مُكْدٌ خَنَاجِرٌ ، عِظَامُ الحَنَاجِرِ ،**
سِبَاطُ المَشَافِرِ ، أَجَوافُهَا رِغَابٌ ، وَأَعْطَانُهَا رِحَابٌ ؛ مُنَعَ من البَهِمِ ، وَتَبَرَكَ لِلْجَمِّمِ . يريد
 بالكُومِ جمع كُومَاءَ ، وهى الناقة العظيمة السَّنامُ ، والبَهَّازِ جمع بُهْزَةٍ : وهى الناقة
 العظيمة ، والمُكْدُ جمع مَكُودٍ : وهى الناقة الغزيرة اللبن ، والخَنَاجِرِ جمع خُنْجُورٍ :
 وهى بمعنى المَكُودِ أيضا ، والعِظَامُ الحَنَاجِرِ غِلَاطُ الأَعْنَاقِ ، وَسِبَاطُ المَشَافِرِ أى
 مرسَلات المشافر ، والمَشْفَرُ من الناقة كالبَحْفَلَةِ من الفرس ؛ ونحو ذلك مما يحرى
 هذا الجعري ويغفوط في هذا السَّلَكِ ؛ فهذا ومثله لا يباب استعماله على العرب لأنه
 لم يكن عندهم غربيا ولا لسيهم وحشيا ، بل شائعا بينهم ، دائرا على ألسنتهم في نظمهم
 وبرهم ؛ وأعظم شاهد لاستحسان استعماله عندهم ووضوح منتهجه لديهم أن القرمان
 الكريم الذى هو أفصح كلام وأبج لفظ قد أشتمل على ألفاظ من ذلك كقوله
 تعالى : **”وَيَقْدُرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ“** وقوله : **”إِنَّ**
الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ“ وما أشبه ذلك ؛ وهذه الألفاظ كانت مفهومة عند العرب ،
 معلومة المعانى عند المخاطبين : لأن الله تعالى قد خاطبهم به وأمرهم فيه ونهاهم ،
 والخطاب بما لا يفهم بعيد ، وقد قال تعالى : **”وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلْسَنُ قَوْمِهِ**
لُيِّنَ لَهُمْ“ . وكذلك ورد في الأخبار النبوية جملة مستكثرة من ذلك ، وهى المعبر
 عنها بغير الحديث . كقوله صلى الله عليه وسلم **”مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ تَعَالَى**
فِيهِ كَانَتْ طَلِيهٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى تَرَةً“ أى قصص ، وقيل تَبَعَةٌ ، وقيل حَسْرَةٌ . وقوله صلى
 الله عليه وسلم **”لَيْسَتْ رَجْعُ أَحَدِكُمْ حَتَّى فِي شَيْعِ نَعْلِهِ فَإِنَّمَا مِنَ الْمَصَائِبِ“** والشَّيْعُ أحد
 سيور النعل ؛ وقوله صلى الله عليه وسلم : **”الْأَطْوَا بِيَاذَا الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ“** أى
 أكرهوا هذه الدعوة وأكثرها منها . وقوله صلى الله عليه وسلم في الدَّعَاءِ : **”وَأَعِزِّلْ**
حَوَاتِي وَأَسْأَلُ بِحُجَّةِ قَلْبِي“ وأشباه ذلك .

وحديث أم زرع صريح في شيوع ذلك فيهم؛ وعمومه في غاياتهم ومكائلاتهم؛ وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : «جلس إحدى عشرة امرأة فمأهذن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا .

قالت الأولى : زوجي لم يحمل غثا على رأس جبل ، لاسهل فيرتقى ولا صعب فيتقى ، وفي رواية فيقتل .

قالت الثانية : زوجي لأبث خبره ، إني أخاف أن لأذره ، إن أذكركه أذكركم ^{وسمه وسمه} ونجوه وبجوه .

قالت الثالثة : زوجي المسقى ، إن أنطق أطلق ، وإن أسكت أضيق .

قالت الرابعة : زوجي كليل نيامه ، لآخر ولا قر ولا خوف ولا سامة .

قالت الخامسة : زوجي إن دخل فهد ، وإن خرج أسد ، ولا يسأل عما عهد .

قالت السادسة : زوجي إن أكل لف ، وإن شرب أششف ، وإن اضطجع أثقف ، ولا يؤبلج الكف ، ليعلم البث .

قالت السابعة : زوجي عباياه طباقه ، كل داء له داء ، يحكي أو فاك أو جمع كلالك .

قالت الثامنة : زوجي ريح زرب ، والمس مس أرنب .

قالت التاسعة : زوجي رفيع العماد ، طويل التجاد ، عظيم الرماد ، قريب البيت من الناد .

قالت العاشرة : زوجي مالك وما مالك ؟ مالك خير من ذلك ، له إبل قيلات المسارح ، كثيرات المبارك ، وإذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك .

قالت الحادية عشرة : زوجي أبو زرع وما أبو زرع ؟ أناس من حلي أدنى ،

وَمَلَأَ مِنْ نَعْمِ عَصْدِي، وَبَيَّحَنِي فَبَجَحَتِ لِي نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غَنِيمَةِ بَشَقٍ،
فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَبِيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَائِسٍ وَمَنَقٍ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أَقْبَحُ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبِّحُ،
وَأَشْرَبُ فَأَتَهْنَعُ، (وفي رواية فَأَتَهَمَّحُ)؛ أُمُّ أَبِي زَرْعٍ هِيَ أُمُّ أَبِي زَرْعٍ؟ عُوْمُهَا
رَدَّاحٌ، وَيَتُّهَا لَسَّاحٌ؛ ابْنُ أَبِي زَرْعٍ هِيَ ابْنُ أَبِي زَرْعٍ؟ مَضْبُجُهُ كَسَلٌ شَطْبِيَّةٌ،
وَتُسَمِّيهِ ذِرَاعُ الْجَفَرَةِ؛ بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ هِيَ بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ؟ طَوْعُ أَيْهَا، وَطَوْعُ
أُتْمَا، وَبَلَدٌ كَسَائِيهَا، وَغَيْظُ جَارِيهَا؛ جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ هِيَ جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ؟
لَا تَلَتْ حَدِيثَنَا تَثْبِيثًا (وفي رواية لَا تَلَيْتُ حَدِيثَنَا تَثْبِيثًا)، وَلَا تَقُتْ مِيرَتَنَا تَثْبِيثًا، وَلَا
تَمَلَّا بَيْتَنَا تَثْبِيثًا. قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالْأَوطَابُ مُخَضَّصٌ، فَلَقِيَ أَمْرَأَةً مَعَهَا
وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ يَلْبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَاتَيْنِ فَطَلَقْنِي وَنَكَحَهَا، فَكَحَحْتُ
بَعْدَهُ رَجُلًا مَرِيئًا، رَكِبَ شَرِيًّا، وَأَخَذَ خَطِيئًا، وَأَرَّاحَ عَلَى نَمَاءٍ قَرِيبًا، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ
رَاغِيَةٍ زَوْجًا، (وفي رواية فَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ ذَائِجِيَةٍ زَوْجًا). وَقَالَ: كُلِّي أُمُّ زَرْعٍ وَمِيرِي
أَهْلِكُ؛ فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِي مَا يَبْلُغُ أَصْفَرَ آيَةِ أَبِي زَرْعٍ

قَالَتْ عَائِشَةُ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ
زَرْعٍ (وفي رواية غَيْرَ أُنِّي لَا أَطْلُقُكَ).

فَإِذَا كَانَ هَذَا كَلَامَ نَسَائِهِمُ الدَّائِرِيَّاتِ يَنْهِنُ مِنْ مُحَادَثَاتِهِنَّ مَعَ بَعْضِهِنَّ فِي حُلَاوَاتِهِنَّ،
فَمَا ظَنُّكَ بِرُؤْسَانِ الْكَلَامِ فِي نَظْمِهِمْ وَشَرِّهِمْ؟ فَإِنِّي يُعَابُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَيُنْكَرُ عَلَيْهِمْ
الِإِحْيَانُ بِمِثْلِهِ؟

وَقَدْ أَخْصَمَ رَجُلٌ وَأَمْرَأَةٌ لِي يَمْحِي 'بْنُ يَسْمَرَ' وَهُوَ مِنْ أَكْبَارِ التَّابِعِينَ وَجُلَّيْهِمْ،
تَقَالُ لِلرَّجُلِ: 'أَأَنْ سَأَلْتُكَ تَمَنَّ شُكْرَهَا وَشَرِّكَ'، أُنْشَأَتْ تَطَلُّهَا وَنَفْسُهَا؟. أَمَّا غَيْرُ
العَرَبِ مِنْ نَكَافِ ذَلِكَ وَأَتَى بِهِ فِي كَلَامِهِ الْمَتَادِ فِي مُحَاطَاتِهِ أَوْ ثَرَهُ وَنَظْمَهُ فَإِنَّهُ
يُعَابُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَيُغَطَّ بِه عَنْ دَرَجَةِ الْفَصَاحَةِ، وَيُخْرَجُ بِهِ عَنْ قَانُونِهَا؛ إِذَا

المقصود من الكلام إنما هو الإفهام لا غير ، فيخاطب كل أحد بما يفهمه ولا يتكلف بما لا يبلغه ، وخير الكلام ما زاد وأفاد . قال بشر بن المعتز : إياك والتوسع ، فإنه يسلمك إلى التقيد والتقييد ، وهو الذي يستهلك معانيك ، ويمتلك مرأيتك .

قال أبو هلال العسكري : وربما غلب سوء الرأي وقلة العقل على بعض علماء العربية فيخاطبون السوقي ، والملوك والأعجمي ، بالفاظ أهل نجد ، ومعاني أهل السراة ؛ وحكاياتهم من ذلك كثيرة . قال أبو نصر الجوهري : سقط عيسى بن عمر عن حمار له فاجتمع عليه الناس فقال : ما لكم تكافئهم على تكافؤكم على ذي جنة ؟ أفرقعوها عني . أي ما لكم اجتمعتم على اجتماعكم على ذي جنة ففرقوا عني . وذكر الجاحظ هذه الحكاية عن أبي علقمة النحوي زيادة فقال : مر أبو علقمة ببعض طروق البصرة فهاجت به مرة فوثب عليه قوم يعضون إبهامه ويؤذنون في أذنه ، فأقلت من أيلهم وقال : ما لكم تكافئهم على تكافؤكم على ذي جنة أفرقعوها عني . فقال بعضهم : دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية .

وقال أبو علقمة يوما لحاجه : أشد قصب اللهازم ، وأرهف ظلمات المشارط ، وأمر المسح ، وأستجمل الرشح ، وخفف الوطء ، وعجل التزع ، ولا تكزهن آيات ، ولا ترذن آيات ، فقال له الحجام : ليس لي علم بالحروف .

ونظر إليه رجل ونحته بقل مصري حسن المنظر ، فقال : إن كان تحب هذا البغل كنظيره فقد كل ! فقال أبو علقمة : والله لقد نرجحت عليه من مضر فتنبئت الطريق مخافة السراق وجور السلطان ، فبينا أنا أسير في ليلة ظلماء ، قماء ، طخياء مدلهمة ، حنين ، داجية ، في صحصح ألس ، إذ أحس بلباة من صوت نفر ، أو طيران صويع ، أو نقض سبد ، فحاص عن الطريق منتجبا ليرة نفسه ، وقفل

قُوته ، فبعثته بالبحار فَسَلَ ، وحركته بالركاب فَسَلَ ، وأتمَلَ الطريق يتناله مُعْتَرِمًا ،
والتَحَفَّ الليل لايهابه مُظْلِمًا ، فوالله ماشبهته إلا بظلية نافرة تَحْفَرُها قَتَعَاءُ شَاغِيَةٌ ،
فقال الرجل فادعُ الله وسأله أن يحضر معك هذا البغل يوم القيامة ، قال : ولم ؟
قال : لِيُجِيزَكَ الصَّرَاطَ بِطَفَرَةٍ .

وكانت امرأة تأكل الطين ^(١) فحصل لها بسببه إسهال مَرَضَتْ منه ، وكان لها
ولد يتكلم بالغريب ، فكتب رِقَاقًا وطَرَحَها في المسجد الجامع بمدينة السلام . فيها
صِبْنٌ أَمْرٌ وَرُغْمٌ ، دعا لامرأة اتَّحَلَّةً مُقْسَلَةً قد مُنِيتْ بِأَكْلِ الطَّرْمُوقِ فأصابها
من أجله الإِسْتِصْغَالُ أن يَنْ أَلَّه عليها بالأَطْرِشَاشِ . فكل من قرأ رَقْعته ، دعا عليه
ولعنه ولمن أمه .

وحكى محمد بن أبي المنازي الضبي عن أبيه قال : كان لنا جار بالكوفة لا يتكلم
إلا بالغريب ، فخرج إلى ضَيْعَةٍ له على حِجْرٍ ، معها مَهْرٌ فَأَلْقَتْ ، فذهبت ومعها مَهْرُها
فخرج يسأل عنها ، فترجَّطَ فقال : ياذا النَّصَاجِ وذَاتِ السَّمِّ ، الطاعن بها في غير
وَعَى لغير عَدَى ، هل رأيت الخِلْفَانَةَ القَبَاءَ يتبعها الحَاسِنُ المُرْهَفُ ؟ كَأَنَّ غُرَّتَهُ
القمر الأزهر ، ينير في حُضْرِهِ كَأَنَّ لُجْلُجَ الأَجْرَدِ ؛ فقال الخِلَاطُ : أطلبها في ترلج ؟
فقال : وَيَحْكُ ما تقول ! قَبَّحَكَ الله ، فإني ما أعرف رَطَانَتَكَ . قال : لعن الله
أَبْنَضَنَا لَفْظًا وأَخْطَانَا مَتَلَفًا .

و ضرب عمر بنُ هيرة عيني بنَ عمر النحوي ضربا كثيرا من أجل وديسة
فكان يقول وهو يضرب : ما هي إلا أُنْيَابٌ في أُسْفَاطٍ أَخَذَهَا عَشَارُوكَ . وسأله
رجل عن مسألة . فقال : ليست مسألتك يَتَنَّا : أي ليست مستوية وأصل اليتن
خروج رجل الولد قبل رأسه . وسأله آخر عن كتابته ، فقال : كتبت حتى أَقْطَعَ

(١) كما في الصاعين أيضا ولله مصحف عن العير بالابدليل بقية الكلام فان الطرموق اسم للفنّاش وهو من العير .

سوائى أبى ظهري ، على أن أبا جعفر النعمان قد عدّ صبي بن عمر من المطبوخين في ذلك . قال الجاحظ : رأيتهم يديرون في كتبهم هذا الكلام فإن كانوا إنما رَوَوْهُ ودَقُّوه لأنه يدل على فصاحة وبلاغة ، فقد باعده الله من صفة الفصاحة والبلاغة ، وإن كانوا فعلوا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر السَّجَّاج وشعر الطَّرِمَّاح وأشعار هُدَيْل تَأْتِي لهم مع الرصف الحسن على أكثر من ذلك . فلو خاطب أحد الأصمعيّ بمثل هذا الكلام ، لظننتُ أنه يستجهل نفسه ، وهذا خارج عن عادة البلغاء .

الصف الرابع

(الغريب المتوخش عند قوم دون قوم)

وذلك ككلام أهل البادية من العرب بالنسبة إلى أهل الحَضَر منهم ، فإن أهل الحَضَر يلقون السَّهْل من الكلام ، ويستعملون الألفاظ الرقيقة ، ولا يستعملون الغريب إلا في السادر ، وأهل البادية يلقون اللفظ الجَزَل ويميلون إلى استعمال الغريب ، وإذا نظرت إلى أهل مكة وكلام قريش الذين نزل القرآن بلغتهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أروبيتهم ، وكلام أهل حَضَر مَوْت وما جاورها من اليمن ومخالف الحجاز ، علمت فرق ما بين الكلامين ، وتباين ما بين الطرفين ، حتى كأن البادى يَرْتَفِنُ بالنسبة إلى الحاضر ، ويتكلم بلغة غير العربية ، وكانت لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي يتكلم بها على الدوام ، ويخاطب بها الخاص والعام ، لغة قريش وحاضرة الحجاز ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم لَوَقِيَ جوامع الكُلم وجمع إلى سُهولة الحاضرة جَزالة البادية ، فكان يخاطب أهل نجد وبَهَامَة وقبائل اليمن بلغتهم ، ويخاطبهم في الكلام الجَزَل على قدر طبقتهم .

فمن ذلك كلامه صلى الله عليه وسلم لَطَهْفَة التَّيْدِي وكتابته إلى بني تَهْد ، وذلك أنه لما قَدِمَ وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه طَهْفَة بن أبي زُمَيْر

النَّهْدِيُّ . قَالَ : أُنَيْتَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ غَوْرِهَا مَآءَ عَلَى أَكْوَارِ الْمَيْسِ ، تَرْمِي بِنَا
الْمَيْسُ ، نَسْتَحَابِ الصَّبِيرَ ، وَنَسْتَحَابِ الْحَبِيرَ ، وَنَسْتَعْبُدُ الْبَرِيرَ ، وَنَسْتَحِيلُ الرَّهَامَ ،
وَنَسْتَحِيلُ الْجَهَامَ ، مِنْ أَرْضِ غَائِلَةِ النَّطَاءِ ، غَلِيظَةِ الْوِطَاءِ ، قَدْ جَفَّ الْمُدْنُ ، وَيَسَّ
الْحَبْنُ ، وَسَقَطَ الْأَمْلُوجُ ، وَمَاتَ السُّلُوجُ ، وَهَلَكَ الْهَدْيُ ، وَفَادَ الْوَدْيُ ، بَرْنَا
إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْوَتْنِ وَالْمَعْنِ ، وَمَا يُحْدِثُ الزَّمَنُ ؛ لَنَا دَعْوَةُ السَّلَامِ ، وَشَرِيعَةُ
الْإِسْلَامِ مَا طَلَمَا الْبَحْرُ ، وَقَامَ تَعَارٌ ، وَلَنَا نَعْمٌ هَمَلٌ أَغْفَالٌ ، مَا يَنْصُ بِبِلَالٍ ، وَوَقِيرٌ كَثِيرٌ
الرَّسَلِ ، قَلِيلُ الرَّسَلِ ، أَصَابَتْهَا سُدِيَّةٌ حَرَاءُ مُؤَزَّلَةٌ ، لَيْسَ لَهَا عِلٌّ وَلَا نَهْلٌ . قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "الَّذِينَ بَارَكْ لَهُمْ فِي مُحَضَّهَا وَنَحَضَّهَا وَمَذَقَهَا وَفَرَقَهَا ، وَأَبْعَثَ رَاعِيَهَا
فِي الدُّثْرِ بِيَانِ النَّمْرِ ، وَأَفْجَرَهُمُ التَّمَدُّ ، وَبَارَكْ لَهُمْ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ ، مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ ،
كَانَ مُسْلِمًا ، وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ ، كَانَ مُحْسِنًا . وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، كَانَ مُخْلِصًا .
لَكُمْ يَابْنَ نَهْدٍ وَدَائِعُ الشَّرْكِ ، وَوَضَائِعُ الْمُلْكِ ، لَا تُنْطَلِقُ فِي الزَّكَاةِ ، وَلَا تُبْعِدُ فِي الْحَيَاةِ ،
وَلَا تَتَقَاتَلُ عَنِ الصَّلَاةِ" .

وكتب معه كتابا إلى يابني نهدي فيه "بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من آمن بالله
ورسوله ، لكم يابني نهدي في الوظيفة الفريضة ، ولكم المارضة والقويش وذو العنان
الرَّكُوبُ ، وَالْقَلَوُ الضَّيِّسُ ، لَا يَمْنَعُ تَرْحُكُكُمْ ، وَلَا يَضُدُّ طَلْعُكُمْ وَلَا يَمْنَعُ دُرُكُكُمْ مَا لَمْ
تُضْمِرُوا الْإِيمَانُ ، وَتَاكَلُوا الرِّبَا ، مَنْ أَقْرَفَ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ وَاللَّعْمَةِ ؛ وَمَنْ أَبَى
فَعَلِيهِ الرَّوَّةُ" .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى قبيلة همدان ، وذلك أنه لما قَدِمَ عليه
صلى الله عليه وسلم وفود العرب قَدِمَ وَقَدْ هَمْدَانُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وسلم منهم مالك بن نعيم أبو ثور ، وهو ذو الشِّعَارِ ، ومالك بن أَيْعَمَ ، وَجَبَامُ
ابن مالك السداني ، وعَمِيرَةُ بْنُ مَالِكِ الْخَارِيفِي ، فَهَقُّوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مَرَّجَهُمْ مِنْ تَبُوكَ وَطَلَبَهُمْ مَقَطَّاتِ الْحَبْرَاتِ وَالْعَاهِمِ الْعَدْنِيَّةِ ، بِرَحَالِ الْمَيْسِ عَلَى
الْمَهْرِيَّةِ وَالْأَرْحِيَّةِ ، وَمَالِكُ بْنُ نَمِيطٍ وَرَجُلٌ آخَرٌ يَتَحَيَّزَانِ بِالْقَوْمِ ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا :
هَمْدَانُ خَيْرُ سُوقَةٍ وَأَقْيَالُ * لَيْسَ لَهَا فِي الْعَالَمِينَ أَمْثَالُ
مَحَلُّهَا الْمُخْضَبُ وَمِنْهَا الْأَبْطَالُ * لَهَا إِطَابَاتُ بِهَا وَآكَالُ

وَيَقُولُ الْآخَرُ :

إِلَيْكَ جَاوِزَنَ سَوَادَ الرِّيفِ * فِي هَبَوَاتِ الصَّيْفِ وَالْخَرِيفِ
مُحْطَمَاتٍ بِحِمَالِ اللَّيْفِ *

فَقَامَ مَالِكُ بْنُ نَمِيطٍ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! نَصِبْتُ مِنْ هَمْدَانَ مِنْ كُلِّ
حَاضِرٍ وَبَادٍ ، أَتَوَكَّ عَلَى قُلُوبِ نَوَاجِحَ ، مُتَّصِلَةً بِحِمَالِ الْإِسْلَامِ ، لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْءَةٌ
لَا نَمَ ، مِنْ خِلَافِ خَارِيفٍ ، وَيَا أَيُّهَا ، وَشَاكِرُ ، أَهْلِ السَّوَادِ وَالْقُرَى ، أَجَابُوا دَعْوَةَ
الرَّسُولِ ، وَفَارَقُوا آلِهَةَ الْأَنْصَابِ ، عَهْدُهُمْ لَا يَنْقُضُ مَا أَقَامَ لَعَلَّ ، وَمَا جَرَى الْيَقِينُ بِصَلْعِ .
فَكَتَبَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَابًا فِيهِ "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ !
هَذَا كِتَابٌ مِنْ عِندِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمِخْلَافِ خَارِيفٍ وَأَهْلِ جَنْبِ
الْمُخْضَبِ وَحِقَافِ الرَّمْلِ ، مَعَ وَافِدِهَا ذِي الْمَشَارِقِ : مَالِكُ بْنُ نَمِيطٍ ، وَلِمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ
عَلَى أَنْ لَهُمْ فِرَاعِيهَا وَيُحَاطَ بِهَا مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ ، يَأْكُلُونَ عِلَافَهَا وَيَرْعَوْنَ
عَافِيَهَا ، لَهُمْ بِبَلَدِ عَهْدِ اللَّهِ وَذِمَامِ رَسُولِهِ ، وَشَاهِدُهُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ."
فَقَالَ فِي ذَلِكَ مَالِكُ بْنُ نَمِيطٍ :

ذَكَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ فِي فَحْمَةِ الدُّجَى * وَنَحْنُ بِأَهْلِ رَحْرَحَانَ وَصَلْدِ
وَهْنٍ بَنَا خُوصَ طَلَاغٍ تَتَلَّى * بُرْجَانِهَا فِي لَاحِبِ مُتَمَلِّدِ
عَلَى كُلِّ قَسْلَةٍ الدَّرَاعِينَ جَمْرَةٍ * تُمَرُّبْنَا مَرَّ الْمَجَفِّ الْخَفِيدِ

حَلَقْتُ رَبِّ الرَّاغِبَاتِ إِلَى مَنِي * صَوَادِرَ الرُّجَّانِ مِنْ هَضْبِ قَرَدٍ
بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ فِينَا مُمْسِكٌ * رَسُولُ آتَى مِنْ عِنْدِي الْعَرْشِ مُهْتَدٍ
فَمَا حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِيهَا * أَبْرَّ وَأَوْفَى نَفَقَةً مِنْ مُحَمَّدٍ
وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبُ الْعُرْبِ جَاءَهُ * وَأَمْضَى بِحَدِّ الْمَشْرِقِ الْمُهَنْدِ

وفي رواية أن في كتابه إليهم، إن لكم قرأها وهاطلها وعزأها ما تكون علاقتها
وترعون حقاها، لنا من ذيقهم وصرامهم ما سألوا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة
التلب والنائب، والقصيل والعارض، والناجن والكيش الحوري، وعليهم فيها
الصالح والقارح .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لأَكْبَرُ ثُومَةٍ . قال أبو عبيدة أنا قرأته فإذا فيه
”بسم الله الرحمن الرحيم، من عهد رسول الله، لأَكْبَرُ حين أجاب إلى الإسلام، وخلق
الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد، سيف الله في دومة الجندل وأكافها، إن لنا
الضاحية من الضحيل والبور والمعالي وأغفال الأرض، والحلقة والسلاح والهافر
والحصن، ولكم الضامنة من النخل، والمعين من المعمور، لأتمدل سارحتكم، ولا
تعد فاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحققها،
عليكم بذلك عهد الله والميثاق، ولكم بذلك الصديق والوفاء، شهد الله ومن حضر
من المسلمين“ .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى وائل بن حجر وأهل حضرموت، وهو
”بسم الله الرحمن الرحيم، من عهد رسول الله إلى الأعيال الباهلة من أهل حضرموت
بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، على التبعة الشاة، والئيمة لصاحبها، وفي السيوب

(١) الفضل بالسكون القليل من الماء ويرى ”لكم الضاحية من الجبل“ وهو النخل

النجس ، لا يخلط ولا يرايط ، ولا شقائق ولا شغائر ، ومن أجبي فقد أربى ، وكل مسكر حرام . وفي رواية أنه كتب إليهم " إلى الأقيال الباهلة والأرواح المشايب ، وفي التبعة شاة لا مقورة الألياط ولا ضناك ، وأنطوا التبعة وفي السيوب النجس ، ومن زنى من أميكر فأصقعه مائة ، وأستوفضوه علما ، ومن زنى من أمييب فخرجوه بالأضاميم ، ولا توصيم في الدين ، ولا عمة في فرائض الله تعالى ، وكل مسكر حرام ، ووائل بن حجير يثقل على الأقيال " .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله " في المنال السائر " : وفصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لا تقتضى استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد في كلامه إلا جوابا لمن يخاطبه بمثلها كحديث طهفة وما جرى مجراه ، على أنه قد كان في زمنه أولا متداول بين العرب ولكنه صلى الله عليه وسلم ! لم يستعمله إلا يسيرا لأنه أبلغ بالفصيح والأفصح .

الصفة الثانية

(اللفظ الفصيح أن لا يكون مبتذلا عاميا ، ولا ساقطا موقيا)

واللفظ المبتذل على قسمين

القسم الأول

ما لم تفتقره العامة عن موضعه اللئيم إلا أنها اختصت باستعماله دون الخاصة فابتذل لأجل ذلك ويخف لفظه ، وأتخبط رتبته لأختصاص العامة بتداوله ، وصار من استعمله من الخاصة ملوما على الإتيان به لمشاركة العامة فيه ؛ وقد وقع ذلك جماعة من غفول الشعراء فعيب عليهم .

فمن ذلك قول الفرزدق من قصيدة :

وأصبح مبيض الضريب كأنه * على سروات التبت قطن مندوف

فقوله منتف من الإلفاظ العامة المبتذلة ، وإن كان له أصل في اللغة يقال نَدَفَ
القُطْنُ إِذَا ضَرَبَهُ بِالْمِنْدَفِ ، ولذلك قيل للقُطْنِ المندوف نَدِيفٌ .
ومن ذلك قول أبي نُؤَيسَ :

وَمِلْحَةٌ بِالْمَلِّ تَحْسَبُ أُنْثَى * بِالْجَهْلِ أَتْرَكَ مُصْبَةَ الشُّطَارِ

فالشطار جمع شاطر، وهو في أصل اللغة اسم لمن أعيا أهله خُبْنًا ، يقال منه شَطَرَ
وَشَطَّرَ بالفتح والضم شَطَارَةً بالفتح فيهما ، ثم أَسْتَعْمِلَ في الشجاع الذي أعيا الناس
شِجَاعَةً ، وظل دورأته على لسان العامة فَأَمْتِهْنَ وَأَبْتَنِلَ ، فَأَسْتَعْمَلَ أَبُو نُؤَيسَ له غير
لائي ، وكذلك قوله أيضا :

يَأْمَنْ جَفَانِي وَمَلَا * نَسِيتَ أَهْلًا وَسَهْلًا

وما تَمَرَّحْتِ لِمَا * رَأَيْتَ مَالِي قَلَا

لِي أَطْلُوكَ فِيمَا * فَعَلْتَ تَحْكِي الْقِرْلَى

لفظ القِرْلَى من أشد ألفاظ العامة ابتذالا ، وهو اسم لطائر صغير من طيور الماء
يُخْلَفُ صِقَارُ السَّمَكِ من الماء برجليه ومِثْقَارُهُ ، فإذا سَقَطَ على الماء ولم يحصل
على صيد ، أَرْتَفَعَ بُسْرَعَةً ، فَضَرَبَ به العامة المثل تقول : فَلَانُ كَأَنَّهُ قِرْلَى ، إِنْ وَجَدَ
ضِيْرًا تَكَلَّى ، وَإِنْ وَجَدَ شَرًّا تَعَلَّى .

وقوله أيضا :

وَأَمْرُ الْحِلْدَةِ صَيْرُهُ * فِي النَّاسِ زَاغًا وَشِقِرَاقًا

مَا زِلْتُ أَبْجُرِي كُلَّكَ فَوْقَهُ * حَتَّى دَعَا مِنْ تَحْتِهِ قَاقًا

قوله قافًا حكاية لصوت يضرب به المثل لصياح المغلوب ، يقال فعلت بفلان كذا وكذا حتى قال : قاق ، وأقبح من ذلك كله في الابتذال بين العامة والسخافة قول المتنبي :

ومن الناس مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِمْ * شُعْرَاءُ كُنْهَا الْخَازِيزِ
قال في "المثل السائر" : وهذا البيت من مضحكات الأشعار وهو من جملة الرِسام الذي ذكره في قوله :

إن بعضًا من القَرِيضِ هُذَاءُ * ليس شيئًا ، وبعضه أَحْكَامُ
فيه مَا يَجْلِبُ الْبَرَاةَ وَالْفَهْمَ ، وفيه مَا يَجْلِبُ الرِّسَامَ
وعَدَّ منه في "المثل السائر" قول البُحْتَرِيِّ :

وَجِوهُ حُسَادِكَ مُسَوَّدَةٌ * أَمْ صُيِّغَتْ بَعْدَى بِالزَّاجِ ؟

قال : فلفظة الزاج من أشد ألفاظ العامة ابتذالا ، وكذلك عدَّ منه قول النابغة الذبياني :

أَوْدُمِيَّةٌ فِي مَرَمِيٍّ مَرْفُوعَةٌ * يَنْتَبِثُ بِأَجْرٍ يُسَادُ قَرَمِدِ

قال : فلفظة أجْر مبتذلة جدًا ، وإن شئت أن تعلم شيئًا من سرِّ الفصاحة التي تضمنها القرآن الكريم ، فأنظر إلى هذا الموضع فإنه لما جرى فيه بذكر الأجر لم يذكر بلفظه ، ولا بلفظ القرمد أيضا ، ولا بلفظ الطوب الذي هو لغة أهل مصر ، فإن هذه الأسماء مبتذلة لكن ذكر في القرآن على وجه آخر ، وهو قوله تعالى : "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا" فصرح عن الأجر بالوقود على الطين ، نعم من الألفاظ المبتذلة السخيفة لفظة الككنس ، وما أشق منه ، ولذلك عليها القاضي الفاضل رحمه الله تعالى على ابن سناء الملك في بعض أشعاره حيث قال من أبيات :

يُزَخَرَفُ مِنْهَا وَجْهَهَا فَهِيَ جَنَّةٌ * وَيُخَضَّرُ مِنْهَا نَضْرَةٌ فَهِيَ سِدْسٌ
صَلْبِيٌّ وَهَذَا الْحَسَنُ بَاقِي قُرْبَى * يُعْزَلُ بَيْتُ الْحَسَنِ مِنْهُ وَيُكْنَسُ

فَلَمَّا وَقَفَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْقَصِيدَةِ، كَتَبَ إِلَى ابْنِ سَنَاءَ الْمَلِكِ مِنْ جَمَلَةِ فَصْلِ: وَمَا قُلْتُ هَذِهِ الْغَايَةَ، إِلَّا وَتَعَلَّمَنِي أَنَّهَا الْبَدَايَةُ؛ وَلَا قُلْتُ هَذَا الْبَيْتَ آيَةَ الْقَصِيدَةِ إِلَّا تَلَامُ مَابَعْدَهُ: وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ. أَفَسَحَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَتَبَصَّرُونَ. وَلَا عَجَبُ فِي هَذِهِ الْحَاسِنِ إِلَّا قُصُورُ الْأَفْهَامِ، وَقُصُورُ الْأَتَامِ، وَإِلَّا فَقَدْ لَمَّحَ النَّاسُ بِمَا نَحْنُهَا، وَدَقُّوا مَادُونَهَا، وَشَغَلُوا التَّصَانِيفَ وَالْخَوَاطِرَ وَالْأَقْلَامَ بِمَا لِإِقْرَارِهَا، وَسَارَتْ الْأَشْعَارُ وَطَالَتْ بِمَا لَا يَبْلُغُ مَثْوَاهَا وَلَا تَصِفُهُ، وَالْقَصِيدَةُ فَاتَمَّتْ فِي حُسْنِهَا، بِدِيعَةٍ فِي قَتْنِهَا، وَقَدْ ذُلَّتِ السِّينُ فِيهَا وَأَتَاهَدَتْ، فَلَوْ أَنَّهَا لَرَأَتْ مَا رَأَدَتْ؛ وَبَيْتَ يُعْزَلُ وَيُكْنَسُ أَرَدْتُ أَنْ أُكْنِسُهُ مِنَ الْقَصِيدَةِ، فَإِنَّ لَفْظَةَ الْكُنْسِ غَيْرَ لَاقِئَةٍ فِي مَكَانِهَا.

فَأَجَابَهُ ابْنُ سَنَاءَ الْمَلِكُ قَائِلًا: وَعَلِمَ الْمَلُوكُ مَا نَبِهَ عَلَيْهِ مَوْلَانَا مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَكْنِسَهُ مِنَ الْقَصِيدَةِ، وَقَدْ كَانَ الْمَلُوكُ مَشْغُوفًا بِهَذَا الْبَيْتِ، مُسْتَعِجِلًا لَهُ بِمُتَحَبِّبَا مِنْهُ، مُعْتَقِدًا أَنَّهُ قَدْ لَمَّحَ فِيهِ، وَأَنَّ قَافِيَةَ بَيْتِهِ أَمِيرَةُ ذَلِكَ الشَّعْرِ وَسَيِّدَةُ قَوَائِمِهِ، وَمَا أَوْقَعَهُ فِي الْكُنْسِ إِلَّا ابْنُ الْمُعْتَرِّ فِي قَوْلِهِ:

وَقَوَائِمِي مِثْلُ الْقَتَاةِ مِنَ الْخَطِّ وَخَذِي مِنَ الْحَقِيقِ مَكْنُوسُ

وَالْمَوْلَى يُسَلِّمُ أَنَّ الْمَلُوكَ لَمْ يَزَلْ يَجْرِي خَلْفَ هَذَا الرَّجُلِ وَيَتَعَرَّ، وَيَطْلُبُ مَطَالِبَهُ فَتَعَصَّرَ عَلَيْهِ وَتَعَصَّرَ، وَلَا آتَسُ نَارَهُ إِلَّا لَمَّا وَجَدْتُهَا هُدًى، وَلَا مَالُ الْمَلُوكِ إِلَّا إِلَى طَرِيقٍ مِنْ مَبْلَغِهِ إِلَيْهِ طَبِيعُهُ، وَلَا سَارَ قَلْبُهُ إِلَّا إِلَى مَنْ تَلَّهَ عَلَيْهِ سَمْعُهُ، وَرَأَى الْمَلُوكُ أَبَا عُبَادَةَ قَدْ قَالَ:

وَيَا عَادِلِي فِي عَجْرَةٍ قَدْ سَقَحَتْهَا * لَيْلِي، وَأُنْثَرِي قَبْلَهَا لِلتَّجَنَّبِ

نَحَاوِلِي مَتَى شِمِيعَةٌ غَيْرِ شِمِيعِي * وَتَطْلُبُ مَتَى مَدَهَا غَيْرَ مَدَّيْ؟

وقال :

وما زَارَنِي إِلَّا وَلَهْتُ صَبَابَةً * إِلَيْهِ ، وَإِلَّا قُلْتُ : أَهْلًا وَمَرْحَبًا
فلم الملوک أَنَّ هذه طَرِيقَةٌ لَا تُسَلَّكُ ، وَعَقِيبَةُ لَا تُمَلَّكُ ، وَغَايَةُ لَا تُكْرَمُ ؛ وَوَجِدَ
أَبَا تَمَّامٍ قَدْ قَالَ :

* سَلَّمَ عَلَى الرَّبِيعِ مِنْ سَلَامِي يَذِي سَلَمَ *

وقال : * خَشَّيْتُ عَلَيْهِ أُخْتَ بَنِي خُثَيْنِ * ؛

فَانْتَمَزَ مِنْ هَذَا التَّمِطِ طَبْعُهُ ، وَأَقْسَحَتْ مِنْهُ فَهْمُهُ ، وَنَبَأَ عَنْهُ ذَوْقُهُ ، وَكَادَ سَمِعُهُ
يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِفُّهُ ، وَوَجِدَ هَذَا السَّيِّدَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَرِّ قَدْ قَالَ :

وَقَفْتُ فِي الرُّوْضِ أَبْكِي فَقَدْ مُشِبِّهِ * حَتَّى بَكَتْ بَدْمُوعِي أَعْيُنُ الزَّهْرِ
لَوْلَمْ أُعْرِهَا دُمُوعَ الْعَيْنِ تَسْفَحُهَا * لَرَحِمِي ، لِاسْتِمَارَتِهَا مِنَ الْمَطَرِ

وقال :

قَدْلَكَ غُصْنٌ لَا شَكَّ فِيهِ كَمَا * وَجْهُكَ شَمْسُ نَهَارِهِ جَسَدُكَ

فَوَجِدَ الْمَلُوكُ طَبْعَهُ إِلَى هَذَا التَّمِطِ مَائِلًا ، وَخَاطَرَهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَيْهِ سَائِلًا ؛
فَنَسَجَ عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ خَاطَرُهُ مَعَ طَبْعِهِ أَنَّهُ الْمَغْلُوبُ ؛ وَتَوَحَّجَ الشَّيْءُ
يُعْمَى وَيُصَمُّ ، فَقَدْ أَعْمَاهُ حُبُّهُ وَأَصَمَّهُ إِلَى أَنْ نَظَّمَ تِلْكَ اللَّفْظَةَ فِي تِلْكَ الْآيَاتِ تَقْلِيدًا
لِابْنِ الْمُعْتَرِّ حَيْثُ قَالَهُ ، وَحَمَلَ أَقْفَالَهَا ؛ وَهِيَ تُفَقِّرُ لِنَدَاكَ فِي جَنْبِ إِحْسَانِهِ ، فَأَمَّا
الْمَلُوكُ فَهِيَ عَوْرَةٌ ظَهَرَتْ مِنْ لِسَانِهِ ؛

فَأَجَابَهُ الْقَاضِي الْفَاضِلُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : وَلَا حِجَّةَ فِيمَا أَحْتَجُّ بِهِ عَنِ الْكُنْسِ
فِي بَيْتِ ابْنِ الْمُعْتَرِّ ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مَعْصُومٍ مِنَ الْغَلَطِ ، وَلَا يُقَلَّدُ إِلَّا فِي الصَّوَابِ فَقَطْ ؛
وَقَدْ عَلِمَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي عَمْدَتِهِ مِنْ تَهَانُفِ طَبْعِهِ ، وَتَبَايُنِ وَضْعِهِ ؛ فَذَكَرَ مِنْ
مَحَاسِنِهِ مَا لَا يُعَاقَى مَعَهُ كِتَابٌ ، وَمِنْ بَارِدِهِ وَغَتَّةٍ مَا لَا تُطْلِسُ عَلَيْهِ الْتِيَابُ .

وقد تَمَصَّبَ القاضي السعيد على أبي تَمَّامٍ ففحصه من حظه ، وللبَحْثَرِيِّ فأعطاه أكثر من حقه ، وما أنصفهما :

ولو كان هذا مَوْضِعَ الْعَتَبِ لَأَشْتَقِي * فُؤَادِي وَلَكِنْ لِلْعَتَابِ مَوَاضِعُ
قال المولى صلاح الدين الصَّفْدِيُّ رحمه الله تعالى في شرح لامية الحجج : وقد
استعمل ابن مناة الملك رحمه الله تعالى هذه اللفظة في غير هذا الموضع ولم يَتَّعِظْ
بنهى الفاضل ولا أَرَعَوْهُ ، ولا أَرْدَجَرَ عما قبله لأنه غلب عليه الهوى ، فقال :

تَوَسَّوسَ شِعْرِي بِهِ مُتَّةٌ * وما بَرَحَ الحَلِيَّ وَالْوَسْوَسَ
وَحَلَّصَنِي مِنْ يَدَيِ عَشِقِهِ * ظِلَامٌ عَلَى خَدِّهِ حَنْدَسَهُ
كَتَسْتُ فُؤَادِي مِنْ عَشِقِهِ * وَلِحَيْثُ كَانَتْ الْمِكْنَسَةُ

قال : وأما القاضي الفاضل ، فما أظنه خلا في هذا الإراد ، من ضعف انتقاد ،
وأحاشى ذاك النهن الوَقَاد ، من هذا الاعتقال في ورطة هذا الاعتقاد ، وما أراه
إلا أنه تعمد أن يعكس مراده ، ويُوْهِىَ ماشته ويُوْهِنَ ماشاده ، ويرميه ببلاء
الْبَلَاءِ ، إما على سبيل النكال أو النكاه : لأن الفاضل رحمه الله عن يتوهم في هذه
الألفاظ ويقصدها ، وينشئها ويلبسها ، ويورى زنادها ويوردها .

فمن كلام القاضي الفاضل في بعض رسائله ، وما استطاعت أيديهم أن تَهَيِّضَ
بحره ، ولا ألبهم أن تسيغ بحره ، ولا سيوفهم أن تَكْنُسَ قيمه . قال في "المثل
الساير" : ومثل هذه الألفاظ إذا وردت في الكلام ، وضعت من قدره ولو كان معناه
شرها . قال : وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لا يكاد يخلو منه شعر شاعر ، لكن
منهم المُقِلُّ ومنهم المُكْثِرُ .

القسم الثاني

(ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وضع له في أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دالاً على معنى آخر. وهو على ضربين)

الضرب الأول - ما ليس بمستقيح في الذكر ولا مستكره في السمع ، وذلك كتسميتهم الإنسان إذا كان ديمت الأخلاق ، حسن الصورة أو اللباس أو ما هذا سبيله ظريفاً ، والظرف في أصل اللغة مختص بنطق اللسان فقط ، كما أن الصباغة مختصة بالوجه ، والوضاعة مختصة بالبشرة ، والجمال مختص بالأنف ، والحلاوة مختصة بالعينين ، والملاحة مختصة بالفم ، والرشاقة مختصة بالقدم ، واللباقة مختصة بالشمائل ، فالظرف إنما يتعلق بالنطق فغيرته العامة عن بابه وتقلته إلى أعم من موضوعه كما تقدم ، ومن وقع له الدهول عن ذلك فغلط فيه أبو نؤاس في قوله :

اخْتَصَمَ الْجُودُ وَالْجَمَالُ * فَبِكَ فَصَارَا إِلَى جِدَالٍ

فقال هذا يمينه لى * للعرف والبلى والنوال

وقال هناك وجهه لى * للظرف والحسن والكمال

فاقرقا فيك عن تراض * كلامها صادق المقال

فوصف الوجه بالظرف ، وهو من صفات النطق كما تقدم ، وكذلك أبو تمام

في قوله :

لَكَ هَضْبَةُ الْحِلْمِ الَّتِي لَوْ وَازَنْتَ * أَبَا إِذَا تَهَلَّتْ ، وَكَانَ خَفِيفَا

وَحَلَاوَةُ الشِّمِّ الَّتِي لَوْ مَارَجَتْ * خُلُقَ الزَّيْمَانِ فَتَدَمَّ ، عَادَ ظَرْفَا

فوصف الشِّمَّ بالحلاوة وهي مختصة بالعينين ، ووصف الخُلُقَ بالظرف وهو

مختص بالنطق كما تقدم بيانه .

الضرب الثاني - ما يُستفتح ذكره كما في لفظ الصُّرم بالصاد المضمومة والصُّرم بالسين، فإن الصُّرم بالصاد في أصل اللغة عبارة عن القطع، يقال صرمه يَصْرِمُهُ صَرْماً وصُرمًا بالفتح والضم إذا قطعه، وبالسين عبارة عن المحل المخصوص، وقد كانت العرب تستعمله بالصاد المضمومة في أشعارها بهذا المعنى فلا يعاب عليها؛ قال أبو حنيفة الملقب:

قد كان صُرمٌ في أَمَاتٍ لنا * فحِجَلَتْ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالصُّرَمِ

فأستعمله بمعنى القطع ولم يُسَبَّ عليه لأن الألفاظ في زمن العرب لم تتغير بل كانت باقية على أوضاعها الأصلية، فقلبت العامة السين من المحل المخصوص صادا وأستعملت لفظ الصُّرم الذي هو القطع في المحل المخصوص، فصار لفظه مستقبها وسماعه مستكرها، وعيب على أبي الطَّيِّب أستعمله في قوله:

أذاقَ الغَوَايِي حُسْنَهُ مَا لَدَقْنِي * وَحَفَّ بِغَازَاهُنَّ عَنِّي بِالصُّرَمِ :

على أنه لما يكره أستعمله بصيغة الأسم لما تقدّم، أما إذا أستعمل بصيغة الفعل مثل صَرَمَ وَيَصْرِمُ وما شاكل ذلك، فإنه لا يحجر في أستعمله، وقد أستعمله ابن الرومي بالسين على بابِه بقاء أَقْبَحَ وَأَشْنَعُ، فقال يهجو الورْدَ:

كَأَنَّهُ مُرٌّ بِنَفْلِ حَيْنٍ يُخْرِجُهُ * عِنْدَ الْبَرَاذِ وَبِأَيِّ الرُّوثِ فِي وَسْطِهِ

قال الصلاح الصَّفْدِيُّ: وأين هذا التشبيه القبيح من قول الآخر في الورْدِ أيضا:

كَأَنَّهُ وَجَنَةٌ الْحَبِيبِ وَقَدْ * قَطَّطَهَا طَائِقٌ بِدِينَارٍ

قال: فانظر إلى هذا، وَجَنَةٌ، وحبيب، ودِينَارٌ؛ وإلى ذلك، مُرٌّ، وبنفل، وروث. وشأن ما بينهما.

الصفة الثالثة

(من صفات اللفظ المفرد الفصح أن لا يكون متنازلاً الحروف ، فإن كانت حروفه متنازلة بحيث يتقل على اللسان ويُسمر النطق به فليس بفصيح)
 وذلك نحو لفظ المُصَحِّح في قول بعض العرب عن ناقة : تركتها ترعى المُصَحِّح :
 بانحاء المعجمة والعين المهملة ، وهو نبت أسود ، وكذلك لفظ مستشزرات من قول امرئ القيس في قصيدته الالامية التي من جملة القصائد السبع الطوال :
 غَدَارُهُ مُسْتَشْزَرَاتٌ إِلَى الْعُلَى * تَصِلُ الْمَدَارِي فِي مَنَى وَمُرْسِلِ
 فلفظ مستشزرات من المتنازلة الذي يتقل على اللسان ، ويسمر النطق به . قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في "المثل السائر" : ولقد رمانى بعض الناس وأنا أعجب على امرئ القيس هذا اللفظ فأكبر ذلك لوقوفه مع شبهة التقليد في أن امرأ القيس أشعر الشعراء ، فنجبت من ارتباطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة ، وقلت له : لا يمنع إحسان امرئ القيس من استنباح ماله من القبيح ، بل مثال ذلك كمثل غزال المسك فإنه يخرج منه المسك والبعر ، ولا يمنع طيب ما يخرج من مسكه من خُبث ما يخرج من بعره ، ولا تكون لذاتة ذلك الطيب حامية لخبيث من الاستكراه ، فأسيكت الرجل عند ذلك .

إذا علمت ذلك ، فإن معظم اللغة العربية دائرة على ذلك ، لأن الواضع قسمها في وضعه إلى ثلاثة أقسام ، ثلثياً ، ورباعياً ، وخماسياً ، فالثلاثى من الألفاظ هو الأكثر ، ولا يوجد فيه ما يكره استعماله إلا النادر ، والخماسى هو الأقل ، ولا يوجد فيه ما يستعمل إلا الشاذ النادر ، والرباعى ومسط بين الثلاثى والخماسى فى الكثرة عدداً واستعمالاً ، فيكون أكثر اللغة مستعملاً غير مكروه . قال : ولا تقتضى حكمة هذه

اللغة التي هي سيدة اللغات إلا ذلك ، ولذلك أسقط الواضع منها حروفا كثيرة في تأليف بعضها مع بعض استقالا واستكراها ، فلم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والعين ، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ، ولابين اللام والراء ، ولا بين الزاي والسين ، وذلك دليل على عنايته بتأليف المتباعد الخارج دون المتقارب ، وكيف كان الواضع يُحِلُّ بمثل هذا الأصل الكلي في تحسين اللغة وقد أعنى بأمور جريئة دون ذلك ؟ كما أنه بين حركات الفعل في الوجود وبين حركات المصدر في النطق كالتَّيْلَانِ ، والضَّرْبَانِ ، والنَّزَّارِ ، والنَّزَّارِ ، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى ، فإن جميع حروفه متحركات ليس فيها حرف ساكن ، وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود .

ومن نظر في حكمة وضع هذه اللغة إلى هذه الدقائق التي هي كالأطراف والحواشي فكيف كان يحلُّ بالأصل المعول عليه في تأليف الحروف بعضها إلى بعض ؟ . على أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ ، أي متباعدة أو متقاربة ؟ لطلال الخَطْبُ في ذلك وعُسْر ، ولما كانت الشاعر ينظم قصيدا ، ولا الكاتب ينشئ كتابا إلا في مدة طويلة ، والأمر بخلاف ذلك ، فإن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام في تحسين لفظ وهيب آثر ؛ . على أنه قد يجيء من المتقارب المخارج ما هو حسن رائق ، ألا ترى أن الحروف الشجرية : (وهي الجيم والشين والياء) متقاربة المخارج : لأنها تخرج من وسط اللسان بينه وبين الحنك ، وإذا تركب منها لفظ جاء حسنا رائعا ، فإن لفظة جَيْشٍ قد اجتمع فيها الحروف الشجرية الثلاثة ، وهي مع تهارب مخارجها حسنة رائحة ، وكذلك الحروف الشفهية (وهي الباء والميم والفاء) متقاربة المخارج فإن مخرج جميعها من الشفة ، وإذا تركب منها لفظ جاء سلسا غير متنافر ، كقولك أكلت بھمی ، وهو في غاية الحسن ،

والحروف الثلاثة الشفهية مع تقارب مخارجها مجتمعة فيها ؛ وقد يحىء من المتبادر المخارج ما هو قبيح متنافر كقولك مَلَعَ بمعنى عدا ، فإن الميم من الشفة والين من حروف الحلق واللام من وسط اللسان ، فهذه الحروف كلها متباعدة من بعضها ومع ذلك فإنها كريمة الاستعمال ، ينبؤ عنها النطق السليم ، ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح ؛ على أنه لو عكست حروف هذه اللفظة صارت علم وعاد القبح منها حسنا مع أنه لم يتغير شيء من مخارجها ، على أن اللام لم تزل فيها وسطا والميم والين يكتنفانها من جانبيها ؛ ولو كانت مخارج الحروف معتبرة في الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة بتقديم بعض الحروف وتأخير بعض ؛ وليس ذلك لأن إدخال الحروف من الشَّفَةِ إلى الحلق في مَلَعَ أجبر من إخراجها من الحلق إلى الشَّفَةِ في عِلِمَ ، فإن لفظه يَلْعَ فيها الباء وهي من حروف الشفة واللام وهي من وسط اللسان والين وهي من حروف الحلق وهي غير مكروهة .

قال في "المثل السائر" : ولربما أعترض بعض الجهال بأن الاستعمال في لفظ مُسْتَشْرِزَات إنما هو لظولها وليس كذلك ، فإننا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا مُسْتَشْرَرٌ ، لكان قبيحا أيضا لأن الشين قبلها تاء وبسها زاي ، فَحَقَّ النطق بها ، نعم لو أبدلنا من الزاي راء ومن الراء فاء قلنا مُسْتَشْرِفٌ لزال ذلك ، ومن ثم ظهر لك أن اعتبار ابن سنان تركيب الكلمة من أقل الأوزان تركيا غير معتبر ، وقد ورد في القرآن العظيم ألفاظ طَوَّلَ لاشك في حسنها وفصاحتها كقوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَنَسَخِلَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ فإن لفظ فسيكفيكمم مركب من تسعة أحرف ، ولفظ لنسخلقنهمم مركب من عشرة أحرف ، ولفظ مستشزرات مركب من ثمانية أحرف ، قال : والأصل في هذا الباب أن الأصول لا تحسن إلا في الثلاثي وفي بعض الرباعي : كقولك عَذِبَ وَعَسَجَدَ ، فالأولى ثلثية

والثانية رباعية ، أما التلمسي من الأصول ، فإنه قبيح كقولك : صَهْصَلِقْ وَجَمْرِيْشْ ، وما جرى مجراهما ، ولهذا لا يوجد في القرآن الكريم من التلمسي الأصول شيء إلا ما كان من اسم نبي عَرَبِ اسمه ، ولم يكن في الأصل عربياً كإبراهيم وإسماعيل ونحوهما .

الصفة الرابعة

(من صفات اللفظ المفرد النصيب ، أن لا يكون على خلاف القانون المستبطن من تتبع مفردات ألفاظ اللغة العربية ، وما هو في حكمها)
كوجوب الإعلال في نحو قام والإدغام في نحو مد ، وغير ذلك مما يشتمل عليه علم التصريف ، فإنه لو فَكَّ الإدغام في مد فقال مَدَد ، لم يكن فصيحاً ، وعلى حدّ ذلك جاء قول بعض العرب .

« الحمد لله السلي الأجل »

فإن قياس بابه الإدغام فيقال الأجل .

قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح الطخيس : وأما نحو أبى يابى وعور وأسحوذ وقطط شعره وما أشبه ذلك من الشواذ الثابتة فليست من المخالفة في شيء لأنها كذلك ثبتت عن الواضع ، فهي في حكم المستثناة .

فهذه الصفات الأربع هي عمود الفصاحة في اللفظ المفرد ، وقطب دائرة حسنة ، فتقوى أنصف بها وسلم من أضدادها ، كانت بالفصاحة متيناً ، وبالحسن والرواق مستملاً ، وبالطبع ملائماً ، وللمسمع موافقاً ، ومتى عرّى عن ذلك خرج عن طرائق الفصاحة ، وحاد عن سبيل الحسن ، ومال إلى المنيعة ، فمجهّ السمع ، وقيل الطبع ورفضته النفوس ، وتفرّت منه القلوب ، فلزم العيب قائله ، وتوجه العتب على مستعمله . قال ابن الأثير رحمه الله : وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل

لاحسنم : إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة ، أنكرك ذلك وقال : بل كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع إلا حسنا . قال : ومن يبلغ جهله إلى غاية لا يفرق بين لفظة الفصن ولفظة المسلوج ، وبين لفظة المدامة ولفظة الإسفينط ، وبين لفظة السيف ولفظة الخنثليل ، وبين لفظة الأسد ولفظة الفدوكس ، فلا ينبغي أن يُخاطَبَ بخطاب ، ولا يُجابَ بجواب ، بل يترك وشأنه كما قيل : "أتركوا الجاهل بجهله ، ولو ألقي البحر في رحله"

وما مثاله في ذلك إلا كن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السوداء، شوهاء الخلق ذات عين محمّزة ، وشفة غليظة ، وشعر قَطَط ، وبين صورة رُومية بيضاء مشربة بحمّرة ، ذات خدّ أسيل ، وطرف كحل ، ومبسم كأنما تُظلم من أقبح ، ومكرّة كأنها ليل على صباح . فإذا كان بإنسان من سُقم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه ، فلا يبعد أن يكون به من سُقم الفكر أن يسوى بين هذه الألفاظ وهذه ، ولا فرق بين السمع والنظر في ذلك ، فإن هذه حاسة وهذه حاسة ، وقياس حاسة على حاسة غير مُتمتع ، ولا عبرة بمن يستحسن الألفاظ القبيحة ، ويميل إلى الصورة الشذيمة ، فإن الحكم على الكثير الغالب ، دون الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال ، فإننا لو رأينا من يُحبُّ أكل الفحم والحصى والتراب ، ويختار ذلك على ملأ الأظعمة ، فإننا لاستجيد هذه الشهوة بل ننحكم عليه بالمرض وفساد المعدة ، وأنه يحتاج إلى العلاج والمداواة ، ومن له أدنى بصيرة يعلم أن الألفاظ في الأذن نعمة لذينة كنعمة الأوتار ، وصوتا مُتكررا كصوت الحمام ، وأن لها في الفم حلوة كحلوة العسل ، ومرارة كمرارة الخنثيل . ولا حجة لاستعمال العرب لهذه الألفاظ ، فإن استحسن الألفاظ واستباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ، لأنه ليس للتقليد فيه مجال . وإنما له خصائص وهيئات وعلامات إذا وجدت ، علم حسنه من قبحه والله أعلم .

الأصل الثالث

(من صناعة إنشاء الكلام تركيب الكلام، وترتيب الألفاظ)
(والنظر فيه من وجوه)

الوجه الأول

(في بيان فضل المعرفة بذلك، ومسيس حاجة الكاتب إلى معرفته، والإشارة إلى خفي سره وتوهم مسلكه)

قال أبو هلال العسكري : وأجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل ، والخطب ، والشعر ، وجميعها يحتاج إلى حُسن التأليف ، وجودة التركيب ، وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً ، ومع سوء التأليف ورداءة الوصف والتركيب شعبة من التعمية ، فإذا كان المعنى سيئاً ، ووصف الكلام رديئاً ، لم يوجد له قبول ، ولم تظهر عليه طلالة . فإذا كان المعنى وسطاً ووصف الكلام جيداً ، كان أحسن موقعاً وأطيب مستمعاً ، فهو بمنزلة العقد إذا جُبل كل نحرزة منه إلى ما يليق بها ، كان رائقاً في المرأى ، وإن لم يكن مرتفعاً نبيلاً ؛ وإن اختل نظمها فُضمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها ، أقصمته العين وإن كان فاتحاً ثميناً ، وحسن الوصف أن توضع الألفاظ في مواضعها ، وتمكن من أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير ، والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يُفسد الكلام ، ولا يُعَمّي المعنى ، وتُضَم كل لفظة منها إلى شكلها وتُضاف إلى وقفها ؛ وسوء الوصف تقديم ما ينبغي تأخيرها منها ، وصرفها عن وجوها ، وتغيير صيغتها ، ومخالفة الاستعمال في نظمها . وقد قال العتباتي : الألفاظ أجساد والمعاني أرواح ، وإنما تراها ببيون القلوب ، فإذا قدمت منها مؤخرًا وأخرت منها مقدمًا ، أفسدت الصورة وغيرت المعنى ، كما أنه لو حُول رأس إلى موضع يد أو يد إلى موضع رأس أو رجل إلى لتحوّلت الحلقة وتغيرت الحليّة .

قال في "الصناعتين" : وقد أحسن في هذا التمثيل .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في "المثل السائر" : وهذا الموضع يصل في سلوك طريقه العلماء بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر ، فكيف الجهال الذين لم تتفتحهم منه رائحة ؟ ومن الذي يؤتبه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضيء ، ولم تمسه نار ، حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها في مواضعها ؟ وذلك أن تفاوت التفاضل لم يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها ، إذ التركيب أعسر وأشق ، ألا ترى أن ألفاظ القرآن الكريم من حيث أفرادها قد استعملتها العرب ومن يعلم ، وهي مع ذلك تخوق جميع كلامهم وتعلو عليه ، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب . وأنظر إلى قوله تعالى : " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَالِكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِي وَيَغِيضِ الْمَاءَ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " وما أشملت عليه هذه الآية من الحسن والطلاوة والروق والمباينة التي لا يقدر البشر على الإتيان بمثلا ، ولا يستطيع أفصح الناس وأبلغ العالم بمباهاتها ، على أن ألفاظها المفردة كثيرة الاستعمال دائرة على الألسنة ، فقوة التركيب وحسن السبك هو الذي ظهر فيه الإعجاز وألحمت فيه البلاغة من حيث لاقت اللفظة الأولى بالثانية والثالثة والرابعة ، وكذلك سائر الألفاظ إلى آخر الآية . ويشهد لذلك أنك لو أخذت لفظة منها من مكانها وأفردتها عن أخواتها لم تكن لا بسنة من الحسن والروق ما لبسته في موضعها من الآية ، ولكل كلمة مع صاحبها مقام .

قال ابن الأثير : ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين يدلان على معنى واحد ، كلاهما في الاستعمال على وزن واحد وعلّة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يُفَرَّقُ بينهما في مواضع السبك ، وهذا مما لا يدركه إلا من دق فهمه ، وعجل نظره . وإذا نظرت إلى قوله تعالى : " مَا جَعَلَ اللَّهُ

لَرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ“ وقوله تعالى : ”رَبِّ إِنِّي تَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا“ رأيت ذلك عياناً ، فإن الجوف والبطن بمعنى واحد ، وقد استعمل الجوف في الآية الأولى والبطن في الآية الثانية ولم يستعمل أحدهما مكان الآخر ، وكذلك قوله تعالى : ”مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى“ وقوله : ”إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْبَنِيَ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ“ فالقلب والفؤاد سواء في الدلالة وإن كانا مختلفين في الوزن ، ولم يستعمل أحدهما موضع الآخر .

ومما يجرى هذا المجرى قول الأعرج من أبيات الحماسة :

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ * لَا مَدَّ بِالْمَوْتِ إِذَا حُمَّ الْأَجَلُ
• الموت أحلَّ عندنا من العسل •

وقول أبي الطيب ^{هـ}المتنبي :

إِذَا شِلْتُ حَقَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِجٍ * رِجَالُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا شَهْدُ
لفظة الشهد ولفظة العسل كلاهما حسن مستعمل ، وقد جاءت لفظة الشهد في بيت أبي الطيب أحسن من لفظة العسل في بيت الأعرج ، على أن لفظة العسل قد وردت في القرآن دون لفظة الشهد بغضت أحلى من الشهد في موضعها ، وكثيراً ما تجد أمثال ذلك في أقوال الشعراء الملقين وبلغاء الكُتُب ومصانع الخطباء ، وتحتها دقائق ورموز ، إذا عُلِمَتْ وقِيَسَ عليها كان صاحب الكلام قد انتهى في النظم والنثر إلى الناية القصوى في وضع الألفاظ في مواضعها اللائقة بها . قال : وأعجب من ذلك أنك ترى اللفظة الواحدة تروك في كلام ، ثم تراها في كلام آخر فكرهها ، وقد جاءت لفظة في آي القرآن الكريم بوجه راقية ، ثم جاءت تلك اللفظة بينها في كلام آخر بغضت ركيكة نابية عن النوق ، بعيدة من الاستحسان ، فمن ذلك لفظة يؤذى فلها وردت في قوله تعالى : ”إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي

مَنْكُمُ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ“ فجاءت في غاية الحسن ونهاية الطلاوة، ووردت في قول أبي الطيب :

تَلَدُّ لَهُ الْمُرُوءَةُ وَهِيَ تُؤَدِّي * وَمَنْ يَشَقَّ يَلَدُ لَهُ الْغَرَامُ

فجاءت رَمَّةٌ مستهجنة، وإن كان البيت من أبيات المعاني الشريفة، وذلك لقوة تركيبها في الآية وضعف تركيبها في البيت الشعر، والسبب في ذلك أن لفظة تُؤَدِّي إنما تحسن في الكلام إذا كانت مندرجة مع ما يأتي بعدها متعلقة به كما في الآية الكريمة حيث قال : ”إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤَدِّي النَّبِيَّ“ وفي بيت المتنبي جاءت منقطعة ليس بعدها شيء تتعلق به حيث قال :

* تَلَدُّ لَهُ الْمُرُوءَةُ وَهِيَ تُؤَدِّي *

ثم استأنف كلاماً آخر فقال :

* وَمَنْ يَشَقَّ يَلَدُ لَهُ الْغَرَامُ *

وقد جاءت هذه اللفظة بعينها في الحديث النبوي مضافة إلى كاف خطاب، فأخذت من المحاسن بزمامها، وأحاطت من الطلاوة بأطرافها، وذلك أنه لما أشتكى النبي صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل فوقاه فقال : ”بسم الله أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ“ فصارت إلى الحُسن زيادة حرف واحد، وهذا من السر الخفي الذي ينفق فهمه . وعلى نهج لفظة يُؤَدِّي يردُّ لفظة لى، فإنها لا تحسن إلا أن تكون متعلقة بما بعدها، ولذلك لحقها هاء السكت في قوله تعالى : ”مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ“ لما لم يكن بعدها ما يتعلق به، بخلاف قوله : ”إِنَّ هَذَا أَحْيَىٰ لَهُ نَسْعٌ وَنَسْعُونَ نَسْجَةً وَلِي نَسْجَةٌ وَاحِدَةٌ“ فإنه لم تلحقها هاء السكت اكتفاء بما هي متعلقة به .

ومما يجرى مثل هذا المجزئ لفظة القَمَل ، فإنها قد وردت في قوله تعالى :
 ”فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ“ فجاءت في غاية الحسن ،
 ووردت في قول الفرزدق :

مِنْ عَزْرِهِ اجْتَحَرَتْ كَلْبٌ عَنْده * زَرْبًا صَكَتْهُمُ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ

جاءت منحطة نازلة ، وذلك لأنها قد جاءت في الآية مندرجة في ضمن كلام
 لم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت في البيت قافيةً أقطع الكلام عندها . هذا
 ما يخص ما ذكره ابن الأثير ، وقال : إنه لم يُسبق إليه ، وجعل الحاكم فيه الذوق
 السليم دون غيره . وعلى الجملة فلا نزاع في أن تركيب الألفاظ يُعطى الكلام من
 القوة والضعف ما تريد به قيمة الألفاظ الفصيحة ، ويرفع به قدرها ، أو يُحطِّط
 مقدارها عن درجة الفصاحة والحسن إلى رتبة القبح والاستهجان .

الوجه الثاني

(في بيان ما يبنى عليه تركيب الكلام وترتيبه . وله ركان)
 الركن الأول - أن يُسلك في تركيبه سبيل الفصاحة والخروج عن اللكنة والمُجَنَّة .
 والفصاحة في المركب بأن يتصف بعد فصاحة مفرداته بصفات .

الصفة الأولى

(أن يكون سليماً من ضَعْفِ التَّأْلِيفِ)

بأن يكون تأليف أجزاء الكلام على القانون النحوي المشتهر فيما بين معظم أصحابه
 حتى لا يمتنع عند الجمهور ، وذلك كالإضمار قبل الذكر لفظاً أو معنى ، نحو ضرب
 غلامه زيداً ، فإنه غير فصيح وإن كان ما اتصل بالفاعل فيه ضميراً المفعول به

مما أجازته الأخفش وتبعه ابن جني لشدّة اقتضاء الفعل المفعول به كالفاعل ،
وأستشهد بقوله :

لما عصى أصحابه مُصْعَبًا * أدى إليه الكيل صاعًا بصاع

وقوله :

جزى بنوه أبا الفيلان عن كثير * وحسن فعل كما يُجزى سِنَمَارُ

وقوله :

ألا ليت شعري ، هل يُلومَنَ قَوْمُهُ * زُهَيْرًا على ما جرَّ من كُلِّ جانبٍ

الصفة الثانية

(أن يكون سلباً من التصعيد)

وهو أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى الذى يُراد منه ، وهو على

ضريين .

الضرب الأوّل - وهو الذى يسميه ابن الأثير (المعاطلة المعنوية) أن لا يكون ترتيب
الألفاظ على وفق ترتيب المعانى بسبب تقديم أو تأخير ، أو حذف أو إضمار ، أو غير
ذلك مما يوجب صعوبة فهم المراد ، وإن كان ثابتاً فى الكلام ، جارياً على القوانين
كقول الفرزدق ، فى مدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي ، خال هشام بن
عبد الملك :

وما مثله فى الناس إلا مُملَكًا * أبو أمته حتى أبوه يُقارِبُه

أى وما مثل هذا المدح فى الناس حتى يقاربه ويُشبهه فى الفضائل إلا مُملَكًا ،
أبو أمّ ذلك الملك أبو المدوح ، فيكون المدح خالاً للملك ، والمعنى أنه لا يماثل

أحد هذا الممدوح الذي هو إبراهيم بن هشام إلا ابن أخته هشام، افسده وهدم معناه،
وأخرجه عن حد القضاة إلى حد الكثرة؛ وكذلك قوله في الوليد بن عبد الملك :
إلى ملك، ما أمه من محارب * أبوه، ولا كانت كليب نصاهره

يريد إلى ملك ما أمه من محارب، وقوله :

تعال فإن عاهدتني لا تخونني * نكن مثل من ياذب يصطحبان

يريد نكن ياذب مثل من يصطحبان، وقوله :

وليست نراسان التي كان خالد * بها أسد، إذ كان سيفاً أميرها

يريد أن خالد بن عبد الله كان قد ولي نراسان ووليا أسد بعده، فدمج خالدًا
بأنه كان سيفاً، بعد أن كان أسد أميرها، فكأنه يقول وليست نراسان بالبلدة التي كان
خالد بها سيفاً إذ كان أسد أميرها . قال ابن الأثير : وعلى هذا التقدير فقي كان
الثانية ضمير الشأن والحديث ، والجملة بعدها خبر عنها ، وقد قدم بعض ما إذ مضافة
إليه وهو أسد عليها ، وفي تقديم المضاف إليه أوشى منه على المضاف من القبح
والاخفاء به . قال : وأيضاً فإن أسداً أجدر أن يرى الجملة المفسرة للضمير ، والضمير
لا يكون تفسيره إلا من بعده ، ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج إلى تفسير ، ولما
سماه الكوفيون الضمير المجهول ، وعلى نحو ذلك ورد قول الآخر :

فأصبحت بعد خط بهجتها * كأن قفراً رسومها قلباً

يريد فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلباً خط رسومها ، فقدم خبر كأن وهو
خط عليها بجاء مختلف مضطرباً ، قال في "المثل السائر" : وهذا البيت من أقيح هذا
النوع لأن معانيه قد تناحلت ، وركب بعضها بعضاً ؛ على أن ذلك قد وقع لجمع من
غول شعراء العرب . كقول امرئ القيس :

هنا أخواني في الحرب من لا أخاله * إذا خاف يوماً نبوة فدعاهما

يريد أخوا من لا أخوى له في الحرب، وقول النابغة :

يُثْرَبُ الثَّرَى حَتَّى يُبَاثِرْنَ بَرْدَهُ * إِذَا الشَّمْسُ بَجَّتْ رِقِيهَا، بِالْكَلا كُلِّ
قال أبو هلال العسكري : وهذا البيت مستهجن جدا لأن المعنى تعمى فيه ،
يريد يُثْرَبُ الثَّرَى حَتَّى يُبَاثِرْنَ بَرْدَهُ بِالْكَلا كُلِّ إِذَا الشَّمْسُ بَجَّتْ رِقِيهَا ؛ وقول
أبي حية التميمي :

كَمَا خُطَّ الْكَتَابُ بِكَفِّ يَوْمَا ، * يَهُودِيٌّ يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ

يريد كما خط الكتاب بكف يهودى يوما يقارب أو يزيل ؛ وقول ذى الرمة :
نَضًا الْبَرْدَ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ ذُو جُنُونِهِ * أَجَارِيٌّ، صَهَالٌ وَصَوْتُ مَبْرَمٍ
يريد وهو من جنونه ذو أجاري ؛ قال في "الصناعتين" : كأنه تخليط كلام مجنون
أو مجر مبرم ؛ وقول الشماخ :

تَحَامَصُ عَنْ بَرْدِ الْوِشَاحِ إِذَا مَشَتْ * تَحَامَصُ حَافِي الْخَيْلِ فِي الْأَمْعَزِ الْوَجِي

يريد تَحَامَصُ حَافِي الْخَيْلِ فِي الْوَجِي الْأَمْعَزِ ؛ قال أبو هلال العسكري : وليس
للحديث أن يجعل هذه الأبيات حجة ويبنى عليها فإنه لا يغلز في شيء منها ، لإجماع
الناس اليوم على مجانبه أمثاله وأستجادة ما يضح من الكلام ويستين ، وأستزاد
ما يُسْكِلُ منه ويستنبه ؛ وقد كان عمر رضى الله عنه يمدح زهيرا بأنه لم يكن يعاقل
بين الكلام .

قال في "المثل السائر" : والفردق أكبر الشعراء تعاظلا وتقيدا في شعره ، كأنه
كان يقصد ذلك ويتممده ، لأن مثله لا يبيء إلا متكلفا مقصودا ، وإلا فإذا ترك
مؤلف الكلام نفسه تجرى على صبيحتها وطبعها في الاسترسال لم يعرض له شيء من
هذا التقييد ، بدليل أن المقصود من الكلام معنوم في هذا النوع ، إذ المقصود من

الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به ، ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

الضرب الثاني من التعقيد - أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد بخلل في انتقال ذهن من المعنى الأول المفهوم بحسب اللغة إلى الثاني المقصود ، لإيراد الوازم البعيدة المغتقرة إلى الوسائط الكثيرة ، مع خفاء القرائن الدالة على المقصود ، كقول العباس بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا * وَتَسْكُبَ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ تَجَمُّدًا

يريد إلى أطلب بعد الدار عنكم لتقربوا مني ، وتسكب عيناى الدموع لتجمدا وتكثف السمع بموصول التلاقي ، والمعنى أتى طبت نفسا بالبعد والفرق ، ووطئت نفسي على مقاساة الأحران والأشواق ، والتجرع الفصص ، وأحتمل لأجلها حزنا فيفيض الدموع من عيني لا تسبب بذلك إلى وصل يلوم ، وممرة لا تزول ، فجمد عيني ويرقادى ، فإن الصبر مفتاح الفرج ، فكثرت بسكب الدموع عن الكابة والحزن ، وهو ظاهر المعنى لأنه كثيرا ما يجعل دليلا عليه ، يقال أبكاني الدهر وأصمكتني بمعنى ساعدني وسرتني ، وكثرت بجمود العين عما يوجبه دوام التلاقي من الفرح والسرور ، فإن المتبادر إلى ذهن من جمود العين بخلها بالسمع عند إرادة البكاء حال الحزن ، بخلاف ما قصده الشاعر من التمييز بين الفرح والسرور ، وإن كانت حالة جمود السمع مشتركة بين بخل العين بالسمع عند إرادة البكاء ، وبين زمن السرور الذي لم يطلب فيه بكاء ، وكذلك يجرى القول في كل لفظ مشترك ينتقل ذهن فيه من أحد المعنيين إلى الآخر إذا لم يكن هناك قرينة تصرفه إلى أحدهما ، كما صرح به الروائي وغيره ، خصوصا إذا كان أحد المعنيين الذي يدل عليه اللفظ المشترك

مستقبها كما نبه عليه ابن الأثير في الكلام على فصاحة اللفظ المفرد؛ ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة بين التعظيم والإكرام ، وبين الإهانة بسبب الخيانة التي لا توجب الحد : من الضرب وغيره ، والمعتان ضئان فحيث وردت معها قرينة صرقتها إلى معنى التعظيم جاءت حسنة راقية ، وكانت في أصل درجات الفصاحة ؛ وعلى نحو ذلك ورد قوله تعالى : ﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ وقوله : « فَأَلْذِنَ أَمْتُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ » الآية فإنه لما ورد معها قرينة التوقير في الآية الأولى وقرينة الإيمان والنصر في الآية الثانية زال اللبس وحسن الموقع ، ولو وردت مهملتا بنير قرينة بإرادة المعنى الحسن ، لسبق الفهم إلى المعنى القبيح ، كما لو قلت عزز القاضي فلانا وأنت تريد أنه عظمه ، فإنه لا يتبادر من ذلك إلى الفهم إلا أنه أهانه ، وعلى هذا التهج يجرى الحكم في الحسن والقبح مع القرينة وعلمها .

قال ابن الأثير رحمه الله : فما ورد مع القرينة بقاء حسنا قول تأبط شرا :

أقول للحيان ، وقد صيرت لهم * وطأ يويوى ضيق الجحر معور

فإنه أضاف الجحر إلى اليوم فأزال عنه هجنة الاشتباه لأن الجحر يطلق على كل ثقب بكسر الحية واليربوع ونحوهما ، وعلى الجهل المخصوص من الحيوان فإذا ورد مهملتا بنير قرينة تخصصه سبق إلى الفهم المعنى القبيح لأشهره دون غيره ، وما ورد مهملتا بنير قرينة بقاء قبيحا قول أبي تمام :

أعطيتي دية القتيل وليس لي * عقل ولا حق عليك قديم

فإن المتبادر إلى الأفهام من قوله وليس لي عقل أنه من العقل الذي هو ضد الجنون ولو قال وليس لي عليك عقل لزال اللبس . قال : فيجب إنفا على صاحب هذه الصناعة أن يراعى في كلامه مثل هذا الموضع .

الصفة الثالثة

(أن يكون الكلام سليماً من تنافر الكلمات وإن كانت مفرداته فصيحة)

وقد اختلف في معنى هذا التنافر على ثلاثة مذاهب .

المذهب الأول - أن المراد بتنافر الكلمات أن يكون في الكلام ثقل على اللسان ويسرُّ النطق به على التكلم، وإليه ذهب السكاكي وغيره من علماء البيان . وهو على ضربين .

الضرب الأول - أن يكون فيه بعض ثقل، كقول أبي تمام :

كريمٌ متى أمدحه أمدحه والورى * معي، وإذا مالمته، لمته وحدي

فقوله أمدحه أمدحه فيه بعض الثقل على اللسان في النطق به، وذلك أن الاء والهاء متقاربان في المخرج، وقد اجتمعا في قوله أمدحه، ثم تكررت الكلمة في البيت مع تهاوي خروج الحرفين فثقلت بعض الثقل .

وأول من نبه على ذلك الأستاذ ابن العميد رحمه الله .

ومما يحكى في ذلك أن صاحب بن عباد أنشد هذا البيت بحضرة ابن العميد، فقال له ابن العميد : هل تعرف في هذا البيت شيئاً من المجنونة ؟ فقال : نعم، مقابلة المدح بالوم وإنما يقابل المدح بالوم والهجاء، فقال له ابن العميد : غير هذا أريد، قال : لا أرى غير ذلك . فقال ابن العميد : هذا التكرير في أمدحه أمدحه مع الجمع بين الاء والهاء وهما من حروف الحلق خارج عن حد الاعتدال، نافر كل التنافر، فاستحسنه صاحب بن عباد ذلك .

قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح تلخيص المفتاح : ولا يجوز أن يراد أن الثقل في لفظة أمدحه دون تكرار، فإن مثل ذلك واقع في التثنية نحو قوله تعالى :

”نَسَبَهُ“ والقول باشتغال القراءان على كلام غير فصيح مما لا يمتري عليه المؤمن .
الضرب الثاني - ما كان شديد الثقل بحيث يضطرب لسان المتكلم عند إرادة
التنطق به ، كقوله :

وَقَبْرُ حَرْبٍ يَمَكَّانٍ قَفْرٌ * وليس قُورَبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٌ

قال في عجائب المخلوقات : إن من الجن نوما يقال له الهاتف ، فصاح واحد منهم
على حَرْبٍ بن أُمَيَّةَ فأت ، فقال ذلك الجنِّي هذا البيت . قال المسعودي في ”مروج
الذهب“ : والدليل على أنه من شعر الجن أمران ، أحدهما الرواية ، والثاني أنه
لا يقوله أحد ثلاث مرات متواليات إلا تَتَعَثَّ فيه . قال ضياء الدين بن الأثير :
والسبب في ثقل البيت تكرير حرفي الباء والراء فيه ، فهذه الباءات والراءات فيه كأنها
سلسلة ، ولا خفاء بما في ذلك من الثقل . قال : وكذلك يجرى الحكم في كل
ما تكرر فيه حرف أو حرفان إلا أنه لم يُطْلَقْ على ذلك اسم التنافر ، ويجعل التنافر قسما
مستقلا برأسه كما سيأتي ، وعد هذا من أنواع المعاطلة اللفظية ، ثم ذكر من أمثله
قول الحريري في مقاماته :

وَأَزُورُ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا * وَعَافَ عَافِيَ الْعُرْفِ عِرْفَانَهُ
وقول كُشَايِمَ :

وَالزُّهْرُ وَالْقَطْرُ فِي رُبَاهَا * مَا يَنْ تَغْظِمُ وَيَنْ تَرِ
سَدَاتُكُ ، كَفَّ كُلِّ رِيحٍ * حَلَّ بِهَا خَيْطُ كُلِّ قَطْرِ

وقول الآخر :

مَلَأْتُ مِطَالًا مَوْلُودَ مُقَدِّي * مَلِيحٌ مَانِعٌ مَسْنَى مُرَادِي
وقول المتنبي :

كَيْفَ تَرَى الَّتِي تَرَى كُلَّ جَفْنٍ * رَاعَهَا غَيْرَ جَفْنِهَا غَيْرَ رَاقِي

وعاب بيت الحريري لتكرار العين فيه في قوله :

* وَعَافَ عَافِي الرُّفِّ عِرْفَانَهُ *

وعاب البيت الثاني من بيتي كشاحم لتكرار الكاف فيه في "كَفَّ وَكَلَّ" الأولى و"كَلَّ" الثانية ، وقال هذا البيت يحتاج الناطق به إلى رِكَازٍ يضعه في شِدْقِهِ حتى يديره له ؛ وعاب البيت الذي يليه لتكرار الميم فيه في أوائل الكلمات ، وقال : هذه الميمات كأنها عَقْدٌ ، متصلة بعضها ببعض ؛ وعاب بيت المتنبي لتكرار الجيم والراء في أكثر كلماته ، وقال : هذا وأمثاله إنما يَعرِضُ لقائله في نوبة الصَّرْعِ التي تتوابعه في بعض الأيام . قال : وكان بعض أهل الأدب من أهل عصرنا يستعمل هذا القسم من المعاطلة كثيرا في كلامه ثرا ونظما ، وفلك لعدم معرفته لسلوبك الطريق كقوله في وصف رجل سخي : "أنت المُرِيحُ كيدَ الرِّيحِ ، والمُلْبِجُ إنَّهم المُلْبِجُ بالكُحْبِجِ ؛ عند سائل بلُوحٍ ، بل مَنُوقٍ إذ تَرُوقُ مَرَأَى يُوْحٍ ؛ يامُغْبُوقٍ كَأَمْسِ الحمد يامُصْبُوحٍ ضاقَ عن نَدَاكَ اللُّوحُ ، وبيابك المفتوح يستريح ويريح ذو التَّبْرِجِ ، ويرْفَهُ الطَّلِجُ " فانظر إلى حرفي الراء والحاء كيف لزمهما في كل لفظة من هذه الألفاظ بجاء على ما تراه من التقل والفتاة .

ثم قال : وأعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة قد عدلوا عن تكرير الحروف في كثير من كلامهم ، وذلك أنه إذا تكرر الحرف عندهم أذغموه استحصانا ، فقالوا في جعل لك : جَعَلَكْ ، وفي تضرعوني لتضروني ، وكذلك قالوا : أَسْتَعِدْ فلان للأمر إذا تأهب له ، والأصل فيه أَسْتَعِدْ ، وأسْتَبَّ الأمر إذا تهيأ والأصل فيه أَسْتَبَّ ، وأشبه هذا كثير في كلامهم حتى إنهم لَشَبَّه كراهتهم لتكرار الحروف أبدلوا الحرفين المكررين حرفا آخر غيره ، فقالوا : أَمِلْتُ

(١) مرابه أحد الحرفين كاهو من الباءة في المثل السائر .

الكتاب ، والاصل فيه أملت ، فأبدلوا اللام ياء طلبا للغة وفرازا من التقل ، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك في اللفظة الواحدة فما ظنك بالافاظ الكثيرة التي يتبع بعضها بعضا .

قلت : ليس تكرار الحروف مما يوجب التناثر مطلقا كما يقتضيه كلامه بل بحسب التركيب ، فقد تكرر الحروف وتترادف في الكلمات المتتابعة مع القطع فصاحتها وحفظها على اللسان ، ومهولة النطق بها ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ فِي يَوْمٍ ذُو عَذَابٍ أَلِيمٌ ﴾ كيف أجمع فيه ست عشرة ميمًا في آية واحدة ، قد تلاصق منها أربع ميمات في موضع وميمان في موضع ، مع ما اشتملت عليه من الطلاوة والروقي الذي ليس في قدرة البشر الإتيان بمثله ، والله أعلم .

المنهـب الثاني - أن المراد بتناثر الكلمات أن تكون أجزاء الكلام غير متلاحمة ، ومعانيه غير متوافقة بأن يكون عجز البيت أو القرينة غير ملائم لصدره ، أو البيت الثاني غير مشاكـل للبيت الأول ، وعليه جرى العسكري في "الصناعتين" فما أخففت فيه أجزاء البيت الواحد قول السموـل :

فَنَحْنُ كَـأَمِّ الْمَزْنِ مَا فِي نَصَابِنَا * كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُنَدُّ بِحَسْلٍ

فليس بين قوله ما في نصابنا كهام وقوله فنحن كأمة المزن مناسبة لأن المراد بالكهـام الذي لأخـاء به ولا لأمة فيه ، يقال قوم كهـام أي لأخـاء عندهم ، ورجل كهـام أي مسن ، كذلك سيف كهـام أي كليل ، ولسان كهـام أي عتي ، وفرس كهـام أي بطيء ، فهو يصف قومه بالعبدة والبأس ، وأنه ليس فيهم من لا يفتني ، وماء المزن إنما يحسن في وصف الجود والكرم . قال في "الصناعتين" : ولو قال : ونحن ليوث الحرب وأولو الصرامة والنجلة ، ما في نصابنا كهـام ، لكان الكلام مستويا ؛

أو ففتح كـ المزن صفة أخلاق وبذل أكف، لكان جيدا؛ ومن ذلك قول طرفة:
ولست بحلال التلّاح مخافة * ولكن متى يسترفد القوم أرغد
فالمصراع الثاني من البيت غير مشاكل لصورة المصراع الأول وإن كان المعنى
صحبا لأنه أراد ولست بحلال التلّاح مخافة السؤال ولكني أنزل الأمكنة المرمضة
ليتناوبني وأرغدكم، وهذا وجه الكلام فلم يعبر عنه تعبيرا صحيبا ولكنه خلطه وحذف
منه حذف كثيرا فصار كالمشتاف؛ وأدواء الكلام كثيرة؛ ومنه قول الأعشى:
وإن أمرأ أسرى إليك ودونه * مهبوب ومومة ويدها سمانق،
لمحتوفة أن تستجيب ليصوبه * وأن تعلبي أن المعان موفق
فقوله: وأن تعلبي أن المعان موفق غير مشاكل لما قبله؛ وطل نحو ذلك ورد
قول حنيفة:

حرق الجحاح كأن لحبي رأسه * جلسان بالأخبار هش مولع
إن الذين تبعت لي يفرافهم * هم أسلموا ليل التمام وأوجعوا

فليس قوله بالأخبار هش مولع من صفة جناحيه ولحيته؛ وقريب منه قول
أبي تمام:

محمد إن الحاسدين شهود * وإن مصاب المزن حيث تريد

فليس النصف الثاني من النصف الأول في شيء؛ وكذلك قول الطائي:

قوم هدى الله العباد يجتمع * والمؤثرون الضيف بالأزواد

فلا مناسبة بين صلب البيت وعجزه بوجه.

وعند بعض الأدياء من هذا النوع قول امرئ القيس:

كأن لم أركب جوادا للذة، * ولم أتنظن كاعبا ذات خلخال

ولم أسيا الرق الروى ولم أقل * ليحلي كرى كرة بعد إجمال

وقال : لو وضع مصراع كل بيت من هذين البيتين في موضع الآخر، لكان أحسن وأدخل في آستواء النسيج، فكان يقال :

كأنى لم أركب جوادا، ولم أقل * نلحى كرى كرة بعد إجفال

ولم أسبأ الزق الروى للذة، * ولم أنبطن كاعبا ذات خَلخال

لأن ركوب الجواد مع ذكر كرور الخيل أجود، وذكر انخرمع ذكر الكواكب أحسن . قال في "المصناعتين" : قال أبو أحمد : والذي جاء به أمرؤ القيس هو الصحيح لأن العرب تضع الشيء مع خلافه، فيقولون : الشدة والرخاء، والبؤس والنعيم، ونحو ذلك . وكذلك كل ما يجري هذا المجرى . قال أبو هلال المسكوي : أخبرني أبو أحمد قال : كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب، نختلف إلى مدرّك نتعلم منه الشعر، فقال لنا يوما : إذا وضعتم الكلمة مع لِقِّها، كنتم شعراء . ثم قال : أجزوا هذا البيت :

* ألا إماما الدنيا متاعُ غُرُورٍ *

فأجازه كل واحد منا بشيء، فلم يرضه . فقلت أنا :

* وإن عظمت في أنفيس وصدور *

فقال : هذا هو الجيد المختار . قال : وأخبرني أبو أحمد الشطرنجى قال : حدثنا أبو العباس بن عريق، قال : حدثنا حماد بن يزيد بن جبلة، قال : دفن سابعة رجلا من أهله ثم قال :

* نروح وننلوك كل يوم وليلة *

ثم قال لبعضهم : أجز فقال :

* فحى متى هذا الرواح مع النُدُ *

فقال مسلمة : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : اجز فقال :

* فإلك مَقْدَى مَرَّةٍ وَمَرَّاحًا *

فقال : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : أجز فقال :

* وَعَمَّا قَلِيلٍ لَا تَزُوجُ وَلَا تَنْلُو *

فقال : الآن تم البيت ، وأشباه ذلك وظائره كثيرة . وبما أختلف فيه البيت الأول والثاني قول ابن هرمة :

وإني وتركتي ندَى الأكرمين * وقدحى بكفى زندا شعاحا

كأركة بيضا بالسراء * وملبسة بيض أخرى جناحا

وقول الفرزدق :

فإنك إذ تهجو تيمًا وترثني * سرايل قيس أو محبوب العالم

كهمريق ماء بالقلاة ، وغره * سراب أذاعته رياح السائم

كان ينبغي أن يكون بيت ابن هرمة الأول مع بيت الفرزدق الثاني ، وبيت الفرزدق الأول مع بيت ابن هرمة الثاني ، فيقال في الأول :

وإني وتركتي ندَى الأكرمين * وقدحى بكفى زندا شعاحا

كهمريق ماء بالقلاة ، وغره * سراب أذاعته رياح السائم

مع تغيير إحدى القافيتين ، ويقال في الثاني :

وإنك إذ تهجو تيمًا وترثني * سرايل قيس أو محبوب العالم

كأركة بيضا بالسراء * وملبسة بيض أخرى جناحا

مع تغيير إحدى القافيتين حتى يصنع التشبيه للشاعرين جميعا .

المنحَب الثالث - أن المراد بتنافر الكلمات أن تذكر لفظة أو ألفاظ يكون غيرها مما في معناها أولى بالذكر، فتجىء الكلمة غير لاقية بمكانها، وهو ما أصطلح عليه ابن الاثير في "المثل السائر". وهو على ضربين .

الضرب الأول، ما يوجد منه في اللفظة الواحدة فيمكن تبديله بغيره مما هو في معناه، سواء كان ذلك الكلام نظما أو ثرا؛ وهو على أنواع شتى .

منها فك الإدغام في غير موضع فكّه، كقول ابن أمّ صاحب :
مَهْلًا أَعَانَدَ قَدْ جَرَّبْتُ مِنْ خُلُقِي * أَنِّي أَجُودُ لَأَهْوَامِ وَإِنِّ ضَيْنُوَا
فكّه الإدغام في ضينوا، وكان الأحسن أن يقال : وإن ضينوا أَى يَتْلُوَا .
وعلى حدّ ذلك ورد قول المتنبي :

فَلَا يُرْمِ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ سَالٍ * وَلَا يُحَلُّ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ يُرْمِ

فلو أدغم لحسنت اللفظة قازة في مكانها، غير فظة ولا نافرة؛ وكذلك كل ما جاء على هذا النهج فلا يحسن أن يقال بَلَّ التوبَّ فهو بال؛ ولا سَلَّ السيفَ فهو سائل؛ ولا هَمَّ بالامر فهو هام، ولا خط الكتاب فهو خاطط، ولا حَنَّ إلى كذا فهو حانن؛ وهذا لو عُرِضَ على من لا ذوق له أدركه، فكيف من له ذوق صحيح كابى الطيب ؟
لكن لا بد لكل جواد من كبرة .

ومنها زيادة حرف في غير موضعه، كقول ذييل :

شَفِيقَكَ فَاشْكُرْ فِي الْحَوَائِجِ، إِنَّهُ * يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَحَقُّ

فالفاء في قوله فاشكر زائدة في غير محلها، نافرة عن مكانها . قال الوزير ضياء الدين ابن الاثير : أتشدنى بعض الأدياء هذا البيت فقلت له : عجز هذا البيت حسن، وأما صدره فقيح : لأن سبكهُ قَائِي نافر، والفاء في قوله فاشكر كأنها رُكْبَةٌ البعير،

وهي فيزيادتها كزيادة الكرش، فقال : لهذه الفاء في كَلَب الله تعالى أشباه : كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فقلت له بين هذه الفاء وتلك فرق ظاهر يدرك بالعلم أولا وبالذوق ثانيا، أما العلم فإن الفاء في قوله تعالى : "وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ" فهي الفاء العاطفة إذ وردت بعد قوله : "وَقُمْ فَأَنْذِرْ" وهي مثل قولك : أمش فأسرع، وقل فأبلغ، وليست الفاء التي في قول ذيعل : شفيك فاشكر من هذا القبيل، بل هي زائدة ولا موضع لها، وإنما نسبتها أن يقال ربك أو ثيابك فطهر من غير تقدم معطوف عليه، وحاشا فصاحة القرآن من ذلك. فاذعن بالتسليم ورجع إلى الحق . قال : ومثل هذه الدقائق التي ترد في الكلام نظما كان أو نثرا لا يتفطن لها إلا الراجح في علم الفصاحة .

ومنها وصل همزة القطع في الشعر وإن كان ذلك جائزا فيه بخلاف الشر كقول أبي تمام :

قَرَأَنِي اللَّهُ وَالْوُدَّ حَتَّى كَأَنَّمَا * أَفَادَ الْغَيَّ مِنْ نَائِلِي وَفَوَائِدِي

فَأَصْبَحَ يُقَاتِي الزَّمَانُ مِنْ أَجَلِهِ * بِأَعْظَامِ مَوْلُودٍ وَرَافَةِ الْوَالِدِ

فقوله من أجله يوصل همزة القطع من الكلام النافر؛ وعلى حته ورد قول أبي الطيب :

يُوسِّطُهُ الْمَقَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ * طَلَابُ الطَّالِبِينَ لَا لِإِنْطَارُ

فقوله لا الانتظار يوصل همزة الانتظار كلام نافر .

ومنها قطع همزة الوصل في الشعر أيضا وإن كان جائزا فيه كقول جميل :

أَلَا لَا أَرَى لِإِثْنَيْنِ أَحْمَلَ شَيْمَةً * عَلَى حَدَاتَيْنِ النَّهْرِ مَتْنٍ وَمِنْ جُمْلٍ

(١) لم يذكر الثاني وقد ذكره في "المجلد السائر" فقال . وأما الحق فانه ينبوع عن الفاء الواردة في قول ذيعل ويستغنىها ... إلى أن قال فلما سمع ما ذكرته أذعن الخ .

وقوله أيضا :

إِذَا جَاوَزَ الْإِثْنَيْنِ سِرُّ فَائِهِ * يَنْشُرُ وَيُكْثِرُ الْوُشَاءَ قَمِينُ

فقطع ألف الوصل في لفظ الإثنين في البيت الأول والثاني .

ومنها أن يفرق بين الموصوف والصفة بضمير من تهتم ذكره كقول البحري :

سَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ * وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا الْمُتَعَلِّقُ

تقديره من قلبي المتعلق بها ، فلما فصل بين الموصوف الذي هو قلبي والصفة التي

هي المتعلق بالضمير الذي هو بها ، قُبِحَ ذلك . ولو قال من قلب بها متعلق لزال

ذلك القبح وزهبت تلك الهجنة . ونحو ذلك .

الأصل الرابع

(المعرفة بالسجع الذي هو قوام الكلام المنشور وطوره)

ويتعلق به ستة أغراض)

الغرض الأول

(في معرفة معناه في اللغة والأصطلاح ، وبيان حكمه في حالتي الدير والوقف)

أما في اللغة فقال في "مواد اليان" : إنه مشتق من الساج : وهو المستقيم

لأستقامته في الكلام ، وأستواء أوزانه . وقيل من جميع الحمامة : وهو ترجيعها الصوت

على حد واحد ، يقال منه تَجَعَّتِ الحِمامَةُ تُسَجُّ تَجَجًا فهي ساجمة ؛ سمي السجع

في الكلام بذلك لأن مقاطع القصود تأتي على ألفاظ متوازنة متعادلة ، وكلما

متوازنة متماثلة . فأشبه ذلك الترجيع .

وأما في الاصطلاح ، فقال في "مواد اليان" : هو تَقْفِيَةُ مقاطع الكلام من غير

وزن ، وذكر نحوه في "المثل السائر" قال : هو تواطؤ الفواصل من الكلام المنشور

على حرف واحد ؛ ويقال للجزء الواحد منه سجعة ، وتجمع على سَجَعَاتٍ ، وقَفَرَةٌ (بكنز)

الفاء) أخذنا من قِرة الظهر : وهى إحدى عظام الصليب، وتجمع على قِرة وقِرات بكسر الفاء وسكون القاف وفتحها ، وربما فتحت الفاء والقاف جميعا ، ويقال لها أيضا قِرينة لمقارنة أختها وتجمع على قرائن ، ويقال للحرف الأخير منها حرف الروى والفاصلة .

وأما بيان حكمة في الوقف والتدرج فآلم أن موضوع حكم السجع أن تكون كلمات الأصابع ساكنة الأعجاز، موقوفا عليها بالسكون في حالى الوقف والتدرج: لأن الفرض منها المتناسبة بين القرائن ، أو المزاوجة بين الفقر، وذلك لا يتم إلا بالوقف . ألا ترى أن قولهم : ما أبعد ما فات ، وما أقرب ما هوات ، لو نهبت تصل فيه لم يكن بد من إعطاء أواخر القرائن ما يعطيه حكم الإعراب فتختلف أواخر القرائن وفوت الساج غرضه .

الغرض الثاني

(في بيان حُسن موقعه من الكلام)

قال في "الصناعين" : لا يحسن متشور الكلام، ولا يخلو حتى يكون مُرتباً ، ولا تجد ليلج كلاماً محلولاً من الأزواج، وتأهيك أن القراءان الكريم الذى هو عنصر البلاغة ومناط الإعجاز مشحونٌ به ، لاخلو منه سورة من سورِهِ وإن قصُرَتْ . بل ربما وقع السجع في فواصل جميع السورة ، كما في سورة النجم ، وأقربت ، والرحمن وغيرها من السور . بل ربما وقع في أوساط الآيات ، كقوله تعالى : (الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) وقوله : "لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ ذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ" وقوله : "وَلَسْتُ بِأَخَذِيهِ إِلَّا أَنْ تُخِمْضُوا فِيهِ" وما أشبه ذلك . وكذلك وقع في الكثير من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله عليه السلام

عند قدومه المدينة الشريفة : "أَفَشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ". بل ربما صرف صلى الله عليه وسلم الكلمة عن موضوعها في تصرف اللغة طلبا للزوجة : كقوله في تعويذه لأبن أخته : "أَعِيْذُهُ مِنَ الْمَسَامَةِ وَالسَّامَةِ، وَالْعَيْنِ الْأَلَمَةِ" وأصلها في اللغة المَكْبَةُ لأنها من أَلَمَ، فعبر عنها بالامة لموافقة الهامة والسامة ؛ وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم للنساء : "أَنْصَرِفْنَ مَأْزُورَاتٍ خَيْرَ مَأْجُورَاتٍ" والأصل في اللغة أن يقال مَوْزُورَاتٍ أخذنا من الوِزْرِ، فعبر بمأزورات لموافقة مأجورات ؛ وعلى ذلك كان يجرى كلام العرب في مُهِمَّ كلامهم من الدعاء وغيره : كقول بعض الأعراب وقد ذهب السيل بانه : اللهم إِنْ كُنْتَ قَدْ آتَيْتَ ، فَطَالَمَا عَاقِبْتَ . وقول الآخر : اللهم هَبْ لَنَا حَبَكَ ، وَأَرْضِ عَنَا خَلْقَكَ ، ونحو ذلك . أما ماورد من أنه صلى الله عليه وسلم حين قضى على رجل في الجنتين بمزة عيد أو أمة ، فقال الرجل : أأَدَى مِنْ لَأْتَرِبَ وَلَا أكلٌ ، وَلَا تَنْقُ وَلَا أَسْتَهْلُ ، ومثل ذلك يُطَل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أَعْجِبَا كَسَجَ الْكُفَّانِ" فليس فيه دلالة على كراهة السجع في الكلام وإن تمسك به بعض من نبأ عن السجع طبعه ، وفترت منه قريحه . إذ يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم إنما كره السجع من ذلك الرجل لمشابهة سجعه جيلتد سجع الكُفَّانِ ، لما في سجعهم من التكلف والتصف كما وجهه أبو هلال السكري ، ولما لجريانه على عاداتهم في الجواب في الأحكام وغيرها بالكلام المسجوع كما وجهه غيره ، أو أنه إنما كره حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع بانكار إيجاب الدية لا نفس السجع الماتى به كما اختاره صاحب "المثل السائر" ولو كره صلى الله عليه وسلم السجع نفسه ، لاقصر على قوله أَعْجِبَا ولم يقيم بسجع الكُفَّانِ .

الغرض الثالث

(في بيان أقسام السجع ، وهي راجعة إلى صنفين)

الصنف الأول

(أن تكون القريقتان متفتحتين في حرف الروي ، ويسميه الرمانى السجع الحالى
وعليه عمل أكثر النكّاب من زمن القاضى الفاضل ، وهلمّ جرّاً
إلى زماننا ، وفيه ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - أن تكون ألفاظ القريتين مستوية الأوزان متعادلة الأجزاء
ويسمى التصريح ، وهو أحسن أنواع السجع وأعلاها . ومنه في الشرح قوله تعالى :
(**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**) وقوله : (**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ
لَفِي جَحِيمٍ**) . وقول النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه : ” **اللَّهُمَّ اقْبَلْ تَوْبَتِي ،
وَأَغْضِبْ حَوْبَتِي** ” . وقوله للأَنْصار ” **إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ عِنْدَ الْقَزَعِ ، وَتَهْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ** ”
وقول بعض الأعراب في وصف سيرة جذبة : سيرة جَرَدَتْ ، وحال جهَّلت ، وأيد
جهدت ، ونحو ذلك . ومثاله في النظم قول الخنساء :

حَامِي الْحَقِيقَةِ ، مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ ، مَهْدَى الطَّرِيقَةِ ، نَفَّاعٌ وَضَرَّارُ !
جَوَابُ قَاصِيَةِ ، جَرَّازُ نَاصِيَةِ ، * عِتَادُ أَلْوِيَةِ ، لَحِيلُ جَرَّارُ !

المرتبة الثانية - أن يختص التوازن بالكلمتين الأخيرتين من القريتين فقط ، دون
ماعداهما من سائر الألفاظ ، كقوله تعالى : (**فِيهَا مَرْرٌ مَرْقُوعٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ**)
ثم قال : (**وَتَمَارِقٌ مَضْفُوفَةٌ وَزَرَّابِي مَبْنُوتَةٌ**) . وكقول الحريري في مقاماته : **الْجَانِي
سُحْمٌ تَهْرِ قَاسِطٌ ، إِلَى أَنْ أُنْتَجِعَ أَرْضَ وَأَسِط .** وقوله : **وَأَوْدَى النَّاطِقُ وَالصَّامِتُ ،
وَرَفَى لَنَا الْحَاسِدُ وَالنَّاسِتُ ،** وما أشبه ذلك .

المرتبة الثالثة - أن يقع الاتفاق في حرف الروى مع قطع النظر عن التوازن
في شئ من أجزاء الفقرة في آخر ولاخيره، ويسمى المطوف . كقوله تعالى : ﴿مَالِكُمْ
لَا تَرْجُونَ لَهُ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وقولهم : جَنَابَهُ عَطَّى الرَّحَالُ ، وَنَحْمُ الْأَمَالُ .
وما يجرى هذا المجرى .

الصنف الثانى

(أن يختلف حرف الروى في آخر الفقرتين ، وهو الذى يعبرون عنه
بالأزدواج . والرأى يسمى السجع العاطل ، وعليه كان عمل السلف
من الصحابة ومن قارب زمانهم : وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أن يقع ذلك في الشر : وفيه مرتبتان)

المرتبة الأولى - أن يراعى الوزن في جميع كلمات الفقرتين أو في أكثرها ، مع
مقابلة الكلمة بما يادلها وزناً ، ويسمى التوازن وهو أحسنها وأعلاها . كقوله
تعالى : ﴿وَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وكقول الحريري :
اسود يومى الأبيض ، وأبيض قودى الأسود .

المرتبة الثانية - أن لا يراعى التوازن إلا في الكلمتين الأخيرتين من الفقرتين فقط ،
ويسمى التوازن أيضاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَعَارِفُ مَصْفُوفَةٌ وَزُرَّائِي مَبْنُوتَةٌ﴾
وقولهم : إصْبِرْ عَلَى حَرِّ الْقِتَالِ ، وَمَضِضِ الْقِتَالِ ، وَشِدَّةِ النَّصَاعِ ، وَمُدَاوِمَةِ الْبِرَازِ ،
وما أشبه ذلك .

الضرب الثاني

(السَّجْعُ الواقع في الشَّعر)

ويسمى التصريح في البيت الأول، وعمل الكلام عليه علم البديع . وقد ذكره في "المثل السائر" في أعقاب الكلام على السجع في الكلام المنشور، وجعله على سبع مراتب .
المرتبة الأولى - وهي أعلاها درجة - أن يكون كل مصراع من البيت مستقلاً بنفسه، غير محتاج إلى ما يليه؛ ويسمى التصريح الكامل : كقول امرئ القيس :
أَقَاطِمَ مَهَلًا بِمَضِّ هَذَا التَّلَلِّ * وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرْمَعْتُ هَجْرِي فَأَجْمَلِ
فإن كل مصراع من البيت مفهوم المعنى بنفسه، غير محتاج إلى ما يليه في الفهم، وليس له به ارتباط يتوقف عليه .

المرتبة الثانية - أن يكون المِصْرَاعُ الأول مستقلاً بنفسه ، غير محتاج إلى الذي يليه إلا أنه مرتبط به، كقول امرئ القيس أيضا :

فَقَدْ نَبَّكَ مِنْ ذِكْرِي حَيْهَبٍ وَمَتَرٍ * يَسْقِطُ اللَّوْىُ بَيْنَ السَّخُولِ فَحَوْمِلِ

فإن المِصْرَاعَ الأول منه غير محتاج إلى الثاني في فهم معناه ، ولكنه لما جاء الثاني صار مرتبطا به .

المرتبة الثالثة - أن يكون الشاعر غيراً في وضع كل مصراع موضع الآخر، ويسمى التصريح المَوْجَع، كقول ابن سحَّاج :

مِنْ شُرُوطِ الصَّبْرِ فِي الْمَهْرَجَانِ * خِفَةُ الشَّرْبِ مَعَ خُلُوفِ الْمَكَانِ

فإنه لو جعل المِصْرَاعَ الثاني أولاً والآخر ثانياً، لساغ له ذلك .

المرتبة الرابعة - أن يكون المِصْرَاعُ الأول غير مستقل بنفسه، ولا يفهم معناه إلا بالثاني؛ ويسمى التصريح الناقص، وليس بمستحسن . كقول المتنبي :

مَعَانِي الشَّعْبِ طَيِّبًا فِي الْمَنَانِ * بِتَرْلَةِ الرِّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

فإن المِصراع الأول لا يستقل بنفسه في فهم معناه دون المِصراع الثاني .
المرتبة الخامسة - أن يكون التصريح في البيت بلفظة واحدة في الوسط والقافية،
ويسمى التصريح المكرر؛ ثم اللفظة التي يقع بها التصريح قد تكون حقيقة لا مجاز
فيها، كقول عبيد بن الأبرص :

وكلُّ ذِي غِيَّةٍ يَتُوبُ * وغائبُ الموتِ لا يَتُوبُ

وقد تكون اللفظة التي يقع بها التصريح مجازية كقول أبي تمام الطائي :

فَتَى كَانَ شَرًّا لِلْعَفَاءِ وَمَرْتَمًا * فاصْبَحَ لِلْهِنْدِيَّةِ الْبَيْضَ مَرْتَمًا

المرتبة السادسة - أن يكون المِصراع الأول معلقا على صفة يأتي ذكرها في أول
المِصراع الثاني؛ ويسمى التصريح المعلق . كقول امرئ القيس :

أَلَا أَيُّهَا الْبَيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي * يَصُحُّحُ وَمَا الْإِصْبَاحُ فَيْكَ بِأَمْتَلِ

فإن المِصراع الأول معلق على قوله بصُحِّحُ، وهو مستقبح في الصنعة .

المرتبة السابعة - أن يكون التصريح في البيت مخالفا لقافيته؛ ويسمى التصريح
المشطور، وهو أنزل درجات التصريح وأقبحها . كقول أبي نؤاس :

أَقْلِي قَدْ نَلَمْتُ عَلَى الذُّنُوبِ * وبالإقرار صُلْتُ مِنَ الْجُودِ

فإنه قد صرَّح في وسط البيت بالباء ثم في آخره باللام .

قلت وإنما أوردت هذا الصنف مع السجع وإن كان من خصوصيات الشعر
لأنه قد يقع بئله في الشرائذ الفقرة من الشراكليت من الشعر، فالتفردان كاليتين،
وأیضا فإن الشعر من وظيفة الكاتب :

الغرض الرابع

(في معرفة مقادير السجعات في الطول والقصر، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(السجعات القصار)

وهي ما صيغ من عشرة ألفاظ فما دونها، قال في "حسن التوسل": وهي تدل على قوة التحك وإحكام الصنعة، لا سيما القصير منها للغاية، وأقل ما يكون من لفظتين كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَيَسَّابِكَ فَطَهِّرْ﴾ وقوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَأَلْمِصْفَاتِ عَصْفًا﴾ وما أشبه ذلك، وأمثلة في القرآن الكريم كثير إلا أن الزائد على ذلك أكثر. كقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ وقوله: ﴿اقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيُقُولُوا يَحْمِرُّ مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْقَطِرُونَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ ونحو ذلك .

الضرب الثاني

(السجعات الطوال)

قال في "حسن التوسل": وهي ألد في السمع، يشوق السامع إلى ما يرد مترايدا على سمعه، وأقل ما تتركب من إحدى عشرة كلمة فما فوقها، وغالب ما تكون من خمس عشرة لفظة فما حولها، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ زَمَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ كَافُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرَاءٍ مِمَّنْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ فالأول من إحدى عشرة لفظة، والثانية من ثلاث

عشرة لفظة ، وقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فالأولى من أربع عشرة لفظة ، والثانية من خمس عشرة ، وقوله : ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا قَلِيلًا لَفُتِنْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُهُمْ إِذْ يَتَّبِعُهُمْ فِي بَهْمِهِمْ قَلِيلًا وَمِمَّا لَمْ يَأْمُرْ بِهِمْ لَبِئْسَ بِأَمْرٍ كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فالأولى عشرون لفظة ، والثانية تسع عشرة ، وهذا غاية ما انتهى إليه الطول في القرآن الكريم . وينبغي أن يكون ذلك نهاية الطول في السجع وقوفاً مع ما ورد به القرآن الكريم الذي هو أفصح كلام ، وأقوم نظام ، وإن كان الوزير ضياء الدين بن الأثير ، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وغيرهما ، قد صرحوا بأنه لا ضابط لأكثره .

وأعلم أنه قد جرت عادة كتاب الزمان ومصطلحهم أن تكون السجعة الأولى من افتتاح الولاية من تقليد أو توقيع أو غير ذلك قصيرة بحيث لا يمتد إلى آخرها السطر الثاني في الكتابة ليقع العلم بها بمجرد وقوع النظر على أول المكتوب . فعلى هذا فيختلف القصر فيها باختلاف ضيق الورق وسعته في العرض .

الفرض الخامس

(في ترتيب السجعات بعضها على بعض في التقديم والتأخير

باعتبار الطول والقصر ؛ وله حالتان)

الحالة الأولى

(أن لا يزيد السجع على صيغتين ؛ وله ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - أن تكون القرينتان متساويتين لا تزيد إحداهما على الأخرى كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ وقوله : ﴿ وَالسَّادِيَاتِ ذُنُوبُهُمَا ﴾

فَالْمُورِيَاتِ قَلِيلًا فَاَلْمُخِيرَاتِ صَبِيحًا فَأَتَيْنَ بِهِ قَعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) وأمثال ذلك .
 المرتبة الثانية - أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولى بقدر يسير كقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ فالأولى ثمان كلمات ، والثانية تسع ونحو ذلك ؛ أما إذا طالت الثانية عن الأولى طولاً يخرج عن الاعتدال ، فإنه يستقيم حينئذ ، ووجهه في "حسن التوسل" بأنه يبعد دخول القافية على السامع فيقل الالتذاذ بسماعها . والمرجع في قدر الزيادة والقصر إلى النوق .

المرتبة الثالثة - أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأولى . قال في "المثل السائر" :
 وهو عندي عيب فاحش ، لأن السمع يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول بحكم طوله ، ثم يحىء الفصل الثاني قصيرا فيكون كالشيء المبتور ، فيقل الإنسان عند سماعه كن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ؛ وفيما قاله نظر ، فقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَرْيَكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ الآيتين أن الأولى عشرون كلمة والثانية تسع عشرة ، بل قد اختار تحسين ذلك أبو هلال السكري في "الصناعتين" عتبا له بكثرة وروده في كلام النبوة كقوله صلى الله عليه وسلم للانصار : " إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَرَزِ ، وَيَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمِيعِ " وقوله : " الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَوْا دِمَائِهِمْ ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ " وقوله : " رَحِمَ اللَّهُ مَنْ قَالَ خَيْرًا فَنَقِمَ ، أَوْ سَكَتَ فَسَمِعَ " .

الحالة الثانية

(أن يزيد السجع على مجتئين . ولها أربع مراتب)

المرتبة الأولى - أن يقع على حد واحد في التساوى ، وهو مستحسن ، وقد ورد في القرمات الكريم بعض ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَأَحْصَابُ الْيَمِينِ مَا أَحْصَابُ الْيَمِينِ

فِي مِذْبَحٍ مَّخْضُودٍ وَطَلَحَ مَتَّضُودٍ وَظَلَّ مَمْدُودٍ ﴿ فهذه السجعات الثلاث مركبة من لفظتين لفظتين .

المرتبة الثانية - أن تكون الأولى أقصر والثانية والثالثة متساويتين كقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ يَّعِيدُهُمْ سَمِعُوا لَهُمْ صَيْغًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ فالأولى من ثمان كلمات ، والثانية والثالثة من تسع تسع .

المرتبة الثالثة - أن تكون الأولى والثانية متساويتين ، والثالثة زائدة عليهما ، وقد أشار إلى هذه المرتبة في "حسن التوسل" حيث قال : فإن زادت القرائن على اثنتين فلا يضر تساوى القريئين الأولين وزيادة الثالثة ، ولم يمثل لها .

المرتبة الرابعة - أن تكون الثانية زائدة على الأولى ، والثالثة زائدة على الثانية . قال في "المثل السائر" : وينبغي أن تكون في هذه الحالة زيادة الثالثة متميزة في الطول على الأولى والثانية أكثر من تميز الثانية على الأولى . ثم قال : فإذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشرة لفظة ، ومثل له في "حسن التوسل" بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ فالأولى من ثمان كلمات ، والثانية من تسع ، والثالثة من عشر ، ومثل له في "المثل السائر" بقوله في وصف صديق : فقلت : الصديق من لم يعتصم عنك بخالف ، ولم يأمالك معاملة الخالف ، وإذا بلغته أذنه وشاية أقام عليها حد السارق أو القاذف ؛ فالأولى : وهي لم يعتصم عنك بخالف والثانية بعدها أربع كلمات ، والثالثة عشر كلمات . ثم قال : وينبغي أن يكون ما يستعمل من هذا القليل ، فإن زادت الأولى والثانية على هذه العدة زادت

الثالثة بالحساب؛ وإن نقصت الأولى والثانية، فكذلك . لكن قد ضبط في "حسن التوسل" الزيادة في الثالثة بأن لا يجاوز المثل، والأمر فيها بين الضابطين قريب؛ ولا ينفى حكم الرابعة في الزيادة مع الثالثة. قال في "حسن التوسل": ولا بد من الزيادة في آخر القرائن .

الفرض السادس

(فما يكون فيه حسن السجع وقبحه)

أما حسنه ، فيُعتبر فيه بمد ما يقع فيكون به تحسين الكلام من أصناف البديع ونحوها بأمر آخرى .

منها أن يكون السجع يرثا من التكلف، خاليا من التمسف، محولا على ما يأتي به الطبع وتبديده الغريزة ، ويكون اللفظ فيه تابعا للمعنى ، بأن يقتصر من اللفظ على ما يحتاج إليه في المعنى دون الإتيان بزيادة أو قص تدعو إليه ضرورة السجع ، حتى لو حصلت زيادة أو قص بسبب السجع دون المعنى ، نخرج السجع عن حيز المدح إلى حيز اللم .

ومنها أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة، لا غثة ولا باردة، موهبة المعنى، حسنة التركيب، غير قاصرة على صورة السجع الذي هو تواطؤ الفقر، فيكون كمن شس أعوابا من الكُرف ، أو نظم عقلا من انحرز الملقون . قال في "المثل السائر": وهذا مقام تزَلُّ عنه الاحتمام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بمد الواحد . قال : ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا، ولولا ذلك كان كل أديب متجاعا إذ ما منهم من أحد إلا وقد يتيسر عليه تأليف ألفاظ مسجوعة في الجملة .

ومنها أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلّت عليه أحدها ، لأن اشتغال السجعتين على معنى واحد يمكن أن يكون فى إحداهما بمفردها هو عين التطويل المذموم فى الكلام ، وهو الدلالة على المعنى بالفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها على ما هو مقترن فى علم البيان . قال فى "المثل السائر" : فلا يكون مثل قول الصابى فى وصف مُدَبَّر : "يسافر رأيه وهو دان لم يترج ، ويسير تدبيره وهو ثاو لم يترج" ولو قال : يسافر رأيه وهو دان لم يترج ، ويُخَيَّنُ الحراح فى علوه وسيفه فى النعمد لم يترح ، لَسَلِمَ من مُجَنِّة التكرار : فإنه تصير كل جملة محتوية على معنى بجماله .

ومنها أن يقع التحسين فى نفس الفواصل ، كقولهم : إذا قَلَّتِ الأنصار ، كَلَّتِ الأبصار ، وقولهم : ما وراء الخلقِ الدميم ، إِلَّا الخلقُ الدميم ، ونحو ذلك .

ومنها أن يقع فى خلال السجعة الطويلة قرائن قصار فتكون جميعا فى جميع ، كقوله تعالى : (رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) وقوله : (وَلَسْتُ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُثَمِّصُوا فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنَى حَمِيدٌ) فإن قوله : (على أموالهم) وقوله : (على قلوبهم) مجتمعان داخلتان فى السجعة التى آخرها (حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) وقوله : (بأخذه) وقوله : (تُثَمِّصُوا فِيهِ) مجتمعان داخلتان فى السجعة التى آخرها : (غَنَى حَمِيدٌ) وعدة العسكرة منه قولهم : عاد تَعْرِضُكَ بَصْرِيحًا ، وَتَمْرِضُكَ تَصَحِيحًا .

وأما قبجه فيعتبر بأمور .

منها التجميع ، وهو أن تكون فاصلة الجزء الأول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثانى كما حكى قدامة : أن كتبنا كتب فى جواب كتاب ، وصل كتابك فوصل به .

ما يستفيد الحق، وإن كان قديم العبودية، ويستشرق الشكر، وإن كان سالف فضلك لم يبق شيئا منه، فإن العبودية بعيلة عن مشاكلة منه .

ومنها التطويل ، فيما ذكر قدامة وغيره : وهو أن يبيء الجزء الأول طويلا فيحتاج إلى إطالة الثاني بالضرورة . كما حكى قدامة أن كاتباً كتب في تعزية : إذا كان الحزون في لقاء مثله كبير الراحة في العاجل ، وكان طويل الحزن راتبا إذا رجع إلى الحقائق وغير زائل . قال في "الصناعتين" : وذلك أنه لما أطال الجزء الأول ، وعلم أن الجزء الثاني ينبغي أن يكون مثله أو أطول ، احتاج إلى تطويل الثاني فأتى باستكراه وتكلف . قال في "مواد اليان" والإطالة بقوله وغير زائل : .

الأصل الخامس

(حسن الاتباع ، والقدرة على الاختراع)

وأعلم أن لكاتب الإنشاء مسلكين :

المسلك الأول

(طريقة الاتباع)

وهي نظر الكاتب في كلام من تقدمه من الكُتَّاب ، وسلوك منهمجهم ، واقتفاء سبيلهم ، وسماها ابن الأثير التقليد ؛ وهي على صنفين .

الصنف الأول

(الاتباع في الألفاظ)

وهو اعتماد الكاتب على ما رتب فيه من الكُتَّاب ، وأنشاء سواه من أهل صناعة النثر ، بأن يعتمد إلى ما أنشاء أفاضل الكُتَّاب ورتبه علماء الصناعة : من نثر أو نظم فيأخذ به برتبه ، ويأتي عليه بصيغته ؛ وغايته أن يكون ناسخا ناقلا لكلام غيره ، كما

له . ولمثل ذلك تُوضَّح الدساتير ، وتُكوَّن الدواوين . على أنه ربما خُيِّرَ وبَدِّلَ ، وحُرِّفَ ومُحَمَّدَ ، وأزال لللفظ عن وضعه ؛ وأحال المعنى عن حكمه . وبعضهم ربما خلطه الألفاظ والخوف من أن يقال أخذ كلام فلان برأيه ، فبدل إلى كلام غيره ، فالتقط من كل مكان معجنتين أو معجمات ، ورتب بعضها على بعض حتى تقوم بمقصوده ، ويتهى إلى مراده .

فإن كان لطيف الذوق ، حَسَنَ الاختيار ، رائق الترتيب ، فاختار من خلال السجع لطيفه ، وأحسن رَصْفَهُ وتَأْلِيفَهُ ، جاء بهجاً رائعاً . لأنه أتى من كل كلام بأحسنه ، إلا أن فيه إخراج الكلام عن وضعه الذى قصده الناثر ، وتفريق ماؤن من كلام الأفاضل ، وتبديد شمله ، وخروج الكلام عن أن يُعرَفَ قائله ، ويعلم منشئه ، فيقع من القلوب بمكان صاحبه ويهتدى بهديه ، ويسج على منواله .

وإن لم يكن لطيف الذوق ، ولا حَسَنَ الاختيار ، جاء مالفقه من كلام غيره رثاً ركيكاً ، نابعاً عن الذوق ، يَمِيداً عن الصنعة ، يُعاد من النسخ إلى النسخ ، وأخرج الكلام عن موضوعه ، وأفسده في وضعه وتركيبه . فإن صحبه التصحيف والتحريف فذلك الطامة الكبرى ، والمُصِيبَةُ العظمى . ثم لا يكتفى بذلك حتى يتجبح به ، ويستقد أن ذلك بين الإنشاء وحقيقته ، محجبا في ذلك بقول الحريرى : "إن صناعة الحِسَابِ موضوعة على التحقيق ، وصناعة الإنشاء مبنية على التلقيق" . ظاناً أن التلقيق هو ضم معجمات متظلمة ، وقترات مؤلفة بعضها إلى بعض . ولم يعلم أن المراد بالتلقيق ضم لفظة إلى أختها ، وإضافة كلمة إلى مشاكلتها . وشتان ما بين التلقيقين ، وبعداً لما بين الطرفين :

وللزُّبُورِ والبَّازِىَ جَمِيعاً * لَدَى الطَّيْرَانِ أَجْنَحَةٌ وَخَفَقٌ
ولِكِنْ يَنْ مَّا يَصْطَاذُ بَازٍ * وَمَا يَصْطَاذُهُ الزُّبُورُ فَرْقٌ

وقد عابوا أخذ المعنى إذا كانت ظاهرة مكشوفة لما ظنك بمن يأخذ الكلام برمته، واللفظ بصورته، فيصير ناسخا لكلام غيره، ونقله له؟ فأتى فضيلة في ذلك؟ وقد قيل من أخذ معنى بلفظه كان سارقا، ومن أخذ بعض لفظه كان سائلا، ومن أخذه فكساه لفظا من عنده كان أولى به ممن تهتمه، وأين من هو أولى بالشيء ممن سبقه إليه ممن يعد سارقا وسائلا؟ ويقال إن أبا عذرة الكلام من سبك لفظه على معناه. ومن أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب. هنا فيمن أخذ صيغة أو صيغتين في خطبة أو رسالة، أو بيتا أو بيتين في قصيدة وما قارب ذلك؛ أما من أخذ القصيدة بكلمة، أو الخطبة أو الرسالة برمها، أو لفظها من خطب أو رسائل فذلك إنما يعد ناسخا إن أحسن النقل، أو ماسخا إن أفسده.

وأعلم أن الباطر الماهر والشاعر المقلق قد يأتي بكلام سبقه إليه غيره، فيأتي بالبيت من الشعر أو القرينة من النثر أو أكثر من ذلك بلفظ الأول من غير زيادة ولا قصان، أو بتغيير لفظ يسير، وهذا هو الذي يسميه أهل هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر. وقد سئل أبو عمرو بن العلاء عن الشعراء يتفقدان على لفظ واحد ومعنى، فقال: عقول رجال توافت على ألسنتها.

والواقع من ذلك في كلامهم على قسمين.

القسم الأول

(ما وقع الاتفاق فيه في المعنى واللفظ جميعا)

كقول الفرزدق:

وَعَرٌّ قَدْ وَسَقَتْ مُشَمَّرَاتٍ * طَوَالِحَ لَا تُطْلِقُ لَهَا جَوَابَا
بِكُلِّ نَيْيَةٍ وَبِكُلِّ قَسْرِ * غَرَابَهُنَّ تَنْقِيبُ أَنْقِسابَا
بَلَّغْنَ الشَّمْسَ حِينَ تَكُونُ شَرْقَا * وَمَسْقَطُ رَأْسِهَا مِنْ حَيْثُ غَابَا

وواقفه جرير فقال مثل ذلك من غير زيادة ولا نقص . وروى أن عمر بن أبي ربيعة أشد ابن عباس رضى الله عنه :

* تَسْطُ غَدَا دُرْجِيَانَا *

فقال ابن عباس رضى الله عنه :

* وَلَلْدَارُ بَعْدَ غَدٍ أَبَدٌ *

فقال عمر : والله ما قلتُ إلا كذلك . قال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" :
وأشدت المصاحب إسماعيل بن عباد رحمه الله :

* كَانَتْ سَرَاةُ النَّاسِ تَحْتَ أَظْلَلِهِ *

فسبقني وقال :

* فَتَنَّتْ سَرَاةُ النَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ *

وكذلك كنتُ قلتُ . قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في كتابه "المثل السائر" : ويحكى أن امرأة من عقيل يقال لها ليل ، كان يتحدث إليها الشباب ، فدخل الفرزدق إليها وجعل يحادثها ، وأقبل فتى من قومها كانت تآلفه فدخل إليها فاقبلت عليه وترك الفرزدق ، فعاظه ذلك فقال للفتى : أتصاري؟ فقال : ذاك إليك ، فقام إليه فلم يلبث أن أخذ الفرزدق فصرعه وجلس على صدره ففطرط ، فوثب الفتى عنه وقال يا أبا فراس : هذا مقام المائد بك ، والله ما أردت ما جرى ، قال : ويحك ! والله ما بي أنك صرعتني ولكن كأتى بآبن الأمان ، (يعنى جريرا) وقد بلغه خبرى ، فقال يهجوئى :

جَلَسْتُ لَيْلًا لِيَتَحَطَّى بِقُرْبِيَا * نَحْنَاكَ دُبْرًا لَا يَزَالُ يَمُوتُ
فَلَوْ كُنْتَ ذَا حَرَمٍ شَدَدَتْ وَكَاةُهُ ، * كَمَا شَدَّ جُرْبَانُ الدَّلَاصِ قَبُوتُ

فما مضى إلا أيام حتى بلغ جريراً الخبر، فقال فيه هذين البيتين . قال :
وهذا من أغرب ما يكون في هذا الموضع وأعجبه ! قال في "الصناعتين" : وإذا كان
القوم في قبيلة واحدة، في أرض واحدة، فإن خواطرهم تقع متقاربة، كما أن أخلاقهم
وشماغلهم تكون متضاربة . قال في "المثل السائر" : ويقال إن القرزديق وجريرا كانا
ينطلقان في بعض الأحوال عن ضمير واحد . قال : وهذا عندي مستبعد، فإن
ظاهر الأمر يدل على خلافه، والباطن لا يعلمه إلا الله تعالى، وإلا فإذا رأينا شاعرا
معتق الزمان قد قال قولاً ثم سمعناه من شاعر آتٍ من بعده، علمنا بشهادة الخلال
أنه أخذ منه . وهب أن الخواطر تتفق في استخراج المعاني الظاهرة المتداولة،
فكيف نتفق الألسنة أيضاً في صوغ الألفاظ ؟ وكلام العسكري في "الصناعتين"
يوافق بالغب على المتأخر، وإن ادعى أنه لم يسمع كلام الأول في مثل ذلك .

القسم الثاني

(ما وقع الاختلاف فيه في المعنى وبعض اللفظ، وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما اختلف فيه المعنى وأكثر اللفظ)

كقول أعرى القيس :

وَقُوفاً بِهَا حَصَى عَلَى مِطْيَئِهِمْ * يَقُولُونَ : لَا تَهْلِكْ أُمِّي، وَتَجَلِدْ

وقول طرفة :

وَقُوفاً بِهَا حَصَى عَلَى مِطْيَئِهِمْ * يَقُولُونَ : لَا تَهْلِكْ أُمِّي، وَتَجَلِدْ

فالتخالف بينهما في كلمة القافية فقط .

وقول البيهت :

أترجو كليب أن يحيى جديتها * يحير ، وقد أعيا كليباً قد عيها ؟

وقول الفرزدق :

أترجو ربيع أن يحيى صغارها * يحير وقد أعيا ربيعاً بكارها ؟

فالتخالف بينهما في موضعين من البيت ، كلمة القافية وأسم القبيلة .

وقول بعض المتقدمين يمدح معبلاً صاحب الغناء :

أجاد طويس والسريحي بده * وما قصبات السبق إلا لمعبد

وقول الفرزدق بده :

حاشن أصناف المفتين جملة * وما قصبات السبق إلا لمعبد

فاختلفا في النصف الثاني ، واختلفا في النصف الأول . إلى غير ذلك من الأسماء

التي وقعت خواطر الشعراء عليها ، وتوافقت عقولهم عندها .

الضرب الثاني

(ما اتفق فيه المعنى مع يسير اللفظ)

فن ذلك قول البحتري في وصف غلام :

فوق ضئف الصغيران وكل الأمر إليه ، ودون كبد الكبار

أخذه من قول أبي نواس :

لم يحف من كبر عما يراد به * من الأمور ولا أزرى به الصغر

وقول أبي تمام :

ولم أملك فضياً يشعري * ولكنني مدحت بك المديح

أخذه من قول حسان بن ثابت ، يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :
 ما لبث مَلَحْتُ عَمْدًا ! بِمَقَالِي * لَكِنْ مَلَحْتُ مَقَالِي بِمَحْمَد !
 وقول أبي الطَّيِّب :

أين أزمعتَ أيهاذا المَحَمَّامُ * نَحْنُ نَبْتُ الرِّبَاءِ، وَأَنْتَ النِّعَامُ
 أخذه من قول بشار :

كَأَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْيِبُ عَنْهُمْ * نَبَاتُ الْأَرْضِ أَخْطَاءَ الْفِطَارِ

الصف الثاني

(التقليد في المعاني)

وهذا مما لا يستغنى عنه ناظم ولا ناثر . قال أبو هلال العسكري رحمه الله في كتابه
 "الصناعتين" : ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقتضهم
 والصَّبَّ على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها ، أن يكسوها ألفاظا من
 عندهم ، ويرزوها في معارض من تأليفهم ، ويوردوها في غير حليتها الأولى ، ويزيدوا
 عليها في حسن تأليفها وجودة تركيبها ، ويكال حليتها ومعرضها ، فإذا فعلوا ذلك فهم
 أولى بها من مسبق إليها . قال : ولولا أن القائل يؤدي ما سمع لما كان في طاقته
 أن يقول ، وإنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين . وقد قال أمير المؤمنين
 على كرم الله وجهه ! : لولا أن الكلام يعاد ، لَفِدَّ . ومن كلام بعضهم : كلُّ
 شيء إذا تَبَيَّنَ قَصْرُ إلا الكلام ، فإنه إذا تَبَيَّنَ طَال ، والمعاني مشتركة بين العقلاء ،
 وربما وقع المعنى الجيد للسوقي والبطلاني والريجي . وإنما يتفاضل الناس في الألفاظ
 وروصفها ، وتأليفها ونظمها . وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تناول المعاني

بينهم ، فليس على أحد فيه عيبٌ إلا إذا أخذ بكل لفظه ، أو أفسده في الأخذ وقصر فيه عن تكملة . قال في "الصناعين" : وما يُعرف بالتقدم معنى شريف إلا نازعه فيه المتأخر ، وطلب الشركة فيه معه ، إلا بيت عشرة :

وَحَلَا الذَّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ * غَرِدًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمِ
هَرَبَ جَاءَ يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ * قَدَحَ الْمِكْبَ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ

فإنه مأثور في علم جودته . قال : وقد رآه بعض المحققين فافضح مع العلم بأن ابتكار المعنى والسبق إليه ليس فيه فضيلة ترجع إلى المعنى ، وإنما ترجع الفضيلة فيه إلى الذي ابتكره وسبق إليه ، فالمعنى الجيد جيد ، وإن كان مسبوqa إليه ، والوسط وسط ، والردى ردىء وإن لم يكن مسبوqa إليهما . على أن بعض علماء الأدب قد ذهب إلى أنه ليس لأحد من المتأخرين مسمى مُبْتَدِع ، محمداً لذلك بأن قول الشعر قديم مذكور في اللغة العربية ، وأنه لم يبق معنى من المعاني إلا وقد طُرِق مراراً . قال في "المثل السائر" : والصحيح أن باب الابتداء مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن الذي يحجر على الخواطر وهي قاذفة بما لا نهاية له ؟ إلا أن من المعاني ما يتساوى فيه الشعراء ولا يُطْلَق عليه اسم الابتداء لأول قبل آخر لأن الخواطر تأتي به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأول . كقولهم في النزل :

حَفَّتِ الدِّيَارُ وَمَاحَتَتْ * آخَارُهُنَّ مِنَ الْقُلُوبِ

وقولهم في المديح : إن عطاءه كالبحر أو كالسحاب ؛ وإنه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد ؛ وإنه يحود بما له من غير مسألة ؛ وأشياء ذلك .

وقولهم في المراثي : إن هذا الرزء أول حادث ؛ وإنه استوى فيه الأبعد والأقارب ؛ وإن الذاهب لم يكن واحداً وإنما كان قبيلة ؛ وإن بعد هذا الذاهب لا يُمدُّ للنية ذنب ؛ وما أشبه ذلك . وكذلك سائر المعاني الظاهرة التي تتوارد عليها الخواطر من

غير مُكفَّة؛ ويستوى في إيرادها كلُّ بارع . قال : ومثل ذلك لا يُطْلَقُ على الآخر فيه اسم السرقة من الأول ، وإنما يطلق اسم السرقة في معنى مخصوص . كقول أبي تمام :

لَا تُشْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ * مَثَلًا شُرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ ،
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لِنُورِهِ * مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالْتِبَاسِ

فإن هذا معنى ابتدأه مخصوص بأبي تمام ، وذلك أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السيلية التي مطلعها :

* مَا فِي وَفْوِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسِ *

أتى إلى قوله منها :

إِقْدَامُ عَمْرُو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ، * فِي جِلْمٍ اخْتَفَى فِي ذِكَاةِ إِيَّاسِ

فقال الحكيم الكندي : وأى غفر في تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب ؟ فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه إياه بعمر وحاتم وإياس . فاللحاح يشهد بابتداعه هذا المعنى ، فمن أتى بعده بهذا المعنى أو يجره منه كان سارقا له ، وكذلك كلُّ ما جرى هذا المجرى . ولم يزل الشعراء والخطباء يقتبسون من معاني من قبلهم ، ويننون على بناء من تقدمهم .

فما وقع للشعراء من ذلك قول أبي تمام :

نَلَقْنَا رَجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَالْأَمْنِ * وَتِلْكَ الْفَوَاقِي لِلْبُكَاءِ وَالْمَاتَمِ

أخذه من قول عبد الله بن الزبير لما قتل مُصعب بن الزبير : وإنما التسليم والسُّلُوكُ لِحُزْمَةِ الرِّجَالِ ، وإن الجَزَعِ وَالْهَلَعِ لِرَبَاتِ الْحِجَالِ ، وقوله أيضا : تَسَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جَسْمِي نَحِيقًا * كَأَنَّ الْمُجَدَّ يَدْرُكُ بِالنَّصْرَاعِ

أخذه من قول زياد ابن أبيه لأبي الأسود الدؤلى : لولا أنك ضعيف
لاستعملتك ، وقول أبي الأسود له في جواب ذلك : إن كنت تريدنى للصراع فإن
لا أصلح له وإلا فغير شديد أن أمر وأنهى ، وقوله من قصيدة البيت المنتقم :

أطال يدي على الأيام حتى * جزيتُ صروفها صاماً بصاع

أخذه من قول أمير المؤمنين على كرم الله وجهه :

إِنْ قُتِلَ أَوْ يُمَكِّنَ اللَّهُ مَتَكًا ، * نَكَلَ لَكَا صَاً بِصَاعِ الْمَكَايِلِ

وقول أبي الطيب المتنبي :

وإذا كانت النفوس كبارا * تعبت في مرادها الأجسام

أخذه من قول أرسطوطاليس : إذا كانت الشهوة فوق القدرة ، كان هلاك
الجسم دون بلوغ الشهوة .

وقول الخاسر :

مَنْ رَاقِبَ النَّاسَ مَاتَ نَحْمًا * وَفَارَ بِاللَّدَةِ الْجَسُورُ

أخذه من قول بشر :

مَنْ رَاقِبَ النَّاسَ لَمْ يَنْظُرْ بِحَاجَتِهِ ، * وَفَارَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاكِهُ الْلَّهِجُ

فلما سمع بشر بيت الخاسر ، قال : ذهب أبى الفاعلة يبقى . ومثل هذا وأشباهه
مما لا ينحصر كثرة ، ولا يكاد أن يخلو عنه بيت إلا نادرا .

ومما وقع للشك من ذلك ما كتب به إبراهيم بن العباس من قوله في فصل
من كتاب : إذا كان للحسن من الثواب ما يقبته ، وللبي من العقاب ما يقبته ،
أزداد الحسن في الإحسان رغبة ، وأتقاد المنيء للحق رغبة . أخذه من قول على
كرم الله وجهه : يحب على الولي أن يتعهد أموره ، ويتفقد أهوائه ، حتى

لا يَتَّخِذْ عَلَيْهِ إِحْسَانٌ مُحْسِنٍ، وَلَا إِسَاءَةٌ مُعِيٍّ؛ ثُمَّ لَا يَتْرِكْ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِغَيْرِ جَزَاءٍ،
فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ تَهَانُونَ الْمُحْسِنُ وَأَجْرًا لِمُعِيٍّ، وَفَسَادَ الْأَمْرِ، وَضَاعَ الْعَمَلُ .

وما كتب به بعض الكُتَّاب في فصل وهو : لو سَكَتَ لِسَانِي عَنْ شُكْرِكَ، لَنُطْلَقَ
أُتْرُكُ عَلَيَّ . وفي فصل آخر : ولو جَمَدْتُكَ إِحْسَانُكَ، لَا كَذَبْتُنِي آثَارُكَ، وَتَمَّتْ عَلَيَّ
شَوَاهِدُهَا . أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ نَصِيبٍ :

« وَلَوْ سَكَتُوا أَثَبْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ » .

وما كتب به أحمد بن يوسف من فصل، وهو : أَحَقُّ مَنْ أَثَبْتَ لَكَ الْعِذْرَ فِي حَالِ
شُغْلِكَ، مَنْ لَمْ يَجُلْ سَاعَةً مِنْ بَرِّكَ فِي وَقْتِ فَرَاغِكَ . أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ ! : لَا تَكُونَنَّ كَمَنْ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرٍ مَا أُولَى، وَيَلْتَمِسُ الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ .

والاقتباس من الأحاديث والآثار كثير، وقد تَسَدَّمَ الكلام عليه قبل ذلك .
قال في «الصناعتين» : وَمِنْ أَخْبَى أَسْبَابِ السَّرِقَةِ أَنْ يَأْخُذَ مَعْنَى مَنْ نَظَّمَ فَيُورِدُهُ
فِي شَيْءٍ أَوْ مِنْ تَرْفِيؤِ رَدِّهِ فِي نَظْمٍ؛ أَوْ يَتَقَلَّ الْمَعْنَى الْمُسْتَعْمَلُ فِي صِفَةِ شَيْءٍ فَيَجْعَلُهُ
فِي مَبْدِيعٍ . أَوْ فِي مَبْدِيعٍ فَيَقْتَلُهُ إِلَى وَصْفٍ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَصِلُ لِهَذَا إِلَّا الْكِبَرُ الْكَامِلُ
الْمَقْتَمُ .

وقال في «المثل السائر» : أَشْكَلُ مَرَقَاتِ الْمَعَانِي، وَأَدْقُهَا، وَأَغْرَبُهَا، وَأَبْجَدُهَا
مَنْهَبًا أَنْ يَتَّخِذَ الْمَعْنَى بِحُزْنٍ مِنَ اللَّفْظِ . قَالَ : وَفَإِنَّ مِمَّا يَصْعُبُ جَدًّا وَلَا يَكَادُ
يَأْتِي إِلَّا قَلِيلًا، وَلَا يَنْتَفِعُنْ لَهُ وَيُسْتَخْرَجُهُ مِنَ الْأَشْهُارِ إِلَّا بَعْضُ النُّوَاطِرِ دُونَ
بَعْضٍ .

فَإِنَّ ذَلِكَ قَوْلُ أَيْ تَمَامٌ فِي الْمَدْحِ :

فَيَمَاتُ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مِيتَةً « تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذَا قَاتَهُ النَّصْرُ

أخذه من قول عروة بن الورد من شعراء الحماسة :

وَسَبَّ يَكْ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقَرَّرًا * من المال، يَطْرَحُ نفسه كُلَّ مَطَرَج
لِيُبلِّغَ عُدْرًا . أَوْ يَنَالَ رَغِيَّةً * وَيُبلِّغُ قَمِيصَ عُدْرَهَا مِثْلُ مَنَجَج

فعروة جعل أجهاده في طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ، وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذي هو غاية أجهاد المجتهد في لقاء العدو قائما مقام الانتصار .
قال في "المثل السائر" : وكلا المعنيين واحد ، غير أن اللفظ مختلف . وأظهر من ذلك
أخذا قول القائل :

وقد عَزَى ربيعة أن يَوْمًا * عَلَيْهَا مِثْلَ يَوْمِكَ لَا يَعُودُ

أخذه من قول ابن المقفع في باب المرائي من الحماسة :

وقد جَرَّ قَعْمًا قَعْدُنَا لَكَ أَنَا * أَمِنَا عَلَى كُلِّ الرَّأْيَا مِنَ الْجَزَعِ

على أنه ربما وقع للتأخر معنى سبقه إليه من تقدمه ، من غير أن يُلمَ به المتأخر ولم
يسمعه . ولا استبعاد في ذلك كما يستبعد أخلاق اللفظ والمعنى جميعا . قال أبو هلال
المسكوي : وهذا أمر قد عرفته من فمى فلا أمتري فيه ! وذلك أنى كنت
عملت شيئا في صفة النساء ، قلت :

* سَقَرْنَ بَلُورًا وَأَتَقَبْنَ أَهْلَةً *

وظننت أنى لم أسبق إلى جمع هذين التشبيهين حتى وجلت ذلك بعينه لبعض
البغداديين فكثرتجني ، وعزمت على أن لا أحكم على المتأخر بالسرقه من المتقدم
كما حتما .

إننا نقرر ذلك فسرقه المعنى المجرد عن اللفظ لا نخرج عن آئني عشر ضربا .

الضرب الأول

أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ، ولا يكون هو إياه . قال في "المثل السائر" : وهذا من ادق السرقات مئبها وأحسنها صورة ، ولا يأتي إلا قليلا . فمن ذلك قول المتنبي :

وإذا أتتكَ مَنَعَتِي من تَأْقِصْ ، * فهي الشهادة لي بأني كَامِلٌ
وهذا المعنى أستخرجه المتنبي من قول بعض شعراء الحماسة ، وإن لم يكن صريحا فيه حيث يقول :

لَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَتَى * بَغِضٌ لِي كُلِّ امْرِئٍ غَيْرِ طَائِلٍ
قال في "المثل السائر" : والمعرفة بأن هذا المعنى من ذلك المعنى 'عسر غامض غير متبين' إلا لمن أهرق في ممارسة الشعر ، وخاص على استخراج المعاني . قال : وبيان ذلك أن الأول يقول : إن بغض الذي هو غير طائل إياي قد زاد نفسي حبا لي أي قد بجلها في عيني وحسنها عندي كونه الذي هو غير طائل متقصي ؛ والمتنبي يقول : إن ذم الناقص إياه بفضله كتحسين بغض الذي هو غير طائل نفس ذلك عنده .

وأظهر من ذلك أخذنا من هذا الضرب قول البحتري في قصيدة يفخر فيها بقومه :
شِيْطَانٍ قَدْ قَتَلَ السَّلَاحُ طَلِيحَا * وعداهما رأى السميع المُنِيرِ
ربكا القنأ من بعد ما حملأ القنأ * في عسكري متحامي في عسكري
أخذه من قول أبي تمام في وصف بجيل :

رَعَتْهُ الْقَبَائِي بِسَدِّ مَا كَانَ حَقْبَةً * رَعَاهَا وَمَاءُ الرُّوضِ يَنْهَلُ سَاكِبُهُ

فأبو تمام ذكر أن الجمل رعى الأرض، ثم سار فيها فرعته أى أهرقته، فكانها فعلت به مثل ما فعل بها، والبُحْتَرِيُّ قله إلى وصف الرجل يملؤ السن والهرم، فقال: لأنه كان يحمل الرمح في القتال، ثم صار يركب الرمح أى يتوكأ منه على عصا، كما يفعل الشيخ الكبير.

وأوضح من ذلك وأكثر بيانا في الاخذ قول البُحْتَرِيِّ أيضا:
أَتَأْتِكَ مَا كَانَتِ الشَّبَابُ مُقَرَّبِي * إِلَيْكَ، فَأَلْحَى الشَّيْبُ إِذْ هُوَ مُبْعِدِي
أخذه من قول أبي تمام:
لَا أَطْلُمُ النَّأْيَ، قَدْ كَانَتْ خَلَاثُهَا * مِنْ قَبْلِ وَشِكِ النَّوْءِ عِنْدِي نَوًى قُلُثَا

الضرب الثاني

أن يؤخذ المعنى فيعكس، قال في "المثل السائر": وذلك حسن يكاد يخرج به حسنه عن حد السرقة.

فمن ذلك قول أبي نؤكيس:
قالوا: عَشِقْتَ صَغِيرَةً، فَأَجَبْتُهُمْ * أَشْبَهِي الْمَطْلَى إِلَى مَا لَمْ يَرْكَبِ.
كَمْ يَنْفَحُ حَبَّةَ لَوْلُو مَقْشُوبَةٍ * نَظَلْتُ وَحَبَّةَ لَوْلُو لَمْ تُقَبِّبْ؟
وقول ابن الوليد في عكسه:

إِنَّ الْمَطِيَّةَ لَا يَلْدُ رُكُوبُهَا * حَتَّى يُكَلَّلَ بِالزَّمَامِ وَتُرْجَا.
وَالدَّرَّ لَيْسَ بِسَافِعٍ أَرَابَهُ، * حَتَّى يَزِينَ بِالنِّظَامِ وَيُجَبَّا.

ومنه قول ابن جعفر:

وَلَا بَدَأَ لِي أَنِهَا لَا تُرِيدُنِي * وَأَنْ هَوَاهَا لَيْسَ عَنِّي بِمُجَلِّي،
تَمَنَّيْتُ أَنْ تَهْوِيَ سِوَايَ لَهَا * تَكُونُ صَبَابَاتِ الْهَوَى قَرَقِلِي

وقول غيره في عكسه :

وَلَقَدْ سَرَّني صُلُوبُكَ عَنِّي * فِي طَلَائِكَ ، وَأَمْتَانِكَ مِنِّي
حَذَرًا أَنْ أَكُونَ مِفْتَاحَ غَيْرِي ، * وَإِذَا مَا خَلَوْتُ ، كُنْتَ التَّمَنِّي

أما ابن جعفر فإنه ألقي عن منكبيه رداء الغيرة ؛ وأما الآخر ، فإنه جاء بالضد
من ذلك وبالغ غاية المبالغة .

ومنه قول أبي الشيص :

أَحَدُ الْمَلَامَةِ فِي هَوَاكَ لَذِيذَةٍ * شَفَقًا بِذِكْرِكَ ، فَلِيَمْنِي الْيَوْمُ

وقول ابن الطيب في عكسه :

أَحِبُّهُ وَأَحِبُّ فِيهِ مَلَامَةً ، * إِنَّ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ

ومنه قول أبي تمام :

وَلَوْلَا خِلَالُ سَهْنِ الشَّعْرِ مَا دَرَيْ * بُعَاةُ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تُوقَى الْمَكَارِمُ

وقول الوزير ضياء الدين بن الأثير في عكسه :

لَوْلَا الْكَرَامُ وَمَا سَوَّاهُ مِنْ كَرَمٍ ، * لَمْ يَدْرِ قَاتِلُ شَعْرِ كَيْفَ يَتَّبَحُ

الضرب الثالث

(أَنْ يُؤْخَذَ بَعْضُ الْمَعْنَى دُونَ بَعْضٍ)

فمن ذلك قول أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ يمدح عبد الله بن جندب :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لَأَكْرَمِي إِنْ جَوَّهَتْ * يَسْتَلُّ ، وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ يَزِينُ

وقول أبي تمام بعده :

تَدْعُنِي عَطَايَاهُ وَقَرًّا ، وَهِيَ إِنْ شُهِرَتْ ، * كَانَتْ فَخَارًا لِمَنْ يَسْقُوهُ مُؤْتَفَا

مَا زِلْتُ مَتَظَرًّا أَتَجَرَّبُهُ زَمَنًا * حَتَّى رَأَيْتُ سُؤْلًا يُحْتَنَى شَرَفًا

فأمية بن أبي الصلت أتى بعينين : أحدهما أن عطامك زين ، والآخر أن عطاة
غيرك ليس بزین ، وأبو تمام أتى بالمعنى الأول فقط .

ومنه قول علي بن جبلة :

وأقل ما لم يحويه مُتَقَدِّمٌ ، * وإن نال منه آخرٌ فهو تابعٌ

وقول أبي الطيب بعده :

تَرَفَّعَ عَنْ عُونِ الْمَكَارِمِ قَدْرُهُ ؛ * فَمَا يَقَعَلِ الْفَعْلَاتِ إِلَّا عَدَارِيَا

فابن جبلة أتى بعينين ، أحدهما أنه فعل ما لم يفعله أحد ممن تقدمه ، وإن نال
الآخر شيئاً فهو مقتد به وتابع له ؛ وأبو الطيب أتى بالمعنى الأول فقط ، وهو أنه فعل
ما لم يفعله غيره مشيراً إلى ذلك بقوله : فَمَا يَفْعَلِ الْفَعْلَاتِ إِلَّا عَدَارِيَا أى يستبكرها
ويزيل عثرتها .

ومنه قول الآخر :

أَتَشَجَّ الْقُضْلَ أَوْ تَحُلَّ عَنْ الدُّنْيَا ، فَهَذَا تَابَ غَايَةُ الْمِسَمِ

وقول البحتري بعده :

إِذْ فَعَّ بِأَمْثَالِ أَبِي غَالِبٍ * عَادِيَةِ الْعُدَمِ ، أَوْ اسْتَعْفِفَ

فالبحتري اقتصر على بعض المعنى ولم يستوفه

الضرب الرابع

أن يؤخذ المعنى فيزداد عليه معنى آخر . قال في "المثل السائر" : وهذا النوع من
السِّرَاقَاتِ قليل الوقوع بالنسبة إلى غيره .

فن ذلك قول الأحنس بن شهاب :

إِنَّا قَصَّرْتُ أَسْيَافَنَا ، كَانَ وَصْلُهَا * خُطَانًا إِلَى أَعْدَائِنَا ، فَتَضَارَبَ

وقول مسلم بن الوليد بعده :

إِنْ قَصُرَ الرَّيْحُ لَمْ تَمِشْ الْخَطَا سَدَا * أَوْ عَزَدَ السَّيْفُ لَمْ تَهْتَمُ بِتَعْرِيدِ
أَخَذَ مُسْلِمُ الْمَعْنَى الَّذِي أوردَهُ الْأَخْنَسُ : وَهُوَ وَضَعَ السِّلَاحَ إِذَا قَصُرَ بِالْخَطَا
إِلَى الْعَلَوِّ وَزَادَ عَلَيْهِ عَدَمَ تَعْرِيدِهِمْ أَيْ فِرَارِهِمْ إِذَا عَزَدَ السَّيْفُ . وَمِنْهُ قَوْلُ جَرِيرٍ
فِي وَصْفِ أَيْبَاتٍ مِنْ شِعْرِهِ :

غَرَابِيبُ آلَافٍ إِذَا حَانَ وَرْدُهَا * أَخَذَتْ طَرِيقًا لِلْقَصَائِدِ مُعَالَا

وقول أبي تمام بعده :

غَرَابِيبُ لَا قَتَ فِي هَيْأَتِكَ أَنْهَا * مِنَ الْحَمْدِ فَهِيَ الْآنَ فَيَرُ غَرَابِيبَ
فَزَادَ أَبُو تَمَامٍ عَلَى جَرِيرٍ قِرَاءَنَ ذَلِكَ بِالْمَدْحِ وَمَبْدَأَهُ مَعَ الْأَيْبَاتِ . وَمِنْهُ قَوْلُ
الْمُعَلَّلِ بْنِ خَيْلَانَ :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ الْغِنَى * إِذَا كَانَتِ الْعَلِيَاءُ فِي جَانِبِ الْفَقْرِ

وقول أبي تمام بعده :

يَصْدُ عَنِ الدُّنْيَا إِذَا عَنْ سُودَةٍ * وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيٍّ عَذْرَاءُ نَاهِدٍ

فَزَادَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ :

* وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيٍّ عَذْرَاءُ نَاهِدٍ *

وَمَا أَتَقَفَ لِي نَظْمُهُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّهُ لَمَّا عُمِّرَتْ مَدْرَسَةُ الظَّاهِرِ بَرْقُوقُ بَيْنَ
الْقَصْرَيْنِ بِالْقَاهِرَةِ الْمُحَرَّمَةِ ، وَكَانَ الْقَائِمَ بِمَارَاتِهَا الْأَمِيرُ جِرْكَسُ الْخَلِيلِ - أَمِيرُ أَخَوَرِ
الظَّاهِرِيِّ ، وَكَانَ قَدْ اعْتَمَدَ بِنَاتُهَا بِالْمُصْخُورِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا تُحْلَى الْجَمَالَ سَمَلًا ، وَلَا
تَحْمَلُ إِلَّا عَلَى الْحِجْلِ الْخَسْبِ فَأَوْلَعَ الشُّرَاءُ بِالنَّظْمِ فِي هَذَا الْمَعْنَى بِنَظْمِ بَعْضِ الشُّرَاءِ
أَيْبَاتًا عَرَّضَ فِيهَا بِذِكْرِ الْخَلِيلِ وَبِقِيَامَةِ فِي عِمَارَتِهَا ، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهَا :

وَبَعْضُ خُدَّامِهِ طَوَّافًا لِحُدُودِهِ * يَدْعُو الصُّخُورَ فَتَأْتِيهِ عَلَى عَجَلٍ

والزنى بعض الإخوان بنظم ثنى في المعنى، فوقع لى أبيات من جعلها :
وبالنجلي قد راجت عمارتها * في سرعة يثبت من غير مانهل
كم أظهرت عجا أسواط حكيته * وقد غلت مثلا ناهيك من مثل
وكم مخور تحال الجن تنقلها * فإنها بالوحا تأتي وبالجيل

فزدت عليه ذكر الوحى الذى معناه السرعة أيضا وصار مطابقا لما يأتى به المعزومون
في عزائمهم من قولهم الوحى الوحى العجل العجل مع ما تقسم له من التوطئة بقولى
تحال الجن تنقلها. على أنى لست من قرسان هذا الميدان، ولا من رجال هذا الوغى

الضرب الخامس

أن يؤخذ المعنى فيكمى عبارة أحسن من العبارة الأولى قال في "المثل السائر"
وهذا هو المحمود الذى يخرج به حسنة عن باب المرفة؛ فمن ذلك قول أبى تمام :
إن الكرام كثير في البلاد وإن * قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا
أخذه البهترى فقال :

قل الكرام فصار يكثر فنعهم * ولقد يقل الثوب حتى يكثر
ومنه قول أبى نواس :

يدل على ما فى الضمير من القى * قلب عيته الى شخص من يهوى

وقول أبى الطيب بعده :

وإذا خامر الهوى قلب صب * فليبه لكل حين دليل

ومنه قول أبى العلاء بن سليمان في مريمه :

وما كلفة البدر المير قديمة * ولكنها في وجهه أثر الألم

وقول القيسراني بعده :

وأهوى الذي يهوى له البدر ساجداً * أَلَسْتَ تَرَى فِي وَجْهِهِ أَثَرَ الْقُرْبِ

ومنه قول ابن الرومي :

إِذَا شَنَّتْ عَيْنُ أَمْرِي شَيْبَ نَفْسِهِ * فَمِنْ سِوَاهُ بِالشَّائَةِ أَجْدَرُ

وقول من بعده :

إِذَا كَانَ شَيْءٌ بَيْضًا لِي * فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَيْهَا حَيًّا

الضرب السادس

أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكاً موجزاً قال في "المثل السائر" وهو من أحسن السرقات : لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم في القول وسعة بابه في البلاغة ، فمن ذلك قول أبي تمام :

بَرَزْتَ فِي طَلَبِ الْمَعَالِي وَاحِدًا * فِيهَا تَسِيرُ مُغَوَّرًا أَوْ مُنْجِدًا

عَجَبًا بِأَنَّكَ سَأَلْتَ مِنْ وَحْشِيَةِ * فِي غَايَةِ مَا زِلْتَ فِيهَا مُفْرَدًا

وقول ابن الرومي بعده :

غَرَبَتْهُ الْخَلَائِقُ الزُّهْرُ فِي النَّأ * مِنْ وَمَا أَوْحَشَتْهُ بِالْغَرِيبِ

فاخذ معنى اليقين في بيت واحد، ومنه قول أبي العتاهية :

وَلِيَّ لَمَعُورٍ عَلَى قَرِيطِ حَبِّهَا * لِأَنَّ لَهَا وَجْهًا يُلْطَفُ عَلَى عُذْرِي

أخذه أبو تمام فقال :

لَهُ وَجْهٌ إِذَا أَبْصَرُ * تَهْ نَاجِلَكَ عَنْ عُذْرِي

فاوجز في هذا المعنى غاية الإيجاز، ومنه قول أبي تمام يمدح أحمد بن سعيد :

كَانَتْ مُسَاعَلَةُ الرَّجُلَيْنِ تُخَيِّرُنِي * عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ أَطْيَبَ الْخَيْرِ

حَتَّى التَّقِينَا فَلَا وَاقِهِ مَا مَحِثَتْ * أَذْنِي بِأَحْسَنَ مَا قَدْ رَأَى بَصِيرِي !
أَخَذَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَأَوْجَزَ فِي أَخَذِهِ فَقَالَ :
وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ * فَلَمَّا التَّقِينَا صَغُرَ الْخَلْبُ الْخَبِيرُ
وَمِنَهُ قَوْلُ بَعْضِ الشُّعْرَاءِ :

أَمِنْ خَوْفِ فَقِيرٍ تَسَجَّلَتْهُ * وَأُخِّرَتْ إِشْفَاقَ مَا تَجْمَعُ ؟
فَصِرْتَ الْفَقِيرَ وَأَنْتَ الْغَنَى * وَمَا كُنْتَ تَعْمَلُو الَّذِي تَصْنَعُ
أَخَذَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَقَالَ :
وَمِنْ يُنْفِقِ السَّاطِعِ فِي جَمْعِ مَالِهِ * عَخَافَةَ فَقِيرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

الضرب السابع

زيادة البيان مع المساواة في المعنى، بأن يؤخذ المعنى فيُضْرَبُ له مثال يؤمنه،
فمن ذلك قول أبي تمام :

هُوَ الصَّنْعُ إِنْ يُعْجَلُ قَتْعٌ وَإِنْ يُرْتَّ * فَلَارَيْتُ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ أَتَمُّ
أَخَذَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَقَالَ :

وَمِنْ الْخَسِيرِ بَطْءُ سَيْلِكَ عَنِّي * أَسْرَعُ السُّحُبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامُ
فَزَادَهُ وَضُوحًا بِضَرْبِ الْمَثَلِ لَهُ بِالْجَهَامِ : وَهُوَ السَّحَابُ الَّذِي لَا مَطَرُ فِيهِ .
وَمِنَهُ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ أَيْضًا :

قَدْ قَلَصَتْ شَفَاتُهُ مِنْ حَفِيفَتِهِ * نَخِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْبِيسِ مُبَسِّمًا
أَخَذَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَقَالَ :

وَجَاهِلٌ مَلَهُ فِي جَهْلِهِ صَحِي * حَتَّى أَتَتْهُ يَدُ قَرَامَةٍ وَفَمُ
إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْلِ بَارِزَةً * فَلَا تَطْلُنَّ أَنَّ اللَّيْلَ مُبَسِّمٌ

فضرب له مثالا بظهور أنياب الليث فزاده وضوحا .

ومنه قول أبي تمام أيضا :

وكذلك لم تُقِرَّطَ كَأَبَّةٍ عَاطِلٍ * حَتَّى يُجَاوِرَهَا الزَّمَانُ بِحَالٍ

أخذه البحتري فقال :

وقد زادها إفراطاً حُسْنِ جَوَارِهَا * لِأَخْلَاقِ أَصْفَارٍ مِنَ الْمَجْدِ حُجَيْبٍ

وحُسْنِ دَرَارِيِّ الْكَوَاكِبِ أَنْ تُرَى * طَوَالِعَ فِي دَاخِلٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْبٍ

فضرب له مثالا بالكواكب في ظلام الليل، فأوضحه وزاده حُسْنا .

الضرب الثامن

اتحاد الطريق واختلاف المقصود، مثل أن يسلك الشاعران طريقا واحدة

فتخرج بهما إلى مَوْرِدَيْنِ، وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر .

فمن ذلك قول التائيعة :

إِذَا مَا غَزَا بِالْحَمِيشِ حَلَقَ قَوْفَهُ * عَصَابُ طَيْرٍ تَهْدِي بِعَصَابٍ

جَوَانِحُ قَدْ أَقْنَأَتْ أَنْ قَبِيلَهُ * إِذَا مَا لَقِيَ الْجَمْعَانِ أَوَّلُ ظَالِبٍ

وهذا المعنى قد توارده الشعراء قديما وحديثا، وأوردوه بضروب من العبارات،

فقال أبو نوَّاس :

يَتَوَشَّى الطَّيْرُ غَزْوَتَهُ * نَهَقَ بِالْقَمَمِ مِنْ جَزَرِهِ

وقال مسلم بن الوليد :

قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَتَقَنَّ بِهَا * فَهَنْ يَتَّبِعْنَهُ فِي كُلِّ مَرَّعَلٍ

وقال أبو تمام :

وَقَدْ ظَلَمَتْ عَيْبَانُ أَعْلَامِهِ مَحْيَى * بِعَيْبَانِ طَيْرٍ فِي السَّمَاءِ نَوَاحِلُ

أَقَامَتْ مَعَ الرِّبَاتِ حَتَّى كَانَتْهَا * مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَا تُفَاتِلُ
وَكُلُّ هَؤُلَاءِ قَدْ أَتَوْا بِمَعْنَى وَاحِدٍ لَا تَفَاضَلُ بَيْنَهُمْ فِيهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ حُسْنِ السَّبكِ
أَوْ مِنْ جِهَةِ الْإِيْجَازِ . قَالَ وَلَمْ أَرِ أَحَدًا أَغْرَبَ فِي هَذَا الْمَعْنَى فَسَلَكَ هَذَا الطَّرِيقَ
مَعَ اخْتِلَافِ مَقْصِدِهِ إِلَّا مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ فَقَالَ :

أَشْرَبَتْ أَرْوَاحَ الْعِدَا وَقُلُوبَهَا * خَوْفًا فَأَنْفُسَهَا إِلَيْكَ تَطِيرُ
لَوْ حَاكَمَتْكَ فَطَالَ بَيْتُكَ بِذَلِكَهَا * شَهِدْتُ عَلَيْكَ تَعَالَيْ وَبُشُورُ

فَهَذَا قَدْ فَضِّلَ بِهِ مُسْلِمٌ غَيْرَهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، وَلَمَّا أَتَتْهُ الْأُمْرُ إِلَى أَبِي الطَّيِّبِ سَلَكَ
هَذِهِ الطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكَهَا مَنْ تَقَدَّمَه إِلَّا أَنَّهُ نَزَعَ فِيهَا إِلَى غَيْرِ الْمَقْصِدِ الَّذِي قَصَدُوهُ
فَأَغْرَبَ وَأَبْدَعَ ، وَحَازَ الْإِحْسَانَ بِجَمَلَتِهِ ، وَصَارَ كَأَنَّهُ مَبْتَدِعٌ لِهَذَا الْمَعْنَى دُونَ غَيْرِهِ فَقَالَ :

تَحَابُّ مِنَ الْعِقَابِ يَرْحَفُ تَحْتَهَا * تَحَابُّ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَتَهَا صَوَارِدُهُ
فَحَوَى طَرَفَ الْإِغْرَابِ وَالْإِعْجَابِ

الضرب التاسع

بياض بالأصل^(١)

(١) إلتصير في الضوء على أحد عشر حرفاً ورجل الماخر تايماً إلى ذلك وكذلك صاحب الخلق السائر .

الضرب العاشر

أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى عَامًّا فَيَجْعَلْ خَاصًّا أَوْ خَاصًّا فَيَجْعَلْ عَامًّا، وَهُوَ مِنَ السَّرَقَاتِ الَّتِي يُسَاخِّجُ صَاحِبُهَا، فَأَمَّا جَعْلُ الْعَامِّ خَاصًّا، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْأَخْطَلِ (١) :
لَا تَسْتَهْ عَنْ خُلُقِي وَتَأْتِي مِثْلَهُ * عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ
أَخَذَهُ أَبُو تَمَامٍ فَقَالَ :

أَلَا لَوْ مِنْ بَطَلَتْ يَدَاهُ وَأَخَذَتِي * لِلْبُخْلِ بَرًّا؟ سَاعَ ذَاكَ صَنِيعًا !
فَالْأَخْطَلُ نَهَى 'عَنِ الْإِيتْيَانِ بِمَا يَنْهَى' عَنْهُ مَظْلُوقًا بِجَاءِ بِالْمَخْلُوقِ مَنَكْرًا لِفَعْلِهِ شَائِمًا
فِي بَابِهِ ، وَأَبُو تَمَامٍ خَصَّصَ ذَلِكَ بِالْبُخْلِ ، وَهُوَ خُلُقٌ وَاحِدٌ مِنْ جَمَلَةِ الْأَخْلَاقِ .
وَأَمَّا جَعْلُ الْخَاصِّ عَامًّا ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ .
وَلَوْ حَارَدَتْ شَوْقٌ عَذَرْتُ لِفَاحَهَا * وَلَكِنْ مَنَعَنَ الدَّرَّ وَالضَّرْعُ حَافِلُ
أَخَذَهُ أَبُو الطَّيِّبِ لِفَعْلِهِ عَامًّا فَقَالَ :
وَمَا يُؤْلِمُ الْحَرِمَانُ مِنْ كَفِّ حَارِمٍ * كَمَا يُؤْلِمُ الْحَرِمَانُ مِنْ كَفِّ رَازِقِ

الضرب الحادى عشر

قَلْبُ الصُّورَةِ الْقَبِيحَةِ إِلَى صُورَةٍ حَسَنَةٍ . قَالَ فِي "الْمَثَلِ السَّائِرِ" وَهَذَا لَا يُسَمَّى
سَرَقَةً بَلْ يُسَمَّى إِصْلَاحًا وَتَهْنِئَةً ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ فِي أَرْجُوزَةٍ يَصِفُ فِيهَا
الْلَّبَّ بِالْكُرَّةِ وَالصُّوْبَلْحَانَ فَقَالَ مِنْ جَمَلَتِهَا :
جَنَّ عَلَى جَنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرًا * كَأَنَّمَا خِيَطُوا عَلَيْهَا بِالْإِبْرِ
أَخَذَهُ الْمُتَعَنِّي فَقَالَ :

فَكَأَنَّمَا تُصَجَّتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ * وَكَأَنَّمَا خُلِقُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا

(٢) كَمَا فِي "الْمَثَلِ السَّائِرِ" أَيْضًا - وَفِي دِيْوَانِ الْأَخْطَلِ صَفِيحَةُ ٣٣٨ أَنَّ هَذَا الْبَيْتَ لِلتَّوَكْلِ الْبَلْخِي .

فهذا في غاية العلو والأرتواء بالنسبة إلى قول أبي نؤاس، ومنه قول أبي الطيب.
لو كَانَ مَا تُعْطِيهِمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ * تُعْطِيَهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا الْقَامِيَلَا
وقول ابن نباتة السعدي :

لَمْ يَبْقَ جُودُكَ لِي شَيْئًا أَوْفَلُهُ * تَرَكْتَنِي أَحْبَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلٍ
فكلام ابن نباتة أحسن في الصورة من كلام المتنبي هنا، وإن كان مأخوذاً منه .

الضرب الثاني عشر

قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة؛ وهو الذي يعبر عنه أهل هذه الصناعة
بالسخ، وهو من أرذل السرقات وأقبحها، فمن ذلك قول أبي تمام :
فَقِي لَا يَرَى أَتَا الْفَرِيصَةَ مَقْتَلٌ * وَلَكِنْ يَرَى أَنَّ الْعُيُوبَ مَقَاتِلُ
أخذه أبو الطيب فسخه فقال :

يَرَى أَنَّ مَا بَابَانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ * بِأَقْتَلِ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لْعَايِبٍ
ومنه قول عبد السلام بن مضان :

نَحْنُ نَمُزِّيكَ وَمِنْكَ الْهَدْيُ * مُسْتَخْرَجٌ وَالصَّبْرُ مُسْتَقْبَلُ
أخذه أبو الطيب فسخه فقال من أبيات :

وَيَأْتِيَاكَ أَهْتَدِي إِذَا عَزَاكَ قَالَ الَّذِي لَهُ قُلْتُ قَبْلًا

المسلك الثاني

(طريقة الاختراع)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" فهي أن لا يتبجح بكاتب
المتقدمين ولا يطلع على شيء منها، بل يصرف همهته إلى حفظ القرآن الكريم وكثير
من الأخبار النبوية وصلة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجابة

في المعاني والألفاظ ، ثم يأخذ في الاقتباس من القرآن والأخبار النبوية والأشعار فيقوم ويقع ، ويُحطَى ويصيب ، ويَضِلُّ ويَهْتَدِي ، حتى يستقيم إلى طريق يفتحها لنفسه ، وأخيراً بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة ، لا شركة لأحد من المتقنين فيها ! . قال : وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد وصاحبها يعد إماماً في الكتابة كما يعد الشافعي وأبو حنيفة ومالك وغيرهم من المجتهدين في علم الفقه ، إلا أنها مستوعرة جداً ، لا يستطيعها إلا من رزقه الله تعالى لساناً عجيباً ، وخطراً رفيعاً . قال : ولا أريد بهذا الطريق أن يكون الكاتب مُرْتَبِطاً في كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية والأشعار ، بحيث إنه لا يفتش كتاباً إلا من ذلك ، بل أريد أنه إذا حفظ القرآن الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثم قَبَّ عن ذلك تنقيباً مُطْلَع على معانيه ، مفتش على دقائمه ، وقَلْبُهُ ظَهراً لبطن ، عرف حيث من أين تَوَكَّل الكَيْفَ فيما يشته من ذات نفسه ، وأستعان بالمحفوظ على الغيرة الطبيعية . على أنه لابد للكاتب المرتقي إلى درجة الاجتهاد في الكتابة مع حفظ القرآن الكريم ، والاستكثار من حفظ الأخبار النبوية ، والأشعار المختارة ، من العلم بأدوات الكتابة وآلات البيان : من علم اللغة ، والتصريف ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع : ليتمكن من التصرف في اقتباس المعاني واستخراجها فيرقى إلى درجة الاجتهاد في الكتابة . كما أن المجتهد من الفقهاء إذا عرف أدوات الاجتهاد : من آيات الأحكام ، وأحاديثها ، ونقبتها ، وعرف النحو والتأنيخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، والحساب والفرائض وإجماع الصحابة ، وغير ذلك من آلات الاجتهاد وأدواته ، استخرج بفكره حيث ما يؤذيه إليه اجتهاده . فالمجتهد في الكتابة يستخرج المعاني من مظانها من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، والأشعار ، والأمثال ، وغير ذلك بواسطة آلة الاجتهاد ، كما أن المجتهد في الفقهيات يستخرج

الأحكام من نصوص الكتاب والسنة بواسطة آلة الاجتهاد . فإذا أراد الكاتب المتصف بصفة الاجتهاد في الكتابة إنشاء خطبة أو رسالة أو غيرها مما يتعلق بفن الإنشاء

بباض بالأصل

الأصل السادس

(وجود الطبع السليم، وخلق الفكر عن المشوِّش).

أما وجود الطبع فقال في "مواد اليان": "أول معاون هذه الصناعة الجليلة التفرجة الفاضلة، والتفريزة الكاملة، التي هي مبدأ الكمال، ومنشأ التمام، والأساس الذي ينشأ عليه، والركن الذي يستند إليه، فإن المرء قد يبحث في تحصيل الآداب، ويتوفر على اقتناء العلوم واكتسابها، وهو مع ذلك غير مطبوع على تأليف الكلام فلا يفيد ما اكتسبه، بخلاف المطبوع على ذلك، فإنه وإن قصر في اقتباس العلوم واكتساب المواد فقد يلحق بأوساط أهل الصناعة؛ وذلك أن الطبع يخص الله تعالى به المطبوع دون المتطبع، والمناسب بفرزته للصناعة دون المتصنع، ولا سهيل إلى اكتساب سهولة الطبع ولا كرازة، بل هو موهبة تخص ولا تم، وتوجد في الواحد وتنفد في الآخر.

قال ابن أبي الأصم في "تحرير التحير" ومن الناس من يكون في البلية أدرع منه في الروية، ومن هو مجيد في الروية وليست له بليّة؛ وقلما يتساويان.

ومنهم مَنْ إذا خاطب أبدع ، وإذا كاتب قصّر ، ومن هو بضد ذلك ، ومن قَوِي ثَرَهُ ضَعُفَ نظمه ، ومن قَوِي نظمه ، ضَعُفَ ثَرَهُ ، وقليلا يتساويان . وقد يبرز الشاعر في معنى من مقاصد الشعر دون غيره من المقاصد ، ولهذا قيل : أشعر الناس أمرؤ القيس إذا ركب ، وزُهِير إذا رَغِب ، والنابغة إذا رَهِب ، وعنترة إذا كَلَب ، والأعشى إذا طَرِب . قال في "المثل السائر" بل ربحاً فَقَدْ في بعض أنواع الشعر دون بعض فُيِّرَ مُجِيدا في المدح دون المَهِجُو ، أو بالعكس ، أو ماهرًا في المَقَامات ونحوها دُونَ الرسائل ، أو في بعض الرسائل دون بعض . قال ابن أبي الاصبغ : ولربما واتاه العملُ في وقت دون وقت ؛ ولذلك قال الفرزدق : إلى يومٍ على الوقت وقُلْعُ ضَرَسٍ من أضرارِي أيسرُ علىّ من قول الشعر ؛ ولذلك عزى تاليف الكلام ونظمه على كثير من العلماء باللغة والمهارة في معرفة حقائق الألفاظ من حيث نُبُو طبايعهم عن تركيب بساطت الكلام الذي قامت صور معانيه في نفوسهم وصعب الأمر عليهم في تأليفه ونظمه ؛ فقد حكى أن الخليل بن أحمد مع تَهَمُّه في اللغة ومهارته في العربية ، وأختراعه علم العروض ، الذي هو ميزان شعر العرب ، لم يكن يَتِمُّ له تأليف الألفاظ السهلة لديه الحاصلة المعاني في نفسه على صورة النظم إلا بصعوبة ومشقة ، وكان إذا سئل عن سبب إعراضه عن نظم الشعر يقول ياباني جِسْمُهُ وأبى رَدِيئُهُ ، مشيرا بذلك إلى أن طبيعته غير مساعد له على التأليف المرضي الذي تحسَّنَ نسبته إلى مثله . وقيل للفضل الضبيّ ألا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به ، فقال علمي به يمنعني من قوله وأنشد :

أبى الشعرُ إلا أن يُجِيءَ رَدِيئُهُ * علىَّ ويأبى منه ما كانَ مُتَكِمًا
فيا ليتني إن لم أجدَ حَوْكَ وَشِيهِ * ولم ألكَ من قُرْسِيهِ كنتَ مُفْعَمًا

وأشد أبو عبيدة حَقًّا الأحمر شعرا له فقال : اخبأ هذا كما تحبُّ السَّورة حاجتها ، مع ما كان عليه أبو عبيدة من العلم باللغة وشعر العرب وأمثالها وأيام حروبها ، وما يجرى مجرى ذلك من موادَّ تأليف الكلام ونظمه . ويحكى عن أبي العباس المبرد أنه قال : لا أحتاج إلى وصف نفسي : لأن الناس يعلمون أنه ليس أحد من الخلفاء يُخرج في نفسه مسألةً مُشكلةً إلا قُبِني بها وأُعدني لها ، فأنا عالم ومُعلم ، وحافظ ودارس ، لا ينفخ على مشبته من الشعر ، والنحو ، والكلام المنتور ، والخطب ، والرسائل ؛ ولم يَأْتِ حاجت إلى اعتذار من قلة ، أو التماس حاجة ، فأجمل المعنى الذى أَقْصِد نُصِب عني ثم لا أجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان ؛ ولقد بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بمجمل فحاولت أن أكتب إليه رُقعة أشكره فيها وأعرض ببعض أموري فأتمت نفسي يوما في ذلك فلم أقدر على ما أَرْضيه منها ، وكنت أحاول الإفصاح عما في ضميري فيصترف لسانى إلى ضيره ، ولذلك قبلت زيادة المنطق على الأدب حُذْعة ، وزيادة الأدب على المنطق مُجْنة .

فقد تبين لك أن العبرة بالطبع وأنه الأصل المرجوع إليه في ذلك ؛ على أن الطبع بمفرده لا ينض بالمقصود من ذلك مُهَوِّصَه مع اشتماله على المواد المساعدة له على ذلك من الأنواع السابقة فيما تقدم في أوَّل هذه المقالة : من العلم باللغة والنحو والتصرف والمعاني والبيان والبديع وحفظ كَلِم الله تعالى ، والإكثار من حفظ الأحاديث النبوية والأمثال والشعر والخطب ورسائل المتقدمين وأيام العرب وما يجرى مجرى ذلك مما يكون مساعدا للطبع ومُسهِّلا طريق التأليف والنظم ، بل يتفاوت في الملو والمُبوِّط بحسب التفاوت في ضَمف المساعد من ذلك وقوِّمه ؛ إذ معرفته هذه الأمور قَائِمة من الإنشاء مقام المادَّة ، والطبع قائم منه مقام الآلة ، فلا يتم الفعل وإن قامت الصورة في نفس الصانع ما لم تُوجَد المادَّة والآلة جميعا ، ولو كان حصول المادَّة

كافيا في التوصل إلى حسن التأليف الذي هو نظم الإلفاظ المتناسبة وتطبيقها على المعاني المساوية لكانت صناعة الكلام المؤلف من الرسائل والخطب والأشعار سهلة، والمشاهد بخلاف ذلك : لقصور الأفاضل عن بلوغ هذه الدرجة .
وأما خلق الفكر عن المشوُّش فإنه يرجع إلى أمرين .

الأمر الأول

(صفاء الزمان)

فقد قال أبو تمام الطائي في وصيته لأبي عبادة البحرى مرشدا له للوقت المناسب لذلك :: تحيِّر الأوقات وأنت قليلُ المَعْموم ، صِفْرُ من الغُموْم ؛ وأعلم أن العادة في الأوقات إذا قصَدَ الإنسان تأليفَ شيء أو حفظه أن يختار وقتَ السَّحر ، لأن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم ، وخَفَّ عنها ثَقَلُ الغِذاء ، وصَفَا الدِّماغ من أكثر الأبخرة والأذخنة ، وسكنت الغَمَاجِم ، ورفَّت السَّائِم ، وتَقَنَّت الحَمايِم .

وخالف ابن أبي الأصعب في اختيار وقت السحر، وجنح إلى اختيار وسط الليل، أخذنا من قول أبي تمام في قصيدته البائية :

خُنْصَا أَبْنَةَ الْفِكْرِ الْمُهَلِّبِ فِي الدُّجَى * وَاللَّيْلُ أَسْوَدُ رُقْمَةِ الْخِلَابِ

مفسرا للدُّجَى بوسط الليل ، محبا لذلك بأنه حينئذ تكون النفس قد أخذت حظها من الراحة، ونالت قسطها من النوم، وخَفَّ عنها ثَقَلُ الغِذاء، فيكون الذهن حينئذ صحيحا ، والصدر منشرحا ، واليدن نشيطا ، والقلب ساكنا . بخلاف وقت السحر فإنه وإن كان فيه يرقُّ الدِّمِج وينهض الغِذاء ، إلا أنه يكون قد آتبه فيه أكثر الحيوانات : الناطق وغيره ، ويرتفع معظم الأصوات ، ويجرى الكثير من الحركات، وينقيش بعض الظلماء بطلامع أوائل الضوء ؛ وربما أنهض عن بعض

الباس الغذاء فصَحَرَت الشهوة لإخلاف ما أَنهَضَ منه ونَجَحَ من فضلاته، فكان ذلك داعياً إلى شغل الخاطر، وابعثاً على أنصراف الهمِّ إلى تدبير الحَدَثِ الحاضر، فيتنقسم الفكرُ، ويتذبذب القلبُ، ويتفرق جميع الهمِّ . بخلاف وسط الليل فإنه خال من جميع ذلك .

الأمر الثاني

(صفاء المكان)

وذلك بأن يكون المكان الذي هو فيه خالياً من الأصوات ، طارياً عن المخوفات والمهلولات والطوارق ، وأن يكون مع ذلك مكاناً رائعاً مُعْجِباً رقيقَ الحواسِّ فَيَسِّجُ الأرجاء بسياط الرَّحاب، غير غمٍّ ولا كبرٍ؛ فإن أنضمَّ إلى ذلك ما فيه بسط الخاطر : من ماء وخضرة وأشجار وأزهار وطيب ورائحة، كان أبسط للفكر وأنجح للخاطر . وقد ذهب بعضهم إلى أنه ينبغي خلو المكان من النقوش الغريبة والمرآة المعجبة، فإنها وإن كانت مما يُنشِط الخاطر فإن فيها شغلاً للناظر فيبجم القلب فيتشبث .

المقصد الثاني

(من الطرف الثالث في بيان طرق البلاغة ووجوه تحسين الكلام ، وكيفية إنشائه ، وتأليفه ، وتهذيبه ، وتأديته ، وبيان ما يُستحسن من الكلام المصنوع ، وما يُعاب به)

أما إنشاؤه وتأليفه فقد قال ابن أبي الأصبغ في "تمهيد النحير" : "يجب على كل من كان له ميل إلى عمل الشعر وإنشاء النثر أن يتمهد أولاً نفسه ويتحجها بالنظر في المعاني، ويتدقيق الفكر في استنباط المخترعات، فإذا وجد لها فِطْرَةً سليمةً وجيلةً

موزونة وذكاء وقادا وخاطرا سميما وفكرا ثاقبا وفهما مرصيا وبصيرة مبصرة والمعية مهذبة وقوة حافظلة وقدرة حاكية وهمة عالية ولمحة فصيحة وفطنة صحيحة ، أخذ حيثنذ في العمل ؛ وإن كان بعض ذلك غير لازم لرب الإنشاء ، ولا يضطر إليه أكثر الشعراء ، ولكن إذا كملت هذه الصفات في الكاتب والشاعر ، كان موصوفا في هذه الصناعة بكل الأوصاف النغمية .

قال أبو هلال العسكري في "الصناعتين" : إذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك ، وثق له كرائم اللفظ ، فأجملها على ذكر منك ليقرّب عليك تتأولها ، ولا يتعبك تطبها ، وإعلمه مادمت في شباب نشاطك ، فإذا غشيك القُور ، ونحوك الملال ، فامسك : فإن الكثير مع الملال قليل ، والنخيس مع الضجر خسيس ، والنحوطر كالتيسيع يُسقى منها شيء بعد شيء فبعد حاجتك من الرّبي ، وتال أربك من المتعة ، فإذا أكثرث عليها فَنَصَبَ ماؤها ، قَلَّ عنك غناؤها . وينبئ أن تخرج مع الكلام مُعارضه ، فإذا مررت بلفظ حَسَن أخذت برقبته ، أو معنى بديع تعلقت بذيّله . وتحزّز أن يسبقك ، فإنه إن سبقك تعبت في تطليه ، ولعلك لا تلحقه على طول الطلب ، ومواصلة الدأب ، وهذا الشاعر يقول :

إذا ضيّعتَ أولَ كلّ شيء * أثبتَ أعجازه إلا التواء

وقد قالوا ينبئ لصانع الكلام أن لا يتقدم الكلام قديما ولا يتبع دُناياه تديما ، ولا يحمله على لسانه حملا ، فإنه إن هتم الكلام لم يتبعه خفيقه وهزيله وأعجمه والشارد منه ، وإن تبعه فاتته سوابقه ولواحقه ، وتباعدت عنه جواده وغرره ، وإن حمله على لسانه ثقلت عليه أوساقه وأعباءه ، ودخلت مساويه في محاسنه ، ولكنه يجرى معه فلا تَنَدَّ عنه نادة تُسجبه سِمنا إلا كبّحها ، ولا تخلف عنه مُثقلة هزيلة إلا أرهقها ، وطورا يفترقه ليختار أحسنه ، وطورا يجمعه ليقرب طيه خطوة الفكر ،

ويتناوله من تحت لسانه ، ولا يسلط اللسان على قلبه ، ولا الإكثار على فكره ، فيأخذ عَفْوَهُ ويستغزِر دَرَهُ ، ولا يكره آتيا ولا يدفع آتيا . وإياك والتعقيد والتورع ، فإنَّ التورع هو الذي يستهلك معانيك ويشتت ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما ، فليتمس له لفظا كريما ، فإن حقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن خفهما أن يصوبهما عما يندسهما ، ويفسد هما ويوجَّهنهما ، فتصيرهما إلى حدٍّ تكون فيه أسوأ حالا منك قبل أن تلتبس البلاغة ، وترتبه نفسك في ملابستها ؛ وليكن لفظك شريفا ، حذبا ، فخما ، سهلا ، وممناه ظاهرا مكشوفًا ، وقريبا معروفا ، فإن وجدت اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصل إلى مركزها ، ولم تصل بشكلها ، وكانت قلقة في موضعها ، نائرة عن مكانها ، فلا تكْرِهها على اغتصاب أماكنها ، والتزل في غير أوطانها ؛ وإن لم يأت بتكلف القول ، وتعاطى الصناعة ، ولم تسمع لك الطبيعة في أول وهلة ، وعصت عليك بعد إجماله الفكر ، فلا تصبَلْ ، ودعه بحياة يومك ، ولا تضجره ، وأمله سواد ليلتك ، وطاوده عند نساطك ، فإنك لا تعلم الإجابة والمؤاتاة إن كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عُرْفٍ ، وينبغي أن تعرف أقدار المعاني ، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين وأقدار الحالات ، فتجعل لكل طبقة كلاما ، ولكل حال مقاما ، حتى يهجم أقدار المستمعين على أقدار الحالات ، فإن المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال .

قال في "مواد البيان" ويكون استمال كل من جزل الألفاظ وسهلها ، وفصيحها وسلسلها وبهجها في موضعه ، وأن يسلك في تأليف الكلام ، الطريق الذي يخرج به عن حُكْم الكلام المتورع العاطل ، الذي تستعمله العامة في المخاطبات ، والمكتبات ، إلى حكم المؤلف الحالى بحلى البلاغة والبديع ، كالأستمارات ، والتشبهات ، والامجاع ، والمقالات ، وغيرها من أنواع البديع .

قال في "الصناعتين" وإن عملت رسالة أو خطبة فخطأ ألفاظ المتكلمين :
كلحسبهم ، والجواهر ، والعرض ، واللون ، والتأليف ، واللاهوت ، والناسوت ،
فإن ذلك هجنة .

قال في "مواد البيان" وذلك بأن يقصد الكاتب إلى ألفاظ الصنعة فيخرج
منها إلى ألفاظ غريبة عن الصنعة غير مجاسة لها . قال وإنما يؤتى الكاتب في هذا
الباب من جهة أن يكون له شركة في صناعة غير الكتابة ، كصناعة الفقه والكلام
وغيرهما : مثل صناعة أصحاب الإعراب ونحوها ؛ فكل طبقة من هذه الطبقات
ألفاظ خاصة بها ، يستعملونها فيما بينهم عند المحاوراة والخوض في الصناعة ؛ ومن
عادة الإنسان إذا تماطى بابا من هذه الأبواب أن يسبق خاطره إلى الألفاظ المتعلقة
به ، فيوقعها في الكتب التي ينشئها لقلبه عادة استعماله إياها فيهجئها بإدخاله فيها
مالم يس من أنواعها .

قال في "الصناعتين" وتغير الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التمام
الكلام ، وهو من أحسن توثقه وأزرى صفاته ، فإن أمكن مع ذلك انتظامه من
حروف سهلة الخارج ، كان أحسن له ، وأدعى للقلوب إليه ؛ وإن اتفق له أن يكون
موقعه في الإطناب أو الإيجاز أليق بموقعه ، وأحق بالمقام والحال ، كان جامعا
للحسن ؛ ياردا في الفضل ؛ فإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنبئك عن مصادره ،
وأوله يكشف قناع آخره ، كان قد جمع نهاية الحسن ، وبلغ أعلى مراتب التمام .

قال في "مواد البيان" وإذا سلكت طريقا فتر فيها ، ولا تتنازل عنها إن كانت
رفيعة ، ولا ترتفع عنها إن كانت وضيفة . وخالف ابن أبي الاصبع ، فقال : ولا تجعل
كل الكلام شريفا عاليا ، ولا وضيفا نازلا ، بل فصله تفصيل العقود ، فإن المقد إذا

كان كله نفيسا لا يظهر حسنُ فرائده ، ولا بين جمالُ واسطته ، فإن الكلام إذا كان متوقفا في البلاغة ، أُفِنَت الإجماعُ فيه ، ولا يلحق النُفوسُ مللٌ من ألفاظه ومعانيه ، ولا يخرج عن غرض إلى غيره حتى يكمل كل ما ينظم فيه : كما إذا كان ينشئ كتابا في العُدل والتوبيخ ، فيشوبُ ألفاظه بألفاظ أخرى تخرج عن الخشونة إلى اللين ، فإن اختلاف رُقعة الكلام من أشدَّ عيوبه .

قال في "الصناعتين" ولا تجعل لفظك حوشيا بدويا ، ولا مبتذلا سوقيا ، ورتب الألفاظ ترتيبا صحيحا ، فتقدم منها ما يحسن تقديمه ، وتؤخر منها ما يحسن تأخيره ، ولا تهتم منها ما يكون التأخير به أحسن ، ولا تؤخر ما كان التقديم به أبقى ، ولا تكرر الكلمة الواحدة في كلام قصير : كما كتب سعيد بن حميد : "ومثل خادمك بين يديه ما يملك فلم يجد شيئا ينفي بحقك ، ورأى أن تفرظك بما يلفسه اللسان وإن كانت مقصرا عن حقاك أبلغ في أداء ما يجب لك" . فكرر ذكر الحق مرين في مقدار يسير . على أن أبا جعفر النحاس قد ذكر في "صناعة الكتاب" أن ذلك ليس بعيب عند كثير من أهل العربية ، وهو الحق فقد وقع مثل ذلك من التكرار في القرآن الذي هو أفصح كلام ، وأبقى نظام ، في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّامَةِ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَنْ لَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ فكرر ذكر الميزان ثلاث مرات في مقدار يسير من الكلام ، وأمثاله في القرآن الكريم كثير .

قال في "الصناعتين" فإن أحتاج إلى إعادة المعاني أأدها بغير اللفظ الذي أبدأ به : كما قال معاوية : "من لم يكن من بني عبد المطلب جوادا فهو دخیل ، ومن لم يكن من بني الزبير فحاجا فهو لزيق ، ومن لم يكن من بني المغيرة ثياها فهو سيده" . فقال دخیل ، ثم قال لزيق ، ثم قال سيده والمعنى واحد ، والكلام على ما ترى

حسن . ولو قال لزيق ثم أعاد لَسَمُح . على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" قد ذكر ما ينافي ذلك ، وتعبأ أبا إسحاق الصابي في قوله في تمجيدته كتاب : الحمد لله الذي لا تُدْرِكُهُ الأُحْيُنُ بالحِظَاهَا ، ولا تُحْتَدُّه الأَلْسُنُ بِالْفَاظِهَا ، ولا تُخْلِقُهُ المَصُورُ بِمِرْوَرِهَا ، ولا تُهْرِمُهُ النُّحُورُ بِكُرُورِهَا ، وقوله بعد ذلك في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : لم يرَ للكُفْرِ أَثَرًا إِلَّا طَمَسَهُ وَحَمَاهُ ، ولا رَمَى إِلَّا أزاله وَعَفَاهُ ؛ فقال لا فرق بين مُرُورِ المَصُورِ ، وكُرُورِ النُّحُورِ ؛ وكذلك لا فرق بين تَحَوُّلِ الأَثَرِ وإِعْفَاءِ الرِّسْمِ ؛ ويحتمل أن يقال إنما كره صاحب "المثل السائر" ذلك لتوافق القريتين في جميع المعنى بخلاف كلام معاوية فإنه متوافق في اللفظة الأخيرة فقط .

قال في "الصناعتين" وتجنب كل ما يُكْسِبُ الكلام تعمية : كما كتب سعيد ابن حميد ، يذكر مَظْلِمَةً لإنسان في كتابه : لفلان وله بي حُرْمَةٌ مَظْلِمَةٌ ، يريد لفلان مَظْلِمَةً وله بي حرمة ، بمعنى أنه راعى حرمة . قال : وأعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل والمُخْطَبِ هو أن تجعلها مُزْدَوِجَةً فقط ، ولا يلزمك فيها السجع فإن جعلتها مسجوعةً كان أحسنَ مالم يكن في سجعك استكراه ، وتناثر ، وتقييد ؛ وكثيرا ما يقع ذلك في السجع ، وقبلما يسلم إذا طال من استكراه وتناثر .

قال ابن أبي الأصبح : ولا تجعل كلامك كله مبنياً على السجع ، فظهر عليه الكُفَّةُ ، ويتبين فيه أثرُ المَشَقَّةِ ، وتتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط ، واللفظ النازل ؛ وربما استدعيت كلمة للقطع رغبة في السجع بغامت نافرة من أخواتها ، قلق في مكانها . بل أصرف كل النظر إلى تجويد الألفاظ وصحة المعاني ، وأجهد في تهويم المباني ، فإن جاء الكلام مسجوعاً عفواً من غير قصد ، وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان ، وإن عر ذلك فائزته وإن اختلفت أصابعه وتباينت

في التفتية مَقَامُهُ ، فقد كان المتقدمون لا يختلفون بالسجع جملة ، ولا يقصرونه ، إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام ، وأتفق من غير قصد ولا اكتساب ؛ وإنما كانت كلماتهم متوازية ، وألفاظهم متساوية ، ومعانيهم ناصعة ، وعبارتهم رائعة ، وفصولهم متقابلة ، وبحل كلامهم تماثله ؛ وتلك طريقة الإمام على رضي الله عنه ومن أتى أثره من فرسان الكلام : كابن المقفع ، ويزيد بن هارون ، وإبراهيم بن العباس ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مسعدة ، وأبي عثمان الجاحظ ، وغيرهم من الفصحاء البلقاء .

قال في "مواد البيان" : وأقل ما يكون من الأزيواج قرينتان .

قال في "الصناعتين" : وينبغي أن يحتب إعادة حروف الصلوات والرباطات في موضع واحد إذا كتب ، في مثل قول القائل له منه طيه ، أو عليه منه ، أو به له منه ، وحقه له عليه . قال وسيله أن يداويه حتى يزله ، بأن يفصل ما بين الحرفين مثل أن يقول : ألفت به شهداء عليه ، كقول المتنبي :

وَأُسْعِدُنِي فِي عَمْرَةٍ بَعْدَ عَمْرَةٍ * سَبَّوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلِيمًا شَوَاهِدُ

قال ابن أبي الأصبع : ولإبراع الإيجاز في موضعه ، والإطناب في موضعه ، بحسب ما يقتضيه المقام ويحبب الإسهاب والتطويل غير المفيد .

قال العسكري : وينبغي أن يأتي في تأليفه الكلام بآيات من الكتاب العزيز في الأمور الجليلة ، والترصيع والتحلية ، والاستشهاد للعاني على ما يقع في موقعه ، ويليق بالمكان الذي يوقع فيه ، ولكنه لا يستكثر منه حتى يكون هو الغالب على كلامه ، تزيها لكلام الله تعالى عن الابتذال ، فإنه إنما يستعمله على جهة التبرك والزينة ، لا ليَجْعَلَ حَشْوًا في الكلام ، وإذا استعير منه شيء أتى به على صورته ؛ ولا ينقله عن صيغته ، ليسلم من تحريفه ، ومخالفة اختيار الله تعالى فيه . قال وكذا لا يجوز الإكثار منه لا يجوز

أن يَحْتَلَّ كلامه من شيء منه محليَّةً له ، فإن خلق الكلام من القراءن يَطْمَسُ محاسنَه ، وَيَنْقُصُ بَهْجَتَه ؛ ولذلك كانوا يَسْمُونُ الخطبة الخالية من القراءن بَرَاءً .

ويُنْبِئُ أن لا يستعمل في كتابته ما جاء به القراءن العظيم من الحذف ومخاطبة الخاص بالعام ، والعام بالخاص ، والجماعة بلفظ الواحد ، والواحد بلفظ الجماعة ، وما يجرى هذا الجري ، لأن القراءن قد نزل بلغة العرب ، وخطوب به فُصَحائهم ، بخلاف الرسائل .

قال في "الصناعتين" لا يجوز أن يستعمل فيها ما يختص بالشعر من صرف مالا ينصرف ، وحذف مالا يُحذف ، وقصر الممدود ، ومد المقصور ، والإخفاء في موضع الإظهار ، وتصغير الأسم في موضع تكبيره ، إلا أن يريد تصغير التعظيم كقول القائل "أنا جَدِيلُهَا الْمُحْكَمُ ، وَعَدِيَّتُهَا الْمُرَجَّبُ" . وما يُستحسن من وصية أبي تمام لأبي عبادَةَ البُخَيْرِيَّ في الشعر ما لا يستغني الناثر عن المعرفة به ، والقشج على مثوله : لانه يجب أن يناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام ، ويكون كخياط يقدر الثياب على قدر الأجسام ، وأن يحصل شهوة لتأليف الكلام هي الدَّيرِغَةُ إلى حُسْنِ نظمه ، فإنَّ الشهوة فِعْمُ المعين ! ويَعتبر كلامه بما سلف من كلام الماضين ، فلا استحسنه العلماء فليَقْصِدْهُ ، وما استقبحوه فليَجْتَنِبْهُ ، وينبغي أن يعمل البجمات مفرقة بحسب ما يجود به الخاطر ثم يرتبها في الآخِر ويحترز عند جمعها من سوء الترتيب ، ويتوشى حُسْنُ النسخ عند التهذيب ، ليكون كلامه بعضه آخذاً بأعتاق بعض ، فإنه أكل لحسنه ، وأمثل لقصده ؛ وأن يحيد المبدأ والمخلص والمقطع ، ويميز في فكره محط الرسالة قبل العمل ، فإنه أسهل للقصد ؛ ويحتد في تجويد هذه المواضع وتحسينها ؛ ويوضح معانيه ما استطاع .

قلت وقد سبق في أوَّل هذه المقالة في بيان ما يحتاج إليه الكاتب من الأدوات

وذكر أنواعها بيان كيفية الاقتباس من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية والاستشهاد بها، وكيفية حل الشعر إلى النثر، وتضمينه في خلال الكلام المنشور وما يجري هذا المجرى فاغنى عن إعادته هنا .

وأما بيان ما يستحسن من الكلام المصنوع فقد قال في "الصناعتين" إن الكلام يحسن بسلامته وسهولته ونصاعته، وتغير لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطلقه، ولين معاطفه، وأستواء تقاسيمه، وتبادل أطرافه، وتشبه أعجازه بهواده، وموافقة أواخره لمبادئه، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلاً، حتى لا يكون لها في الانفاظ أثر، فتجد المنظوم مثل المنشور في سهولة مطلقه، وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه وكمال صوغه وتركيبه؛ فإذا كان الكلام قد جمع الثنوية والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة، واشتغل على الروق والطلاوة، وسلم من ضعف التأليف، وبعد من سمجة التركيب، صار بالقبول حقيقاً، وبالصحف خليفاً؛ فإذا ورد على السمع المصيب استوعبه ولم يجمه، والنفس قبل اللطيف، وتب عن الغليظ، وتقلق عن الجاسي البشع، وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقها وتنفرد عما يضادها وبخالفه؛ والعين تألف الحسن، وتهدئ بالقيح، والأنف يرائح للطيب ويعاف المثنى، والشم ينفذ بالخلو، ويجم المزج والسمع يشوق للصوت الرائع، ويثري عن الجهد الحاصل، واليد تنعم باللين، وتنادى بالحنين، والفهم يأنس من الكلام بالمعروف، ويسكن إلى المألوف، ويصغى إلى الصواب، ويهرب من الخال، ويتقبض عن الوخم، ويتأخر عن الخافى الغليظ، ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب والروية الفاسدة .

قال وليس الشأن في إيراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والأعجمي، والقريري والبلدوي، إنما هو في جودة اللفظ وصدقائه، وحسنه وبهائه، وتزاهته وقهاته، وكثرة

طَلَاوَتِهِ وَمَائِهِ ؛ وَصَحَّةُ السَّبَكِ وَالتَّرَكِيبِ ، وَانْطِلَاقُ مَنْ أَوْدَ النِّظْمَ وَالتَّأْلِيفَ ؛ وَلَيْسَ يُطْلَبُ مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَوَابًا ، وَلَا يَقْتَضِ مِنَ اللَّفْظِ بِذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا وُصِفَ مِنْ نَوْتِهِ الَّتِي تَهْتَمُّ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْخُطْبَ الرَّائِعَةَ ، وَالْأَشْعَارَ الرَّائِعَةَ ، لَمْ تُعْمَلْ لِإِفْهَامِ الْمَعْنَى فَقَطْ : لِأَنَّ الرَّدَى مِنَ الْأَلْفَاظِ يَقُومُ مَقَامَ الْجِسَدِ مِنْهَا فِي الْإِفْهَامِ ؛ وَإِنَّمَا يَدُلُّ حَسَنُ الْكَلَامِ ، وَإِحْكَامُ صِنْعَتِهِ ، وَوَقُوفُ الْأَفَاطِلِ وَجُودُهُ مَقَاطِعِهِ ، وَبَدِيعُ مَبَادِيهِ ، وَغَرِيبُ مَبَانِيهِ ، عَلَى فَضْلِ قَائِلِهِ وَمُنْشِئِهِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ لَفْظًا حَلُومًا وَحَدًّا وَسَطًا دَخَلَ فِي حِمْلَةِ الْجِدِّ ، وَجَرَى مَعَ الرَّاغِبِ النَّادِرِ . وَأَحْسَنُ الْكَلَامِ مَا تَلَامَ تَسْجُوهٌ وَلَمْ يُسَخَفْ ، وَحَسَنُ نَظْمِهِ وَلَمْ يَهْجُنْ ، وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ فِيهِ الْغَلِيزُ مِنَ الْكَلَامِ فَيَكُونَ خَفًّا بَفِيضِهِ ، وَلَا السُّوقِيُّ مِنَ الْأَلْفَاظِ فَيَكُونَ مُهْلَهْلًا دُونَهَا ، وَلَا خَيْرٌ فِي الْمَعْنَى إِذَا اسْتُكْرِهَتْ قَهْرًا ، وَالْأَلْفَاظُ إِذَا أُجْبِرَتْ قَسْرًا ؛ وَلَا خَيْرَ فِيمَا أُجِيدَ لَفْظُهُ إِلَّا مَعَ وَضُوحِ الْمَغْزَى وَظُهُورِ الْمَقْصِدِ . قَالَ وَقَدْ ظَلَبَ عَلَى قَوْمِ الْجَهْلِ فَصَارُوا يَسْتَجِيبُونَ الْكَلَامَ إِذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِكَدٍّ ، وَيَسْتَقْصِصُونَهُ إِذَا وَجَدُوا الْأَفَاطِلَ كَرَّةً غَلِيظَةً وَجَامِيَةً غَرِيبَةً ، وَيَسْتَحْقِرُونَ الْكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا حَدًّا ، وَسَهْلًا حُلُومًا ؛ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ السَّهْلَ أَمْنٌ جَلِيًّا ، وَأَعَزُّ مَطْلَبًا ؛ وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا ، وَأَعْلَبُ مَسْتَمَاعًا ؛ وَلِهَذَا قِيلَ أَجْوَدُ الْكَلَامِ السَّهْلُ الْمُنْتَعِ . وَقَدْ وَصَفَ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ عَمْرُو بْنُ مَسْعَدَةَ فَقَالَ : هُوَ أَبْلَغُ النَّاسِ ، وَمَنْ بَلَغَتْهُ أَنْ كُلُّ أَحَدٍ يَظُنُّ أَنَّهُ يَكْتُبُ مِثْلَ كُتُبِهِ ، فَإِذَا رَامَهَا تَعَذَّرَتْ عَلَيْهِ ؛ وَأَنشَدَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ نَحْلَالَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ :

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ وَإِنْ سِيلَ لَمْ * يَيْدُلْ وَإِنْ عُوِبَ لَمْ يَعْتَبْ

صَبَّ بَعْضِيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي * لَا تَشْرِبِ الْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثُمَّ قَالَ هَذَا وَاقَعَ الشَّعْرُ الْحَسَنُ الْمَعْنَى ، السَّهْلُ اللَّفْظُ ، الْمَذْبُوبُ الْمُسْتَعَمُّ ، الْقَلِيلُ

التظير، العزيز الشبيه، المَطْمَع الممتنع، البعيد مع قربه، الصَّعْبُ مع سهولته، قال بطلنا نقول هذا الكلام والله أحسن من شعره. وقيل لبعضهم: ألا تَسْمَعُ الغريب في شعره؟ قال: ذلك عيٌّ في زمانِي، وتكَلَّفَ مِنِّي لَوْقَتُهُ، وقد رُزِقْتُ طَبْعًا وَأَسَاعًا في الكلام فانا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يحتاج إلى تفسير.

وقال أبو داود: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الذرية، وجناحاها رواية الكلام وحليها الإعراب، وبهاؤها تحوير الألفاظ، والمحبة مقرونة بقلّة الاستكراه، وما كان من الكلام لفظه سهلا ومعناه مكشوفًا يَبِينُ فهو من جملة الردى المردود، لا سيما إذا أُرْتِكِبَتْ فيه الضرورات، فأما الجزل المختار من الكلام، فهو الذي تعرفه العامة إذا سمعته، ولا تستعمله في عُجَاوراتها، وأجود الكلام ما كان سهلا جزلا، لا يتغلق معناه، ولا يستبهم مغناه، ولا يكون مكشوفًا مستكراهًا، ومتوعرا متقعرًا، ويكون بريثا من القثافة، عاريا من الرثافة. فن الجزل الجيد من النثر قول سعيد بن حميد: وأنا من لا يحاجك عن نفسه، ولا ينالطك عن جريمه، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته، ولا يستدعي ريك إلا من طريقته، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم؛ نبث في عنك غيرة الحداثة، وردتني إليك الحنكة، وباعدتني منك الثقة بالأيام، وقادتني إليك الضرورة، فإن رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر، وتعمد النعمة بطراح الحقد، فإن قديم الجرمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما من الإساءة؛ وإن أيام القدرة وإن طالّت قصيرة، والممتع بها وإن كثرت قليلة، فلعلّ إن شاء الله تعالى،

وأجزل منه قول الشعبي للحجاج، وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث أجند بن الجنباب، وأخرن بن المثل، فاستحلستنا الحذر، واكتحلنا المهر، وأصابنا فتنة لم تكن فيها بررة أحياء، ولا بقرة أفياء. فمعا عنه.

ومن النظم قول المترار :

لَا تَسْأَلِ الْقَوْمَ عَنْ مَالِي وَكَثْرَتِهِ * قَدْ بَغِيَ الْمَرْءُ يَوْمًا وَهُوَ مَحْمُودُ
أَمْضَى عَلَى سُنَّةٍ مِنَ الْوَدَى سَلَقَتْ * وَفِي أَرْوَمَتِهِ مَا يَنْهَتْهُ الْعُودُ
فهذا وإن لم يكن من كلام العاتقة فإنهم يعرفون الغرض منه وَيَقْفُونَ عَلَى أَكْثَرِ
معانيه حَسَنَ تَرْتِيلِهِ وجودة تَسْجِعه ؛

قال في «الصناعتين» «أما إذا كان لفظ الكلام غثًا، ومعرضه رثًا، فإنه يكون
مَرْدُودًا، ولو أُحْدِثَ عَلَى أَجَلٍ مَعْنَى وَأَنْبَلِهِ، وَأَرْقَبِهِ وَأَفْضَلِهِ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ :
أَرَى رِجَالًا بَادُوا الدِّينَ قَدْ قَنَعُوا * وَلَا أَرَأَهُمْ رَضُوا فِي الْعَيْشِ بِاللُّدُنِ
فَاسْتَفْنَى الدِّينَ عَنْ دُنْيَا الْمُلُوكِ كَمَا اسْتَفْنَى الْمُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ الدِّينِ
قال : فهو لا يدخل في جملة المختار، ومعناه كما ترى جميل، فاضلٌ جليل، وأما الجزل
الرديء الفج، الذي ينبغي ترك استعمله فقد مر في الكلام على الغريب الخوشع .

المقصد الثالث

(في بيان مقادير الكلام ومقتضيات إطلاله وقصره)

اعلم أن الكلام المصنوع من الخطب، والمكاتبات، والولايات وغيرها على
ثلاثة ضروب .

الضرب الأول

(الإيجاز)

وهو جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، وعليه ورد أكثر أي القرعان الكريم
فمن ذلك قوله تعالى في مَفْتَحِ سورة الفاتحة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . أتتظم
فيه خلق السموات والأرض وسائر المخلوقات لم يشِدْ عنه شيء في أوْجَزَ لفظ وأقربيه

وأصله ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ استوجب جميع الأشياء على الاستقصاء في كلتين لم يخرج عنهما شيء ؛ وقوله ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ فدخل تحت الأمن جميع المحبوبات لأنه تعالى به أن يخافوا شيئا : من الفقر والموت وزوال النعمة والجور وغير ذلك ؛ وقوله : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ جمع منافع الدنيا والآخرة ؛ وقوله في صفة تهرأهل الجنة : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَوْنَ ﴾ أنتظم بقوله : ولا هم عنها ينزفون عدم ذهاب العقل وذهاب المال وفقد الشراب ، فلم يكن فيها شيء من ذلك ؛ وقوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ بجمع فيها مكامد الأخلاق بأسرها : لأن في العفو صلة القاطمين ، وإعطاء المساكين ؛ وفي الأمر بالمعروف تنوى الله تعالى ، وصلة الرحم ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطرف عن المحرمات ، والتبري من كل قبيح ؛ إذ لا يأمر بالمعروف من هو ملابس شيئا من المنكر ؛ إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة .

ومن كلام النبوة قوله صلى الله عليه وسلم : "بَيِّنَةُ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ" وقوله عليه السلام : "حُبُّكَ الشَّيْءَ يَعْنِي وَيُصِمُّ" إلى غير ذلك من جوامع الكلم .

الضرب الثاني

(الإطناب)

وهو الإشباع في القول ، وتزيد الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد . وقد وقع منه الكثير في الكتاب العزيز ، مثل قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقوله جل وعز : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ كر اللفظ في الموضعين تأكيداً للأمر وإعلاماً أنه كذلك لا محالة . وقوله : ﴿ فَتَوَرَّأُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى لكم منه نذير مبين ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين ﴿ فكرر إني

لكم منه تذييرٌ من حيث إن الكفر وإن تعلّدت أقسامه لا يخرجُ عن تعطيل أو شرك فَيُقولهُ قَيِّرُوا إِلَى اللَّهِ فَيُعطِلُ بِإِثباتِ الإله وفي قولهُ : « وَلَا تَجْهَلُوا بِمَعْنَى اللَّهِ إِلَى آخِرَتِهِ الشُّرْكُ » . وقد كرر سبحانه في سورة الرحمن قولهُ : « قَيَّأَ آلَاءَ رَبِّكَ تُكْذِبَانِ » حيثُ عدّد فيها نعمه ، وأذ كر عبادة الآلهة ، ونهبهم على قدرها ، وقدرته عليها ، ولطفه فيها ، وجعلها فاصلاً بين كُلِّ نعمة ونعمة ، تنبيهاً على موضع ما أسداه إليهم فيها ، وكذلك كرّر في سورة المرسلات : « وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ » تأكيداً لأمر القيامة المذكورة فيها . وقد وقع التكرار للتأكيد في كلام العرب كثيراً كما في قول الشاعر :

• أَتَاكَ أَتَاكَ اللَّاحِقُونَ أَتَاكَ •

وقول الآخر :

• كَمْ نِعْمَةٍ كَانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ •

إلى غير ذلك مما وقع في كلامهم مما لا يأخذه الإحاطة .

الضرب الثالث

(المساواة)

بأن تكون الألفاظ يلزاه المعاني في الغلبة والكثرة لا يزيد بعضها على بعض . وقد مثل له العسكري في « الصناعتين » بقوله تعالى : « حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحَيَّامِ » وقوله : « وَدُّوا لَوْ تَكُنُّنَ فَيُحْيَتُونَ » وقول النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تَرَأُلُ أُمِّي بِخَيْرٍ مَا لَمْ تَرَأِ أَمَانَةَ مَغْنَمًا وَالزَّكَاةَ مَغْرَمًا » وقوله « إِيَّاكَ وَالْمُشَاةَ » فإنها أثبتت الغزوة ^(١)

(١) في الضوء بـ (أحمس آحمس) وهو المشهور في البيت .

(٢) أي السبل الصالح الحسن تشبهاً له بغزة القروس . والعبرة السبل السيئ تشبهاً له بالمردة . انظر اللسان .

وَنُحْيِي الْمُرَّةَ . وقول بعض الحكماء : سالت عن خبري وأنا في عافية لا عيب فيها إلا فقدك ، ونعمة لا مزيد فيها إلا بك . وقول آخر : وقد علمتني نبؤك سلوئك ، وأسلمتني بأمر منك ، إلى الصبر عنك . وقول آخر : فتولى الله النعمة عليك وفيك ، وتولى لإصلاحك والإصلاح بك ، وأجزل من الخير حظك والحظ منك ، ومن عليك وعلينا بك . وقول الشاعر :

أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ * عَلَى وَلَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبًا
وَمَا هَجَرْتِكَ النَّفْسُ أَنْكَ عِنْدَهَا * قَلِيلٌ وَلَا أَنْ قَلَّ مِنْكَ نَصِيبًا

إذا علمت ذلك فقد اختلف البلغاء في أي الثلاثة أبلغ وأولى بالكلام، فذهب قوم إلى ترجيح الإيجاز، محتجين له بأنه صورة البلاغة وأن ما يتجاوز مقدار الحاجة من الكلام فضلة داخلية في حيز اللغو والمُتَدَرِّج، وهما من أعظم أنواء الكلام، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة وغياوته . وقد قال الأمين محمد بن الرشيد : طرِكُم بالإيجاز فإن له إلفهما والإطالة آسئبهما . وقال جعفر بن يحيى لكتابه : إن قدرتم على أن تجعلوا كتبكم توقيعات فاقبلوا ، وقال بعضهم : البلاغة بالإيجاز أنجح من البيان بالإطناب، وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ قال الإيجاز . وقيل لابن حازم لم لا تُطِيل القصائد فأنشد :

أَبْنِي أَنْ أُطِيلَ الشَّمْرَ قَصْدِي * إِلَى الْمَعْنَى وَعَلِمِي بِالصَّوَابِ
وَلِإِيجَازِي مَخْتَصِرٌ قَرِيبٌ * حَذَفْتُ بِهِ الْفُضُولَ مِنَ الْجَوَابِ

وذهبت طائفة إلى أن الإطناب أرجح، واحتجوا لذلك بأن المنطق إنما هو بيان والبيان لا يحصل إلا بوضاح العبارة، ووضاح العبارة لا يتأتى إلا بمراعاة الألفاظ على المعنى حتى تحيط به إحاطة يؤمن معها من اللبس والإبهام، وإن الكلام الوجيز لا يؤمن وقوع الإشكال فيه . ومن ثم لم يحصل على معانيه إلا خواص أهل اللغة

العارفين بدلالات اللفاظ . بخلاف الكلام المُشَبَّع الشافي فإنه سالم من الالتهاب
لتساوي الخاص والعام في جهته . ويؤيد ذلك ما حكى أنه قيل لقيس بن خازمة :
ما عندك في جمالات ذات حسن؟ قال : عندى قرئ كل نازل، ورضا كل ساخط،
وخُطبة من لئذ تطلع الشمس إلى أن تغرب، أمر فيها بالتواصل، وأنهى عن التقاطع .
فقبل لأبى يعقوب الجرجي هلا أكفى بقوله أمر فيها بالتواصل عن قوله وأنهى
عن التقاطع ؟ فقال : أو ما علمت أن الكناية والتعريض لا تعمل عمل الإطبات
والكشف؟ ألا ترى أن الله تعالى إذا خاطب العرب والأحزاب أخرج الكلام مخرج
الإشارة والوصف، وإذا خاطب نبي إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مهسوطا،
وقلبا يحد قصة لئى إسرائيل في القرءان إلا مطولة مشروحة ومكررة في مواضع .
معادة لبعده فهمهم ، وتأثر معرفتهم ؛ بخلاف الكلام المُشَبَّع الشافي فإنه سالم من
الالتهاب لتساوي الخاص والعام في فهمه .

وهذه فرقة إلى ترجيح مساواة اللفظ المعنى، واحتجوا لذلك بأن مترج الفضيحة
من الوسط دون الأطراف وأن الحسن إنما يوجد في الشيء المعتدل .

قال في "مواد البيان" : والذي يوجب النظر الصحيح أن الإيماز والإطناب والمساواة
صفات موجودة في الكلام ولكل منها موضع لا ينفك فيه رديفه، إذا وضع فيه
انتظم في سلك البلاغة ودل على فضل الواضح، وإذا وضع غيره دل على نقص الواضح
وجعله برسوم الصنعة .

فأما الكلام الموجز فإنه يصلح لمخاطبة الملوك، وذوى الأخطار العالية، والهمم
المستقيمة، والشؤون السنية، ومن لا يجوز أن يشغل زمانه بما همته مصروفة
إلى مطالعة غيره .

وأما الإطناب فإنه يصلح للمكتابات الصادرة في الفتوحات ونحوها مما يقرأ في المحافل، والعهود السلطانية، ومخاطبة من لا يصل المعنى إلى فهمه بأدنى إشارة. وعلى ذلك يحمل ما كتبه المهلب بن أبي صفرة إلى الحجاج في فتح الأزارقة من الخوارج والظهور عليهم على ارتفاع خطر هذا الفتح وطول زمانه وبعد صيته، فإنه كتب فيه: "الحمد لله الذي كفى بالإسلام قصداً ما سواه؛ وجعل الحمد متصلاً بنبهه؛ وقضى أن لا يتقطع الزيد وجهه، حتى يتقطع الشكر من خلقه. ثم إنا كنا وعدونا على حالتين مخففتين، نرى منهما ما يسرنا أكثر مما يسرهم، ويرون منا ما يسوئهم أكثر مما يسرهم فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم: ينصرون الله ويخذلهم، ويحصبنا ويحصبهم، حتى بلغ الكتاب بناديتهم أجله، فقطعت دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

فإن الذي حملة على الاختصار في هذا الكتاب إنما هو كونه إلى السلطان الذي من شأنه اختصار المكتابات التي تكتب إليه، بخلاف ما لو كتبت به عن السلطان إلى غيره، فإنه يمتنع فيه بسط القول وإطالته على ما سيأتي ذكره في أول المكتابات في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى.

وأما مساواة اللفظ للمعنى فإنه يصلح لمخاطبة الأكفاء والنظرَاء والطبقة الوسطى من الرؤساء. فكأن هذه المرتبة متوسطة بين طرفي الإيجاز والإطناب كذلك يجب أن تختص بها الطبقة الوسطى من الناس. قال أما لو استعمل كاتب ترديد الألفاظ ومراذفتها على المعنى في المكتابة إلى ملك مصروف المهمة إلى أمور كثيرة متى أنصرف منها إلى غيرها دخلها الخلل، لرُبَّ كلامه في غير رتبته، ودل على جهله بالصناعة. وكذا لو بُني على الإيجاز كتابا يكتبه في فتح جليل الخطر، حسن الأثر، يقرأ في المحافل والمساجد الجامعة على رؤوس الأئمة من العامة ومن يراد منه تفخيم شأن السلطان

في نفسه، لا وقع كلامه في غير موقعه، ونزله في غير منزلته : لأنه لا أقيع ولا أسمع في أن يُستفَرَّ الناسُ لسماع كتاب قد ورد من السلطان في بعض عظام أمور المملكة أو الدين، فإذا حضر الناسُ كان الذي يستر على أسماعهم من الألفاظ وارداً مؤرداً الإيجاز والاختصار لم يحسن موقعه ونحج من وضع البلاغة لوضعه في غير موضعه .

قلت وما ذكرته من الأصول والقواعد التي تبنى عليها صنعة الكلام هو القدر اللازم الذي لا يسع الكاتب الجهل بشيء منه، ولا يُسمح بإخلاء كتاب مصنف في هذا الفن منه .

أما المتبقيات التي يكمل بها الكاتب : من المعرفة بعلوم البلاغة ووجوه تحسين الكلام من المعاني والبيان والبدیع فإن فيها كتباً مفردة، تكاد تخرج عن الحصر والإحصاء فاقضى الحال من المتقدمين للتصنيف في هذا الفن أن قد قصرُوا تصانيفهم على علوم البلاغة وتوابعها كالوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" وأبى هلال العسكري في "الصناعتين" والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في "حسن التوسل" كما تقدمت الإشارة إليه في مقبلة الكتاب، فليطلب ذلك من مظان من هذه الكتب وغيرها . إذ هذا الكتاب إنما يذكر فيه ما يشق طلبه من كتب متفرقة، وتصانيف متعددة، أو يكون في المصنف الواحد منه التبعة غير الكافية، ولا يجتمع منه المطلوب إلا من كشف الكثير من المصنفات المتفرقة في الفنون المختلفة .

الفصل الثالث

(من الباب الأول من المقالة الأولى).

في معرفة الأزمنة والأوقات من الأيام والشهور والسنين على اختلاف
الأمم فيها، وتفاصيل أجزائها، والطرق الموصلة إليها، ومعرفة
أعياد الأمم . وفيه أربعة أطراف

الطرف الأول

(في الأيام ، وفيه ست جمل)

الجملة الأولى

(في مدلول اليوم ومعناه ، وبيان ابتداء الليل والنهار)

وقد اختلف الناس في مدلول اليوم على منحين .

المنحِب الأول (وهو منذهب أهل الهيئة) - أن اليوم عبارة عن زمانٍ جامع لليل والنهار ، مدته ما بين مفارقة الشمس نصف دائرة عظيمة ثابتة الموضع بالحركة الأولى إلى عودها إلى ذلك النصف بعينه ، وأظهر هذه الدوائر الأفق وفلك نصف النهار . والحذاق من المتجيمين يؤثرون فلك نصف النهار على الأفق بسهولة تحصل بذلك في بعض أعمالهم ؛ لأن اختلاف دَوَائِرِه في سائر الأوقات اختلاف واحد ، وبعضهم يؤثرون استعمال الأفق : لأن الطلوع منه والغروب فيه أظهر للبيان ، وهو الموافق لما نحن فيه .

ثم منهم من يقدّم الليل فيفتح اليوم بغروب الشمس ويختم بغروبها من اليوم القابل ، وعلى ذلك عمل المسلمين وأهل الكتاب ، وهو منذهب العرب : لأن شهودهم مبينة على سير القمر ، وأواظها مقفلة برؤية الهلال .

ومنهم من يقدم النهار على الليل فيفتح اليوم بطلوع الشمس ويمتد بطلوعها من اليوم القابل، وهو مذهب الروم والفرس .

ويحكى أن الاسكندر سأل بعض الحكماء عن الليل والنهار أيهما قبل صاحبه فقال : هما في دائرة واحدة، والماترة لا يعلم لها أول ولا آخر، ولا أعلى ولا أسفل .
المنهـب الثاني (وهو مذهب الفقهاء) - أن اليوم عبارة عن النهار دون الليل حتى لو قال لزوجه أنت طالق يومَ بَقَدَمَ فلان فقدم ليلا لم يقع الطلاق على الصحيح .
ثم القائلون بذلك نظروا إلى الليل والنهار باعتبارين : طبيعي وشرعي .

أما الطبيعي فالليل من لَدُنْ غروب الشمس وأستارها بحدبة الأرض إلى طلوعها وظهورها من الأفق، والنهار من طلوع نصف قرص الشمس من المشرق إلى غيوبة نصفها في الأفق في المغرب، وسائر الأمم يستعملونه كذلك .

وأما الشرعي - فالليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني، وهو المراد بالحيط الأبيض من قوله تعالى : ﴿حَتَّى يَبْسُتَ لَكُمْ الْخِطُّ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخِطِّ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ والنهار من الفجر الثاني إلى غروب الشمس ، وبذلك تتعلق الأحكام الشرعية من الصوم والصلاة وغيرها .

وأعلم أن الشمس في الليل تكون غائبة تحت الأرض، فإذا قربت منا في حال غيبتها أحسستنا بضياءها المحيط ^(١) بظل الأرض الذي هو الليل ، وهذا الضياء طبيعة أماتها يطلع في السبحر بياض مستطيل مستدق الأعلى، وهو الفجر الكاذب إذ لا حكم له في الشريعة ، ويُسَمَّى بِذَنبِ السَّحَابِ لانتصابه واستطالته وذقته ، ويبقى مدة ثم يزداد هذا الضوء إلى أن يأخذ طولا وعرضا وينبسط في عرض الأفق، وهو الفجر الثاني ويسمى الصادق ، وعليه تقرَّب جميع الأحكام الشرعية المتعلقة

(١) له المحبوب بظل الأرض كما يفهمه المقام .

بالفجر، وبعدة يحوّز الأفق لاقترب الشمس ومطووع ضيائها على المتورات الغربية من الأرض، ويتبعه الطلوع، وعند غروبها ينعكس الحكم في الترتيب المتكتم فيبقى الأفق محمزا من جهة المغرب بعد الغروب، ثم تولد الحمرة ويبقى الياض الذي هو نظير الفجر الصادق، وبالحمرة حكم صلاة العشاء عند الشافعية، وبالياض حكمها عند الحنفية، ثم يزداد الياض ضعفا شيئا فشيئا إلى أن يغيب، ثم يتبعه الياض المستطيل المنتصب نظير الفجر الكاذب مدة من الليل ثم ينهب، وهذا لاحكم له في الشرعيات. والهند لا يمدّون الفجر ولا الشفق من الليل ولا من النهار، ويعملونها قسما مستقلا وهذا في ظاية البعد لأن الله تعالى قسم الزمان إلى ليل ونهار ولم يذكر معهما سواهما.

الجملة الثانية

(في اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والاستواء باختلاف الأمكنة)

واعلم أن البلاد والنواحي على قسمين :

القسم الأول

(ما يستوى فيه الليل والنهار أبداً، لا يختلفان بزيادة ولا نقصان)

وذلك في البلاد التي لا عَرْض لها . وهي مأمرة عليه خط الاستواء ، والبلد في التساوى هي أن أصحاب الهيئة لما توهموا أن بين قُطبيّ تلك البُرج دائرة عظمى تقسم سطح السماء نصفين على السواء وتسموها دائرة معتل النهار ، توهموا أيضا في موازاتها دائرة أخرى تقسم سطح الارض نصفين وتسموها دائرة الاستواء ، وخط الاستواء وكل بلد يمر عليه هذا الخط لا عرض له : وذلك لانقسام الكرة فيه وطلوع

الشمس أبداً على رؤوس ساكنيه ، وميلها في ناحيتي الشمال والجنوب بقدر واحد ، ودوائر الأوقات تقطع جميع الدوائر الموازية لدائرة معتدل النهار بنصفين نصفين ، فيكون قوس النهار : وهو الزمان الذي من طلوع الشمس إلى غروبها مساوياً لقوس الليل : وهو الزمان الذي من غروب الشمس إلى طلوعها فيكون الليل والنهار متساويين أبداً في هذه المواضع في جميع السنة .

القسم الثاني

(ما يختلف فيه الليل والنهار في السنة بالاستواء والزيادة والنقصان ،

وهي البلاد ذوات العروض)

والعلة في الزيادة والنقصان أن المواضع التي تميل عن خط الاستواء إلى الشمال تميل في كل موضع منها دائرة معتدل النهار إلى الجنوب وتخط الشمس ويرتفع القطب الشمالي من الأفق ويصير للبلد عرض بحسب ذلك الارتفاع ، وبقدر بعده عن الخط . وإذا مالت الدائرة قطعت الأفاق كل دائرة من الدوائر الموازية لها بقطعتين مختلفتين ، فيكون ما فوق الأرض من قسميها أعظم من الذي تحتها : لأن القطب لما ارتفع ارتفعت الدوائر الشمالية فظهر من كل واحدة أكثر من نصفها وأخط مدار الشمس عن سمت الرأس إلى جهة الجنوب فبعد مشرق الصيف عن مشرق الشتاء فطال النهار وقصُر الليل ، وكلما زاد ارتفاع القطب في الأقاليم زاد الاختلاف الذي هو بين هذه القطع إلى أن تكون نهاية الأطوال حيث يكون ارتفاع القطب اثنتي عشرة درجة ونصفاً وربعاً وهو أول المعمور ، اثنتي عشرة ساعة ونصفاً وربعاً ، وحيث يكون ارتفاعه تسعاً وعشرين درجة وهو آخر الإقليم الثاني ، ثلاث عشرة ساعة ونصفاً وربعاً ، وحيث يكون ارتفاعه ثلاثاً

وثلاثين درجة ونصفاً وهو آخر الإقليم الثالث أربع عشرة ساعة وربما ؛ وحيث يكون ارتفاعه تسعا وثلاثين درجة وهو آخر الإقليم الرابع أربع عشرة ساعة ونصفا وربما ؛ وحيث يكون ارتفاعه ثلاثا وأربعين درجة ونصفا وهو آخر الإقليم الخامس خمس عشرة ساعة وربما ، وحيث يكون ارتفاعه سبعا وأربعين درجة وهو آخر الأقاليم السادس خمس عشرة ساعة ونصفا وربما ، وحيث يكون ارتفاعه خمسين درجة وهو آخر الإقليم السابع ست عشرة ساعة وربما .

ولا يزال اختلاف مطالع البروج يزداد بالإيمان في الشمال ويتسع شرقا المتكئين ويتقاربان مع مغربيهما إلى أن يلتقيا في العرض المساوي تمام الميل الأعظم : وهو حيث يكون ارتفاع القطب ستاً وستين درجة . وفي هذا الموضع يكون قطب فلك البروج في دوره يمر على سمت الرؤوس ، ويكون أول السرطان فقط ظاهرا فوق الأرض أبداً ، ومدار أول الجدى فقط غائبا أبداً . فيكون مقدار النهار الأطول أربعا وعشرين ساعة لا ليل فيه . ويعرض في هذه المواضع عند موازاة قطب فلك البروج سمت الرؤوس أن دائرة فلك البروج تنطبق حينئذ على دائرة الأفق ، فيكون أول الحمل في المشرق ، وأول الميزان في المغرب ، وأول السرطان في الأفق الشمالي ، وأول الجدى في الأفق الجنوبي . فإذا صار قطب فلك البروج والأفق نصفين وارتفع النصف الشرق من فلك البروج وانخفض النصف الغربى فيطلع حينئذ ستة بروج دفعة واحدة ، وهى من أول الجدى إلى آخر الجوزاء ؛ وكذلك تقرب الستة الباقية دفعة واحدة . وحيث يكون ارتفاع القطب سبعا وستين درجة وربما فهناك يكون مدار ما بين النصف من الجوزاء إلى النصف من السرطان ظلها فوق الأرض أبداً ، وما بين النصف من القوس إلى النصف من الجدى غائبا أبداً ، فيكون مقدار شهر من شهور الصيف نهارا كله لا ليل فيه وشهر من الشتاء ليلا كله لا نهار فيه

والعشرة الأشهر الباقية من السنة كل يوم ليلة أربعاً وعشرين ساعة. وحيث يكون ارتفاع القطب تسعاً وستين درجة ونصفاً وربما فهناك يكون مدار برجي الجوزاء والمسرطان ظاهراً فوق الأرض ، ومدار برجي القوس والجدي غائباً تحت الأرض أبداً . ولذلك يكون مقدار شهرين من الصيف نهاراً كله ، وشهرين من الشتاء ليلاً كله . وحيث يكون ارتفاع القطب ثلاثاً وسبعين درجة يكون ما بين النصف من الثور إلى النصف من الأسد ظاهراً أبداً والأجزاء النظرية لها غائبة أبداً ، فيكون مقدار ثلاثة أشهر من الصيف نهاراً كله ، وثلاثة أشهر من الشتاء ليلاً كله . وحيث يكون ارتفاع القطب ثماناً وسبعين درجة ونصفاً فهناك يكون مدار الثور والجوزاء والمسرطان ظاهراً أبداً والبروج النظرية لها غائبة أبداً ، فيكون أربعة أشهر من الصيف نهاراً كله وأربعة أشهر من الشتاء ليلاً كله . وحيث يكون ارتفاع القطب أربعاً وثمانين درجة فهناك يكون مدار ما بين النصف من الحمل إلى النصف من السبلية ظاهراً أبداً والبروج النظرية لها غائبة أبداً فيكون خمسة أشهر من الصيف نهاراً كله وخمسة أشهر من الشتاء ليلاً كله .

ومما يمرض في هذه المواضع التي تقدم ذكرها أنه إذا كان قطب تلك البروج في دائرة نصف النهار مما إلى الجنوب كان أوّل الحمل في المشرق وأوّل الميزان في المغرب ، وتكون البروج الشمالية ظاهرة أبداً فوق الأرض والجنوبية غائبة تحتها ، وهناك يطلع ماله طلوع من آخر الفلك فيما بين الجدي والمسرطان منكوساً ، فيطلع الثور قبل الحمل ، والحمل قبل الحوت ، والحوت قبل الدلو . وكذلك تقرب نظائرها منكوساً؛ وحيث يكون ارتفاع القطب تسعين درجة فيصير على سمت الرأس فهناك تكون دائرة معكّل النهار متطبقة على الأفق أبداً ، ويكون دور الفلك

رَحْوِيًّا موازيا للأفق ويكون نصف السماء الشمالى عن معدل النهار ظاهرا أبدا فوق الأرض والنصف الجنوبى غائبا تحتها، فلذلك إذا كانت الشمس في البروج الشمالية كانت طالمة تلور حول الأفق ويكون أكثر ارتفاعها عنه بمقدار ميلها عن معدل النهار، وإذا كانت في البروج الجنوبية كانت غائبة أبدا فتكون السنة هناك يوما واحدا ستة أشهر ليلا وستة أشهر نهارا، ولا يكون لها طلوع ولا غروب . فظهر من هذا أن حركة الفلك بالنسبة للأفاق إما دُولَابِيَّةٌ، وهى في خط الاستواء ؛ وإما حَمَالِيَّةٌ، وهى في الأفاق للمائلة عنه، وإما رَحْوِيَّةٌ : وهى في المواضع التى ينطبق فيها قطب العالم على سمت الرأس فسيحان من أمكن ما صنع !

الجملة الثالثة

(في معرفة زيادة الليل والنهار وقصصانهما بتقلُّ الشمس في البروج)

اعلم أن للشمس حركتين : سرية وبطيئة .

أما السرية فحركة فلك الكلِّ بها في اليوم والليلة من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، وتسمى الحركة اليومية .

وأما الحركة البطيئة فقطعها فلك البروج في سنة شمسية من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب، وتعلم أن جهة المشرق وجهة المغرب لاستتيران في أنفسهما بل جهة المشرق واحدة وكذلك جهة المغرب، وإن اختلفت مطالعتهما . قال تعالى ﴿ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ أى جهة الشروق وجهة الغروب في الجملة، إلا أن الشمس لها غاية ترتفع إليها في الشمال وتلك الغاية مشرق ومغرب وهو مشرق الصيف ومغرب؛ ومطلعها حينئذ بالقرب من مطلع السماء الراجح، ولها غاية تهبط إليها في الجنوب، وتلك

الغاية أيضا مَشرق ومَقرب : وهو مَشرق الشتاء ومغرب ، ومطلعها حينئذ بالقرب من مَطْلَع بطن المقرب ، وهذان المَشرقان والمَقربان هما المراد بقوله تعالى : ﴿ رَبُّ المَشرِقِينَ وَرَبُّ المَغْرِبِينَ ﴾ وبين هاتين النقيضتين مائة وثمانون مَشرقا ويقابلها مائة وثمانون مَقربا ، ففي كل يوم تَطْلُع في مَطْلَع من المشرق غير الذي تَطْلُع فيه بالأمس ، وتَقْرُب في مغرب غير الذي تقرب فيه بالأمس . وذلك قوله تعالى : ﴿ رَبُّ المَشارِقِ والمَغاربِ ﴾ وقطة الوسط بين هاتين النقيضتين : وهي التي يمتدل فيها الليل والنهار يُسمَّى مَطْلَع الشمس فيها مَشرق الاستواء ، ومَقرب الاستواء ، ومطلعها حينئذ بالقرب من مَطْلَع السماء الأعزلى .

وقد قَسَم علماء الهيئة ما بين غاية الأَرَضاع وغاية المَبْطُوع اثني عشر قسما ، قالوا : والمعنى في ذلك أن الشمس في المبدأ الأول لما سارت مَسِيرَها الذي جعله الله خاصا بها قطعت دَوْر الفلك التاسع في ثلثائة وستين يوما ، وسميت جملة هذه الأيام سنة شمسية ورسمت بحركتها هذه في هذا الفلك دائرة عظمى على ما توهمه أصحاب الهيئة ، وقسمت هذه الدائرة إلى ثلثائة وستين جزءا وسموا كل جزء درجة ، ثم قسمت هذه الدَرج إلى اثني عشر قسما على عدد شهور السنة ، وسموا كل قسم منها برجاً ، وجعلوا ابتداء الأقسام من قطة الاعتدال الربيعي : لاعتدال الليل والنهار عند مرور الشمس بهذه النقطة ، وجعلوا في كل قسم من هذه الأقسام نجوما تتشكل منها صورة من الصُور فسموا كل قسم باسم الصورة التي وجدوها عليه ، وكان القسم الأول الذي ابتدؤا به نجوما إذا جُمع متفرقها تشكلت صورة حَمَل ، فسموها بالحمل ، وكذلك البواقي .

قال صاحب "منهاج الفكر" : وذلك في أول ما رصنوا ، وقد انتقلت الصُور عن أمكنتها على ما زعموا فصار مكاتب الحمل الثور ، وهي تنقل على رأى بطليموس في ثلاثة آلاف سنة وعلى رأى المتأخرين في أَلْف سنة .

إذا علمت ذلك فاعلم أن الثورة الفلكية في العروض الشمالية تنقسم إلى ثمانية وستين درجة ، كما تقدمت الإشارة إليه ؛ والسنة ثمانية وستون يوما منقسمة على الأثنى عشر برجا المتقدم ذكرها ، لكل برج منها ثلاثون يوما ، وتوزع عليها الخمسة أيام والربع يوم ، والليل والنهار يتعاقبان بالزيادة والتقصان بحسب سير الشمس في تلك البروج فما نقص من أحدهما زيد في الآخر . وذلك أنها إذا حلت في رأس الحمل وهي آخذة في الارتفاع إلى جهة الشمال ، وذلك في السابع عشر من برهات من شهور القبط ، ويوافقه الحادى والعشرون من آذار من شهور الشريان ، وهو مارس من شهور الروم ، والرابع والعشرون من حردماه من شهور الفرس ، أعتدل الليل والنهار ، فكان كل واحد منهما مائة وثمانين درجة ؛ وهو أحد الاعتدالين في السنة ، ويسمى الاعتدال الربيعي : لوقوعه أول زمن الربيع فيزيد النهار فيه في كل يوم نصف درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمئة ثلاثين يوما خمس عشرة درجة ، ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمسة وتسعين درجة ، والليل على مائة وخمسة وستين درجة .

ثم تنقل إلى الثور فيزيد النهار فيه كل يوم ثلث درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمئة ثلاثين يوما عشر درجات ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائتين وخمسة درجات ، والليل على مائة وخمسة وخمسين درجة . ثم تنقل إلى الجوزاء فيزيد النهار فيها كل يوم سدس درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيها لمئة ثلاثين يوما خمس درجات ، ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار آخرها على مائتين وعشر درجات والليل على مائة وخمسين درجة ، وذلك غاية ارتفاعها في جهة الشمال . وهذا أطول يوم في السنة وأقصر ليلة في السنة . ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شماليا صاعدا : لصعودها في جهة الشمال .

ثم تنقل الشمس إلى السرطان وتكتر راجعة إلى جهة الجنوب، ويسمى ذلك المنقلب الصيفي، وذلك في العشرين من بؤنة من شهور القبط، ويبقى من حزيران من شهور السرطان، ويؤنيه من شهور الروم خمسة أيام، وحينئذ يأخذ الليل في الزيادة والنهار في النقصان، فينقص النهار فيه في كل يوم سُدس درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائتين وخمس درجات، والليل على مائة وخمس وخمسين درجة.

ثم تنقل إلى الأسد فينقص النهار فيه كل يوم ثلث درجة، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما عشر درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائة وخمسة وتسعين درجة، والليل على مائة وخمس وستين درجة.

ثم تنقل إلى السدلية فينقص النهار فيها كل يوم نصف درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيها لمدة ثلاثين يوما خمس عشرة درجة، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار. ويسمى الاعتدال الخريفي: لوقوعه في أول الخريف. ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شماليا هابطا، مُبْطُوطا في الجهة الشمالية.

ثم تنقل إلى الميزان في الثامن عشر من توت من شهور القبط، وهي آخذة في المَبْطُوط، والنهار في النقص والليل في الزيادة، فينقص النهار فيه كل يوم نصف درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس عشرة درجة، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائة وخمسة وستين درجة والليل على مائة وخمسة وتسعين درجة.

ثم تنقل إلى القُرب ، فينقص النهارُ في كلِّ يومٍ ثلثَ درجة ، ويزيد الليلُ كذلك ، فيكون نقصُ النهارِ فيه لمئة ثلاثين يوماً عشرَ درجات ، وزيادةُ الليلِ كذلك ؛ ويصير النهارُ بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة ، والليل على مائتين وخميس درجات .

ثم تنقل إلى القوس ، فينقص النهارُ فيه كلُّ يومٍ سُدسَ درجة ، ويزيد الليلُ كذلك ، فيكون نقصُ النهارِ فيه لمئة ثلاثين يوماً خمسَ درجات ، وزيادةُ الليلِ كذلك ، ويصير النهارُ بآخره على مائة وخمسين درجة ، والليل على مائتين وعشر درجات ، وهو أقصر يوم في السنة وأطول ليلة في السنة ؛ وذلك غايةً هبوطها في الجهة الجنوبية . ويسمى سيرُ الشمس في هذه البروج جنوباً هابطاً ، فُتُوطها في الجهة الجنوبية .

ثم تنقل إلى الجُدى في السابع عشر من كيهك وتكرُّ راجعة ، فتأخذ في الارتفاع وتأخذ النهارُ في الزيادة والليل في التقصان ، فيزيد النهارُ فيه كلُّ يومٍ سُدسَ درجة ، وينقص الليلُ كذلك ؛ فتكون زيادةُ النهارِ فيه لمئة ثلاثين يوماً خمسَ درجات ونقصُ الليلِ كذلك ، ويصير النهارُ بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة ، والليل على مائتين وخميس درجات .

ثم تنقل إلى الدلو ، فيزيد النهارُ فيه كلُّ يومٍ ثلثَ درجة ، وينقص الليلُ كذلك ؛ فتكون زيادةُ النهارِ فيه لمئة ثلاثين يوماً عشرَ درجات ونقصُ الليلِ كذلك ، ويصير النهارُ بآخره على مائة وخمس وستين درجة والليل على مائة وخميس وتسعين درجة .

ثم تنقل إلى الحوت فيزيد النهارُ فيه كلُّ يومٍ نصفَ درجة وينقص الليلُ كذلك ، فتكون زيادةُ النهارِ فيه لمئة ثلاثين يوماً خمسَ عشرة درجة ونقصُ الليلِ كذلك ،

ويصير النهار بآخره على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار وهو رأس الحمل وقد تقدّم . ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة جنوبيا صاعدا : لصعودها في الجهة الجنوبية ؛ وهذا شأنها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وهذا العمل إنما هو في مصر وأعمالها ؛ فإذا اختلفت العروض كان الأمر في الزيادة والنقصان بخلاف ذلك والله أعلم .

تنبيه - إذا أردت أن تعرف الشمس في أى برج من البروج وكَم قطعت منه في أى وقت شئت فأقرب الطرق في ذلك أن تعرف الشهر الذى أنت فيه من شهور القبط وتعرف أسسه^(١)

الجملة الرابعة

(في بيان ما يعرف به ابتداء الليل والنهار)

وقد تقدم أن النهار الطيبى أوله طلوع الشمس وآخره غروبها، والنهار الشرعى أوله طلوع الفجر الثانى وآخره غروب الشمس ؛ فيخالفه في الابتداء ويوافقه في الانتهاء، وطلوع الشمس وغروبها ظاهر يعرفه الخاص والعامة . أما الفجر فإن أمره خفى لا يعرفه كل أحد، وقد تقدم اهتمامه إلى كاذب : وهو القول ، وصادق : وهو الثانى ، وعليه التعويل في الشرعيات ، فيحتاج إلى توضيح يوضحه ويظهره للميان وقد جعل المتجملون وعلماء الميقات له نجوما تدل عليه بالطلوع والغروب والتوسط ، وهى منازل القمر، وستنها ثمان وعشرون منزلة : وهى الشّرطان ، والبُعَيْن ، والثّرْيَا ، والدَّبْرَان ، والمَقْعَة ، والمَتْنَعَة ، والنَّرَاع ، والنَّثْرَة ، والطَّرْف ، والْجَهَة ،

(١) بيان في الأصل .

والخمرتان ، والصرفة ، والعماء ، والسماء ، والغفر ، والزمان ، والإكليل ، والقلب ،
والشولة ، والعتائم ، والبلدة ، وسعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعد ، وسعد
الأخبية ، والفرغ المقدم ، والفرغ المؤخر ، وبطن الحوت ،

والمعنى في ذلك أن الشمس إذا قُرِبت من كوكب من الكواكب الثابتة
أو المتحركة سترته وأخفته عن العيون ، فصار يظهر نهاراً ويختفي ليلاً ويكون خفاؤه
غيباً له ، ولا يزال كذلك خافياً إلى أن تبعد عنه الشمس بعداً يمكن أن يظهر معه
للاَبصار وهو عند أول طلوع الفجر فإن ضوء الشمس يكون ضعيفاً حينئذ فلا يظلم
نور الكوكب فيرى الكوكب في الأفق الشرقي ظاهراً ، وحصة كل منزلة من هذه
المنازل من السنة ثلاثة عشر يوماً وربع سبع يوم ونصف ثمن سبع يوم على التقريب
كما سيأتي على المنازل الثمانية والعشرين خص كل منزلة ما ذكر من العدد والكسور
ولما كان الأمر كذلك جعل لكل منزلة ثلاثة عشر يوماً : وهي ثلاث عشرة درجة
من درج الفلك وجمع ما فضل من الكسور على كل ثلاثة عشر يوماً بعد انقضاء أيام
المنازل الثمانية والعشرين فكان يوماً وربعاً يجعل يوماً في المنزلة التي توافي آخر السنة
وهي الجبهة فكان حصتها أربعة عشر يوماً ، وبقي ربع يوم وثلث أربع مئة حتى
صار يوماً فزيد على الجبهة أيضاً ، فكانت كواكب المنازل المذكورة تطلع مع الفجر
منها أربعة عشر يوماً ثلاث سنين وفي السنة الرابعة تطلع بالفجر خمسة عشر يوماً .

فاما الشيطان : وهما المنزلة الأولى ، فأول طلوعهما بالفجر في الثالث والعشرين
من برمودة من شهور القبط ، وهو الثامن عشر من نيسان من شهور الثريان .

وأما البكين : وهو المنزلة الثانية فأول طلوعه بالفجر في السادس من بشنس من
شهور القبط ، وهو أول يوم من أيار من شهور الثريان .

(١) له يختفي نهاراً ويظهر ليلاً . ومع ذلك بقية العبارة غير واضحة .

(٢) كلما في الأصل ولمعه فإن السنة إذا قسمت على اثني .

وأما الثُّرَيَّا : وهى المتزلة الثالثة فأول طلوعها بالفجر فى التاسع عشر من بشنس من شهور القبط، وهو الرابع عشر من أيار من شهور السريان .

وأما الذَّرَّان : وهو المتزلة الرابعة فطلوعها بالفجر فى الثانى من يؤنه من شهور القبط، وهو السادس والعشرون من أيار من شهور السريان .

وأما الهَقْمَةُ : وهى المتزلة الخامسة، فأول طلوعها بالفجر فى الخامس عشر من يؤنه من شهور القبط، وهو التاسع من حزيران من شهور السريان .

وأما الهَنْعَةُ : وهى المتزلة السادسة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثامن والعشرين من يؤنه من شهور القبط، وهو الثانى والعشرون من حزيران من شهور السريان .

وأما الذَّرَاع : وهو المتزلة السابعة ، فأول طلوعه بالفجر فى الحادى عشر من أيب من شهور القبط، وهو الخامس من تموز من شهور السريان .

وأما الثَّرَّة : وهى المتزلة الثامنة ، فأول طلوعها بالفجر فى الرابع والعشرين من أيب من شهور القبط، وهو الثامن عشر من تموز من شهور السريان .

وأما الطَّرْف : وهو المتزلة التاسعة، فأول طلوعه بالفجر فى السابع من مسرى من شهور القبط : وهو اليوم الآخر من تموز من شهور السريان .

وأما الجبهة : وهى المتزلة العاشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى العشرين من مسرى من شهور القبط، وهو الثالث عشر من آب من شهور السريان .

وأما الخَرْتَان : وهو المتزلة الحادية عشرة ، فأول طلوعه بالفجر فى الرابع من أيام النسيء القبطى، وفى السنة الكبيسة فى الخامس منه، وهو السابع والعشرون من آب من شهور السريان .

وأما الصَّرْفَةُ : وهى المتزلة الثانية عشرة، فأول طلوعها بالفجر فى الثانى عشر من توت من شهور القبط، وهو التاسع من أيلول من شهور السريان .

وأما القَوَاء : وهى المِثْلَةُ الثالثة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الخامس والعشرين من توت من شهور القبط ، وفى الثانى والعشرين من أيلول من شهور السريان .
وأما السَّامَك : وهى المِثْلَةُ الرابعة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثامن من بابه من شهور القبط ، وهو الخامس من تشرين الأول من شهور السريان .

وأما القَفَر : وهى المِثْلَةُ الخامسة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الحادى والعشرين من بابه من شهور القبط ، وهو الثامن عشر من تشرين الأول من شهور السريان .
وأما الزَّبَانَان : وهى المِثْلَةُ السادسة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الرابع من هاتور من شهور القبط ، وهو آخر يوم من تشرين الأول من شهور السريان .

وأما الإِكْلِيل : وهو المِثْلَةُ السابعة عشرة ، فأول طلوعه بالفجر فى السابع عشر من هاتور من شهور القبط ، وهو الثالث عشر من تشرين الثانى من شهور السريان .
وأما القَلْب : وهو المِثْلَةُ الثامنة عشرة ، فأول طلوعه بالفجر فى آخر يوم من هاتور من شهور القبط ، وهو السادس والعشرون من تشرين الثانى من شهور السريان .

وأما الشُّوْلَة : وهى المِثْلَةُ التاسعة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثالث عشر من كيهك من شهور القبط ، وهو التاسع من كانون الأول من شهور السريان .
وأما النِّعَام : وهى المِثْلَةُ العشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى السادس والعشرين من كيهك من شهور القبط ، وهو الثانى والعشرون من كانون الأول من شهور السريان .

وأما البَلْدَة : وهى المِثْلَةُ الحادية والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى التاسع من طوبه من شهور القبط ، وهو الرابع من كانون الثانى من شهور السريان .
وأما سعد النابج : وهو المِثْلَةُ الثانية والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى الثانى

والعشرين من طوبه من شهور القبط ، وهو السابع عشر من كانون الثاني من شهور السريان .

وأما سَعْدُ بَلَع : وهو المنزلة الثالثة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في الخامس من أمشير من شهور القبط ، وهو الثلاثون من كانون الآخر من شهور السريان .
وأما سَعْدُ السُّود : وهو المنزلة الرابعة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في الثامن عشر من أمشير من شهور القبط ، وهو الثاني عشر من شباط من شهور السريان .

وأما سَعْدُ الْأَخْيِيَّة : وهو المنزلة الخامسة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر أول يوم من برمهات من شهور القبط ، وهو الخامس والعشرون من شباط من شهور السريان .

وأما الفَرَّغُ الْمُقَدَّم : وهو المنزلة السادسة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في الرابع عشر من برمهات من شهور القبط ، وهو السابع من آذار من شهور السريان .
وأما الفَرَّغُ الْمُؤَخَّر : وهو المنزلة السابعة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في السابع والعشرين من برمهات من شهور القبط ، وهو الثاني والعشرون من آذار من شهور السريان .

وأما بَطْنُ الْحَوْت : وهو المنزلة الثامنة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في العاشر من برمودة من شهور القبط ، وهو الخامس من نيسان من شهور السريان .

وقد نظم الشيخ كمال الدين حفيد الشيخ أبي عبد الله محمد القرطبي أياتاً ، يعلم منها مطالع هذه المنازل بالتعرج بحروف رمزها للشهور والأعداد والكواكب ، وربما غلط بعض الناس ففسها إلى الشيخ عبد العزيز الديريني رحمه الله ، وهي هذه :

تيس تهكم بحس بكأخ هطنز * هيزاء هلق كيجهش ككون برز .

طُلب طكيد أهب أيمس بأخ * يسلم بكرم بيت بكجش رضى^(١)
وليس فيها من الحشوات قط سوى * أوآخر النظم فافهم شرحها لتعز
وبيان ذلك أن الحرف الأول من كل كلمة اسم للشهر الذى تطلع فيه تلك المتلة
والحرف الآخر منها اسم المتلة وما بين الآخر والأول عدد ما مضى من الشهر بحساب
الجل، مثال ذلك التاء من تبيض كناية عن توت، والصاد منها كناية عن الصرفة،
والياء والباء اللذان بينهما عددهما بالجل اثنا عشر، إذ الياء بعشرة والباء باثنين فكانه
قال فى الثانى عشر من توت تطلع متلة الصرفة بالفجر، وكذلك البواقى، إلا أنه
لا عبرة بأواخر اليتين، وهى برز فى البيت الأول، ورمز فى البيت الثانى .
ونظم الإمام محب الدين جارا الله الطبرى أبيتا كذلك على شهور السريان ،
وهى هذه :

تمس تميخ تلمجى * توكى كلش كبكن نزول
ككب كويذ كلب شيس * شهكع أريم أبكم أول
نهب لمجش آب * أوكد حطت حبه مجبول

والحال فى هذه الكلمات من أوائل الأبيات وأواخرها وأواسطها كالحال فى الأبيات
المتقدمة ، فالتاء من تمس إشارة لتشرين الأول والسين إشارة للسياك ، والهاء بينهما
بخمسة فى الخامس من تشرين الأول يطلع السياك ؛ وعلى هذا الترتيب فى البواقى .
وأعلم أن هذه المنازل لا تزال أربع عشرة متلة منها ظاهرة فوق الأرض فى نصف
الفلك وأربع عشرة متلة منها خافية تحت الأرض فى نصف الفلك ، وهى مراقبة
بعضها لبعض لاستواء مقادير أبعادها ، فإذا طلعت واحدة فى الأفق الشرق غابت
واحدة فى الأفق الغربى ، وكانت أخرى متوسطة فى وسط الفلك فهى كذلك أبدا .

(١) هذه بيت ناقص غير موجود بالاصل وبه تكمل النهور والمنازل ،

والقاعدة في معرفة ذلك أنك تبدئ بأية منزلة شئت ، وتعد منها ثمانية من الطالع
فالثامنة هي المتوسطة والخامسة عشرة هي النارية ؛ فإذا كان الطالع الشرطين فالمتوسط
الثمرة والغارب الغفر وكذلك في جميع المنازل ؛ وفي مراقبة الطالع منها للغارب يقول
بعض الشعراء مقيداً لها على الترتيب بادئاً بطلوع النطح : وهو الشرطان وغروب
الغفر حينئذ :

كَمْ أَمَالُوا مِنْ نَاطِحٍ بَاغْتَارِ * وَأَحَالُوا عَلَى الْبُطَيْنِ الزَّيْزَانِ
وَالشُّرَى تَكَلَّتْ فَرَأَيْتِ الشَّوْقَ لَهَا مِنْهَا يُسْقِرُ الدَّبْرَانِ
مَقْعُوا شَوْلَةً وَهَمُّوا نَعَامًا * بَعْدَ مَا ذَرَعُوا الْبِلَادَ زَمَانًا
تَرَوْا ذُبْحَهُمْ بِطَرْفِ بَيْعٍ * جَبْهَةَ السَّعْدِ فِي خَرَكَتِ خَبَانَا
فَانصَرَفْنَا فِي الْمَقْدَمِ عَوَا * آخِرَا وَالسَّامِكِ مَدَّ رِشَانَا

وقال آخر :

الَنْطَحُ يَغْفِرُ الْبُطَيْنِ مُزَايِنَ * ثُمَّ الشُّرَى تَهْنِي الْأَكْبِلَا
وَالْقَلْبُ لِلدَّبْرَانِ خِلَ طَائِرِ * مِنْ أَجْلِ مَقْعَةِ شَوْلَةٍ مَا قِيلَا
تَهْوَى الْمُتَنِعَةَ لِلنَّعَامِ مِثْلَ مَا * يَتَوَى الذَّرَاعَ لِبَلَدَةِ تَرْجِيلَا
وَالشُّرَى يَدِجُ عِنْدَ طَرْفِ بُلُوْعِهِ * وَبِلْجِهَةِ سَعْدٍ غَدَا مَقْوَلَا
وَلِزُبْرَةِ وَسْطِ الْخِلْبَاءِ إِقَامَةً * فَاصْرِفْ مَقْدَمَ ذِكْرَهَا تَعْجِيلَا
يَهْوَى الْمُؤَخَّرَانَ سِمَاكَ مَرَّةً * مَدَّ الرِّشَاءَ لِحَيْدِهِ تَكْجِيلَا

وقد نظم صاحبنا الشيخ إبراهيم النحشوري الشهير بالمهروردي أوجوزة ، ذكر
فيها الطالع ، ثم الفارب في بيت وبعده المتوسط ثم الود وهو الذي يقابله تحت
الارض في بيت ثان - قال :

إن طلع الشرطان ^(١)

بَطْنُهَا نُورَ الزَّائِنِ خَلَعَ * فَنَاصُ الطَّرْفِ رَمَى سَعْدُ بَلَعَ
ثُرَيَّا مَعَ الْإِكْلِيلِ بِالْوُقُودِ * تُورُ الْجَهَةِ فِي السُّمُودِ
وَالدَّبْرَانُ الْقَلْبَ مِنْهُ يَحْفِقُ * فَاتْلُوتَانُ الْجِبَاءِ يَطْرُقُ
وَهَقْعَةُ شَوْلُهَا مُنْزِمَةٌ * وَصَرْفَةُ بَرْغَمِهَا مُقْتَمَةٌ
وَهَنَمَةٌ مِنْهَا النَّاعِمُ قَعَرَتْ * بِمَوَّةِ الْقَرْعِ قَدْ تَأَخَّرَتْ
رَمَى الذَّرَاعُ بِلَدَّةِ أَصَابِهَا * سَمَّاكَ بَطْنِ الْحَوِثِ مَا أَصَابِهَا
فَهَذِهِ جَمَلُهَا مَكْمَلُهُ * لِلشَّمْسِ فِي ثَلَاثِ عَشْرَ مِثْلِهِ

الجملة الخامسة

(في ساعات الليل والنهار)

قال أصحاب الهيئة : لما كان الفلك متحركاً حركات متعقدة يتلو بعضها بعضاً ،
جُمِلَ مقدار كل حركة منها يوماً ، ولما كانت الشمس في حركة من هذه الحركات تارةً
تكون ظاهرة لاهل الربع المعمور وتارة مستترة عنهم بمجدبة الأرض ، أقسم لذلك
مقدار تلك الحركة إلى الليل والنهار ، فالنهار عبارة عن الوقت الذي تظهر فيه الشمس
على ما كنى ذلك الموضع من المعمور ، والليل عبارة عن الوقت الذي تخفى عنهم فيه ،
فإنه يوجد وقت الصبح في موضع وقت طلوع الشمس في موضع آخر ، وفي موضع
آخروقت الظهر ، وفي موضع آخر وقت المغرب ، وفي موضع آخر وقت نصف الليل .
ولما كانت منطقة البروج مقسومة إلى اثني عشر برجاً ، وكل برج إلى ثلاثين
درجة ، وكانت الشمس تقطع هذه المنطقة بحركة فلك الكل لها في زمان اليوم

الجامع لليل والنهار، قُسم كل واحد منهما إلى اثني عشر جزءاً، وجعل قسماً كل جزء منها خمس عشرة درجة، وسمي ساعة. ثم لما كان الليل والنهار يزيد أحدهما على الآخر ويتساويان في الاعتدالين على مامة، اضطُرَّ إلى أن تكون الساعات نوعين: مستوية، وتسمى المتتلة، وزمائية وتسمى الموجة. فالمستوية تختلف أعدادها في الليل والنهار، وتتفق مقاديرها بحسب طول النهار وقصره. فإنه إن طال كانت ساعاته أكثر، وإن قصر كانت ساعاته أقل، مقدار كل ساعة منه خمس عشرة درجة لا تزيد ولا تنقص، والموجة تتفق أعدادها وتختلف مقاديرها، فإن زمان النهار طال أو قصر ينقسم أبداً إلى اثني عشرة ساعة، مقدار كل واحدة منها نصف سُدس الليل والنهار، وهي في النهار الطويل أطول منها في التقصير. والذي كانت العرب تعرفه من ذلك الزمانية دون المستوية، فكانوا يقسمون كلا من الليل والنهار إلى اثني عشرة ساعة، ووضعوا لكل ساعة من ساعات الليل والنهار أسماء تخصها.

فأما ساعات الليل فسموا الأولى منها الشاهد، والثانية الفسق، والثالثة العمّة، والرابعة الفحمة، والخامسة الموهن، والسادسة القطع، والسابعة الجوشن، والثامنة المشكة، والتاسعة التباشير، والحادية عشرة الفجر الأول، والثانية عشرة الفجر المعترض.

وأما النهار فسموا الساعة الأولى منه الدور، والثانية البروغ، والثالثة الضحى، والرابعة النزلة، والخامسة الماحرة، والسادسة الزوال، والسابعة الملوك، والثامنة العصر، والتاسعة الإصبيل، والعاشره الصبوب، والحادية عشرة الحدود، والثانية عشرة الغروب.

(١) العاشرة غير موجودة في الأصل - ويد في نهاية الأرب بعد التباشير الفجر الأول ثم الفجر الثاني ثم المعترض ويد تمل ماحتاً (٢) ليل صوابه الحشم.

وتروى عنهم على وجه آخر؛ فيقال فيها : البُكُورُ ، ثم الشُّرُوقُ ، ثم الإِشْرَاقُ ،
ثم الرُّؤْدُ ، ثم الضُّحَى ، ثم المُنْتَوَعُ ، ثم المَاجِرَةُ ، ثم الأَمِيلُ ، ثم العَصْرُ ، ثم الطُّفْلُ
(بمترك الفاء) ، ثم العِشَى ، ثم الغُروبُ . ذكرهما ابن النحاس في "صناعة الكتاب" .
قال في "مناهج الفكر" : ويقال إن أول من قسم النهار إلى اثنتي عشرة ساعة آدم عليه
السلام ، وتضمن ذلك وصية لابنه شيت عليه السلام ، وعرفه ما وُظِفَ عليه كل ساعة
من عمل وعبادة والله أعلم .

الجملة السادسة

(في أيام الأسبوع ، وفيها أربعة مَدَارِك)

المَسْدُوكُ الأوَّلُ

(في ابتداء خَلْقِها وأصل وجودها)

وقد نطق القرآن الكريم بذكر ستة أيام منها على الإجمال والتفصيل .
أما الإجمال فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ .
وأما التفصيل فقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنتُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ
وَيَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ تَحْتِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ
فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ثُمَّ أَسْرَوْنِي إِلَى الْمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا
وَالْأَرْضِ انثَبَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾
والمراد بالأربعة الأولى بما فيها من اليومين المتقدمين ، ومثله في كلام العرب كثير ،
ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " إذا نَامَ أَحَدُكُمْ جَاءَ الشَّيْطَانُ فَفَقَدَ نَحْتَ رَأْسِهِ ثَلَاثَ
عُقَدَ ، فإذا أَسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فإذا تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَتَانِ ، فإذا
صَلَّى انْحَلَّتِ الثَّلَاثَةُ " فالمراد بقوله عقْدَتَانِ عُقْدَةُ وَالْعُقْدَةُ الأولى . وقد ظهر بذلك أن

المراد من الآية ستة أيام فقط ، وهو ماورد به صريحُ الآيات في غير هذه الآية أن خلقَ السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وقد ورد ذلك مبينا فيما رواه ابنُ جرير من رواية ابن عباس رضى الله عنهما " أَنَّ الْيَهُودَ آتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، تَسْأَلُهُ عَنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَقَالَ خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْأَحَدِ وَيَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ يَوْمَ الثَّلَاثَةِ وَمَا فِيهِنَّ مِنْ مَنَافِعَ ، وَخَلَقَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ الْمَدَائِنَ وَالشَّجَرَ وَالْعُرْمَانَ وَالْخَرَابَ ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَيَّامَ ، وَخَلَقَ يَوْمَ الْخَمِيسِ السَّمَاءَ ، وَخَلَقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ النَّجْمَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْمَلَائِكَةَ إِلَى ثَلَاثِ سَاعَاتٍ بَقِيََتْ مِنْهُ ؛ وَفِي الثَّانِيَةِ أُلْقِيَ الْآفَةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ ، وَفِي الثَّلَاثَةِ خَلَقَ آدَمَ وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ وَأَمَرَ إِبْلِيسَ بالسُّجُودَ لَهُ ، وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا فِي آخِرِ سَاعَةِ " قالت اليهود ، ثم ماذا؟ قال " ثم أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ " قالوا : أَصَبْتَ لَوْ أَتَمَمْتَ ، قالوا : ثم أَسْتَرَحَ فُغْضِبَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَضَبًا شَدِيدًا فَتَرَلَّ ﴿ وَتَقَدَّ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَا مِنْ تُقُوبٍ ﴾ قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تفسيره : وفيه غرابة ، ولا ذكر في هذا الحديث ليوم السبت في أوَّل الخلق ولا في آخره ، نعم ثبت في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة رضى الله عنه ، أنه قال " أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَدَيَّ فَقَالَ خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَةِ ، وَخَلَقَ النَّوَرُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا الدُّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ آخِرَ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ ، فَيَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ " قال ابن كثير وهو من غرائب الصحيح ، وطوله البخاريُّ في تاريخه فقال رواه بعضهم عن أبي هريرة عن كعبٍ الأحمريِّ ، وهو أحم . فقد ورد التصريح في هذا الحديث بذكر الأيام السبعة ووقوع الخلق فيها . قال أبو جعفر النحاس زعم محمد بن إسحاق أن هذا

الحديث أولى من الحديث الذي قبله ، وأستدل بأن الفراغ كان يوم الجمعة ، وخالفه غيره من العلماء المحدثات النظار . وقالوا دليله دليل على خطئه : لأن المخلوق في سنة أيام يوم الجمعة منها كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم برواية الجماعة ، فلو لم يدخل في الأيام لكلف المخلوق في سبعة ، وهو خلاف ما جاء به التنزيل . على أن أكثر أهل العلم على حديث ابن عباس ، فتبين أن الابتداء يوم الأحد إذ كان الأحرور الجمعة ، وذلك ستة أيام كما في التنزيل . قال أبو جعفر : على أن الحديثين ليسا يتناقضين ، لأننا إن علمنا على الابتداء بالأحد فالمخلوق في ستة أيام وليس في التنزيل أنه لا يخلق بعدها شيئا وإن علمنا على الابتداء بالسبت فليس في التنزيل أنه لم يخلق قبلها شيئا .

إذا علمت ذلك فقد حكى أبو جعفر النحاس أن مقدار كل يوم من أيام خلق السموات والأرض ألف سنة من أيام الدنيا ، وأنه كان بين ابتدائه عز وجل في خلق ذلك وخلق القلم الذي أمره بكتابة كل ما هو كائن إلى قيام الساعة يوم : وهو ألف عام ، فصار من ابتداء المخلوق إلى انتهائه سبعة آلاف عام ، وعليه يدل قول ابن عباس : إن مدة إقامة المخلوق إلى قيام الساعة سبعة أيام كما كان المخلوق في سبعة أيام .

قال أبو جعفر وهذا باب مداره على النقل دون الآراء .

المذكر الثاني

(في أسمائها . وقد اختلف في ذلك على ثلاث روايات)

الرواية الأولى - ما نقلت به العرب المستعربة من ولد إسماعيل عليه السلام وجرى عليه الاستعمال إلى الآن : وهو الأحد والاشان والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت .

والأصل في ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : "إن الله عز وجل خلق يوماً واحداً فسماه الأحد ، ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين ، ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء ، ثم خلق رابعاً فسماه الأربعاء ، ثم خلق خامساً فسماه الخميس " ولا ذكر في هذه الرواية للجمعة والسبت . وقد ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز . قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ وقال جل وعز ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِجَابَتُهُمْ يَوْمَ سَنُيْهِمْ شَرًّا ﴾ . وسياطين في غير هذه الرواية عند ذكر الاختلاف فيما أُبْتَدِئَ فِيهِ الْخَلْقُ مِنْهَا .

فالأحد بمعنى واحد ويقال بمعنى أول ووجه النحاس ، وهو المطابق لتسمية الثاني بالاثنتين . والثالث بالثلاثة . وقيل أصله وحَد بفتح الواو والحاء كما أن أناة أصلها ونَاء ، ويجمع في القِصَّة على آحاد وأحداث ، وفي الكثرة على أُحود وأوحاد^(١) ويحكي في جمعه أحد أيضاً قال النحاس : كأنه جمع الجمع .

والاثنتان بمعنى الثاني . قال النحاس ، وسيله أن لا يثنى ، وأن يقال فيه : مضت أيام الاثنين إلا أن تقول ذوات قال : وقد حكى البصريون الأثنى والجمع الثني . وقال ابن قتيبة في أدب الكاتب : إن شئت أن تجمله فكأنه مبنى للواحد قلت أثنائين . وحكى النحاس مثله عن كتاب الفراء في الأيام . وقال : إنما يجوز على حيلة بعيدة ، وهي أن يقال اليوم الاثنان فُضُمَ النون فتصير مثل عمران فتثنيه وتجمعه على هذا . وحكى عن الفراء أيضاً في جمع الكثرة أثنان فتقول مضت أثنان مثل أسماء وأَسَامٍ قال : وقرأت على أبي إسحاق في كتاب سيبويه فيما حكاه اليوم الثني فتقول على هذا في الجمع الأثناء .

(١) لله إحد يدلل عبارة النحاس

والتَّلَاءُ بمعنى الثالث، ويجمع على تَلَاوَاتٍ وحكى الفراء أَنَّهُ . قال النحاس ويجوز أَنَاثِيثٌ، وكذا تَلَايِثٌ مثل جمع ثلاثة لأنَّ أَنثِيَّ التَّأْنِيثِ كَالهَاءِ . وتقول فيه مضت التَّلَاءُ عَلَى تَأْنِيثِ اللَّفْظِ وَمَعْنَى عَلَى تَذَكُّرِ الْيَوْمِ ، وكذا في الجمع تقول مضت ثلاثٌ تَلَاوَاتٍ، وثلاثةٌ تَلَاوَاتٍ .

وَالْأَرْبَاءُ بمعنى الرابع ، ويجمع على أَرْبَاعَاتٍ وكذا أَرْبَاعٌ وَالْبَاءُ فِيهِ عَوْضٌ مَا حُذِفَ ، فَإِنْ لَمْ تَعَوَّضْ قُلْتَ أَرْبَاعٍ . وَأَجَازَ الْفَرَاءُ أَرْبَاعَاتٍ مِثْلَ تَلَاوَاتٍ وَمَنَعَهُ الْبَصَرِيُّونَ لِلْفَرْقِ بَيْنَ أَلْفِ التَّأْنِيثِ وَضَرِهَا .

وَالخَمِيسُ بمعنى الخامس ، ويجمع في القِلَّةِ عَلَى أَخْمِيسَةٍ . وفي الكثرة عَلَى خُمُسٍ وَخُمُسَانٍ كَرُغْفٍ وَرُغْفَانٍ . وَقَالَ أَخْمِيسَاءُ كَأَنْصَابٍ، وَحَكَى عَنِ الْفَرَاءِ فِي الْكثرةِ أَخْمِيسٌ .

وَالْجُمُعَةُ (بضم الميم وإسكانها) ومعناها الجمع . وَاخْتَلَفَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَّتِهِ بِذَلِكَ فَقَالَ النَّحَّاسُ : لِاجْتِمَاعِ الْخَلْقِ فِيهِ ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ الْأَسْمَ كَانَ بِهَا قَدِيمًا وَقِيلَ لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ لِلصَّلَاةِ فِيهِ . ثُمَّ اخْتَلَفَ قَقِيلٌ سَمِيَتْ بِذَلِكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَحْجَجَ لَهُ بِمَا حَكَاهُ أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ فِي كِتَابِهِ الْأَوَائِلَ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ سَمَّى الْجُمُعَةَ جُمُعَةً كَتَبُ آبْنِ لُؤَيٍّ جَدُّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ جَمَعَ قُرَيْشًا وَخَطَبَهُمْ فَسَمِيَتْ جُمُعَةً وَكَانُوا لَا يَعْرِفُونَ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَّا الْعَرُوبَةَ . وَقِيلَ إِنَّمَا سَمِيَتْ بِذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَنْصَارَ قَالُوا : إِنْ لِلْيَهُودِ يَوْمًا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ بَعْدَ كُلِّ شِتَّةٍ أَيَّامٍ ، وَلِلنَّصَارَى كَذَلِكَ فَهَلُمَّ نَجْمِلْ لَنَا يَوْمًا نَجْتَمِعُ فِيهِ نَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى وَنُصَلِّيَ ، فَقَالُوا يَوْمَ السَّبْتِ لِلْيَهُودِ وَيَوْمَ الْأَحَدِ لِلنَّصَارَى فَأَجْعَلُوا يَوْمَ الْعَرُوبَةِ لَنَا فَأَجْتَمَعُوا إِلَى سَعْدِ بْنِ زُرَّارَةَ الْأَنْصَارِيِّ فَصَلَّى بِهِمْ يَوْمَئِذٍ رَكَعَتَيْنِ وَذَكَرَهُمْ فَمَوَّهَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِاجْتِمَاعِهِمْ فِيهِ فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى سُورَةَ الْجُمُعَةِ . عَلَى أَنَّ السُّبُهْلِيَّ قَدْ قَالَ فِي الرُّوضِ الْأَنْفُ : إِنْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ كَانَ يُسَمَّى بِهَذَا الْأَسْمِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الْأَنْصَارُ الْجُمُعَةَ .

أما أوّل جمعة جمّعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكاه صاحب الأوائل فإنه لما قِيم المدينة مهاجرا نزل على بنى عمرو بن عوف وأقام عندهم أياما ثم نرج يوم الجمعة عائدا إلى المدينة فأدركته الصلاة في بنى سالم بن عوف في بطن وإد لهم فخطب وصلى بهم الجمعة . وتجمع على جمع وجمعات بالفتح والتسكين .

والسبت ومعناه القطع بمعنى أنه قُطِع فيه الخلق على رأى من يرى أن السبت آحر أيام الجمعة ، وأنه لا خلق فيه على ماساى ذكره . وقول النحاس إنه مشتق من الراحة أيضا لا عبرة به لمضاهاة قول اليهود فيه على ماساى إن شاء الله تعالى . ويجمع في القلّة على أسبوت وسبّات بالتحريك ، وفي الكثرة على سبوت بضم السين مثل قرّح وقرّوح .

الرواية الثانية - ما روى عن العرب العاربة من بنى قحطان وجُرم الأولى : وهو أنهم كانوا يُسمّون الأحد أوّل لأنه أوّل أعداد الأيام ويسمّون الاثنين أهون أخذا من الهون والهوينى ، وأوهدا أيضا أخذا من الوهدة : وهى المكان المنخفض من الأرض لا تخفاضه عن اليوم الأوّل في العدد . ويسمّون الثلاثاء جبّارا (بضم الجيم) لأنه جبر به العدد . ويسمّون الأربعاء دُبّارا (بضم الدال المهملة) لأنه دبر ماجبر به العدد بمعنى أنه جاء دُبره . ويسمّون الخميس مُؤنسا لأنه يؤنس به لبركته . قال النحاس : ولم يزل ذلك أيضا في الإسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتبرك به ولا يُسافر إلا فيه وقال : " اللهم بارك لأمّتي في بُحورها يوم خميسها " . ويسمّون الجمعة العروبة (بفتح العين مع الألف واللام) وفي لغة شاذة عروبة بغير ألف ولام مع عدم الصرف ، ومعناه اليوم البيّ أخذا من قولهم أعرب إذا أبان ، والمراد أنه بيّن العظمة والشرف ، إذ لم يزل معظما عند أهل كل ملة وجاء الإسلام فزاده

(١) وجمعات أيضا بضمين . قال في المصباح كقرنات في وجوهها .

تعظيماً ، وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ دَخَلَ الْجَنَّةُ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا " . وَيُسَمُّونَهُ أَيْضاً حَرَّةً بِمَعْنَى أَنَّهُ مَرْتَفِعٌ عَالٍ كَالْحَرَّةِ الَّتِي هِيَ كَالشَّجَرِ ، كَمَا يُقَالُ مَحْرَابٌ لِمَحْرَابٍ وَعُلُوٌّ مَكَاتُهُ ؛ وَيُسَمُّونَ السَّبْتَ شَسِيَاراً (بِفَتْحِ الشَّيْنِ الْمُجَمَّةِ وَكَسْرِهَا مَعَ الْيَاءِ الْمُثَنَّى تَحْتُ) أَخَذْنَا مِنْ شُرْتِ الشَّيْءِ إِذَا اسْتَخْرَجْتَهُ وَأَظْهَرْتَهُ مِنْ مَكَانِهِ إِنَّمَا بِمَعْنَى أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ مِنَ الْيَوْمِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الْخَلْقُ عَلَى مَذْهَبٍ مِنْ يَرَى أَنَّهُ آتَرُ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ وَأَنَّ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ الْأَحَدُ وَأَتَمَّاهُ الْجُمُعَةُ ، وَإِنَّمَا بِمَعْنَى أَنَّهُ ظَهَرَ أَوَّلُ أَيَّامِ الْجُمُعَةِ عَلَى مَذْهَبٍ مِنْ يَرَى أَنَّهُ أَوَّلُ الْجُمُعَةِ وَكَانَ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ فِيهِ ، وَلِأَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ يُشِيرُ النَّاقِبَةُ بِقَوْلِهِ :

أَوَّلُ مَنْ أَنْ أَعِيشَ وَأَنْ يَوْمِي * لِأَوَّلِ أَوْ لِأَوَّلِ أَوْ جُبَارٍ

أَوْ التَّالِي دُبَارٍ فَلَا أَقْتَهُ * فَتُونِسَ أَوْ عَرُوبَةَ أَوْ شِبَارٍ .

الرواية الثالثة - ما حكاها النحاس عن الضعَّانك : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، لَيْسَ مِنْهَا يَوْمٌ إِلَّا لَهُ أَمْسٌ أَيْجِدُ هَوَزٌ حُطَّى كَلَمَنْ سَعَفَصَ قَرَشَتْ . وَقَدْ حَكَى الْمَبْهَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْمُتَدَاوِلَةَ بَيْنَ النَّاسِ الْآنَ مَرْوِيَّةٌ عَنْ أَهْلِ الْكَلْبِ ، وَأَنَّ الْعَرَبَ الْمُسْتَعْرَبَةَ لَمَّا جَاوَزَتْهُمْ أَخَذَتْهَا عَنْهُمْ ، وَأَنَّ النَّاسَ قَبْلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ إِلَّا الْأَسْمَاءَ الَّتِي وَضَعَتْهَا الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ ؛ وَهِيَ أَيْجِدُ هَوَزٌ حُطَّى كَلَمَنْ سَعَفَصَ قَرَشَتْ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا سَائِرَ الْخُلُوقَاتِ : عَلَوِيَّاتٍ وَسُفْلِيَّاتٍ . وَهَذَا يَخَالِفُ مَا تَقْتَضِيهِ فِي الرَّوَايَةِ الثَّانِيَةِ عَنْ الْعَرَبِ الْعَارِبَةِ . وَعَلَى أَنَّهَا أَسْمَاءٌ لِلْأَيَّامِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الْخَلْقُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَيْجِدُ أَسْمَاءً لِلْأَحَدِ عَلَى مَذْهَبٍ مِنْ يَرَى أَنَّ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ يَوْمَ الْأَحَدِ وَيَكُونُ السَّبْتُ لَا ذَكَرَ لَهُ فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ .

(١) أسقط الناح الأحيال الثاني وقد ذكره في الفهرست بقوله (ويحتمل أن أيجد اسم السبت على رأى من يرى أنه بمعنى فوالخلق وتكون الجمعة لا ذكر لها) .

المُدرَك الثالث

(في بيان أول أيام الأسبوع ، وما كان فيه ابتداء الخلق منها .
وقد اختلف الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب)

المذهب الأول - أن أول أيام الأسبوع وأبتداء الخلق الأحد . وأصح لذلك بما تقدم من حديث ابن عباس " أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السموات والأرض فقال خلق الله عز وجل الأرض يوم الأحد " الحديث ومجديته الآخر " خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحد " وإذا كان ابتداء الخلق الأحد لزم أن يكون أول الأسبوع الأحد .

المذهب الثاني - أن أول أيام الأسبوع وأبتداء الخلق السبت . وأصح له بحديث أبي هريرة المتقدم " أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله التربة يوم السبت " الحديث ، وإذا كان ابتداء الخلق السبت لزم أن يكون أول الأسبوع السبت .

المذهب الثالث - أن أول أيام الأسبوع الأحد ، لحديث " خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحد ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين " الحديث . وأبتداء الخلق يوم السبت لحديث أبي هريرة المتقدم . قال النحاس : وهذا أحسنها .

المُدرَك الرابع

(في التفاضل بين أيام الأسبوع والتطهير بها وما يُعزى لكل منها
من خير أو شر ، على ما هو متداول بين الناس)

وأعلم أنه لأصل لذلك من الشريعة ، ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة . وقد وردت القرعة عن جعفر الصادق رضي الله عنه في توزيع الأعمال على الأيام : أنه قال : السبت يوم منكٍ وخديعة ؛ ويوم الأحد يوم غمرٍ وعمارية ؛ ويوم الاثنين

يوم سفر وتجارة؛ ويوم الثلاثاء يوم إراقة ديم وحرب ومكافئة؛ ويوم الأربعاء يوم أخذ وعطاء؛ ويقال يوم نحس مستتر؛ ويوم الخميس يوم دخول على الأمراء وطلب الحاجات؛ ويوم الجمعة يوم حلة ونكاح. ووجهوا هذه الدعوى بأن قرشنا مكثت في دار الندوة يوم السبت، وأن الله ابتداء الخلق يوم الأحد، وأن شعبيا سافر للتجارة يوم الاثنين، وأن حوله حاضت يوم الثلاثاء، وفيه قتل قابيل هابيل أخاه، وأن فرعون غرق هو وقومه يوم الأربعاء، وفيه أهلك الله عادًا وثمودًا، وأن إبراهيم دخل على التمرود يوم الخميس، وأن الأنبياء عليهم السلام كانت تنكح وتخطب يوم الجمعة. وقد نظم بعض الشعراء هذه الاختيارات في أبيات، وإن كان قد خالف الواضع في مواضع فقال:

لَيْتَ الْيَوْمُ يَوْمُ السَّبْتِ حَقًّا * لَصِيدَ إِنْ أَرَدْتَ بِلَا مَتْرَاءِ
وَفِي الْأَحَدِ الْبِنَاءُ فَإِنَّ فِيهِ * تَبَدُّئُ اللَّهِ فِي خَلْقِ السَّمَاءِ
وَفِي الْإِثْنَيْنِ إِنْ سَافَرْتَ فِيهِ * سَتَرَجُحُ النَّجَاحِ وَالْفَنَاءِ
وَأِنْ تُرِيدَ الْحِجَامَةَ فِي الثَّلَاثَا * فَفِي سَاعَاتِهِ هَرَقُ الدِّمَاءِ
وَأِنْ شَرِبَ أَمْرُؤُكُمْ كَوَاةً * فَفِي الْيَوْمِ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ
وَفِي يَوْمِ الْخَمِيسِ قَضَاءُ حَاجٍ * فَإِنَّ اللَّهَ يَأْذَنُ بِالْقَضَاءِ
وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ التَّرْوِيجُ حَقًّا * وَلِلنَّاسِ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ

وسبق الكلام على ما يتعلق من ذلك بأيام الشهر في الكلام على الشهور في الفصل السابع من الكتاب إن شاء الله تعالى.

الطرف الثاني

(في الشهرين ، وهي على قسمين : طبيعي وأصطلاحي)

القسم الأول

(الطبيعي والمراد به القمري)

وهو مدة مسير القمر من حين يفارق الشمس إلى حين يفارقها مرة أخرى :
وهي على ضربين :

الضرب الأول

(شهور العرب) .

والشهر العربي عبارة عما بين رؤية الهلال إلى رؤيته ثانياً ، وعدد أيامه تسعة وعشرون يوماً ونصف يوم على التقريب ، ولما كان هذا الكمر في العدد غيراً عدوا جملة الشهرين تسعة وخمسين يوماً ، أحدهما ثلاثون وهو التام ، والآخر تسعة وعشرون وهو الناقص . وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها « أن النبي صلى الله عليه وسلم حلف لا يدخل على بعض نسائه شهراً فلما مضى تسعة وعشرون فلما عليهم أو رآح قبيل يارسول الله حلفت لا تدخل عليهن شهراً فقال الشهر يكون تسعة وعشرين » . وذلك بحسب مسير النيران : الشمس والقمر بالمسير الأوسط . أما بالمسير المقوم فإنه يتفق إذا استكمل الشهر برؤية الهلال عياناً أن يتوالى شهران وثلاثة تامة وتوالى كذلك ناقصة وعلى ذلك عمل العرب واليهود . ولم يبق في استعماله طريقتان .

الطريقة الأولى

(طريقة العرب)

ومدة الشهر عندهم من رؤية الهلال إلى رؤية الهلال، وهي أسهل الطرق وأقربها، وعليها جاء الشرع، وبها نطق التزييل قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ . وفيها جملتان :

الجملة الأولى

(في أحوال الأهلة التي عليها مدار الشهور في ابتدائها واتهايها)

واعلم أن سير القمر بمقدار بمعرفة الشهور والسنين قال تعالى ﴿قَحَّوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَهْتَفُوا بِهِ فَنَحْبِرَ لَكُم بِرَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْأَحْسَابِ﴾
والشمس تغطي في كل ليلة ما يستضيء به نصف سبع قرصه حتى يكمل ثم تسلبه من الليلة الخامسة عشرة كل ليلة نصف سبع قرصه حتى لا يبقى فيه نور فيستتر .
ويروى عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه سُئِلَ عن القمر فقال : يَخْفَى كل ليلة ويُولَدُ جليداً، ويبعد مثل هذا عن جعفر الصادق .

إذا علمت ذلك فالقمر حركتان : سريعة وبطيئة كما تقدم في الشمس .

أما الحركة السريعة فحركة فلك الكلّ به من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق في اليوم واليلة .

واعلم أن الهلال إذا طلع مع غروب الشمس كان مغيبه على مضي ستة أسابيع ساعة من الليل، ولا يزال مغيبه يتأخر عن مغيبه في كل ليلة ماضية هذا المقدار حتى يكون مغيبه في الليلة السابعة نصف الليل، وفي الليلة الرابعة عشرة طلوع الشمس،

ثم يكون طلوعه في الليلة الخامسة عشرة على مضي سنة أسابيع ساعة منها، ولا يزال طلوعه يتأخر عن طلوعه في كل ليلة ماضية بعد الإبطار هذا المقدار حتى يكون طلوعه ليلة إحدى وعشرين نصف الليل، وطلوعه ليلة ثمان وعشرين مع الغداة .

وإذا أردت أن تعلم على مضي كم من الساعات يغيب أو يطلع من الليل، فإن أردت المغيب وكان قد مضى من الشهر خمس ليال تقديرا فأضربها في ستة تكون ثلاثين فاسقطها سبعة سبعة بقي اثنين فيكون مغيبه على مضي أربع ساعات وثلاثة^(١) أسابيع ساعة، وكذلك العمل في أية ليلة شئت؛ وإن أردت الطلوع وكان قد مضى من الإبطار ست ليال مثلا فأضرب ستة في ستة يكون ستة وثلاثين فاسقطها سبعة سبعة بقي واحد، فيكون طلوعه على خمس ساعات وسبع، وكذلك العمل في أية ليلة شئت .

وقد قسمت العرب ليل إلى الشهر بعد استهلاكه كل ثلاثة أيام قسما وسمتها بأسم فالثلاث الأول منها هلال، والثلاث الثانية قمر، والثلاث الثالثة بهر، والثلاث الرابعة زهر (والزهر البياض)، والثلاث الخامسة بيض: لأن الليالي تبيض بطلوع القمر فيها من أولها إلى آخرها، والثلاث السادسة دُرُع: لأن أوائلها تكون سودا وسائرها بيض، والثلاث السابعة ظلم، والثلاث الثامنة حنادس، والثلاث التاسعة دَادِي (الواحدة منها دَادَاة على وزن قَلَلَة)، والثلاث العاشرة ليلتان منها حَقاق و ليلة سِرَار لإحراق الشمس القمر فيها .

وممن من يقول ثلاث قُرَر: (وَقُرَّة كل شيء أوله)، وثلاث شُهَب، وثلاث زُهر، وثلاث بُسَع: لأن آخر يوم منها اليوم التاسع، وثلاث بهر، بهر فيها ظلام الليل، وثلاث بيض، وثلاث دُرُع، وثلاث دُغم وغم وحنادس، وثلاث دَادِي. ويروي عنهم أنهم يسمون ليلة ثمان وعشرين الدُغماء، وليلة تسع وعشرين

(١) ليل الصواب وسهوان كما هو واضح (٢) ليل هذه الثلاثة قبل التي قبلها دليل الصواب .

الدَّهْمَاءُ، وَلِسْلَةٌ ثَلَاثِينَ اللَّيْلَاءُ، وَهُمْ يَقُولُونَ فِي أَصْحَابِهِمْ : الْقَمَرُ ابْنُ لَيْلَةٍ، رَضَاعُ بَيْتِهِ، حَلَّ أَهْلُهَا بِرَيْلَةٍ، وَابْنُ لَيْلَتَيْنِ حَلِيتُ أُمْتَيْنِ، كَتَبَ وَمِثْنُ؛ وَابْنُ ثَلَاثٍ، قَلِيلُ الْبَلَاثِ؛ وَابْنُ أَرْبَعٍ، عَتَمَةُ أُمِّ رُبْعٍ، لَا جَائِعَ وَلَا مُرَضِعَ؛ وَابْنُ خَمْسٍ، حَلِيتُ وَأَنْسُ، وَعَشَاءُ خَلِيفَاتِ قُبُوسٍ؛ وَابْنُ سِتٍّ، مِرْوَيْتٌ؛ وَابْنُ سَبْعٍ، دُبْلَةُ ضَنْعٍ، وَحَدِيثُ وَجْمَعٍ، وَابْنُ ثَمَانٍ، قَرُّ إِحْصِيَانٍ؛ وَابْنُ تِسْعٍ، مَحْدُو النَّسْعِ، وَيُقَالُ النَّسْعُ؛ وَابْنُ عَشْرِ، مُتَحَقُّ الْفَجْرِ، وَثَلَاثُ الشَّهْرِ.

هذا هو المحفوظ عن العرب في كثير من الكتب .

قال صاحب مناهج الفكر : وعثرت في بعض المجاميع على زيادة إلى آخر الشهر، وكأنها وافته أعلم مصنوعة ، وهي على ألسنة العرب موضوعه ، وهي : وَابْنُ إِحْدَى عَشْرَةٍ، يُرَى عِشَاءً وَيُرَى بُكْرَةً، وَابْنُ اثْنَتَيْ عَشْرَةٍ، مُرْهَقُ الْبَشَرِ بِالْهَوِّ وَالْحَضَرِ، وَابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ، قَرِيبُهَا هَرٌّ، يُعْنَى النَّاطِرُ، وَابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ مُقْبِلُ الشَّبَابِ ؛ مَعْنَى دُجْنَاتِ السَّحَابِ ؛ وَابْنُ خَمْسِ عَشْرَةٍ تَمُّ الْقَامِ، وَهَدَّتِ الْأَيَّامُ، وَابْنُ سِتِّ عَشْرَةٍ نَقَصَ الْخَلْقُ، فِي الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ، وَابْنُ سَبْعِ عَشْرَةٍ، أُمَكْنِتِ الْمُقْتَنِرَ الْفَقْرَةَ، وَابْنُ ثَمَانِ عَشْرَةٍ قَلِيلُ الْبَقَاءِ، سَرِيعُ الْفَنَاءِ ؛ وَابْنُ تِسْعِ عَشْرَةٍ يَطْلُوعُ الطُّلُوعِ، سَرِيعُ الْخُشُوعِ ؛ وَابْنُ عَشْرِينَ يَطْلُعُ مُجْرَهُ، وَيَغِيبُ بُكْرَةً؛ وَابْنُ إِحْدَى وَعَشْرِينَ كَالْقُبُوسِ، يَطْلُعُ فِي النَّفْسِ ؛ وَابْنُ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ يُطِيلُ السَّرَى، رَتِيقًا يُرَى ؛ وَابْنُ ثَلَاثِ وَعَشْرِينَ يُرَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيَالِ، لَا قَرُّ وَلَا هَلَالٌ؛ وَابْنُ خَمْسِ وَعَشْرِينَ دَنَا الْأَجَلَ، وَأَقْطَعَ الْأَمَلَ؛ وَابْنُ سِتِّ وَعَشْرِينَ دَنَا مَا دَنَا، فَمَا يُرَى إِلَّا سَنَا، وَابْنُ سَبْعِ وَعَشْرِينَ يَشُقُّ الشَّمْسَ، وَلَا يُرَى لَهُ حَسٌّ، وَابْنُ ثَمَانٍ وَعَشْرِينَ ضَبِيلُ صَغِيرٍ لَا يَرَاهُ إِلَّا الْبَصِيرُ .

وأما حركته البطيئة ، فحركته من جهة الشمال إلى جهة الجنوب ، ومن جهة الجنوب إلى جهة الشمال وتنقله في المنازل الثمانية وعشرين في ثمانية وعشرين يوما بليلها كالشمس في البروج قال تعالى ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ فاقطعه الشمس من الشمال إلى الجنوب وبالعكس في جميع السنة يقطعه القمر في ثمانية وعشرين يوما . والمنازل للقمر كالبروج للشمس ؛ وذلك أنه لما اتصل إلى العرب ما حققه القدماء برصدلهم من الكواكب الثابتة ، وكان لا يخفى لهم عن معرفة كواكب تَرشُدُهم إلى العلم بفصول السنة وأزمنتها ، رصدوا كواكب وأمتحنوها ، ولم يستعملوا صور البروج على حقيقتها : لأنهم قسموا فلك الكواكب على مقدار الأيام التي يقطعه القمر فيها ، وهي ثمانية وعشرون يوما ، وطلبوا في كل قسم منها علامة تكون أبدا ما بينها وبين العلامة الأخرى مقدار مسير القمر في يوم وليلة ، وسموها منزلة إلى أن تحقق لهم ثمانية وعشرون على ما تقدم ذكره في الكلام على طلوعها بالفجر : لأن القمر إذا سار سيره الوسط انتهى في اليوم التاسع والعشرين إلى المصالح الذي بدأ منه ، فحذفت المتكررة ، فبقي ثمانية وعشرين ويزاد بالشرطين : لأن كواكبه من جملة كواكب الحمل ، الذي هو أول البروج .

ثم هذه المنازل على قسمين : شمالي وجنوبي كما في البروج ، وكل قسم منها أربع عشرة منزلة . فالشمالي منها ما كان طلوعه من ناحية الشام ، وتسمى الشامية : وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال ، التي هي رأس الحمل والميزان صاعدا إلى جهة الشمال ، وهي : الشرطان ، والبطين ، والقرى ، والدبران ، والمهقة ، والمهنة ، والذراع ، والنشوة ، والطرف ، والجنبة ، والخرتان ، والصرفة ، والمواء ، والسماك . ويطلوعها بطول الليل ويقصر النهار . والجنوبي منها ما كان طلوعه من ناحية اليمن وتسمى انجامية : وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال المذكور هابطا إلى جهة الجنوب .

وهي : النقر، وأزبانان، والإكليل، والقلب، والشولة، والتائم، والبلدة، وسعد
الدائج، وسعد بلع، وسعد السعد، وسعد الأخية، والفرغ المقتم، والفرغ المؤخر،
وبطن الحوت، وبطلوعها يقصر الليل ويطول النهار .

ثم المنزلة عند المحققين قطعة من الفلك مقدارها ربع سبع الدور، وهو جزء من
ثمانية وعشرين جزءاً من الفلك عبارة عن ^(١) لآعن الكواكب، وإنما
الكواكب حدود تفرق بين كل منزلة وأخرى، فعدل بالتسمية إليها وغلط عليها .

وتزول القمر في هذه المنازل على ثلاثة أحوال إما في المنزلة نفسها وإما فيما بينها
وبين التي تليها وإما عازياً لها خارجاً عن السمات شمالاً أو جنوباً . وقد قسمت
الكلام على عدول القمر عن بعض المنازل وتزوله في غيرها .

وتعلم أن المنازل مقسومة على البروج الاثني عشر موزعة عليها : فالشهران
والبطين وثلاث الثريا للمل، وثلاث الثريا والدبران وثلاث الهقعة للثور، وثلاث الهقعة
والهمنسة والدراع للجوزاء، والثرة والطرف وثلاث الجبهة للشيطان، وثلاث الجبهة
والخريتان وثلاث الصرفة للأسد، وثلاث الصرفة والمواء والمالك للسنبلة، والنقر
وأزبانان وثلاث الإكليل لليزان، وثلاث الإكليل والقلب وثلاث الشولة للعقرب، وثلاث
الشولة والتائم والبلدة للقوس، وسعد الدائج وسعد بلع وثلاث سعد السعد للجمل،
وثلاث الفرغ المقتم والفرغ المؤخر وبطن الحوت للحوت .

إذا علمت ذلك فإذا أردت أن تعرف القمر في أية منزلة هو أو كم مضى له فيها
من الأيام، فخذ ما مضى من سنة القبط شهوراً كانت أو أياماً أو شهوراً وأياماً

(١) يبايض بالاسد .

(٢) يظهر أن فيه سقطاً هو [وثلاث سعد السعد وسعد الأخية وثلاث الفرغ المقتم للعقرب] .

وَأَبْسَطَهَا أَيَّامًا ، وَأَضْفَ إِلَى مَا حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ أَطْرَحَ الْمَجْمُوعَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ ، وَهُوَ مَدَّ ثُبْتُ الْقَمَرِ فِي كُلِّ مِثْلَةٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَأَجْعَلَ أَوَّلَ كُلِّ مِثْلَةٍ مِنَ الْعِدَدِ الْخَرْتَانِ ، فَمَا بَقِيَ مِنَ الْأَيَّامِ دُونَ الثَّلَاثَةِ عَشَرَ فَهُوَ حِدْدُ مَاضِيٍّ مِنَ الْمِثْلَةِ الَّتِي أَتَمَّى الْعِدْدَ إِلَيْهَا .

مثال ذلك أن يمضي من سنة القبط شهرتوت وأربعة أيام من بابه فتبسطها أياما تكون أربعة وثلاثين يوما فتضيف إليها يومين تصير ستة وثلاثين يوما فاطرح منها ثلاثة عشر مرتين بستة وعشرين للخرتان منها ثلاثة عشر وللصرفة ثلاثة عشر تبقى عشرة ، وهي ماضى من المِثْلَةِ الثَّالِثَةِ وهى المَوَاء .

وإن أردت أن تعرف في أى برج هو فاحسب كم مضى من الشهر العربى يوما وزد عليه مثله ثم زد على الجملة خمسة وأعط لكل برج خمسة وأبدأ من البرج الذى فيه الشمس فأعط لكل برج خمسة فأينما قَدَّ حسابك فالقمر في ذلك البرج ، والاعتداد في ذلك على كم مضى من الشهر العربى بالحساب دون الرؤية واقه أعلم .

الجملة الثانية

(في أسمائها : وفيها روايتان)

الرواية الأولى - ما نطقت به العرب المستعربة ، وجرى عليه الاستعمال إلى الآن وقد نقل القرطبان الكريم يصدقها قال تعالى : (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) والمراد شهور العرب الذين نزل القرطبان بلغتهم ، ومدارها الأهلة سواء جاء الشهر ثلاثين أو تسعة وعشرين . الشهر الأول منها المحرم ، سمي بذلك لأنهم كانوا يحرمون فيه القتال ، ويجمع على حُرُمَاتٍ وحَرَامٍ ومَحَارِمٍ ، الشهر الثانى صَفَرٌ ، سمي بذلك لأنهم كانوا يُنَوِّهُونَ فيه على بلاد يقال لها

الصَّغَرِيَّةُ ، ويجمع على صَغَرَاتٍ وَأَصْفَارٍ وَصُفُورٍ وَصِفَارٍ . الشهر الثالث ربيع الأول
سمى بذلك لأنهم كانوا يُحْصَلُونَ فيه ما أصابوه في صَغَرٍ . والربيع في اللغة انْخِصَبَ ،
وقيل لأرتباعهم فيه . قال النحاس والأول أولى بالصواب ، ويقال في التثنية ربيعان
الأولان وفي الجمع ربيعات الأولاتُ . ومن شرط فيه إضافة شهر قال في التثنية شهرا
ربيع الأولان وفي الجمع شَهْرَاتِ ربيع الأولات والأوائل ، وإن شئت قلت في القليل
أشهر وفي الكثير شهور ، وحكى عن قطرب الأربعة الأوائل ، وعن غيره رُجُ الأوائِلُ .
الشهر الرابع ربيع الآخر - والكلام في تسميته وتثنيته وجمعه كالكلام في ربيع
الأول . الشهر الخامس جمادى الأولى ، سمي بذلك لجمود الماء فيه : لأن الوقت
الذي سُمِّي فيه بذلك كان الماء فيه جامداً لشدَّة البرد ، ويقال في التثنية جُمَادَيَانِ
الأولَيَانِ وفي الجمع جُمَادَيَاتِ الأولَيَاتِ . الشهر السادس جمادى الآخرة - والكلام فيه
تسميةً وتثنيةً وجمعاً كالكلام في جُمَادَى الأولى . الشهر السابع رجب ، سمي بذلك
لتعظيمهم له أخذوا من الترجيب : وهو التعظيم ، ويجمع على رَجَبَاتٍ وَأَرْجَابٍ ،
وفي الكثرة على رَجَابٍ وَرُجُوبٍ . الشهر الثامن شَعْبَانُ ، سمي بذلك لتشعبهم فيه لكثرة
الفارات عَقَبَ رَجَبٌ ؛ وقيل لتشعب العود في الوقت الذي سُمِّي فيه . وقيل لأنه
شَعَبَ بين شهرَيْ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ ويجمع على شَعْبَانَاتٍ وشعابة على حذف الزوائد ،
وحكى الكوفيون شَعَائِينَ ، قال النحاس وذلك خطأ على قول سيبويه كما لا يجوز عنده
في جمع عُثَانٍ عَثَائِينَ . الشهر التاسع رمضان - سمي بذلك أخذاً من الرضاء لأنه
وافق وقت تسميته زَمَنَ الْحَرِّ ، ويجمع على رَمَضَانَاتٍ وحكى الكوفيون رَمَائِضِينَ ،
والقول فيه كالقول في شَعَائِينَ ؛ وَمَنْ شرط فيه لفظ شهر قال في التثنية شهراً رَمَضَانَ
وفي الجمع شَهْرَاتِ رَمَضَانَ وَأَشْهُرُ رَمَضَانَ وشهور رمضان . الشهر العاشر شَوَّالٌ سمي
بذلك أخذاً من شَالَتْ الإبلُ بِأَذْنَانِهَا إِذَا حَمَلَتْ : لكونه أول شهور الحج وقيل من

شال يسؤل إذا أرفع : ولذلك كانت الجاهلية تكره الترويح فيه لما فيه من معنى الإشالة والرفع إلى أن جاء الإسلام بهتم ذلك . قالت عائشة رضي الله عنها فيما ثبت في صحيح مسلم "تروجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شؤال وبني في شؤال فأى نسائه كان أحظى عنده مني" ويجمع على شؤالات وشؤاويل وشؤاويل . الشهر الحادى عشر ذو القعدة ، ويقال بالفتح والكسر ، سمي بذلك لأنهم كانوا يفعلون فيه عن القتال لكونه من الأشهر الحرم ، ويجمع على ذوات القعدة ، وسكى الكوفيون أولات القعدة ، وربما قالوا في الجمع ذات القعدة أيضا . الشهر الثانى عشر ذو الحجة سمي بذلك لأن الحج فيه ، والكلام في جمعه كالقلام في ذى القعدة . ثم من الأشهر المذكورة أربعة أشهر حرم كما قال تعالى : ﴿ زَيْنُهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ وقد أجمعت العلماء على أن الأربعة المذكورة هى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وقد اختلف في الابتداء بسببها فذهب أهل المدينة إلى أنه يبدأ بذى القعدة فيقال ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، ويحتجون على ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم عدّها في خطبة حجة الوداع كذلك فقال "السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب" واختاره أبو جعفر النحاس . وذهب أهل الكوفة إلى أنه يبدأ بالمحرم فيقال المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة : يأتوا بها من سنة واحدة وإليه ميل الكُتّاب . قال النحاس : ولا حجة لهم فيه لأنه إذا علم أن المقصود ذكرها في كل سنة فكيف يتوهم أنها من سنتين . وكانت العرب في الجاهلية مع ما هم عليه من الضلال والكفر يعظمون هذه الأشهر ويمتزمون القتال فيها حتى لولى الرجل فيها قاتل أبيه لم يحجه ، إلى أن حلت فيهم الندى فكانوا يُسْتُون المحرم فيؤخرونه إلى صفر فيحزموه مكانه ويُسْتُون رجباً فيؤخرونه إلى شعبان فيحزموه مكانه يستيحيوا القتال في الأشهر الحرم .

وأعلم أنه يجوز أن يُضاف لفظ شهر إلى جميع الأشهر فيقال شهر المحرم، وشهر صفر، وشهر ربيع الأول وكذا في البواقي. على أن منها ثلاثة أشهر لم تكد العرب تطلق بها إلا مضافة إليها، وهى شهر ربيع وشهر رمضان؛ ويؤيد ذلك في رمضان ما ورد به القرآن من إضافته قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وقد روى عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال "لا نُحِلُّ رمضان ولكن قل كما قال الله عز وجل شهر رمضان فإنك لا تدري ما رمضان" وعن عطاء نحوه وأنه قال لعل رمضان أسم من أسماء الله تعالى، لكن قد ثبت في الصحيحين من رواية أبي هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال "إنما جاء رمضان أفغيت التيران وصغيت الشياطين" الحديث . وهذا صريح في جواز تسميته عن الإضافة .

وقد اختلف الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب أحصاها أنه يجوز تسميته عن لفظ شهر مطلقا، سواء قامت قرينة أم لا فيقال جاء رمضان وصُحَّتْ رمضان، وما أشبه ذلك وهو ما رجحه النووي في شرح مسلم . والثاني المنع مطلقا، والثالث إن حقت قرينة تدل على الشهر كما في قوله صُحَّتْ رمضان فقد جازت التسمية، وإن لم تُحَقِّف قرينة لم تجز؛ وزاد بعضهم فيما يضاف إليه لفظ شهر رجب أيضا . وقال كل شهر في أوله حرف راء فلا يقال إلا بالإضافة . ويقال في المحرم أيضا شهر الله المحرم ويقال في الربيعين ربيع الأول وربيع الآخر وفي الجُمَادَيْنِ جُمَادَى الأولى وجُمَادَى الآخِرَةِ . قال ابن مكي: ولا يقال جُمَادَى الأول بالتذكير وجوزة في كلامه على "تسقيف اللسان"

قال النحاس وإنما قالوا ربيع الآخر وجُمَادَى الآخِرَةِ ولم يقولوا ربيع الثاني وجُمَادَى الثانية كما قالوا السنة الأولى والسنة الثانية : لأنه إنما يقال الثاني والثانية لما له ثالث وثالثة، ولما لم يكن لهما ثلث ولا فائدة قيل فيهما الآخر والآخرة

كما قيل الدنيا والآخرة؛ على أن أكثر استعمال أهل القرب على ربيع الثاني وجمادى الثانية . ويقال في رجب القَرْدُ : لأفواده عن بقية الأشهر الحرم، ويقال فيه أيضا رجبٌ مُضَرّ الذي بين جمادى وشعبان، ويقال في شعبان المكرّم لتكرّمته وعلوّ قدره، وفي رمضان المعظم والمعظم قدره : لعظمته وشرفه، وفي شوال المبارك : للفرق بينه وبين شعبان خشية الالتباس في الكتابة، ويقال في كلّ من ذى القعدة وذى الحجة الحَرَام . قال النحاس وقد جاء في ذى الحجة أيضا الأصمّ ، وروى فيه حديثا بسنده من رواية مرة الحمّداني عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا على ناقه حمراء محضرة^(١)، فقال : أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ يَوْمُكُمْ هَذَا ؟ قلنا : يَوْمُ النَحْرِ قال : صَدَقْتُمْ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، أَتَدْرُونَ أَيُّ شَهْرٍ شَهْرُكُمْ هَذَا ؟ قلنا : ذُو الْحِجَّةِ قال : صَدَقْتُمْ شَهْرَ اللَّهِ الْأَصَمِّ .

الرواية الثانية - ما روى عن العرب العاربة، وهو أنهم كانوا يقولون في المحرم المؤمّر : أخذنا من أمر القوم إذا كثروا بمعنى أنهم يمتزمون فيه القتال فيكثرون . وقيل أخذنا من الائتثار بمعنى أنه يؤمّر فيه بترك الحرب، ويجمع على مؤمّرات ومأمّرة ومأمير . ويقولون في صفر ناجر إما من النجر والتجار (يفتح النون وكسرهما) الأصل، بمعنى أنه أصل للحرب : لأنه يتبدأ فيه بعد المحرم وإما من النجر وهو السوق الشديد . لشدة سوقهم الخليل إلى الحرب فيه ، وإما من النجر، وهو شدة الحر لشدة حرارة الحرب فيه، ويجمع على نواجر . ويقولون في شهر ربيع الأول خَوَان (بالخاء المعجمة) : لأن الحرب تشتد فيه فتحونهم فتقتصمهم : ويجمع على خَوَانَات وخَوَاوِين وخَوَاوَن . ويقولون في ربيع الآخر وبَصَان ، أخذنا من الوَبَيْص وهو البريق : لبريق الحديد فيه : ويجمع على وبصانات، وحكي قطرب فيه بَصَان فيجمع على أَبْصِنَةِ

(١) أي قطع طرف أذنّها . قالوس .

وفي الكثرة بضآن . ويقولون لجمادى الأولى حنين : لأنهم يحنون فيه إلى أوطانهم :
لكونه كان يقع في زمن الربيع ، ويجمع على أحنة وحنن كزحف ورغف . ويقولون
لجمادى الآخرة ربي وربة : لأنه يجتمع به جماعة من المشهور التي ليست بحرم :
وهي مابعد صفر . قال أبو عبيد ربان كل شئ جماعته ، ويجمع على ربيات وربايا مثل
حبالي . ومن قال ربة جمعه على ماريب . ويقولون في رجب الأصم : لما تقبلم
من أنه لا يسمع صوت السلاح ولا الاستغاثات فيه ، ويجمع على أصام . قال النحاس
ولا تقل صم لأنه ليس بنمت كما أنك لو سميت رجلا أحمر جمعته على أحامر ولم
تجمعه على حمر . ويقولون في شعبان طليل ، بمعنى أنهم يعدلون فيه عن الإقامة لتشعبهم
في القبائل ويجمع على عوادل . ويقولون في رمضان ناتي : لكثرة المسال عندهم فيه
لإغارتهم على الأموال في الذي قبله ، ويجمع على نواتي . ويقولون في شوال وعل
أخذنا من قولهم : وعَلَّ إلى كذا إذا بلغا إليه لأنهم يهربون فيه من الغارات لأن بعده
الأشهر الحرم فيلجئون فيه إلى أمكنة يتحصنون فيها ، ويجمع على أو عال ككتيف
وأكتاف ، وفي الكثرة وعول . ويقولون في ذى القعدة ورة والو فيه منقلبة عن
همزة أخذنا من أين إذا تحرك : لأنه الوقت الذي يتحركون فيه إلى الحج ، أو من
الأرون ، وهو الدق : لقربه من الحج ويجمع على ورنات ويزان يكهان . ويقولون
في ذى الحجة برك ، غير مصروف : لأنه معدول عن برك ، أو على التكثير كما يقال
رجل حكم وهو مأخوذ من البركة : لأن الحج فيه ، أو من برك الجبل لأنه الوقت الذي
تبرك فيه الإبل للوسم ، ويجمع على بركان مثل قنر وقنران .

وفي هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة والمشهور ما تقدم ذكره .

(١) كذا في الضوء أيضا وله مصحف من رباب أو ربب تأمل

وقد نظم بعضهم ذلك في أبيات على الترتيب فقال .

بِوَعْدِ وَنَاجِرٍ ابْتِدَأْنَا * وَبِالْحَوَانِ يَتَّبِعُهُ الْبُصَانُ
وَرُبِّي ثُمَّ أَيْدَةُ تَلِيهِ * تَعُودُ أَصَمُّ صُمَّ بِهِ السَّنَانُ
[وَعَادِلَةٌ وَنَاطِلَةٌ جَمِيعَا * وَوَاغِلَةٌ فَهُمْ غُرُوحَانُ^(١)
وَوَزْنُهُ بَعْدَهَا بَرَكٌ قَمَّتْ * شُهُورُ الْحَوْلِ يُعْرِيهَا الْبَيَانُ

ثم للناس في إخراج أول الشهر العربي طُرق، أسهلها أن تعرف أول يوم من المحرم، ثم تعد كم مضى من السنة من الشهور بالشهر الذي تريد أن تعرف أوله وتقسمها نصفين، فإن كان النصف صحيحا أضفت على الجملة مثل نصفه، وإن كان مكسورا كتبه وأضفته على الجملة؛ ثم تبدئ من أول يوم من السنة وتعد منه أياما على التوالي أسماء الأيام بعد ما حصل منك من الأصل والمضاف بحيث أنتهي عندك فذلك اليوم هو أول الشهر .

مثال ذلك في الصحيح النصف : إن أردت أن تعرف أول يوم من شعبان وكان أول المحرم يوم الأحد مثلاً فتعد من أول المحرم إلى شعبان وتدخل شعبان في العدد فيكون ثمانية أشهر فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة تخضيف الأربعة إلى الثمانية تكون اثني عشر، ثم تبدئ من يوم الأحد الذي هو أول المحرم فتعد الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت، ثم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس فيكون آتباء الاثني عشر في يوم الخميس فيكون أول شعبان يوم الخميس .

ومثاله في المكسور النصف إذا أردت أن تعرف أول رمضان أيضا وكان أول

(١) سقط هذا البيت من نسخة الأصل وقد وجدناه في "نهاية الأرب" فليرى قارئنا كما ترى وبه تمت عدة الشهور .

الحرم الأحد كما تقدم فتعد ماضى من شهور السنة وتعد منها رمضان يكون تسعة أشهر فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة ونصفا فتكملها بنصف تصير خمسة فتضيفها إلى الأصل المحفوظ وهو تسعة يكون المجموع أربعة عشر، ثم تبدئ عدد الأيام من أول الحرم ، وهو الأحد كما تقدم فيكون انتهاء الرابع عشر في يوم السبت فيكون أول رمضان يوم السبت .

ومن الطرق المعتمدة في ذلك أن تنظر في الثالث من أيام النسيء من شهور القبط كم يوما مضى من الشهر العربى فما كان جعلته أصلا لتلك السنة، فإذا أردت أن تعرف أول شهر من الشهور العربية أو كم مضى من الشهر الذى أنت فيه ، فخذ الأصل المحفوظ معك لتلك السنة، وأنظر كم مضى من السنة القبطية شهرا فخذ لكل شهرين يوما، فإن انكسرت الأشهر وجاءت فردا فاجبرها بيوم زيادة حتى تصير زوجا، وزد على ذلك يومين أصلا أبدا، ثم أنظر كم يوما مضى من الشهر القبطى الذى أنت فيه فأضفه على ما أجمع معك، وأسقط ذلك ثلاثين ثلاثين فما بقى فهو عدد ما مضى من الشهر العربى، ومنه يعرف أوله .

ومثال ذلك نظرت في الثالث من أيام النسيء فوجدت الماضى من الشهر العربى ثلاثة أيام فكانت أصلا لتلك السنة ثم نظرت في الشهور القبطية فوجدت الشهر الذى أنت فيه أشهر مثلا فتعد من أول شهور السنة القبطية : (وهو توت) إلى أمشير يكون ستة أشهر فتأخذ لكل شهرين يوما تكون ثلاثة أيام فتضيفها على الأصل الذى معك من أيام النسيء : وهو ثلاثة تصير ستة فزد عليها اثنين يصير المجموع ثمانية، ثم تنظر في الشهر القبطى الذى أنت فيه : (وهو أمشير) تجلده قد مضى منه يومان فتضيفهما على المجموع يكون عشرة، وهو الماضى من الشهر العربى الذى أنت فيه ومنه يعرف أوله .

الضرب الثاني (شهور اليهود)

والشهر عندهم من الاجتماع إلى الاجتماع، وهو اقتران الشمس والقمر في آخر الشهر ولذلك توافق شهورهم في التقدير شهور العرب، ولا تخالف أوثقها إلا بيوم واحد في بعض الأحيان لأسباب في ملتهم ولكنها لا تطابق شهرا لشهر، فإن شهور العرب غير مكبوسة، وشهور اليهود مكبوسة؛ وهذه الطريقة لا تعرف إلا بقويم الكواكب ومعرفة سير الشمس والقمر. ولذلك لا يعرف شهور اليهود منهم إلا الآحاد، وشهورهم وهي اثنا عشر شهرا بعضها ثلاثون، وبعضها تسعة وعشرون على ما يقتضيه مسير الشمس والقمر؛ وفي السنة الكبيسة تكون شهورهم ثلاثة عشر شهرا كما سيأتي؛ وشهورهم توافق شهور السريان في بعض أسمائها دون بعض، الأول تشرى، الشهر الثاني مرحشوان، الشهر الثالث كسلا، الشهر الرابع طابات، الشهر الخامس شباط، الشهر السادس آذار، الشهر السابع نيسان، الشهر الثامن أيار، الشهر التاسع سيوان، الشهر العاشر تموز، الشهر الحادي عشر آب، الشهر الثاني عشر أيلول؛ وفي السنة التي يكبسون فيها بعد كل سنة أو بعد كل سنتين على ما سيأتي بيانه يكبسون شهرا كاملا بعد آذار وهو الشهر السادس من شهورهم ويسمونه آذار الثاني، وسيأتي ذلك مفصلا في الكلام على السنين إن شاء الله تعالى. وقد تقدم أنها توافق شهور العرب إلا في القليل إلا أنها يدخلها الكبس لأمر في ملتهم، وسيأتي الكلام على كبسهم عند ذكر السنين إن شاء الله تعالى.

القسم الثاني

(من الشهور الأصطلاحي والمراد به الشمع)

وهي مدة قطع الشمس مدار بُرج من بروج الفلك الاثني عشر، وذلك ثلاثون يوماً وثلاثة عشر يوماً تقريباً، وعليه عمل القبط، والفرس، والسريان، والروم .
وهي على صفتين :

الصنف الأول

(ما يكون كل شهر من شهور السنة ثلاثين يوماً، وما فضل عن ذلك

جعل نسباً بين الشهور : وهو الشهور القبط، والفرس)

فاما شهور القبط (وتنسب لدفطايانوس الملك) فكل شهر منها ثلاثون يوماً وأيام
النسب في آخر الثاني عشر منها، وهي خمسة أيام .

الشهر الأول منها توت، ودُخوله في العشرين من آب من شهور السريان، وآخره
السادس والعشرون من أيلول منها، فيه يدرك الرب، ويكثر السفرجل والعنب
الشتوي، وتبتدى الحمضات . وأول يوم منه يوم التبروز وهو رأس سنة القبط،
وفي سابعه يتبدى لقط الزيتون، وفي سابع عشره عيد الصليب، فيه تفتح أكثر
الترع بمصر، وفي ثامن عشره أول فصل الخريف، وفي تاسع عشره يتبدى هيجان
السوداء في البدن، وفي العشرين منه يقصد البلسان، وفي الحادى والعشرين منه
يتبدى بيض النعام، وفي الرابع والعشرين منه أول دى ماه من شهور الفرس،
وفي الثامن والعشرين منه يذهب الحر، وفي التاسع والعشرين منه أول رجب
الكرائي، وفي الثلاثين منه وهو آخره يزور الحليون .

الشهر الثاني بابه، ودخوله في السابع والعشرين من أيلول، من شهور السريان،
 وآخره السادس والعشرون من تشرين الأول منها، فيه يُتْرَكُ مالا تُشَقُّ له الأرض
 كالبرسيم وغيره؛ وفي آخره تُشَقُّ الأرض بالصعيد؛ وفيه يُحصَدُ الأرز، ويطيب
 الرِّدان، وتَضَعُ الضَّأْنُ والمعزُ والبقر الحليسيَّة؛ ويُستَخْرَجُ دُحْنُ الآس واللينوفر،
 ويُنْزَكُ الثمر والزبيب وبعض المحمضات؛ وفي ثلثه رأسُ سنة السريان؛ وفي رابعه
 أولُ تشرين الأول من شهورهم؛ وفي خامسه عُرسُ النيل؛ وفي سادسه يطيب
 شُرْبُ الدواء؛ وفي سابعه نهايةُ زيادة النيل؛ وفي ثامنه يكره نُجُوجُ الدم؛ وفي حادى
 عشره يتبدى النيل في النقص؛ وفي ثالث عشره بداية الوحش؛ وفي رابع عشره
 يكثر الناموس؛ وفي خامس عشره يتبدى زرع القُرط؛ وفي سادس عشره يتبدى
 كثرة السعال؛ وفي تاسع عشره يتبدى زرع السَّاجِم، وفي الثاني والعشرين منه
 يتبدى صلاح المواشى، وفي الثالث والعشرين منه يتبدى كثرة القيوم، وفي الرابع
 والعشرين منه يتبدى أهل مصر الزرع. وفي السابع والعشرين منه يتبدى سمن
 الحيتان، وفي الثامن والعشرين منه أولُ المد، وفي التاسع والعشرين منه أولُ
 الليالى البقي.

الشهر الثالث هور؛ ودخوله في السابع والعشرين من تشرين الأول؛ وآخره
 الخامس والعشرون من تشرين الثاني. فيه يُزْرَعُ القمح ويَطْلَعُ البنفسج والمنثور،
 وأكثر البقول، ويجمع ما بقى من الباذنجان وما يجرى مجراه، ويَحْمَلُ العنب من
 قوص، وفي ثانيه يتبدى حصاد الأرز، وفي خامسه أولُ تشرين الثاني من شهور
 السريان، وفيه يتبدى برد المياه، وفي سادسه أولُ المطر الوسمى، وفي سابعه يتبدى
 أهل الشام الزرع، وفي ثامنه يتبدى هبوب الرياح الجنوبيَّة، وفي تاسعه يتبدى
 زرع الخشخاش، وفي حادى عشره يتبدى اختفاء المواتم، وفي ثالث عشره يتبدى

غَيَّانَ البحر، وفي رابع عشره تَحْمَى الحَيَّات، وفي سادس عشره يُجَمَّعُ الزَيْعْفَرَان، وفي ثامن عشره تَكْثُرُ الوَحُوشُ، وفي الثامن والعشرين منه يُغْلَقُ البحر الملح وتَمْتَعُ السُّقُنُ من السفر فيه لَشْتَةُ الرياح، وفي الثالث والعشرين منه يَبْدَأُ سُحُونهُ بطن الأرض، وفي الرابع والعشرين منه أَوَّلُ اسْفِيدَارِ ماه من شهور القُرْسِ .

الشهر الرابع كِهْمَك، ودخوله في السادس والعشرين من تشرين الثاني من شهور السَّرِيَان، وآخره انخامس والعشرون من كانون الأول منها . فيه تَدْرِكُ الباقِلَاءُ، وتُزْرَعُ الحَلْبَةُ وأَكْثَرُ الحَبُوبِ، ويُدْرِكُ التَّرِيحُ والبَقْصَجُ، وتُتْلَقُ المحْمَضَات، وفي أَوَّلِهِ أَبْتَدَاءُ أَرَبِيعِيَّاتِ مصر، وفي ثالثة يَبْدَأُ مَوْتُ الذُّبَابِ، وفي خامسه أَوَّلُ كَانُونِ الأَوَّلِ من شهور السَّرِيَان، وفي سابعة آخِرُ اللَّيَالِي البَلْقُ وأَوَّلُ اللَّيَالِي السُّودِ، وفي حادى عشره يَبْدَأُ الشَّجَرُ في رَمَى أَوْرَاقِهِ، وفي ثانى عشره تَظْهَرُ البَرَاغِثُ، وفي سابع عشره أَوَّلُ فَصْلِ الشَّتَاءِ: وهو أَوَّلُ أَرَبِيعِيَّاتِ الشَّامِ، وفي ثامن عشره يَنْقَسُ النَّهَارُ، وفي الحادى والعشرين منه يَكْثُرُ الطَّيْرُ الغَرِيبُ بِمِصرَ، وفي الثالث والعشرين منه أَوَّلُ مَرْدُومَاهُ من شهور القُرْسِ^(١)، وهو تَوْرُوزِمُ وأَوَّلُ سِتْمِمْ، وفي انخامس والعشرين منه يَهْبِجُ البَلْقَمُ، وفي السادس والعشرين منه تَلْقَحُ الإِبِلُ، وفي السابع والعشرين منه يَكْثُرُ شُرْبُ المَاءِ في اللَّيْلِ، وفي الثلاثين منه يَبْدَأُ تَهْلِيمُ الكُرُومِ .

الشهر الخامس طُوبَهْ، ودخوله في السادس والعشرين من كانون الأول من شهور السَّرِيَان، وآخره الرابع والعشرون من كانون الثاني منها؛ في زرع القمح فيه تَغْيِيرُ، وفيه تُسْقَى الأرض للقَصَبِ والقُلُقَاسِ؛ ويتكامل التَّرِيحُ، وفي أَوَّلِهِ تَبْدَأُ الرياحُ الشَّدِيدَةُ، وفي ثانيه يَدْرِكُ القُرْطُ، وفي سادسه أَوَّلُ كَانُونِ الثَّانِي من شهور السَّرِيَان،

(١) سَيَاقُ قُرْبَا أَن تَبْرُوزَ القُرْسِ وأَوَّلُ سِتْمِمْ أَفْرُودِيْنِ مَاه وَفِيهِ الصَّوَابُ لِأَنَّهُ الْقِيَرُ وَفِي مَرْجِ القَهْبِ وَبِغْيَرِهِ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَذْكُرْ هَذَا الشَّهْرَ فِي أَسْمَاءِ الشُّهُورِ الْآتِيَةِ .

وفي عاشره آخر أربعينيات مصر، وفي حادى عشره أول نصب الكروم، وفي ثانى عشره يشتد البرد، وفي ثالث عشره يتبدى زرع المقات، وفي سابع عشره يتبدى غرس الأشجار، وفي ثامن عشره تبلى كثرة الندى، وهو آخر الليالى السود، وفي تاسع عشره يتبدى وقوع الثلج بالشام وغيره، وفي الرابع والعشرين منه يتبدى صفو ماء النيل، وفي التاسع والعشرين منه يتبدى اختلاف الرياح.

الشهر السادس أمشير؛ ودخوله فى الخامس والعشرين من كانون الثانى من شهر المريان وآخره الثالث والعشرون من شباط منها. فيه تفرس الأشجار، وتحلم الكروم، ويذكر النبق والاوز الأخضر، ويكثر البنفسج والمنتور، وفي رابعه يتبدى إقراخ النخل، وفي سادسه أول شباط من شهر المريان، وفي حادى عشره يتبدى إنتاج الطيور وزرع بقول الصيف، وفي ثانى عشره يتبدى تحرك دواب البحر، وفي الثانى والعشرين منه ثانى جمرة فاترة، ويتبدى مرض الأطفال، ويتبدى خروج ورق الشجر، وفي الثالث والعشرين منه يتبدى خروج الدواب للرعى، وفي الرابع والعشرين منه أول حردامه من شهر القرس، وفي الخامس والعشرين منه يتبدى هيجان الرياح، وفي السابع والعشرين منه يتبدى ثالث جمرة حامية، وفي الثامن والعشرين منه أول المفردات، وفي التاسع والعشرين منه آخر نهى إقراط.

الشهر السابع برمها؛ ودخوله فى الرابع والعشرين من شباط من شهر المريان، وآخره الخامس والعشرون من آذار. فيه تزهى الأشجار، ويسعد أكثر الثمار، ويذرع أوائل السمسم، ويقطع الحنّان، ويذكر القول والقدس، وفي ثانيه يحدد خروج الدم، وهو أول الإعجاز، وفي ثالث عشره تفتح الحيات أعينها، وفي خامس عشره تطيب الألبان، وفي سادس عشره يتبدى خروج دود القز، وفي ثامن عشره يهيج الدم، وفي تاسع عشره تظهر الهوام، وفي العشرين منه يزرع السمسم، وفي

الرابع والعشرين منه أول ترماء من شهور القُرس ، وفي السادس والعشرين منه
يبتدئ شربُ المسهل ، وفي السابع والعشرين منه خروج الدباب الأزرق .

الشهر الثامن برمودة ، ودخوله في السادس والعشرين من آذار من شهور السريان ،
وآخره الرابع والعشرون من نيسان منها ، فيه تُحطَف أوائل عسل النحل ، وفيه تكثر
الباقلاء ، ويُفَضَّ جَوْز الكُكَّان ، ويكثر الورد الأحمر ، والبطنُ الأول من الجميز ، ويقطَع
بعض الشعير ، ويُذَرَك الخيار شبر . وفي أوله يؤكل الفريك ، وفي رابعه يُعَصَّرُ دُهْن
البَلَسَان ، وفي خامسه تبتدئ كثرة الزهور ، وفي سادسه أول نيسان من شهور
السريان ، وفي ثاني عشره يُخَاف على بعض الزرع ، وفي ثامن عشره آخر قطع
الكُكَّان ، وفي العشرين منه يُنْهَى عن أكل البقول ، وفي الثاني والعشرين منه ظهور
الكثاء ، وفي الثالث والعشرين منه الحَتَام الكثير للزرع ، وفي الرابع والعشرين منه أول
تردماء من شهور القُرس ، وفي الخامس والعشرين منه نهاية مدَّ القُرات ، وفي الثامن
والعشرين منه يبيض النعام .

الشهر التاسع بشنس ، ودخوله في الخامس والعشرين من نيسان من شهور
السريان ، وآخره التاسع والعشرون من أيار منها . فيه يكثر التفاح القاسي ، ويبتدئ
التفاح المسكي ، والبطيخ البَبدلي والحوثي ، والمشمش ، والتفوخ الزهري ، والورد
الأيض . وفي نصفه يَبْذَرُ الأرز ، ويَحْصَدُ القمح ، وفي سادسه أول أيار من شهور
السريان ، وفي رابع عشره يَجْمَعُ الخشخاش ، وفي ثامن عشره يجمع العُصْفَر ، وفي
الحادي والعشرين منه تبتدئ برودة الأرض ، وفي الرابع والعشرين منه أول شهر
برماه من شهور القُرس .

الشهر العاشر يؤنة ، ودخوله في الخامس والعشرين من أيار من شهور السريان ،
وآخره الثالث والعشرون من حزيران منها ، فيه يكثر الحصرم ، ويطيب بعض العنب

والثين البوني وهو الديفور، والخنوخ الزهري والمشمير، والكثيرى البوهى، والقراصيا، والثوت، ويطلع البلح، وقطف جمهور العسل، وفي ثلثه يتبدى توحم النيل، وفي سادسه يكمل الذرياق، وفي سابعه أول حزيران من شهر السريان، وفي تاسعه يتبدى مهب الريح الشمالية، وفي عاشره يتبدى تنفس النيل، وفي خامس عشره تموت شهوة الجماع، وفي ثاني عشره عيد ميكائيل، في ليلته يؤزن من الطين زنة ستة عشر درهما عند غروب الشمس ويرفع في مكان ويؤزن عند طلوع الشمس فإذا زاد كان بكل خروبة زادت على الستة عشر ذراعاً، وفي ثالث عشره يتبدى نقص الثمرات، وفي رابع عشره تهب الرياح السائم، وفي تاسع عشره تذهب البراغيث، وفي العشرين منه تهب الصفراء، وفي الثاني والعشرين منه يقعد الجوز، وتقوى أندفاع النيل، وفي الرابع والعشرين منه يتورجعين العين وهو أول مهرماه من شهر الفرس، وفي السابع والعشرين منه يؤخذ قاع النيل، وفي الثامن والعشرين منه ينادى عليه، وفي التاسع والعشرين منه يدرك البطيخ.

الشهر الحادى عشر أيب، ودخوله في الرابع والعشرين من حزيران من شهر السريان، وآخره الثالث والعشرون من تموز منها، فيه يكثر العنب والثين ويقل البطيخ القليل ويطيب البلح وتقطف بقايا العسل وتقوى زيادة النيل، وفي رابعه أول تموز أبقراط، وفيه يموت الجراد، وفي سابعه أول تموز من شهر السريان، وفي عاشره يتبدى وقع الطاعون، وفي ثاني عشره تبسدى قوة السائم، وفي ثالث عشره تدرك الفاكهة، وفي سابع عشره تقوى العيون، وفي ثامن عشره يجتمع النجاس، وفي الثاني والعشرين منه يدرك القسطنق، وفي الرابع والعشرين منه أول أبلانماه من شهر الفرس، وفي السادس والعشرين منه طلوع الشعري البياضية، وفي التاسع والعشرين منه يدرك نخل الحجاز.

الشهر الثاني عشر مسرى؛ ودخوله في الرابع والعشرين من تموز من شهر
السريان، وآخره السابع والعشرون من آب منها. فيه يُعْمَلُ الْخَلُّ، وَيُذْرِكُ الْبُسْرَ
وَالْمَوْزُ وَتُغَيَّرُ طُغُومُ الْفَاكِهِ لَغَلِيَةِ الْمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ، وَيُذْرِكُ اللَّيْمُونُ الثَّنَائِيَّ،
وَيَبْتَدِئُ إِدْرَاكُ الرُّمَّانِ، وَفِي رَابِعِهِ قُصْبَانُ النَّجْلَةِ، وَفِي خَامِسِهِ أَوَّلُ الْعَصِيرِ، وَفِي ثَامِنِهِ
أَوَّلُ آبٍ مِنْ شَهْرِ السَّرِيَانِ، وَفِي ثَانِي عَشْرِهِ فَصَالُ الْمَوَاشِي، وَفِي رَابِعِ عَشْرِهِ هَقْلُ
الْأَبْيَانِ، وَفِي خَامِسِ عَشْرِهِ تَسْحُنُ الْمِيَاهُ، وَفِي سَابِعِ عَشْرِهِ تَخْتَفُفُ الرِّيحُ، وَفِي ثَامِنِ
عَشْرِهِ يُدْرَسُ الْهَوَامُّ، وَفِي الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْهُ آخِرُ الْعَصِيرِ، وَفِي الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ
مِنْهُ يَبْجَعُ الثَّمَامُ، وَفِي الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْهُ تَكْثُرُ الْقُيُومُ، وَفِي الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْهُ
آخِرُ السَّجَامِ، وَفِي التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْهُ أَوَّلُ آدْرِمَاهُ مِنْ شَهْرِ الْقِرْسِ.

أيام النسيء - ودخولها في الثامن والعشرين من آب من شهر السريان ويختلف
آخرها باختلاف السنة الكبيسة وغيرها.

وقد وضع الناس طُرُقًا لِإِخْرَاجِ أَوَّلِ الشَّهْرِ الْقِبْطِيِّ بِالحَسَابِ أَقْرَبُهَا أَنْ تُعْرَفَ يَوْمَ
النِّيْرُوزِ ثُمَّ تُعَدُّ مَاضِيٌ مِنَ الشُّهُورِ الْقِبْطِيَّةِ بِالشَّهْرِ الَّذِي تَرِيدُ أَنْ تُعْرَفَ أَوَّلُهُ فَإِذَا كَانَ
فَاضِئَةً فَإِذَا تَحَصَّلَ فَاسْقَطَ مِنْهُ وَاحِدًا أَبَدًا، ثُمَّ اسْقَطِ الْبَاقِي سَبْعَةً سَبْعَةً فَإِذَا فَضَّلَ
فَعُدَّ مِنْ يَوْمِ النِّيْرُوزِ إِلَى آخِرِ الْبَاقِي بَعْدَ الْإِسْقَاطِ عَلَى تَوَالِي الْأَيَّامِ فَإِنَّمَا أَتَى الْعَدُّ
فَئِذَاكَ الْيَوْمَ هُوَ أَوَّلُ الشَّهْرِ الْمَطْلُوبِ.

مثال ذلك: كان يوم النيروز الأحد، وأردنا أن نعرف أول أمشير، عددنا كم مضى
من أول الشهور القبطية وعددنا منها أمشير، وجدنا ذلك ستة، أضعفناها صارت
أثني عشر، أسقطنا منها واحدا بقي أحد عشر، أسقطنا منها سبعة بقي أربعة،
عددنا من يوم النيروز وهو الأحد أربعة فكان آخرها يوم الأربعاء فعلينا أن أول
أمشير الأربعاء.

وأما شهر القُرس، فهي اثنا عشر شهراً كل شهر منها ثلاثون يوماً وأيام النسيء،
خمس أيام في آخر الشهر الثامن منها وهو أبان ماه . الشهر الأول منها افرودين ماه،
ودخوله في الرابع والعشرين من كيهك من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من
طوبه منها، وأول يوم منه يَروُزُ الفرس ورأس ستم . الشهر الثاني اديشتاه،
ودخوله في الرابع والعشرين من طوبه من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون
من أمشير منها . الشهر الثالث حردادماه، ودخوله في الرابع والعشرين من أمشير من
شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمهات منها . الشهر الرابع تيرماه،
ودخوله في الرابع والعشرين من برمهات من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون
من برمودة منها . الشهر الخامس تردهاه، ودخوله في الرابع والعشرين من برمودة
من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من بشنس منها . الشهر السادس شهر
برماه، ودخوله في الرابع والعشرين من بشنس من شهر القبط، وآخره الثالث
والعشرون من بؤنه منها . الشهر السابع مهرماه، ودخوله في الرابع والعشرين من بؤنه
من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من أبيب منها . الثامن أبان ماه، ودخوله
في الرابع والعشرين من أبيب من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من معرئ
منها . أيام النسيء، وتسمى بالفارسية الاندركاه، ودخولها في الرابع والعشرين من
مسرئ، وآخرها الثامن والعشرون منها . الشهر التاسع اردماه، ودخوله في التاسع
والعشرين من معرئ من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من توت . الشهر
العاشر دى ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من توت من شهر القبط، وآخره
الثالث والعشرون من بابيه منها . الشهر الحادي عشر حمن ماه، ودخوله في الرابع
والعشرين من بابيه من شهر القبط، وآخره الثالث والعشرون من هاتور منها . الشهر

(١) وقع في الأصل شيء من السقط والتعريف وقد صححناها من نهاية الاربين من الضوء وبمعونة ترتيب
الشهور القبطية فكتبه .

الثاني عشر] استقنارماه، ودخوله في الرابع والعشرين من هاتور من شهور القبط،
وآخره الثالث والعشرون من كيهك منها] .

ولكل يوم من أيام الشهر عندهم أسم خاص يزعمون أنه أسم ملك من الملائكة
موكل به .

وقد علم مما تقدم من شهور القبط ما يقع في هذه الشهور من
وغيرها .

الصنف الثاني

(من الشهور الاصطلاحية ما يختلف عدده بالزيادة والنقصان،

فيكون بعض الشهور فيه ثلاثين ، وبعضها أقل ، وبعضها أكثر،

وهو شهور السريان والروم)

فأما شهور السريان وتنسب للإسكندر فكانت عشر شهرا، منها أربعة كل شهر منها
ثلاثون يوما، وشهر واحد ناقص عن الثلاثين ، وسبعة زائدة عليها . الشهر الأقل
منها تشرين الأول، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ودخوله في الرابع من بابه من شهور
القبط، وآخره الرابع من هاتور منها؛ ويوافقه أكتوبر من شهور الروم، وهو الشهر
العاشر منها . الشهر الثاني تشرين الثاني، وهو ثلاثون يوما؛ ودخوله في الخامس من
هاتور من شهور القبط، وآخره الرابع من كيهك منها، ويوافقه نوفمبر من شهور الروم،
وهو الشهر الحادي عشر منها . الشهر الثالث كانون الأول وهو أحد وثلاثون يوما،
ودخوله في الخامس من كيهك من شهور القبط ، وآخره الخامس من طوبه منها،
ويوافقه ديسمبر من شهور الروم، وهو الشهر الثاني عشر منها . الشهر الرابع كانون
الثاني ، وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله في السادس من طوبه من شهور القبط،

وآخره السادس من أمشير منها ، ويوافقه ينير من شهر الروم ، وهو الشهر الأول منها . الشهر الخامس أشباط ، ويقال شباط ، وهو ثمانية وعشرون يوما ، ودخوله في السابع من أمشير ، وآخره الرابع من برمهاث منها ؛ ويوافقه قهر من شهر الروم ، وهو الثاني من شهرهم . الشهر السادس آذار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في الخامس من برمهاث من شهر القبط ، وآخره الخامس من برمودة منها ، ويوافقها مارس من شهر الروم ، وهو الثالث من شهرهم . الشهر السابع نيسان ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في السادس من برمودة من شهر القبط ، وآخره الخامس من بشنس منها ، ويوافقها ابريل من شهر الروم ، وهو الرابع من شهرهم . الشهر الثامن أيار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في السادس من بشنس من شهر القبط ، وآخره السادس من بؤنه منها ، ويوافقها مايو من شهر الروم ، وهو الخامس من شهرهم . الشهر التاسع حزيران ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في السابع من بؤنه من شهر القبط ، وآخره السادس من أيب منها ، ويوافقها يونيه من شهر الروم ، وهو السادس من شهرهم . الشهر العاشر تموز ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في السابع من أيب من شهر القبط ، وآخره السابع من مسرى منها ، ويوافقها يوليه من شهر الروم ، وهو السابع من شهرهم . الشهر الحادي عشر آب ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في الثامن من مسرى من شهر القبط ، وآخره الثالث من توت منها ، ويوافقها اغشت من شهر الروم ، وهو الثامن من شهرهم . الشهر الثاني عشر أيلول ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في الرابع من توت من شهر القبط ، وآخره الثالث من بابه منها ، ويوافقها سبتمبر من شهر الروم ، وهو التاسع من شهرهم ؛ وبهذا يذهب الحرجلة ، وفي ذلك يقول أبو نواس :

مَضَى أَيْلُولٌ وَأَرْقَعَ الْحَرُورُ * وَأَخْبَتْ نَارَهَا الشَّمْعُ الْمُبُورُ

وقد نظمها صاحبنا الشيخ ابراهيم الدهشورى فى أبيات أبدأ فيها بأيلول فقال :

وَأَبْدَأُ بِأَيُّوْلٍ مِنْ السَّرْيَانِي * تَسْرِينُ الْأَوَّلُ يَتَّبِعُهُ الثَّانِي
كَانُونُ كَانَوْنُ شَبَاطُ يَطْلُعُ * آذَارُ نَيْسَانُ أَيَّارُ يَتَّبِعُ
ثُمَّ حَزْرَانُ وَتَمُوزُ وَأَبُ * تَبَارَكَ الرَّحْمَنُ يَهْدِي مَنْ أَحَبَ

وقد نظم الشيخ أبو عبد الله الكيزانى رحمه الله أبياتاً ذكر فيها الأشهر التى منها ثلاثون يوماً والناقصة عن الثلاثين ولم يتعرض للزائدة على الثلاثين وليست بالطائل ،
وهى هذه :

شُهُورُ الرُّومِ الْوَأَوَّلُ * زِيَادَاتُ وَشَهَابَاتُ
تَسْرِينُهُمُ الثَّانِي * وَأَيُّوْلُ وَنَيْسَانُ
ثَلَاثُونَ ثَلَاثُونَ * مُسَوِّءٌ وَحَزْرَانُ
شَبَاطُ خُصٌّ بِالنَّقْصِ * وَقَسْدُ النِّقْصِ يَوْمَانُ

ونظم صاحب "مناجى الفكر" مما خلاها مع شهور القبط فى أرجوزة بلغت فى غاية الحسن والوضوح إلا أن فيها طويلاً ، وهى هذه :

مَتَى تَشَأْ مَعْرِفَةَ التَّدَاخُلِ * مِنْ أَوَّلِ الشُّهُورِ فِي الْمَنَازِلِ
فَعَدَّ مِنْ ثَوْبٍ بِلَا تَطْوِيلِ * أَرْبَعَةً فَهِيَ أَجْدَا أَيْوُلِ
وَبَابَةٌ كَذَاكَ مَعَ تَسْرِينِ * الْأَوَّلِ السَّابِقِ فِي السَّنِينَ
وَالْخَامِسُ الْمَعْدُودُ مِنْ هَوْدٍ * أَوَّلُ تَسْرِينِهِمُ الْآخِرِ
أَوَّلُ كَانَوْنٍ بَغِيرِ دَلْسِهِ * إِذَا نَقَصْتَ مِنْ كَيْلِكَ خَمْسَهُ
وَطَوْبُهُ إِنْ مَرَّ مِنْهُ سِتُّهُ * أَتَاكَ كَانَوْنُ الْآخِرِ بِقُسْتِهِ
وَمِنْ شَبَاطٍ أَوَّلُ يُوَافِقُ * سَابِعُ أَتْسِيرِ حَسَابٍ صَادِقُ
أَوَّلِ آذَارٍ إِذَا جَعَلْتَهُ * لِبَرَمَهَاتٍ خَامِسَا وَجَدْتَهُ

أَوَّلُ نَيْسَانَ لَدَى التَّجْرِيدِ * السَّادِسُ الْمَعْدُودُ مِنْ بَرْمُودَ
وَمِثْلُهُ أَمَّا رُ مَعَ بَسَّيْسِ * وَاحِدَةٌ مَقْرُونَةٌ بِخَمْسِ
أَمَّا حَزْرَانُ فَيَحْبُوبَةٌ * أَوَّلُهُ السَّابِعُ مِنْ رُؤْتِهِ
كَذَلِكَ السَّابِعُ مِنْ أَيْبِيبِ * أَوَّلُ تَمْثُوزٍ بَلَا تَكْذِيبِ
أَوَّلُ آبٍ عِنْدَ مَنْ يُحْصَلُ * ثَامِنُ مَسْرَى ذَلِكَ مَالًا يُجْهَلُ

وبالغ بعض المتأخرين فنظم معنى هذه الأربوزة في بيت واحد، الحرف الأول من الكلمة منه للشهر العبراني والحرف الأخير للشهر القبطي وما بينهما لعدد الأيام التي إذا مضت من ذلك الشهر القبطي دخل ذلك الشهر السرياني وهو :

أَدْتُ تَدْب تَه كَهْكَ كُوطْ أَرَا * أَهْب نُوبْ أُوْبْ حَزْبْ تَرَا أَحْمْ

فالآلف من أدت إشارة لأيلول من شهور السريان، وهو آخر شهورهم، والتاء إشارة لتوت من شهور القبط، وهو أول شهورهم، والباء من أدت بأربعة، ففي الرابع من توت يدخل أيلول، والتاء من تدب إشارة لتشرين الأول، والباء إشارة لبابه، والباء بينهما بأربعة، ففي الرابع من بابه يدخل تشرين الأول، والتاء من تته إشارة لتشرين الثاني، والهاء الأخيرة إشارة لآتور، والهاء المتوسطة بينهما بخمسة ففي الخامس من آتور يدخل تشرين الثاني، والكاف الأولى من كهك إشارة لكانون الأول والكاف الأخيرة إشارة لكيهك والهاء بينهما بخمسة، ففي الخامس من كيهك يدخل كانون الأول، والكاف من كوط إشارة لكانون الثاني، والطاء إشارة لطلوبه، والواو بينهما بستة، ففي السادس من طلوبه يدخل كانون الثاني، والآلف الأولى من أَرَا إشارة لأشباط، والآلف الأخيرة إشارة لأمشير، والزاي بينهما بسبعة، ففي السابع من أمشير يدخل أشباط، والآلف من أهب إشارة لآذار، والباء إشارة لبرمهات، والهاء بينهما بخمسة، ففي الخامس من برمهات يدخل آذار، والتون من

نوب إشارة نيسان ، والباء إشارة لبرموده ، والواو بينهما بستة ، ففي السادس من برموده يدخل نيسان ؛ والألف من أوب إشارة لأيار ، والباء إشارة لبشنس ، والواو بينهما بستة ، ففي السادس من بشنس يدخل أيار ؛ والحاء من حزب إشارة لحزيران ، والباء إشارة لبؤنه ، والزاي بينهما بسبعة ، ففي السابع من بؤنه يدخل حزيران ، والتاء من ترأ إشارة لتموز ، والألف إشارة لأبيب ، والزاي بينهما بسبعة ، ففي السابع من أبيب يدخل تموز ، والألف من احم إشارة لآب ، والميم إشارة لمسرى ، والحاء بينهما بثمانية ، ففي الثامن من مسرى يدخل آب .

وأما شهور الروم : (وتنسب لأغسطس ملك الروم) وهو قصر الأوثل ، فأتينا عشر شهرا ؛ بعضها ثلاثون يوما ، وبعضها زائد على الثلاثين ، وبعضها ناقص عنها كما في شهور السريان ؛ وهي مطابقة لشهور السريان في العدد ؛ غائقة لها في الأسماء والترتيب . الشهر الأول نير ، ويوافق كانون الثاني من شهور السريان ، وهو الرابع من شهورهم ، وفي أول يوم منه يكون القلنداس ، ويوقد أهل الشام في ليته نيرانا عظيمة ، لاسما مدينة أنطاكية ، وكذلك سائر بلاد الشام وأرض الروم ، وسائر بلاد النصارى . الشهر الثاني فبراير ، ويوافق شباط من شهور السريان ؛ وهو الخامس من شهورهم . الشهر الثالث مارس ، ويوافق آذار من شهور السريان ، وهو السادس من شهورهم . الشهر الرابع أبريل ، ويوافق نيسان من شهور السريان ، وهو السابع من شهورهم . الشهر الخامس مايو ، ويوافق أيار من شهور السريان ، وهو الثامن من شهورهم . الشهر السادس يونيه ، ويوافق حزيران من شهور السريان ، وهو التاسع من شهورهم . الشهر السابع يولييه ، ويوافق تموز من شهور السريان ، وهو العاشر من شهورهم . الشهر الثامن أغسطس ، ويوافق آب من شهور السريان ، وهو الحادي عشر من شهورهم . الشهر التاسع سبتمبر ، ويوافق أيلول من شهور

السريان ، وهو الثاني عشر من شهورهم . الشهر العاشر أكتوبر ، ويوافقته تشرين الأول من شهور السريان ، وهو الأول من شهورهم . الشهر الحادي عشر نوفمبر ، ويوافقته تشرين الثاني من شهور السريان ، وهو الثاني من شهورهم . الشهر الثاني عشر ديسمبر ، ويوافقته كانون الأول من شهور السريان ، وهو الثالث من شهورهم ، وقد نظمها الشيخ ابراهيم المحشوري فقال :

يُنِيرُ قَبْرِ مَارْصَ لِلرُّومِ ٥ أِبْرِيلُ مِائَةِ خَامِسِ الْمَعْلُومِ
يُنِيهِ وَيُلِيهِ ثُمَّ أَغْشَتْ شَتْبَرُ ٥ أُكْتُوبَرُ نَوَاصِرِ دَجَنْبَرِ

الطرف الثالث

(في السنين : وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في مدلول السنة والعام)

يقال : (السنة ، والعام ، والحول) ، وقد نطق القرمان بالأسماء الثلاثة قال تعالى : ﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا فَرَسِينَ حَامًا ﴾ فأتى بذكر السنة والعام في آية واحدة ، وقال جل وعز : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ وقد تخصّصت السنة بالجنب والعام بالخشب ، وبذلك ورد القرمان الكريم في بعض الآيات قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْمُرُونَ ﴾ فعبّر بالعام عن الخشب وقال جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَقُصِّصَ مِنْ الثَّمَرَاتِ ﴾ فعبّر بالسنين عن الجنب . على أنه قد وقع التعبير بالسنين عن الخشب أيضا في قوله تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ . أما الحول فإنه يقع على الخشب والجنب جميعا .

الجملة الثانية

(في حقيقة السنة، وهى على قسمين : طبيعية وأصلاحية كما تقدم في الشهور)

القسم الأول

(السنة الطبيعية : وهى القمرية)

وأولها استهلال القمر فى غرة المحرم ، وآخرها سلخ ذى الحجة من تلك السنة ، وهى اثنا عشر شهرا هلاليا قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَعِلْدَ أَيَّامِهَا ثَلَاثَةٌ يَوْمَ وَارِبَةِ وَنَحْسُونَ يَوْمًا وَنَحْسٌ وَسِدْسٌ يَوْمَ قَهْرِيَا ۚ وَيَجْتَمِعُ مِنْ هَذَا الْخُمْسِ وَالسِّدْسِ يَوْمٌ فِي كُلِّ ثَلَاثِ سَنِينَ فَتَصِيرُ السَّنَةُ ثَلَاثَةً وَنَحْمَةً وَنَحْسِينَ يَوْمًا ۚ وَيَبْقَى مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ الَّذِي أَجْتَمَعَ شَيْءٌ ۚ فَيَجْتَمِعُ مِنْهُ وَمِنْ نَحْسِ الْيَوْمِ وَسِدْسُهُ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ يَوْمَ وَاحِدٍ ۚ وَكَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَبْقَى الْكَمْرُ أَصْلًا بِأَحَدٍ عَشْرِ يَوْمًا بِمَنْدِ ثَلَاثِينَ مَنَةً ۚ وَتُسَمَّى تِلْكَ السَّنَى بِكُلِّ السَّنَى الْعَرَبِ .

قال السهيلي : كانوا يؤتخرون فى كل عام أحد عشر يوما حتى يبدؤوا الدور إلى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته ، فلما كانت سنة حجة الوداع : وهى مسنة تسع من الهجرة ، عاد الحج إلى وقته أخفاقا فى ذى الحجة كما وضع أولا فاقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه الحج ، ثم قال فى خطبته التى خطبها يومئذ : "إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ" ، بمعنى أن الحج قد عاد فى ذى الحجة . وفى بعض التعاليق أن مبنى العرب كانت موافقة لبني الفرس فى الدخول والأستلاخ فحدث فى أحوالهم انتقالات فسدد عليهم بها الكهس فى أول السنة السادسة من ملك أعيطش ، وذلك بعد ملك ذى القرنين بماثين وثمانين سنة وأربعين يوما فسفوا كس

الرجع من ذلك اليوم في كل سنة فصارت سبيلهم بعد ذلك الوقت محفوظة المواقيت .
وقيل لم تزل العرب في جاهليتها على رسم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا تنسأ
سبيلها إلى أن جاورتهم اليهود في يثرب ، فأرادت العرب أن يكون مجهم في أخصب
وقت من السنة ، وأسهل زمان للتردد بالتجارة فعلموا الكبس من اليهود والله أعلم
أي ذلك كان .

القسم الثاني

(الاصطلاحية : وهي الشمسية)

وشهورها اثنا عشر شهراً كما في السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعت مَـمَّ
دوران سبيلها جعلت في أشهرها زيادة في الأيام إما بحلة واحدة وإما بتفرقة وتتمتها
نسباً ، بحسب ما اصطلاحوا عليه كما ستقف عليه في مصطلح كل قوم إن شاء الله تعالى .
وعند أيامها عند جميع الطوائف : من القبط ، والفرس ، والسريان ، والروم ، وغيرهم
ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوماً وربع يوم ، فتكون زيادتها على العربية عشرة أيام
وثمانية أعشار يوم وخمسة أسداس يوم . وقد قال بعض حنّاق المفسرين في قوله
تعالى ﴿وَلْيَتُوبُوا فِي كَوْفِهِمْ ثَلَاثُمِائَةِ سَنَةٍ وَأُولَئِكَ سَمِعُوا﴾ : إنه إن حمل على السنين القمرية
فهو على ظاهره من العدد ، وإن حمل على السنين الشمسية فالتسع الزائفة هي تفاوت
زيادة الشمسية على القمرية لأن في كل ثلاثمائة سنة تسع سنين لا يُحِيلُ بالحساب أصلاً
قال صاحب "منهاج الفكر" ولذلك كانوا في صدر الإسلام يُسْقِطُونَ عند رأس
كل ثلاث وثلاثين سنة عربية سنةً ويسمونها سنة الأزدلاف : لأن كل ثلاث
وثلاثين سنة عربية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريباً . قال وإنما حملهم على ذلك
القرار من اسم النسيء الذي أخبر الله تعالى أنه زيادة في الكفر .

ثم المعتبرون السنة الشمسية اختلفت مصطلحاتهم فيها بحسب اختلاف مقاصدهم .
المصطلح الأول - مصطلح القبط ، وقد اصطلحوا على أن جعلوا شهرهم ثلاثين
يوما كما تقدم فإذا انقضت الاثنا عشر شهرا اضافوا اليها خمسة ايام يسعونها ايام
النبيء ، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية ، فإذا كانت السنة الرابعة اضافوا إلى خمسة
النبيء المذكورة ما اجتمع من الربيع يوم الزائد على الخمسة ايام في السنة الشمسية
تقصير ستة ايام ، ويجعلونها كيسة في تلك السنة ، وبعض طرفاتهم يسمى الخمسة
المزينة السنة الصغيرة .

قال أصحاب الزيجات وأول ابتدائهم ذلك في زمن أغسطس . وكانوا من قبل
يتركون الربيع إلى أن تجتمع ايام سنة كاملة وذلك في ألف سنة وأربعمائة وإحدى
وستين سنة ويسقطونها من سلبهم ؛ وعلى هذا المصطلح استقر عملهم بالديار المصرية
في الإقطاعات ، والزروع ، والخراج ، وما شاكل ذلك .

المصطلح الثاني - مصطلح الفرس ؛ وشهورهم كشهور القبط في عدد الايام
على ما تقدم ، فإذا كان آخر شهر أبان ماه ، وهو الشهر السابع من شهورهم اضافوا اليه
الخمس ايام الباقية ويجعلوه خمسة وثلاثين يوما ، وتسمى الفرس هذه الايام الخمسة
الاندرگاه ؛ ولكل يوم منها عندهم اسم خاص كما في ايام الشهر ؛ ولما لم يحز في معتقدهم
كهس السنة بيوم واحد بعد ثلاث سنين كما فعل القبط كانوا يؤخرونه إلى أن يتم
منه في مائة وعشرين سنة شهر كامل فيلقونه ، وتسمى السنة التي يلحق فيها بهرك ،
قال المسعودي في "مروج الذهب" وإنما أخرؤا ذلك إلى مائة وعشرين سنة لأن
أيامهم كانت مسعودا ونحوسا فكبرها أن يكبسوا في كل أربع سنين يوما فتقبل بذلك
أيام السعد إلى أيام النحوس ، ولا يكون التبروز أول يوم من الشهر .

(١) العوالم الثاني كما علم مما تقدم . (٢) في مروج الذهب - المارك ، وفي الضر - بهرك .

وعلى هذا المصطلح كان يُجْبَى الخراج للهفاء، وتُمَتَّى الأحوال الديوانية في بداية الأمر وعليه العمل في العراق وبلاد فارس إلى الآن .

المصطلح الثالث - مصطلح السريان ، وشهورهم على ما تَهْتَم : من كونها تارة ثلاثين يوما وتارة زائدة عليها ، وتارة ناقصة عنها ، وإنما فصلوا ذلك حتى لا يلحقهم النسيءُ وشهورهم إذ الأيام الخمسة المذكورة الزائدة على شهور القبط والقُرس مُوزعة على رُغُوس الزوائد من شهورهم ، وذلك أن من شهورهم سبعة أشهر يزيد كل شهر منها يوما على الثلاثين : وهي تشرين الأول ، وكانون الأول ، وكانون الثاني ، وآذار ، وأيار ، وتوزء وآب ، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط : وهو ثمانية وعشرون يوما بيومين يبقى خمسة أيام ، وهي نظير النَّسيء في سنة القبط والقُرس ، ويبقى بعد ذلك الربع يوم الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية ، فإذا آتت ثلاث سنين متواليات جمعوا الأرباع الثلاثة الملتفة إلى الربع الرابع فيجتمع منها يوم فيجعلونه نظير اليوم الذي كبسه القبط ويضيفونه إلى شباط ، فيصير تسعة وعشرين يوما .

المصطلح الرابع - مصطلح اليهود ، وشهورهم وإن كانت قَريَّة كالعربية كما تَهْتَم فقد اضطُروا إلى أن تكون سنَّتُهم شمسية : لأنهم أمروا في التوراة أن يكون عيد القطر في زمان القريك فلم يَتَأْت لهم ذلك حتى جعلوا منهم قسمين : الأول بشيطا ومعناه بسيطة وهي القمرية ، والثاني معبارت ، ومعناه كيسة وهم يكبسون شهرا كاملا ، ومعبارت أسم موضوع عندهم على الكامل ، فإنه لما كان في بطنها زيادة عليها كانت هذه السنة مثلها بإضافة الشهر المكبوس إليها ، وكل واحدة من السنين ثلاثة أنواع أحدها حصارين ومعناه ناقصة ، وهي التي يكون الشهر الثاني والثالث منها (وهما مرحشوان وكسلا) ناقصين ، وكل واحد منهما تسعة وعشرون يوما ،

والنوع الثانى سلام ومعناه تامة ، وهى التى يكون فيها كل شهر من الشهرين المذكورين تامة ؛ والنوع الثالث كسدران ومعناه معتدلة ، وهى التى تكون أشهرها ناقص يتلوه تامة ، وهذا يلزم من جهة أنهم لا يجوزون أن يكون رأس ستم يوم أحد ولا يوم أربعاء ولا يوم خميس .

وأما معبارت فإنها تكون فى كل تسع عشرة سنة سبع مرات ، ويسمون الجملة مغزورا ومعناه الدور ، وهذه السبعة لا تكون على التوالى ، وإنما تكون تارة سنتان بشيطان يتلوها معبارت ، وتارة سنة بشيطا يتلوها معبارت ، كل ذلك حتى لا يخرج عليهم قاعدة الثلاثة أيام التى لا يختارونها أن تكون أول ستم ، فإذا انقضت آذار من هذه السنة كبسوا شهرا وسموه آذار الثانى ، فإذا انقضت التسع عشرة سنة أعادوا دورا ثانيا وعملوا فيه كذلك وعلى هذا أبدا .

أما مصطلح المتجمين فالسنة عندهم من حلول الشمس فى أول نقطة من رأس الحمل إلى حلولها فى آخر نقطة من الحوت ، ومنهم من يجعلها من حلول الشمس فى أول نقطة من رأس الميزان إلى حلولها فى آخر نقطة من السبلية ، والأول هو المعروف . وتساهل بعضهم فقال : هى من كون الشمس فى نقطة ما من فلک البروج إلى صودها إلى تلك النقطة ، ويقال إن سنة الجند والمرترقة بالديار المصرية كانت أولا على هذا المصطلح ، وبه يعملون فى الإقطاعات ونحوها .

المجلة الثالثة

(في فصول السنة الأربعة : وفيه ثلاثة مهاييع)

المهييع الأول

(في الحكمة في تفسير الفصول الأربعة في السنة)

وأعلم أن الفصول تختلف بحسب اختلاف طبائع السنة لتباين مصالح أوقاتها
 حكمة من الله تعالى . قال بطليموس : تحتاج الأبدان إلى تفسير الفصول ، فالشتاء
 للتجميد ، والصيف للتخليل ، والخريف للتتريح ، والربيع للتعديل . وعلى ذلك
 يقال : إن أصل وضع الحماة أربعة بيوت بعضها دون بعض على التدرج ترتيبها
 على الفصول الأربعة .

المهييع الثاني

(في كيفية أقسام السنة الشمسية إلى الفصول)

وأعلم أن دائرة منطقة البروج لما قاطعت دائرة معتل النهار على نقطتين متقابلتين^(١)
 مال عنهما في جهتي الشمال والجنوب بقدر واحد فالنقطة التي تجوز عليها الشمس
 من ناحية الجنوب إلى الشمال عن معتل النهار تسمى نقطة الاعتدال الربيعي ،
 وهي أول الحمل ، والنقطة التي تجوز عليها من الشمال إلى الجنوب تسمى نقطة الاعتدال
 الخريفي . وهي أول الميزان . ويتوهم في الفلك دائرة ثلاثة معترضة من الشمال إلى
 الجنوب تمر على أقطاب الدائرة المخطوطة على الفلكين تقطع كل واحد من
 فلك معتل النهار وفلك البروج بنصفين ، فوجب أن يكون قطعها لفلك البروج على

(١) لعله مال نصفها في جهة الشمال والآخر في جهة الجنوب كما يستفاد من القرري .

القطبتين اللتين هما في غاية الميل والبعد عن معدل النهار في جهتي الشمال والجنوب :
 فسمي القطعة الشمالية نقطة المقلب الصيفي : وهي أول السرطان ؛ وتسمى النقطة
 الجنوبية نقطة المقلب الشتوي ، وهي أول الجدي . واختلاف طابع الفصول
 عن حركة الشمس وتقلها في هذه النقط ، فإنها إذا تحركت من الحمل ، وهو أول
 البروج الشمالية أخذ الهواء في السخونة لقرها من سمت الرأس وتواتر الإحسان إلى
 أن تصل إلى أول السرطان ، وحينئذ يشتد الحر في السرطان والأسد إلى أن تصل
 إلى الميزان ، حينئذ يطيب الهواء ويعدل ؛ ثم يأخذ الهواء في البرودة ويتواتر إلى
 أول الجدي ، وحينئذ يشتد البرد في الجدي والدلو لبعد الشمس عن سمت الرأس
 إلى أن تصل إلى الحمل فتعود الشمس إلى أول حركتها .

المهيج الثالث

(في ذكر الفصول ، وأزميتها ، وطبائعها ، وما حصة كل فصل منها

من البروج والمنازل ؛ وهي أربعة فصول)

الأول - فصل الربيع - وأبتدأه عند حلول الشمس برأس الحمل . وقد تقدم
 ومدة أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن يوم . وأوله حلول الشمس رأس
 الحمل ، وآخره عند قطعها بروج الجوزاء ؛ وله من الكواكب القمر ، والأهرة ؛ ومن
 المنازل السرطان ، والبطين ، والثريا ، والدبران ، والمقعة ، والمثعة ، والذراع بما
 في ذلك من التداخل كما مر ؛ ومن الساعات الأولى والثانية والثالثة ؛ ومن الرياح
 الجنوب ؛ وطبعه حار رطب ؛ وله من السنن الطفولية والحداثة ؛ ومن الأخلاط
 الدم ؛ ومن القوى الماسحة . وفيه تحرك الطبائع ، وتظهر المواد المتولدة في الشتاء ،
 فيطلع النبات ، وتزهر الأشجار وتورق ؛ ويبهج الحيوان للسفاد ، وتذوب الثلوج ،

وَتَبْلُعُ الْعُيُونُ ، وَيَسِيلُ الْأَوْدِيَةُ ، وَأَخَلَّتِ الْأَرْضُ زُرْحَهَا وَأَزْيَبَتْ فَتَصِيرُ كَمَا
عَرُوسٌ تَبْدَتْ لِحْطَابِهَا ، فِي مُصِيبَاتِ ثِيَابِهَا ؛ وَيُقَالُ : إِذَا نَزَلَتِ الشَّمْسُ رَأْسَ
الْجَمَلِ تَهَرَّمَ الشِّتَاءُ ، وَتَبَفَّسَ الرَّبِيعُ ، وَأَخْتَالَتِ الْأَرْضُ فِي وَشْيِهَا الْبَدِيعِ ؛ وَتَهَرَّجَتْ
لِلنَّظَارَةِ ، فِي مَعْرِضِ الْحُسْنِ وَالنَّضَارَةِ .

وَمِنْ كَلَامِ الْوَزِيرِ الْمَغْرِبِيِّ : لَوْ كَانَ زَمَنُ الرَّبِيعِ شَيْخًا لَكَانَ مُقْبَلًا ، وَلَوْ أَنَّ الْأَيَّامَ
حَيَوَانٌ لَكَانَ لَهَا حَلِيًّا وَجَلًّا : لِأَنَّ الشَّمْسَ تَخْلُصُ فِيهِ مِنْ غُلَمَاتِ حُوتِ السَّمَاءِ ،
خَلَّاصٌ يُوَسِّسُ مِنْ غُلَمَاتِ حُوتِ الْمَاءِ ؛ فَإِذَا وَرَدَتِ الْجَمَلُ وَافَتْ أَحَبَّ الْأَوْطَانِ
إِلَيْهَا ، وَأَعَزَّ أَمَا كُنَّا عَلَيْهَا .

وَكَانَ عَبْدُوسُ الْخَزَائِمِيُّ يَقُولُ : مَنْ لَمْ يَنْتَهِجْ بِالرَّبِيعِ وَلَمْ يَسْتَمْتِعْ بِأَنْوَارِهِ ،
وَلَا أَسْتَرَوَحَ بِنَسِيمِ أَزْهَارِهِ ، فَهُوَ فَاسِدُ الْمِزَاجِ ، مَحْتَاجٌ إِلَى الْعِلَاجِ .

وَيُرْوَى عَنْ بَقْرَاطِ الْحَكِيمِ مِثْلُهُ ، وَفِيهِ بَدَلُ قَوْلِهِ "فَهُوَ فَاسِدُ الْمِزَاجِ" فَهُوَ عَدِيمُ
حِسٍّ ، أَوْ مُقِيمُ نَفْسٍ . وَبِلَا لَافَةٍ عَلَيَّ هَذَا الْفَصْلُ فِي الْقُلُوبِ ، وَلِإِزْوَالِهِ مِنَ النُّفُوسِ
مَنْزِلَةُ الْكَعَاصِبِ الْخُلُوبِ ، كَانَتْ الْمُلُوكُ إِذَا عَدِمَتْهُ أَسْتَعْمَلَتْ مَا يُضَاهِي زَهْرَهُ مِنْ
الْبُسْطِ الْمَصُورَةِ لِنَقْشِهِ ، وَالنَّمَارِقِ الْمَقُونَةِ الْمَرْقُوشَةِ . وَقَدْ كَانَ لَا تُؤْشِرُ وَأَنَّ بَسَاطَ
يُسَمِّيهِ بَسَاطَ الشِّتَاءِ مَرَصِعٌ بِأَزْرَقِ الْيَاقُوتِ وَالْجَوَاهِرِ وَأَصْفَرِهِ وَأَبْيَضِهِ وَأَحْمَرِهِ ،
وَقَدْ جَعَلَ أَخْضَرُهُ مَكَانَ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ ، وَالْوَانَةِ بِمَوْضِعِ الزَّهْرِ وَالنَّوَارِ . وَلَمَّا أَخَذَ
هَذَا الْبَسَاطُ فِي خِلَافَةِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وَاقِعَةِ الْقَادِيسِيَّةِ ، حُمِلَ إِلَيْهِ فِيمَا
أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؛ فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ : "إِنَّ أُمَّةً أَتَتْ هَذَا إِلَى أَمِيرِهَا لِأَمْنَةٍ" فَمِمَّ
مَرْقُوهٌ فَوَقَعَ مِنْهُ لَعْنٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قِطْعَةً فِي قِسْمِهِ مَقْدَارُهَا شَبْرٌ فِي شَبْرِ فَبَاصِهَا بِخَمْسَةِ
عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ .

وَقَدْ أَطْنَبَ النَّاسُ فِي وَصْفِ هَذَا الْفَصْلِ وَمَدَحِهِ ، وَأَتَوْا بِمَا يَقْصُرُ عَنْ شَرْحِهِ ؛

وَضَلَّى الشَّعْرَاءَ فِيهِ غَايَةُ الْبَغَالَى ، وَفَضَّلُوا أَيَّامَهُ وَلِيَالِيَهُ عَلَى الْإَيَّامِ وَالْأَيَّامِ ، وَمَا أَحْلَى
قَوْلَ الْبَحْرِيِّ ! :

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّائِقُ يَخْتَالُ ضَاحِكًا * مِنْ الْحَسَنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ
وَقَدْ نَبَّهَ التَّوَرُوزُ فِي غَسَقِ الدُّجَى * أَوَائِلَ وَرِدْ كُنَّ بِالْأَمْسِ نَوْمًا
يُفْتَحُهَا بَرْدُ النَّدَى فَكَأَنَّهَا * يَدُّ حَلِيئًا يَنْهَرُ مُكْتَمًا
وَمِنْ فَجْرِ رَدِّ الرَّبِيعِ رِدَاءَهُ * كَمَا نَشَرْتُ قَوْمًا عَلَيْهِ مُتَمَنَّا
أَحْلَى ذُبْدَى الْعُيُونِ بَسَاشَةً * وَكَانَ قَدَى لَمَعَيْنِ إِذْ كَانَ مُحْرِمًا
وَرَقَّ نَسِيمُ الْجَوْحِ حَتَّى كَأَنَّهَا * يَجِيءُ بِأَنْفَاسِ الْأَحْبَةِ نَمًا
وَأَحْلَى مِنْهُ قَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعُلُوِي :

أَوْ مَا تَرَى الْإَيَّامَ كَيْفَ تَهَرَّجَتْ * وَرَبِيعُهَا وَإِلِ عَلَيْهَا قَبِيحٌ ؟
لَيْسَتْ بِهَ الْأَرْضُ الْجَمَالَ فَحُسْنُهَا * مَا تَزُرُّ بِوَرْدِهِ مُتَعَمِّمٌ
أَنْظُرْ إِلَى وَشْرِ الرِّايِضِ كَأَنَّهُ * وَشِي تَنْشُرُهُ الْأَكْفُ يَتَمِّمُ
وَالنُّورُ يَهْوِي كَالْمَقُودِ تَبَدَّدَتْ * وَالْوَرْدُ يَتَجَلَّلُ وَالْأَفَاقِي تَتَبَسَّمُ
وَالطَّلُّ يَنْظُمُ فَوْقَهُنَّ لَأَلْفًا * قَدْ زَانَ مِنْهُنَّ الْفَرَادَى النَّوْمُ
وَيَكَادُ يَذْرِى الدَّمْعُ نَجِيسَهَا إِذَا * أَحْصَى وَيَقْطُرُ مِنْ شَقَايِجِهَا النَّمُ

ومنها :

أَرْضُ نُبَاهِيهَا السَّمَاءُ إِذَا دَجَا * لَيْلٌ وَلَا حَتْفَ دَجَالِمَا الْأَنْجَمِ
فَلْيُخْضِرْنَا بِجَوِّ أَخْضَارِ رِيَاضِهَا * وَلِزَهْرِهِ زَهْرٌ وَنُورٌ يَجْمِ
وَكَيْفَ يَسْقُ سَنَا الْقَبْرِ جَرَهُ * وَإِذْ يَسْقُ الْأَرْضَ طَائِمٌ مُقَمِّمٌ
لَمْ يَبْقَ إِلَّا الدَّمْعُ إِذْ بَاهَتْ بِهِ * وَحَيَا يُجُودُ بِهِ مِلْكٌ مُرْمِمْ

وقول الآخر:

طَرَقَ الحَيْهَ يَرَهُ المَشْكُورُ * أَهْلًا بِهِ مِنْ زَائِرٍ وَمُزَوِّرٍ !
وَحَبًّا الرِّيَاضُ غِلَظَةً مِنْ وَشْيِهِ * بِغَرَابِيبِ التَّقْوِيَةِ وَالتَّجْوِيدِ
وَأَعَارَهَا حَلِيبًا تَأْتِي الْغَيْثُ فِي * تَرْصِيعِهِ بِمَجَازِهِ المَشْهُورِ
بُـسُورْدٍ كُورْدٍ الْيَاقُوتِ قَا * رَبِّ أَبْيَضًا كَصَاعِدِ الكَافُورِ
وَمُعْصِفٍ شَرِيقٍ وَأَصْفَرٍ نَاقِيعٍ * فِي أَخْضَرِ كَالسُّنْدُسِ المَنْشُورِ
فَكَانَتْ أَرْزَقُهُ بَقَايَا إِمْدٍ * فِي أَغْنِيٍّ مَكْهُولَةٍ بِمُشْهُورِ
كُنْتُ صِفَاتُ الزَّهْرِ فِيهِ فَنَابَ عَمَّا غَابَ مِنْ أَنْوَاعِهِ بِمُحْضُورِ

وقول الآخر:

أَشْرَبَ هَنِيئًا قَدْ أَتَاكَ زَمَانُ * مَتَعَطَّرٌ مَهْلِكٌ تَشَوَاتُ
فَالْأَرْضُ وَثْقَى وَالسَّمُ مُمْسِكٌ * وَالْمَاءُ رَاحٌ وَالطُّيُورُ قِيَانُ

الثاني - فصل الصيف : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف من يوم
وَأَبْتَدَأُوهُ إِذَا حَلَّتْ الشَّمْسُ رَأْسَ السَّرْطَانِ ، وَاتَّهَاهُ إِذَا أَتَتْ عَلَى آخِرِ دَرَجَةٍ مِنَ
السَّنْبِلَةِ ؛ فَيَكُونُ لَهُ مِنَ الْبُرُوجِ السَّرْطَانُ ، وَالْأَسَدُ ، وَالسَّنْبِلَةُ . وَهَذِهِ الْبُرُوجُ تَكُونُ
عَلَى السَّكُونِ ، وَلَهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ الْمَرْيَخُ وَالشَّمْسُ ؛ وَمِنَ الْمَنَازِلِ النَّثْرَةُ ، وَالطَّرْفُ ،
وَالْجَهَةُ ، وَالزُّرَّةُ ، وَالصَّرْفَةُ ، وَالْعَوَاءُ ، وَالْمَيْكُ يُتَدَاخَلُ فِيهِ ؛ وَلَهُ مِنَ السَّاعَاتِ
الرَّابِعَةُ وَالْخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ ، وَمِنَ الرِّيَاحِ الصَّبَا ، وَطَبَعُهُ حَارٌّ يَابَسٌ ؛ وَلَهُ مِنَ السَّنِّ
الشَّبَابُ ؛ وَمِنَ الْأَخْلَاطِ الْمِرَّةُ الصَّفْرَاءُ ؛ وَمِنَ الْقُوَى الْقُوَّةُ النَّفْسِيَّةُ وَالْحَيَوَانِيَّةُ .
وَالْعَرَبُ فِي هَذَا الْقَفْصِلِ وَغَرَاتُ : وَهِيَ الْحُرُورُ ؛ مِنْهَا وَغَرَةُ الشَّعْرِ ، وَوَغَرَةُ
الْحُوزَاءِ ، وَوَغَرَةُ مَيْبِلَ ، أَوَّلَهَا أَقْوَامًا حَرًّا ؛ يَقَالُ إِنَّ الرِّجْلَ فِي هَذِهِ الْوَغَرَةِ يَطْمَشُ
بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْبَيْتِ ، وَإِذَا طَلَعَ مَيْبِلٌ نَجَبَتِ الْوَغَرَاتُ ؛ وَتُسَمَّى الرِّيَاحُ الَّتِي فِي هَذِهِ

الْوَحْرَاتِ الْبَوَارِحَ، سميت بذلك لأنها تأتي من يسار الكعبة كما يرح الطَّيُّ إِذَا أَتَاكَ
من يسارك؛ وقد أُولِعَ النَّاسُ بَيْنَ لَفَاحَاتِ الْحَرْوِ وَنُحُمِهِ، وَأَتُوا فِيهِ بِبَدَائِعَ تَقْلَعُ مِنْ
قَلْبِ الصَّبِّ عَمَامَ نَحْمُومِهِ. وفي ذلك قول بعضهم: أوقدت الظهيرة نارها، وأذكت
أوارها، فأذابت دماغ الصَّبِّ، وألهمت قلب الصَّبِّ؛ هاجرة كأنها من قلوب
السُّاقِ، إِذَا أَشْتَعَلَتْ فِيهَا نَارُ الْفِرَاقِ؛ حَرَّتْ رُبُّ لَهُ الْحِرَاءُ مِنَ الشَّمْسِ، وتستجير
بِمَا كَمَ الرِّمْسُ؛ لا يطيب معه عيش، ولا يتقنع معه تلج ولا خيش؛ فهو كاتلب
المهجور، أو كالتنور المنسجور. ووصف بعضهم: وهو ذو الرمة حر هاجرة فقال:

وهاجرة حرها واقد * نصبت لحاجبها حاجي

تلوذ من الشمس أطلوها * يساد الغريم من الطالب

وتسجد للشمس حراؤها * كما يسجد القس للراهب

وقال سوار بن المضرم:

وهاجرة تستوى بالسوم * جنديها في رموس الأكم

إذا الموت أخطأ حراؤها * رعى نفسه بالعمى والصمم

وقال أبو العلاء المعري:

وهجيرة كالحجر موج مرأيا * كالبخر ليس ليلتها من طليب

وانحى به الحراة عودى مثير * للظهور إلا أنه لم يحطب

وقال آخر:

ورب يوم حره منضج * ككأنه أحشاء ظمان

كأما الأرض على رصفة * والجو محشو بنبيران

وبالغ الأمير ناصر الدين بن الفقيهي فقال من أبيات:

في زمان يسوى الوجوه بحر * ويذيب الجسوم لو كن صفرا

لَا تَطِيرُ النَّسُورُ فِيهِ إِذَا مَا * وَفَقَتْ تَمْسُهُ وَقَارَبَ ظُهُرَا
يَسْتَكِي الضَّبُّ مَا اشْتَكَى الصَّبُّ فِيهِ * وَلِحَبْرَانِهِ إِلَى الظِّلِّ حَرَا
وَيُودُّ النُّصْنُ الرُّطِيبُ بِهِ لَوْ * أَنَّهُ مِنْ لِحَايِهِ يَتَعَرَّى
وَقَالَ أَيْضًا يَصِفُ لَيْلَةَ شَدِيدَةِ الْحَرِّ

بِالْيَلَةِ يَتَّيَّهَا سَاهِرًا * مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَقَطِرَ الْأَوَارِ
كَأَنِّي فِي جُنْحِهَا مُحْرِمٌ * لَوْ أَنَّ لِلنَّسُورَةِ بَنِي أَمْتَارِ
وَكَيْفَ لَا أُحْرِمُ فِي لَيْلَةٍ * مِمَّاؤُهَا بِالشَّهْبِ تَرَى الْجَارِ

عَلَى أَنَّ أَبَا عَلِيٍّ بْنُ رَسِيْقٍ قَدْ فَضَّلَهُ عَلَى فَصْلِ الشِّتَاءِ فَقَالَ :

فَصَّلُ الشِّتَاءِ مُبِينٌ لَا خَفَاءَ بِهِ * وَالصَّيْفُ أَفْضَلُ مِنْهُ حِينَ يَنْشَأُ كَا
فِيهِ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِهِ * فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ إِنْ جَاءَهُ نَسَاكَ
أَنْهَارُ نَحْمِرٍ وَأَطْيَارٌ وَفَاكِهَةٌ * مَا شِئْتُ مِنْ ذَا وَمِنْ هَذَا وَمِنْ ذَا كَا
قَدْ سَلَّ لَمْ نَقُلْ لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكْ ذَا * إِذَا تَخَفَّضَ عَلَى أَثْرَاكَ دُنْيَا كَا
سَمَّ الشِّتَاءَ بَعَائِسُ تُصِيبُ غَرَضًا * مِنَ الصَّوَابِ وَمِمَّ الصَّيْفِ مَحَا كَا

الثالث - فصل الخريف : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن يوم . وأقله عند حلول الشمس رأس الميزان ؛ وذلك في الثامن عشر من توت وإذا بَيَّ من أيلول ثمانية أيام ؛ وآخره إذا أنت الشمس على آخر درجة من القوس ؛ فيكون له من البروج الميزان والعقرب والقوس ؛ وهذه البروج تدلُّ على الحركة ، وله من الكواكب زُحَلٌ ، ومن الساعات السابعة والثامنة . والطلع فيه مع الفجر من المنازل القفر والزيتان والإكليل والقلب والشولة والنعام والبدة يتداخل فيه . وهو بارد يابس ، له من السن الكهولة ؛ تهيج فيه المرة السوداء وتقرئ فيه القوة المسككة ، وتهبُّ فيه الرياح الشمالية ، وفيه يبرد الهواء ، ويتغير الزمان ، وتصرم

النَّحَارُ، ويتغير وجه الأرض، وتَهْزِلُ البهائم، وتموت الهوام، وتَجَحَّرُ الحشرات،
ويطلب الطير المواضع الدفنة، وتصير الأرض كأنها كهلةٌ مدرة. ويقال: فصل
الخریف ربيعُ النفس كما أن الربيع ربيعُ العين؛ فإنه ميقَاتُ الأقوات، وموسمُ الثَّارِ
وأوانُ شَبَابِ الأشجار؛ وللتَّغُوس في آثاره سرِّع، وللبُسُوم بمواقع خيراتِه مستمتع.
وقد وصفه الصَّابي فقال "الخریف أجمعُ فصول السنة زماناً، وأسهلها أواناً، وهو
أحد الاعتدالين المتوسطين بين الاقترابين، حين أبدت الأرض عن ثمرتها،
وصرَّحت عن زُبدتها؛ وأطلقت السماء حَوَافِلَ أنواتها، وآذنت بأنسكاب ماثها؛
وصارتِ الموارد، كُتُونُ المَبَارِد؛ صفاءً من كَدَرها، وتهذيباً من عَكْرها؛ وأطردا مع
تَفَحُّحاتِ الهواء، وحركاتِ الرِّيح الشَّجْوَاء؛ وأكست الماشية وبرَّها القشيب،
والطائرُ ريشه العَجِيب".

ومن كلام ابن شبل: كلُّ ما يظهر في الربيع نُورُهُ، ففى الخريف تُجَنَّى ثَمَارُهُ.
وقال أبو بكر الصنوبرى:

ما قَطَعُ في الرَّبِيعِ حَقَّ المَرَا * بَ مَضِيعٍ لِحَقِّهَا في الخَرِيفِ
نَحْنُ مِنْهُ عَلَى تَلَقَّى شِتَاءٍ * يُوجِبُ القَصْفَ أَوْدَاعِ مَصِيفِ
في قَيْصٍ مِنَ الزَّمانِ رَقِيقٍ * وَرِدَاءٍ مِنَ الهَوَاءِ خَفِيفِ
يَرْعُدُ المَاءُ فِيهِ خَوْفًا إِنْ مَا * لَمَمَسَتْهُ يَدُ النِّسيمِ الضَّعِيفِ
وقال ابن الرومى يصفه:

لَوْلا قَوَائِكُهُ أَيْلُولٍ إِذَا اجْتَمَعَتْ * مِنْ كُلِّ فَرْقٍ وَرَقٌ الْجَوِّ والمَاءُ
إِذَا لَمَّا حَفَلَتْ نَفْسِي إِذَا أَشْتَمَلَتْ * عَلَى هَائِلَةِ الحَالَيْنِ غَبْرَاءُ
يَاجِبُنَا لَيْلُ أَيْلُولٍ إِذَا بَدَّتْ * فِيهِ مَصَابِحُنَا وَالرَّيْحُ شِجْوَاءُ!
وَتَمَسَّ القُرْفِ فِيهِ الحِلَّةَ وَأَلَامَتْ * مِنَ الضَّمِجِيعِينَ أَجْسَامُ وَأَحْشَاءُ

وَأَسْفَرَ الْقَمَرَ السَّارِيَ بَصَفَحِهِ * بَرَى لَهَا فِي صَفَاءِ الْمَاءِ لَأْلَاءُ
 بِلْ حَبْدًا تَحْمَهُ مِنْ رِيحِهِ تَحْرًا * يَأْتِيكَ فِيهَا مِنَ الرِّيحَانِ أَنْبَاءُ
 قُلْ فِيهِ مَا شِئْتَ مِنْ فَضْلِ تَعْلَهُ * فِي كُلِّ يَوْمٍ يَدُّكَ لَهِ بَيْضَاءُ
 وقال عبد الله بن المعتز يصفه ويفضله على الصيف من أبيات :

طَابَ شَرْبُ الصَّبُوحِ فِي أَيُّوْلِ * بَرَدَ الظِّلُّ فِي الضُّحَى وَالْأَصِيلِ
 وَخَبَتْ لَقْمَةُ الْهَوَا حِرْعَتَا * وَأَسْتَرَحْنَا مِنَ النَّهَارِ الطَّوِيلِ
 وَخَرَجْنَا مِنَ السَّمُومِ إِلَى بَرٍّ * دَسِيمٍ وَطِيبٍ ظِلٍّ ظَلِيلِ
 فَكَأَنَّا نَزْدَادُ قُرْبًا مِنَ الْجَنَّةِ فِي كُلِّ شَارِقٍ وَأَصِيلِ
 وَوَجُوهُ الْقِيَاحِ تَحْتَظِرُ الْغَيْثَ أَنْ يَنْظَارَ الْيُبَّ رَدَّ الرُّوْلِ
 وقريب منه قول الآخر :

إِشْرَبَ عَلَى طِيبِ الزَّمَانِ قَدْ حَدَا * بِالصَّيْفِ لِلنَّدَامِ أَطِيبُ حَادِ
 وَأَتَمَّنَّبَا بِاللَّيْلِ بَرَدَ نَسِيمِهِ * فَأَرَاتِحِ الْأَرْوَاحُ فِي الْأَجْسَادِ
 وَأَقَاكَ بِالْأَنْدَاءِ قُدَامَ الْحَيَا * فَالْأَرْضُ لِلْأَمْطَارِ فِي أَسْعَادِ
 تَمَّ فِي صَمَائِرِ رَبِّهَا مِنْ رَوْضَةٍ * بِمَسِيلِ مَاءٍ أَوْ قَرَارَةٍ وَادِ
 تَبْدُو إِذَا جَاءَ السَّحَابُ بِقَطْرِهِ * فَكَأَنَّمَا كُنَّا عَلَى مِعَادِ
 وما يقرب منه قول بجطة البرمكي :

لَا تَصْخَ لَوِّمْ إِنْ الْوَمَّ تَفْهِيلُ * وَأَشْرَبَ قَبِي الشَّرْبِ لِأَخْرَانِ تَهْلِيلُ
 فَقَدْ مَضَى الْقَيْظُ وَاجْتَلَتْ رَوَاحِلُهُ * وَطَابَتْ الرِّيحُ لِمَا آلَ أَيُّوْلُ
 وَإِنْ فِي الْأَرْضِ يَتُّ بَسْتِكَ مَرَهَا * إِلَّا وَنَظَرُهُ بِالْمَلِّ مَكْهُوْلُ
 وبالغ بعضهم فسؤنًا بينه وبين فصل الزرع فقال في ضمن تهئية لبعض إخوانه :
 هُنَيْتَ إِقْبَالَ الْحَرِيرِ شَفِ وَفَزْتَ بِالْوَبْهَةِ الْوَضَّ

تَمَّ أَعِيدَ الْآلَا فِي الْكَمَا * لِبَقَاءِ فِي خَلْقِي سَوِيَّةٌ
فَكُنِ الرَّيِّعَ بِحُسْنِهِ * وَتَسِيمَ رِيَّاهُ الذِّكْوَى
وَيَنْسُوبُ وَرَدَ الزَّعْفَرَا * نِ لَهُ عَنِ الْوَرْدِ الْجَنِيِّ

وأبلغ منه قول الآخر، يفضله على فصل الربيع الذي هو سيد الفصول ورئيسها :

عَمَّاسِنُ الْفَرِيفِ لَمَنْ فَخْرٌ * عَلَى زَمَنِ الرَّيِّعِ وَأَيُّ فَخْرٍ
يَهْ صَارَ الزَّمَانُ أَمَامَ بَرْدٍ * بِرَأْفَتِ نَزَحِهِ وَعَقِيبِ حَرِّ

ومع ذلك فالأطباء تذكروا لاستيلاء المزة السوداء فيه، ويقولون إن الهواء رديء متى تشبثت بالجسم لا يمكن تلافيه؛ وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

خَذْ فِي التَّدَثُّرِ فِي الْخَرِيفِ فَإِنَّهُ * مُسْتَوْبِلٌ وَلَسِيْمُهُ خَطَافٌ
يَجْرِي مَعَ الْأَيَّامِ جَرَى زَيْفَاقِهَا * لَصِيدِيقِهَا وَمِنَ الصِّدِيقِ يُخَافُ

الرابع - فصل الشتاء : وهو أحد وقسمون يوما وربع يوم ونصف ممن يوم، ودخوله عند حلول الشمس رأس الجدي؛ وذلك في الثامن عشر من كيهك وإذا بقي من كانون الأول ثمانية أيام، وآخره إذا أتت الشمس على آخر درجة من الحوت فيكون له من البروج الجدي والدلو والحوت؛ وهذه البروج تدل على السكون؛ والطالع فيه مع الفجر سعد النابح، وسعد يلع، وسعد السعد، وسعد الأخبية، والفرغ المقدم والفرغ المؤخر، والرشاء. فيه ثوب رياح الدبور، وهو بارد رطب. فيه يبيع البلقم، وتضعف قوى الأبدان. له من السن الشيخوخة ومن القوى البدنية القوة الدافعة؛ وفيه يشتد البرد، ويحشئ الهواء، ويتساقط ورق الشجر، ويتجحر الحيات، وتكثر الأنواء، ويظلم الجو وتصير الأرض كأنها عجوز هريمة، قد دنا منها الموت، وله من الكواكب المشتري وعطارد. ومن الساعات العاشرة والحادية عشرة. ويقال إذا حلت الشمس الجدي مد الشتاء رواقه، وحل رطاقه؛ وديت

عقاربُ البردِ لايسيه ، ونفع مُنْخَرُ الكسبِ كَيسيه . وللبلقاء في وصف حال من
أظله ، مُلِحْ مَدْفَعٌ عن المقرود متى أَسْتَعَدَّ بها طَلَهْ ووَبَلَهْ .

فمن ذلك قول بعضهم يَصِفُ شِتَةَ البردِ : "بَرْدٌ يَغَيِّرُ الْأَلْوَانَ ، وَيَنْشِفُ الْأَبْدَانَ ؛
وَيُحَمَّدُ الرِّقَى فِي الْأَشْدَاقِ ، وَالنَّمْعُ فِي الْأَمَاقِ ؛ بَرْدٌ خَالَ بَيْنَ الْكَلْبِ وَهَيْرِهِ ،
وَالْأَسَدِ وَزَيْرِهِ ، وَالطَّيْرِ وَصَفِيرِهِ ، وَالْمَاءِ وَتَحِيرِهِ " .

ومن كلام الفاضل : "فِي لَيْلَةٍ جَمَدَ نَحْمُهَا ، وَتَحَمَّدَ جَمْرُهَا ؛ إِلَى يَوْمٍ تَوَدَّ الْبَصَلَةَ لَوْ
أَزْدَادَتْ قُبْحًا إِلَى قُبْحِهَا ، وَالشَّمْسُ لَوْ جَرَّتِ النَّارَ إِلَى قُرْصِهَا ؛ أَخَذَهُ بَعْضُهُمْ فَقَالَ :

وَيَوْمَنَا أَرِيحُهُ قَرَّةٌ * تَحْمِشُ الْأَبْدَانَ مِنْ قُرْصِهَا

يَوْمٌ تَوَدَّ الشَّمْسُ مِنْ بَرْدِهِ * لَوْ جَرَّتِ النَّارَ إِلَى قُرْصِهَا

وَلَا بَيْنَ حَكِيمَةِ الْبَنَادِقِ :

إِلَيْسَ إِذَا قَدِمَ الشَّبَاءُ بَرُودًا * وَأَفْرَشَ عَلَى رَغَمِ الْحَصِيرِ لُبُودًا

الرِّقَى فِي الْلَهَوَاتِ أَصْبَحَ جَائِدًا * وَالنَّمْعُ فِي الْأَمَاقِ صَارَ بَرُودًا

وَإِذَا رَمَيْتَ فَضْلَ كَأْسِكَ فِي الْهَوَا * عَادَتْ إِلَيْكَ مِنَ الْعَقِيقِ عُقُودًا

وَتَرَى عَلَى بَرْدِ الْمِيَاهِ طُيُورَهَا * تَخْتَارُ حَرَّ النَّارِ وَالسَّقُودَا

يَا صَاحِبَ الْعُودَيْنِ لَا تَهْمِلْهُمَا * حَرَّقْ لَنَا عُودًا وَحَرِّكْ عُودَا

وَلِبَعْضِهِمْ :

شِتَاءٌ قَطَّصَ الْأَشْدَاقَ مِنْهُ * وَبَرْدٌ يَحْمِلُ الشَّبَانَ شَيْئًا

وَأَرْضٌ تَزَلُّقُ الْأَقْدَامُ فِيهَا * فَاتَمَيَّزْ بِهَا إِلَّا دَيْبِيَا

ومن كلام الزمخشري :

أَقْبَلْتُ يَا بَرْدُ بِبُرْدٍ أَجْرِدَ * فَفَعَلَ بِالْأَوْجِهَةِ فَعَلَ الْمَبْرِدَ

أَظْلَى فِي اللَّيْلِ كَيْشِلُ الْمُقْعِدِ * مُقْبِضًا تَحْتَ الْكِسَاءِ الْأَسْوَدِ

لَوْ قِيلَ لِي أَنْتَ أَمِيرُ الْبَلَدِ * فَهَاتِ لِلْبَيْعَةِ كَفًّا يُعْقِدِ

ومن كلام أبي عبد الله بن أبي الخصال، يصف ليلة باردة من رسالة: والكلب قد صافح خيشومه ذنبه، وأنكر البيت وطنبه، والتوى التواء الجباب، وأستدار استدارة الجباب، وجلده البليد، وضربه الضريب، وصعد أخامسه الصميد، فجاه مباح، ولا هيرير ولا نباح.

ومن شعر الحماسة في وصف ليلة شديدة البرد:

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَةِ * لَا يُبْصِرُ الْكَلْبُ مِنْ أُنْدَانِهَا الطُّبَا

لَا يَبِيعُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ * حَتَّى يَلْفَ عَلَى خَيْشُومِهِ النَّبْ

ولأبي القاسم التنوخي:

وَلَيْلَةٍ تَرَكَ الْبَرْدُ الْبِلَادَ بِهَا * كَالْقَلْبِ أَسْمَرَ تَارًا فَهُوَ مَثْلُوجٌ

فَإِنْ بَسَطْتَ يَدًا لَمْ تَنْسِبْ خَصْرًا * وَإِنْ تَهَلَّ فَيَقُولُ فِيهِ تَشْيِجٌ

فَتَحْنُ مِنْهُ وَلَمْ تُحْرَسْ فَوُوخَرِينَ * وَلَحْنُ فِيهِ وَلَمْ تُفْلَحْ مَقَالِيجُ

وقال بعضهم يصف يوما باردا كثير الضباب:

يَوْمٌ مِنَ الزَّمْهِرِ مَقْرُودٌ * عَلَيْهِ جَبَبُ السَّحَابِ مَزْرُودٌ

وَمَشْهُ حَرَّةٌ مُخْدَرَةٌ * لَيْسَ لَهَا مِنْ ضَبَائِهِ نُورٌ

كَأَمَّا الْجَنُودُ خَشِوهُ أَمْرٌ * فَالْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ قَوَارِيرُ

وحكى أن أمرايا استعد به البرد فاضابت نار فدنا منها ليصطل، وهو يقول:

اللهم لا تخزنيها في الدنيا ولا في الآخرة! أخذته بعضهم فقال وهو في غاية المبالغة:

أَيُّدِيَّ إِنْ الْبَرْدَ أَصْبَحَ كَالْيَدِ * وَأَنْتَ بِحَالِ عَالَمٍ لَا تَقْسَمُ

فَإِنْ كُنْتُ يَوْمًا مُدْخِلِي فِي جَهَنَّمَ * قَبِي مِثْلَ هَذَا الْيَوْمِ طَابَتْ جَهَنَّمَ

وقد أعتنى الناس بملحه فقال بعضهم : لو لم يكن من فضله إلا أنه تَغَيَّبَ فيه
الهوامُ وتَجَحَّرَ الحشرات، ويموت الذباب، ويهلك البعوض، ويبرد الماء، ويسخن
الجوف، ويَطِيبُ العنَّاق، ويظهر الفرش، ويكثر السخن، وتلذذ جمرة البيت .
وتابعه بعض الشعراء فقال :

تَرَكْتُ مَقْدَمَةَ الْحَرِيفِ حَمِيدَهُ * وَبَدَأَ الشِّتَاءُ جَدِيدَهُ لَا يَنْكُرُ
مَطَرٌ يَرُوقُ الصَّخْرَ مِنْهُ وَبَعْدَهُ * صَخْرٌ يَكَادُ مِنَ الْفَضَارَةِ يَطُرُ
غَيْشَانِ : وَالْأَنْوَاءُ غَيْثٌ ظَاهِرٌ * لَكَ وَجْهٌ وَالصَّخْرُ غَيْثٌ مُضْمَرُ
وقال أبو الفتح كُشَّاجِم :

إِذْ الشِّتَاءُ بِلَهْوِهِ الْمُسْتَقْبِلِ * فَدَنَّتْ أَوَائِلُهُ بَغِيثَ مُسْبِلِ
مُتَكَثِفِ الْأَنْوَاءِ مُتَقَبِّلِ الْحَيَا * هَطِلَ النَّئِيُّ هَزَجَ الرُّعْدِ يَجْلِبِلِ
جَاعَتْ بَزَلُ الْجَنْبِ فِيهِ فَهَشَرَتْ * بِالْخِصْبِ أَنْوَاءُ السَّمَاءِ الْأَعْرَلِ
وقد ولىع الناس بذكر الاعتدال لما قديما وحديثا .
قبل لأعرابي ما أعددت للبرد ؟ فقال طُولُ الرَّعْدِ، وَتَقَرُّصُ الْقَعْدِ، وَذَوْبُ
الْمَعْدِ . أَخَذَهُ ابْنُ سُرَّةَ، فقال :

قِيلَ مَا أَعْدَدْتَ لِلْبَرِّ * دِ وَقَدْ جَاءَ بِشِئْتِهِ
قُلْتُ دُرَاعَةُ عُرْيِي * تَحْتَهَا جُبَّةُ رَعْدِهِ

واعلم أن ما نختتم من أزمان الفصول الأربعة هو المصطلح المعروف ، والطريق
المشهور . وقد ذكر الأبي في كتاب النثر أن العرب قَسَمَتِ السَّنةَ أربعة أجزاء فجعلوا
الجزء الأول الصَّفْرِيَّةَ، وسمَّوا مطره الوَشْيِيَّ، وأَوَّلُهُ عندهم سُقُوطُ عَرْقَةِ الدَّلو
السُّقْلَى، وَآخِرُهُ سُقُوطُ الْحَقَّةِ ؛ وجعلوا الجزء الثاني الشِّتَاءَ ، وأَوَّلُهُ سُقُوطُ الْحَنْتَةِ ،

وآخره سقوطُ الصَّرفة . وجعلوا الجزء الثالث الصيف ، وأوله سقوطُ العَوَاء ، وآخره سقوطُ الشَّوْلة . وجعلوا الجزء الرابع القَيْظ ، وسماه مطرَه الحَرِيف ، وأوله سقوطُ النِّعَام ، وآخره سقوطُ عَرَقُوة الدُّنُو العُلْيَا .

وذكر ابن قتيبة في "أدب الكاتب" طريقاً آخر فقال .

"الربيع يذهب الناس إلى أنه الفصل الذي يتبع الشتاء، ويأتي فيه الوردُ والكَلَّةُ، والنَّورُ؛ ولا يعرفون الربيع غيره . والعرب تختلف في ذلك : فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذي تُدْرِكُ فيه الثَّمَارُ، وهو الحَرِيف ، وبعده فصلُ الشتاء ، ثم فصل الصيف : وهو الوقت الذي تسميه العامةُ الربيعَ ؛ ثم فصلُ القَيْظ : وهو الذي تسميه العامةُ الصيفَ ، ومنهم من يسمي الفصلَ الذي تُدْرِكُ فيه الثَّمَارُ : وهو الحَرِيف الربيعَ الأولَ، ويسمى الفصل الذي يلي الشتاء وتأتي فيه الكَلَّةُ والنَّورُ الربيعَ الثاني ؛ وكلهم مجمعون على أن الحَرِيف هو الربيع" .

وفي بعض التعاليق أن من العرب من جعل السنة سنةً أزمنة . الأولُ الوَسْمَى وحَصَّتُهُ من السنة شهران ، ومن المنازل أربعُ منازلٍ وثَلَاثُ متزلةٍ : وهي العَوَاء ، والسَّهْلُ والفَقْرُ ، والزَّيْبَانِ ، وثَلَاثُ الإِكْلِيل . الثاني الشتاء ، وحَصَّتُهُ من السنة شهران ، ومن المنازل أربعُ منازلٍ وثَلَاثُ متزلةٍ : وهي ثَلَاثُ الإِكْلِيل ، والقلبُ ، والشَّوْلةُ ، والنِّعَامُ ، والبلْدَةُ ، وثَلَاثُ الدَّابِج . الثالث الربيع ، وحَصَّتُهُ من السنة شهران ، ومن المنازل أربعُ منازلٍ وثَلَاثُ متزلةٍ ، وهي ثَلَاثُ الدَّابِج ، وبلْعُ ، والسُّعُودُ ، والأخْبِيَّةُ ، والفَرَّغُ المقْتَم . الرابع الصيف ، وحَصَّتُهُ من السنة شهران ، ومن المنازل أربعُ منازلٍ وثَلَاثُ متزلةٍ ، وهي الفَرَّغُ المؤخَّرُ ، وبلْعُ الحوتِ ، والشرطان ، والبُطَيْنِ ، وثَلَاثُ التَّريَّا . الخامس الحَمِيم ، وحَصَّتُهُ من السنة شهران ، ومن المنازل أربعُ منازلٍ وثَلَاثُ متزلةٍ : وهي ثَلَاثُ التَّريَّا ، والدَّبرَانُ ، والمَقْعَةُ ، والمُهْنَعَةُ ، والدَّذراعُ وثَلَاثُ الثَّرة . السادس

والخريف، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازل وتلكا منزلة : وهي، ثلثا النّرة، والطّرف، والجبهة، والخرتان، والصّرفة .

والأوائل من علماء الطبّ يقسمون السنة إلى الفصول الأربعة إلا أنهم يجعلون الشتاء والصيف أطول زمانا وأزيد مدة من الربيع والخريف ؛ فيجعلون الشّتاء أربعة أشهر، والصيف أربعة أشهر، والربيع شهرين، والخريف شهرين، إذ كانا متوسطين بين الحار والبرد وليس في مُتَمَتِهما طول ولا في زمانهما اتّساع .

وأعلم أن ما تقدّم من تفضيل بعض الفصول على بعض إنما هو أقاويل الشعراء وأقائين الأدباء، فنحن في البلاغة، والا فالواضع حكيم جعل هذه الفصول مشتملة على الحز تارة وعلى البرد أخرى لمصالح العباد، ودرّجها ترتيبا خاصا على التدرّج، يفهم ذلك أهل العقول وأرباب الحكمة، جلّت صنعته أن تكون عربيّة عن الحكمة أو موضوعة في غير موضعها (ما ترى في خلق الرّحمٰن من تفاوتٍ فارّج البصر هل ترى من تفاوتٍ ثم أريج البصر كرمين يتقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) :

الطرف الرابع

(في أعياد الأهم ومواسمها : وفيه خمس حمل)

الجملة الأولى

(في أعياد المسلمين)

واعلم أن الذي وردت به الشريعة وجاءت به السنّة عيدان : عيد الفطر، وعيد الأضحى . والسبب في اتّخاذهما مارواه أبو هارود في سنّته عن أنس بن مالك رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّم المدينة ولأهلها يومان يلعبون فيها، فقال : ما هذان اليومان ؟ فقالوا : نحن نلعبُ فيها في الجاهليّة ؛ فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل قد بَلَّغَكُمْ خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْأَضْنَى، وَيَوْمَ الْفِطْرِ“
 فأول ما بُدئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة . وروى
 ابن بطيش في كتاب الأوائل أن أول عيد ضحى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة
 اثنتين من الهجرة ونخرج إلى المصلى للصلاة، وحينئذ فيكون العیدان قد شُرعا في سنة
 واحدة؛ نعم قد ابتدعت الشيعة عيداً ثالثاً وسَمَّوه عيد القدير . وسبب اتخاذهم له
 مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه يوم غدیر خم: وهو غدیر على ثلاثة
 أميال من الجحفة بِنِزْرَةِ الطريق تُصب فيه عينٌ وحوله شجرٌ كثير، وهى الغيضة التى
 تسمى نَحْمًا . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من حجة الوداع نزل
 بالقدیر وأتى بين الصمالية ولم يؤاخِ بين على وبين أحدٍ منهم فرأى النبي صلى الله عليه
 وسلم منه أنكساراً فضمه إليه وقال ”أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى“
 إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَالتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ ، اللَّهُمَّ
 وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ“ وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة
 عشر من الهجرة . والشيعة يُحيون ليلة هذا العيد بالصلاة ويصلُّون في صبيحتها ركعتين
 قبل الزوال وشعارهم فيه لبس الحديد، وعِثْقُ العبيد، وذبح الأغنام، وإلحاق الأجانب
 بالأهل في الإكرام . والشعراء والمترسلون يهتفون الكبراء منهم بهذا العيد .

الجملة الثانية

(في أعياد الفرس)

وكان دينهم المجوسية، وأعيادهم كثيرة جدًا حتى إن ابن علي بن حمزة الأصبهاني
 عمل فيها كتاباً ذكر فيه أسباب اتخاذهم لها، وسبب سلوكمهم فيها، وقد اقتصرنا منها
 على المشهور الذى وَلَّح الشعراء بذكره، وأغنى الأجراء بآخره؛ وهى سبعة أعياد .

العبد الأول النيروز - وهو تعريب نُوروز ، ويقال إن أول من اتخذته نجم شاد أحد ملوك الطبقة الثانية من الفُرس ومعنى شاد الشُعاع والضياء . وإن سبب اتخاذهم لهذا اليوم عيداً أن الذين كان قد فسد قبله ، فلما ملك جتده وأظهره ، فسَمَّى اليوم الذى ملك فيه نوروز أى اليوم الجديد . وفى بعض التعاليق أن نجم شاد ملك الأقاليم السبعة والحق والإنس ، فالتخذ له عجلة ركبها ، وكان أول يوم ركبها فيه أول يوم من شهر افرودين ماه ، وكان مدة ملكه لا يُريهم وجهه ، فلما ركبها أبرز لهم وجهه ، وكان له حظ من الجمال وافر ، فجلسوا يوم رؤيتهم له عيداً ، وسمّوه نوروزاً . ومن الفرس من يزعم أنه اليوم الذى خلق الله فيه النور ، وأنه كان معطلاً قبل جم شاد . وبعضهم يزعم أنه أول الزمان الذى ابتدأ الفلك فيه بالنوران .

ومدته عندهم ستة أيام أولها اليوم الأول من شهر افرودين ماه الذى هو أول شهر ستهم . ويسمّون اليوم السادس النوروز الكبير ، لأن الأكاسرة كانوا يقضون فى الأيام الخمسة حوائج الناس على طبقاتهم ، ثم يتقلون إلى مجالس أنبيهم مع ظرفاء خواصهم .

وحكى ابن المقفع أنه كان من عاداتهم فيه أن يأتى الملك زجل من الليل قد أُرصد لما يفعله ، مليح الوجه ، فيقف على الباب حتى يصبح ، فإذا أصبح دخل على الملك من غير استئذان ، ويقف حيث يراه ، فيقول له : من أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ وما أمرك ؟ ولأى شئ وردت ؟ وما أمرك ؟ فيقول : أنا المنصور ! وأسمى المبارك ! ومن قبل الله أقبلت ! والملك السعيد أردت ! وباللهاء والسلامة وردت ! ومعى السنة الجديدة ! ثم يجلس ، ويدخل بسله رجل معه طبق من فضة وعليه حنطة وشعير ، وجلبان ، وحمص ، وشمص ، وأرز : من كل واحد سبع سبيلات ، وسبع حبات ، وقطعة سكر ، ودينار ودرهم جديان ، فيضع الطبق بين

يدى الملك ، ثم تُدخَل عليه الهدايا ، ويكون أول من يدخل عليه بها وزيره ، ثم صاحب الخراج ، ثم صاحب المعونة ، ثم الناس على طبقاتهم ؛ ثم يقدم للملك رغيف كبير من تلك الحبوب مصنوع موضوع في سلة ، فيأكل منه ويطيخ من حضره ؛ ثم يقول : هذا يومٌ جديدٌ ، من شهر جديد ، من عام جديد ، يحتاج أن يُحتد فيه ما أخلق من الزمان ؛ وأحق الناس بالفضل والإحسان الرأس : لفضله على سائر الأعضاء . ثم يخلع على وجوه دولته ، ويصلحهم ، ويفرق عليهم ما وصل إليه من الهدايا .

وأما عوامُ الفرس فكانت عادتُهم فيه رفع النار في ليلته ، ورش الماء في صبيحته ؛ ويرجعون أن إيقاد النيران فيه لتحليل الموثات التي أبقاها الشتاء في الهواء . ويقال إنما فعلوا ذلك تنويعاً بذكره ، وإشهاراً لأمره . وقالوا في رش الماء : إنما هو بمنزلة الشجرة لتطهير الأبدان مما أنضاف إليها من دخان النار الموقدة في ليلته . وقال آخرون : إن سبب رش الماء فيه أن فيروز بن يزيد جرد لما أستم سورجى ، وهي أصهبان القديمة لم تمطر سبع سنين في ملكه ؛ ثم مطرت في هذا اليوم ففرح الناس بالمطر وصبوا من مائه على أبدانهم من شدة فرحهم به ، فصار ذلك سنة عندهم في ذلك اليوم من كل عام ، وما أحل قول بعضهم يخاطب من يهواه ، ويذكر ما يُعتمد في اليوم من شب النيران وصب الأمواه :

كَيْفَ أَتَبَاهُكَ بِالنَّيروزِ يَا سَكْنِي * وَكُلُّ مَا فِيهِ يَحْكِي وَأَحْكِي

فَتَارَةً كُلَّهَيْبِ النَّارِ فِي كَيْدِي * وَتَارَةً كَسَوَالِي عِبْرَتِي فِيهِ

أَسْمَعْتَنِي فِيهِ يَا سَوَالِي إِلَى وَصِي * فَكَيْفَ تُهْدِي لِي مَنْ أَنْتَ تُهْدِيهِ

وأول من رسم هدايا النيروز والمهرجانات في الإسلام المصالح بن يوسف التقي ،

ثم رفع ذلك عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وأستمر المتع فيه إلى أن فتح باب

الهدية فيه أحمد بن يوسف الكاتب فإنه أهدى فيه لأمون سَفَط ذهب فيه قطعة
غُرْدِ هندية في طوله وعرضه، وكتب معه : هذا يوم جرت فيه العادة، بالتحاف
العبيد السادة، وقد قلت :

على العبد حق وهو لا شك فاعله * وإن عظم المولى وجلت فواضله
ألم ترنا نُهْدِي إلى الله ماله * وإن كان عنه ذاغنى فهو قابله
فلو كان يُهْدِي للجليل بقدره * لقصر عنه البحر يوماً وساحله
ولكننا نُهْدِي إلى مَنْ نُجِلُّه * وإن لم يكن في وسعنا ما يُسَاكَلُه

وكتب سعيد بن حديد إلى صديقه له يومَ تيروز: هذا يوم سهلت فيه السنة للعبيد
الإحسان للوك، فتعلقت كل طائفة من البر بحسب القدرة والهمة، ولم أجِدَ فيما
أملك ما يغني بحسبك، ووجدتُ هربك أبلغ في أداء ما يجب لك، ومن لم يؤت
في هديته، إلا من جهة قدرته، فلا طعن عليه .

هنا ما يتعلق بتيروز الفرس من ذكر الهدايا فيه، وإهداء النار، ورش الماء،
وأول من سنه . وأما تعلقه بالخروج فسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى عند
الكلام على جباية الخروج في فن الديونة .

العيد الثاني من أعياد الفرس المهرجَان - وهو في السادس والعشرين من تشرين
الأول من شهور الشريان، وفي السادس عشر من مهرماه من شهور الفرس، وفي التاسع
من أبيب من شهور القبط، وبينه وبين التيروز مائة وسبعة وستون يوماً، وهذا
الأوان في وسط زمان الحريف، وفي ذلك يقول الشاعر :

أحب المهرجَان: لأن فيه * سروراً للوك فوق السَّامِ
وباباً للصَّير إلى أوانٍ * مُتَّح فيه أبوابُ السَّامِ

ومدته ستة أيام، ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر، كما يسمى اليوم السادس من أيام التبروز عندهم التبروز الأكبر،

قال المسعودى : وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم أنهم كانوا يسمون شهورهم بأسماء ملوكهم، وكان لهم ملك يسمى مهر، يسير فيهم بالعنف والعسف، مات في النصف من هذا الشهر، وهو مهرداد، فسمى ذلك اليوم مهرجان، وتفسيره نفس مهر ذهب، والفرس تقيم في لغتها ما تقرر العرب في كلامها وهذه اللغة الفهلوية وهى الفارسية الأولى . وزعم آخرون أن مهر بالفارسية حفظ وجان الروح، وفي ذلك يقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

إذا ما تحقّق بالمهرجا * ن من ليس يعرف معناه غاظا

ومعناه أن غلب الفرس فيه * قسموه للروح فيه حفظا

ويقال إنما ظهر في عهد افريدون الملك، ومعنى هذا الاسم إدراك الثأر، وذلك أن افريدون أخذ بثأر جده جم شاد من الضحاك، فانه كان أفسد دين المجوسية ونخرج على جم شاد فأخذ منه الملك وقتله، فلما غلبه افريدون قتله بجبل دناوند، وأعاد المجوسية إلى ما كانت، فالتخذ الفرس يوم قتله عبدا، ويسمونه مهرجان، والمهر الوفاء، وجان سلطان، وكان معناه سلطان الوفاء،

وزعم بعض الفرس أن الضحاك هو الثمرد وافرديون هو إبراهيم عليه السلام، بلغتهم .

ويقال إن المهرجان هو اليوم الذى حقد فيه التاج على رأس أردشير بن بابك، أول ملوك الفرس الساسانية . وكان منعب الفرس في المهرجان أن يلبس ملوكهم بذن البان بركا، وكذلك العوام، وأن يلبس القصب والوثى، ويتوج بتاج طيه صورة الشمس وحجلتها الدائرة عليها، ويكون أول من يدخل إليه المؤمنان يطبق فيه

أُتْرِجَّةً ، وقطعة سكر ، وبنق ، وسفرجل ، وعُتَابٌ ، وفَحَّاحٌ ، وعقودٌ عَنَبٌ أبيض ،
 وسبع طاقات آيس ، قد زُمرَم عليها ، ثم تدخل الناس على طباقتهم يمثل ذلك ، وربما
 كانوا يذهبون إلى تفضيله على التبروز ، وفيه يقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :
 أَمَا الْفُرْسُ إِنْ الْفُرْسُ تَعْلَمُ لَهُ * لَا طَيْبٌ مِنْ تَبْرُوزِهَا مَهْرَجَانِهَا
 لِإِدْبَارِ أَيَّامٍ يَغْمُ هَوَاؤُهَا * وَإِقْبَالِ أَيَّامٍ يَسُرُّ زَمَانُهَا

قال المسعودي : وأهل المروءات بالعراق وغيرها من مُبْدُن السجم يعملون هذا
 اليوم أوَّل يوم من الشتاء فيُغيرون فيه الفُرس والآلات ، وكثيرا من الملابس .

العيد الثالث السَّدَق - ويسمى أبان روز ، ويعمل في ليلة الحادى عشر من شهر
 بهمن ماه من شهر الفُرس ، وسُتَّهم فيه إيقاد التيران بسائر الأدهان واللؤلؤع بها حتى
 إنهم يُقَوَّن فيها سائر الحُبوب ؛ ويقال إن سبب اتجاذهم لهذا العيد أن الأب الأول ،
 وهو عندهم كيومرت لما بكل له من ولده مائه ولد زوج الذكور بالإناث ، وصنع لهم
 عُرسا أكثر فيه وقود التيران ، ووافق ذلك الليلة المذكورة فاستسخت ذلك الفُرس
 بعده . وقد ولعت الشعراء بوصف هذه الليلة فقال أبو القاسم المطرزي يصف سَدَقا
 عمله السلطان ملكشاه بدجلة ، أشعل فيه التيران والشموع في السَّيَّارِيَّات من أبيات :^(١)

وَكُلُّ نَارٍ عَلَى الشُّشَاقِ مُضَرَّمَةٌ * مِنْ نَارِ قَلْبِي أَوْ مِنْ لَيْلَةِ السَّدَقِ
 نَارٌ تَجَلَّتْ بِهَا الْقُلُوبُ وَأَشْنَبَتْ * بِسُدْفَةِ اللَّيْلِ فِيهَا غُرَّةُ الْفَلَاقِ
 وَزَارَتْ الشَّمْسُ فِيهَا الْبَدْرَ وَأَصْطَلَحَا * عَلَى الْكَوَاكِبِ بَعْدَ الْبَيْظِ وَالْحَقِيقِ
 مَدَّتْ عَلَى الْأَرْضِ بُسْطَانًا مِنْ جَوَاهِرِهَا * مَا يَتَّجْتَوِعُ وَإِِنْ يَفْتَرِقُ
 مِثْلَ الْمَصَابِيحِ إِلَّا أَنَّهَُا تَزَلَّتْ * مِنَ السَّمَاءِ بِلَا رَجِيمٍ وَلَا حَرَقِ
 أَغْجَبَ بِنَارٍ وَرِضْوَانٍ يَسْعَرُهَا * وَمَالِكٌ قَائِمٌ مِنْهَا عَلَى فَرْقِ
 فِي جُلُوسٍ صَحِيحَتْ رَوْضُ الْحَنَانِ لَهُ * لِمَا جَلَّ قَفَرُهُ عَنْ وَاضِحٍ يَقْقَى

(١) هكذا في نهاية الارب أيضا والظاهر السَّيَّارِيَّات وهو اسم لنوع من السفن .

وقال ابن حجاج من أبيات، يمدح بها عضد الدولة :

لَبَقْنَا حُسْنَهَا عَجِيبٌ * بِالْقَصَفِ وَالْيَدِ قَدْ تَحَقَّقَ
لِنَارِهَا فِي الْمَاءِ لِسَانٌ * عَنْ نُورِ ضَوْءِ الصَّبَاحِ يَنْطَلِقُ
وَالْجَوُّ مِنْهَا قَدْ صَارَ بَحْرًا * وَالتَّحِيُّمُ مِنْهَا قَدْ كَادَ يَحْرِقُ
وَدِجَلَةُ أَضْرِمَتْ حَرِيقًا * بِأَلْفِ نَارٍ وَأَلْفِ زَوْرِقِ
فَأَوْهَا كُلُّهُ حَرِيمٌ * قَدْ فَارَ مَا عَلَى وَبَقِيَ

وقال عبد العزيز بن نباتة من أبيات يمدح بها عضد الدولة أيضا :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَذْكَى الْمَعَامُ بِأَرْضِهِ * مُشْهَرَّةٌ يَتَنَاهَا التَّعْخُرُ صَالِيَا
تَغِيبُ النُّجُومُ الزُّهْرُ عِنْدَ طُلُوعِهَا * وَتَحْسُدُ أَيَّامُ الشُّهُورِ الْيَالِيَا
فَلَا دُونَ جِدِّ أَغْضَلَ النَّهْرُ نَظْمَهَا * عَلَيْهِ وَقَدْ السَّيْنِ الْخَوَالِيَا^(١)
هِيَ الْيَلْبَةُ الْفَرَاءُ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ * تُغَادِرُ جَيْدَ النَّهْرِ أَبْلَجَ حَالِيَا

العيد الرابع الشركان - وهو في الثالث عشر من يرماء من شهور الفُرس، زعموا
أن أرس رمى سهمه لما وقعت المصالحة بين منوچهر وقراسياب الترك من المملكة
على رمية سهم، فأمتد السهم من جبال طبرستان إلى أعلى طخارستان .

العيد الخامس أيام الفروديان - وهي خمسة أيام؛ أولها السادس والعشرون من
أبان ماه من شهور الفُرس، ومعناه تربية الروح : لأنهم كانوا يعملون فيها أطعمة
وأشربة لأرواح موتاهم، ويزعمون أنها تغتذي بها .

العيد السادس ركوب الكويج - ويعمل في أول يوم من ادرماه من شهور
الفُرس، ومُسْتَهْم فيه أن يركب في كل بلد من بلادهم رجل كويج، قد أعد لما يُصنَّع

(١) كذا في الاصل . والله وقد بد الخ

به بأكل الأطعمة الحارة كالجوز، والتوم، والقلم السمين ونحوها، ويشرب الشراب
الصرف أياما قبل حلول الشهر، فإذا حل الشهر ليس غلالة ساورية، وركب بقرة
وأخذ على يده غرابا، ويتبعه الناس يصبون عليه الماء، ويضربونه بالثجج، وروحون
عليه بالمرآوج، وهو يصبح بالفارسية كرم أى الحتر الحتر، يفعل ذلك سبعة أيام،
ومعه أوباش الناس ينهون ما يجهنون من الأمتعة فى الحوانيت، وللسلطان عليهم
مال، فإذا وُجدوا بعد عصر اليوم الساج ضربوا وسُيسوا .

قال المسعودى : ولا يُعرف ذلك إلا بالعراق، وأرض العجم، وأهل الشام
والجزيرة ومصر واليمن لا يعرفون ذلك . ويقال إن هذا الفعل كان يتداوله أهل
كل بيت منهم كوخج، وحكى الزغشرى فى كتابه "ربيع الأبرار" أن سبب ذلك
أن كوخجا كان يشرب فى هذه الأيام النداء، ويعطلي بدنه فيها فنقلب عليها، وفى ذلك
يقول الشاعر :

قَدْ رَكِبَ الْكُوحَجُ بِاصْبَاحِ * فَأَتَوْنَ عَلَى الزَّهْرَةِ وَالرَّاحِ

وَأَنْتُمْ بِأَيْدِمَاهِ عَيْشًا وَخُدَّ * مِنْ لَذَّةِ الْعَيْشِ بِأَفْبَاحِ

والسنة عندهم مقسمة على أقسام، فى أول كل قسم منها خمسة أيام تسمى
الكنهارات، زم زرادشت أن فى كل يوم خلق الله تعالى نوتا من الخليفة فهم
يتخذونها أعيادا لذلك .

العيد السابع عيد بهمنجة - ويتخلونه فى يوم بهمن من شهر بهمن ماء، وتُسْتَمِ
فيه أنهم ياكلون فيه البهن الأبيض باللبن الحامض على أنه ينفع الحفظ، ورؤساء
نُراسان يعملون فيه الدعوات على طعام يطبخون فيه كل حب ما كُولٍ ولحم حيوان
بؤكل، ويحضر ما يوجد فى ذلك الوقت من بقل أو نبات .
فهذه أعياد الفرس المشهورة الدائرة بين عاقبتهم وخاصيتهم .

الجملة الثالثة

(في أعياد القبط)

وأعلم أن أعياد القبط كثيرة، وقد أتينا على ذكر تفصيلها سردا في خلال شهر القبط مع ذكر غيرها، وأوردنا كل عيد منها في يومه من شهر القبط، وربما ذكرنا بعضها أيضا في شهور السريان والروم، على أن منها ما لا يتعلق بوقت مقيّد كالقصح الأكبر عندهم، فإنه متعلق بفطرم من صومهم الأكبر، وهو غير مؤقت بوقت معين، بل يتغير بالتقديم والتأخير قليلا على ما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى، ونحن تقتصر في هذا الفصل على المشهور من أعيادهم دون غيره، ونين أوقاتنا، ونشرح أسبابها، وهي أربعة عشر عيدا، وهي على ضربين : كبار وصغار .

الضرب الأول

(الكبار : وهي سبعة)

العيد الأول البشارة، ويمنون به إشارة خبريال، (وهو جبريل على زعمهم) لمريم عليها السلام بيلاد عيسى صلوات الله عليه، يعملونه في التاسع والعشرين من برمهات من شهر القبط .

الثاني الزيتونة، وهو عيد الشّانين، وتفسيره بالعربية التسبيح، يعملونه في سابع أحد من صومهم . وستهم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة، وهو يوم ركوب المسيح لليعقور، (وهو الحمار) في القدس ودخوله صهيون وهو راكب والناس يسبحون بين يديه، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

الثالث القصح، وهو العيد الكبير عندهم، يعملونه يوم الفطر من صومهم الأكبر، يزعمون أن المسيح قام فيه بعد الصلبوت بثلاثة أيام، وخلص آدم من

الحجيم ، وأقام في الأرض أربعين يوما آخرها يوم الخميس ، ثم صعد إلى السماء .
قاتلهم الله أني يؤفكون .

الرابع خميس الأربعين ، ويسميه الشاميون السلاق : وهو الثاني والأربعون من
القطر ، يقولون إن المسيح عليه السلام تسلق فيه من تلاميذه إلى السماء بعد القيام ،
ووعدهم بارسال الفارقليط ، وهو روح القدس عندهم .

الخامس عيد الخميس ، وهو عيد العنصرة يعملونه بعد خمسين يوما من القيام ،
وهو في السادس والعشرين من بشنس ، ويقولون إن روح القدس حلت في التلاميذ
وتخرفت عليهم أنسنة الناس فتكلموا بجميع الألسنة ، وذهب كل واحد منهم إلى بلاد
لسانه الذي تكلم به يدعوهم إلى دين المسيح .

السادس الميلاد ، وهو اليوم الذي يقولون إن المسيح ولد فيه بيت لحم (قرية من
أعمال فلسطين) يعملونه في التاسع والعشرين من كيهك من شهور القبط ، وهم
يقولون إنه ولد يوم الاثنين ، فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد ، فيوقدون فيها
المصابيح بالكثائس ويزينونها .

السابع النطاس ، يعملونه في الحادى عشر من طوبه ، من شهور القبط . يقولون
إن يحيى بن زكريا عليه السلام وينتونه بالمعمدان غسل عيسى عليه السلام بحميرة
الأردن ، وأن عيسى لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة ،
والنصارى يغمسون أولادهم فيه في الماء على أنه يقع في شدة البرد ، إلا أن عقبة
يحيى الوقت ، يقول المصريون : غطستم صيقتم ، وتورزتم شتيتم .

الضرب الثاني

(من أعياد القبط الأعياد الصَّغار . وهى سبعة أيام)

الأول الخِثَّان، ويعملونه فى سادس بثوة من شهور القبط . ويقولون : إنا المسيح
خُتِن فى هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد .

الثانى الأربعون، يعملونه فى الثامن من شهر أمشير من شهور القبط، ويقولون :
إنا سَمعان الكاهن دخل ببسبى عليه السلام مع أمه بعد أربعين يوما من ميلاده
المِجَلَّ وبارك عليه ؛ تلك حقول أضلَّها باربها، وإلا فإين مَقَامُ الكاهن من مَقَام
عيسى عليه السلام . وهو رُوح الله وكلَّته .

الثالث خميس العهد، يعملونه قبل الفصح بثلاثة أيام، وشأنهم أن يأخذوا إناء
ويملأوه ماء ويذرموا عليه، ثم ينسل البطريرك به أرجل جميع النصارى الحاضرين،
ويزعمون أن المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه فى هذا اليوم يعلمهم التواضع،
وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض، والعامة من النصارى
يُسمُون هذا الخميس خميس المَدَس ؛ وهم يطبخون فيه المَدَس على ألوان .

الرابع سَبْتُ الثور، وهو قبل الفصح بيوم . يقولون : إنا الثور يظهر على مقبرة
المسيح فى هذا اليوم قشَّعتل منه مصابيح كنيسة القمامة بالقدس . قال صاحب
”مناجى الفكر“ وغيره : وما ذاك إلا من تخيلاتهم النيرنجية التى يفعلها القسيسون منهم
ليستميلوا بها عقول عوامهم الضعيفة . وذلك أنهم يلقون القناديل فى بيت المذبح
ويحيطون فى إصبال النار إليها بأن يمتوا على جميعها شريطا من حديد فى غاية الدقة
مدحوتا بئهن اللسان ودحن الزنقي، فإذا صلوا وجاء وقت الزوال فتحوا المذبح
فتدخل الناس إليه، وقد أشتعلت فيه الشموع ويتوصل بعض القوم إلى أن يُلْقُوا

النار بطُورٍ الشريط الجديد قسرى عليه فتتقد القناديل واحدا بعد واحد ، إذ من طبيعة دُخْنِ اللَّسَانِ طُلُوقُ النَّارِ فِيهِ بُسْرَةٌ مَعَ أَذْفَى مَلَامَسَةٍ ، فَيُظَنُّ مَنْ حَضَرَ مِنْ ذَوَى الْعُقُولِ الناقصةِ أَنَّ النَّارَ تَزَلَّتْ مِنْ السَّهْلِ فَأَوْقَدَتِ الْقَنَادِيلَ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْإِسْلَامِ .

الخامس حدُّ الحُدُودِ ، وهو بعد الفِضْحِ بِثَانِيَةِ أَيَّامٍ ، يَعْمَلُونَهُ أَوَّلَ أَحَدٍ بَعْدَ الْقَطْرِ : لِأَنَّ الْإِحَادَ قَبْلَهُ مَشْغُولَةٌ بِالصَّوْمِ ، وَفِيهِ يَجْتَدُونَ الْآلَاتِ وَأَثَاتِ الْيُوتِ ، وَمَنْ يَأْخُذُونَ فِي الْأَسْتِمْدَادِ لِلْمَامِلَاتِ وَالْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ .

السادس التجلِّي ، وَيَعْمَلُونَهُ فِي الثَّلَاثِ عَشَرَ مِنْ مَعْرِى مِنْ شَهْرِ الْقَبِطِ ، وَآخِرُهُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ مِنْهَا . يَقُولُونَ : إِنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَجَلَّى لِثَلَاثِيهِ بَعْدَ أَنْ رَفَعَ فِي هَذَا الْيَوْمِ ، وَتَمَنَّوْا عَلَيْهِ أَنْ يُخَضِّرَ لَهُمْ أَيْلِيَا وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، فَاحْضَرَاهُمَا لَمْ يَجْعَلْ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ ثُمَّ صَعِدَ وَصَحِبَا .

السَّابِعُ عِيدُ الصَّبِيبِ ، وَهُوَ فِي السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ تَوْتُ مِنْ شَهْرِ الْقَبِطِ ، وَالنَّصَارِيُّ يَقُولُونَ : إِنَّ قُسْطَنْطِينَ بْنَ هِيلَانَ آتَقَلَ عَنْ أَعْتِقَادِ الْيُونَانِ إِلَى أَعْتِقَادِ النَّصْرَانِيَّةِ وَبَنَى كَنِيسَةَ قُسْطَنْطِينِيَّةِ الْعِظْمَى وَسَارَكَائِسَ الشَّامِ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَجَاوِرُ الْبَرْجَانَ فَضَاقَ بِهِمْ دَرْعًا مِنْ كَثَرَةِ غَارَاتِهِمْ عَلَى بِلَادِهِ ، فَهَمَّ أَنْ يَصَانِعَهُمْ وَيَقْرَضَ لَهُمْ عَلَيْهِ إِتَاوَةً فِي كُلِّ عَامٍ لِيَكْفُوا عَنْهُ ، فَرَأَى لَيْلَةً فِي الْمَتَامِ أَنَّ مَلَائِكَةً تَزَلَّتْ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمَعَهَا أَعْلَامٌ طَلِبَهَا صُلبَانُ غَارِبَتِ الْبَرْجَانِ فَانْهَزْنُوا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ عَمِلَ أَعْلَامًا وَصَوَّرَ فِيهَا صُلبَانَا ثُمَّ قَاتَلَ بِهَا الْبَرْجَانَ فَهَزَمَهُمْ ، فَسَأَلَ مَنْ كَانَ فِي بِلَدِهِ مِنَ الثَّجَّارِ هَلْ يَعْرِفُونَ فِيمَا طَافُوهُ مِنَ الْبِلَادِ دِينًا هَذَا زِيَّهُ ؟ فَقَالُوا لَهُ دِينُ النَّصْرَانِيَّةِ وَإِنَّهُ فِي بِلَدِ الثَّنَدُسِ وَالْمِلِيلِ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ . فَأَمَرَ أَهْلَ مَمْلَكَتِهِ بِالرُّجُوعِ عَنْ دِينِهِمْ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَخْضَعُوا شُعُورَهُمْ وَيَحْلِقُوا لِحَاهُمْ . وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ

أن رُسُل عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان قبلُ بأمرِهم بالتعبدُ بدين النصرانية فأعرضوا عنهم ومثّلوا بهم هذه المثلّة نكالا لهم ففعلوا فلك تأسّيًا بهم .
ولما تبصّر قسطنطين خربت أمّه هيلاني إلى الشام فبنت به الكنائس ، وسارت إلى بيت المقدس وطلبت الخشبة التي زعمت النصارى أن المسيح صُلب عليها فحُملت إليها فغشّتها بالذهب ، واتخذت ذلك اليوم عيدا .

وسياق الكلام على ذلك مَقْصَلا في ترجمة قُسطنطين في خاتمة الكتاب عند ذكر الملوك الذين استولّوا على الديار المصرية ، وفيها ذكرنا هنا مَقْصَع والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقد صار من أعيادهم المشهورة بالديار المصرية النيروز؛ وهو أول يوم من سَنَتِهِمْ؛ وإن لفظة النيروز فارسية معربة، وكان القبط والله أعلم أخذوا ذلك على طريقة الفُرس واستعاروا اسمه منهم فسمّوا اليوم الأول من سَنَتِهِمْ أيضا نيروزا وجعلوه عيدا .

قال في "مناجج الفكر" وهم يظهرون فيه من الفرح والسرور، وللقاد النيران ، وصَبَّ الأمواه أضعاف ما يعله الفُرس، ويشاركهم فيه العوام من المسلمين .

قال المسعودي : وأهل الشام يعملون مثل ذلك في أول سَنَتِهِمْ أيضا، وهو أول يوم من يَيزمن شهور الروم ويوافقهِ كانون الثاني : وهو الشهر الرابع من شهور الشُرّيان ، وذلك في السادس من طوبة من شهور القبط ، ويسمونه القلنداس ، إلا أن أهل مِصرَ يزيدون فيه التَصانُعَ بالانطاع ، وربما حلّهم تركُّ الاحتشام على أن يَعبِروا على الرجل المُطاع ؛ ولولا أن ولاة الأمر يَدْعُونَهُمْ ويمنعونهم من ذلك ، لمَنَعُوا الطريق من السالك ؛ وهم مع ذلك من ظفروا به لا يتركونه إلا بما يُرضيهم .
والذي استقر عليه الحال بالديار المصرية إلى آخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة أنهم

يقتصرون على رَشِّ الأَمْوَاهِ والتَّصَانُفِ، وترك الاحتشام دون إيقاد التيران، إلا من يفعل ذلك من النصارى في بيته أو خاصته .

ولم أعياد ومواسم سوى ما تَقَدَّمَ، ذكرها صاحب التذكرة ونحن نذكرها على ترتيب شهور القبط، وهي :

عيد سيفورس، وعيد متى الإنجيلي، وهما في الثاني من توت . عيد سمعان الجليس، وهو في الرابع من توت . عيد ماما، وهو في الخامس من توت . عيد شعيا، وهو في السادس من توت . عيد ساويرس، وهو في السابع من توت . عيد موسى النبي عليه السلام، وهو في الثامن من توت . عيد ثوما التلميذ، وهو في التاسع من توت . ونُورُج نُورج عليه السلام من السفينة، ومُؤَلِّد مَرِّم عليها السلام، وهما في العاشر من توت . عيد باسيلوس، وهو في الحادي عشر من توت . عيد ميخائيل، وصوم جدليا، وهما في الثالث عشر من توت . عيد سمعان الجليس، وعيد تادرس الشهيد، وهما في الرابع عشر من توت . عيد اسفانوس، وهو في السادس عشر من توت . وصوم كبور، وهو في العشرين من توت . ونياحة أبي جرج، وهي في الثاني والعشرين من توت . عيد أولاد القرس، وهو في الثالث والعشرين من توت . عيد أليصابات، وهو في السادس والعشرين من توت . عيد اسطاثوا، وانتقال يوحنا، وهما في السابع والعشرين من توت . عيد اجروفون، وهو في أول باب. عيد سوستان، وهو في الثاني من باب. عيد يعقوب بن حلفا، وهو في الخامس من باب. عيد أبو يولا، وهو في السابع من باب. عيد ثوما، وهو في الثامن من باب. عيد أبي مبرجة، وهو في العاشر من باب. عيد يعقوب، وهو في الحادي عشر من باب. وشهادة متى، وهي في الثاني عشر من باب. عيد القُرأت، وهو في الثالث عشر من باب.

وشهادة يوحنا ؛ وهى فى العشرين من بابه . وتذكر السيدة ؛ وهى فى الحادى والعشرين من بابه . عيد لوقا ؛ وهى فى الثانى والعشرين من بابه . عيد أبى جرج ؛ وهى فى الثالث والعشرين من بابه . ودخول السيدة الميكل ؛ وهى فى الحادى والعشرين من بابه . عيد يعقوب ويوسف ؛ وهى فى السادس والعشرين من بابه . عيد أبى مقار ؛ وهى فى السابع والعشرين من بابه . عيد مرقس ؛ وهى فى آخر يوم من بابه . عيد بطرس البطرک ؛ وهى فى أول يوم من هاتور . عيد زكريا ؛ وهى فى الرابع من هاتور . واجتماع التلاميذ ؛ وهى فى السادس من هاتور . وتكرز أبى جرج ؛ وهى فى السابع من هاتور . وعيد الأربع حيوانات ؛ وهى فى الثامن من هاتور . وتذكر الثمائة وثمانية عشر ؛ وهى فى التاسع من هاتور . ونيحة إصحاك ؛ وهى فى العاشر من هاتور . عيد ميكايل ؛ وهى فى الثانى عشر من هاتور . وشهادة أبى مينا ؛ وهى فى الخامس عشر من هاتور . عيد فيلس الرسول ؛ وهى فى التاسع عشر من هاتور . عيد أساسيس ؛ وهى فى العشرين من هاتور . عيد شمعون ؛ وهى فى الحادى والعشرين من هاتور . تذكر الشهداء ؛ وهى فى الثانى والعشرين من هاتور . عيد مرقوريوس ؛ وهى فى الرابع والعشرين من هاتور . عيد أبى مقورة ؛ وهى فى الخامس والعشرين من هاتور . عيد ادفانيوس ؛ وهى فى السادس والعشرين من هاتور . عيد يعقوب المقطع ؛ وهى فى السابع والعشرين من هاتور . عيد ياهور ؛ وهى فى الثانى من كيهك . عيد اندراس ؛ وهى فى الرابع من كيهك . عيد سيورس ؛ وهى فى الخامس من كيهك . عيد بزاره ؛ وهى فى السابع من كيهك . عيد أيامين ؛ وهى فى الثامن من كيهك . عيد مارى نقولا ؛ وهى فى العاشر من كيهك . عيد سمعان ؛ وهى فى الرابع عشر من كيهك . ونيحة يوحنا ؛ وهى فى السادس عشر من كيهك ؛ وصوم الميلاد ؛ وهى فى الثالث

والعشرين من كيهك . وقتل الاطفال ؛ وهو في الثالث من طوبه . عيد يوحنا
 الانجيلي ؛ وهو في الرابع من طوبه . وعيد توما ؛ وهو في السابع من طوبه .
 عيد الختان ؛ وهو في الثامن من طوبه . عيد ابراهيم ؛ وهو في التاسع من طوبه .
 وصوم القطناس ؛ وأوله العاشر من طوبه . وصوم العذاري ؛ وهو في الثالث عشر من
 طوبه . عيد ملسوس ؛ وهو في الرابع عشر من طوبه . عيد غاريوس ؛ وهو
 في الخامس عشر من طوبه . عيد قيلانوس ؛ وهو في السادس عشر من طوبه .
 عيد يوحنا ؛ وهو في التاسع عشر من طوبه . ونزول الانجيل ؛ وتذكارة السيدة ؛
 وهما في العشرين من طوبه . وصوم نينوى ؛ وهو في الحادي والعشرين من طوبه .
 ومقتل يحيى ؛ وهو في الرابع والعشرين من طوبه . عيد أبي بشارة ؛ وهو في الخامس
 والعشرين من طوبه . عيد الشهداء ؛ وهو في السادس والعشرين من طوبه .
 عيد طبارس الرسول ؛ وهو في السابع والعشرين من طوبه ؛ وأتم نياحة نقولا ؛
 وهو في اليوم الآخر من طوبه . عيد العذاري ؛ وعيد يهوذا ؛ وهما في الأول من
 أمشير . عيد مقاري ؛ وهو في الثاني من أمشير . ونياحة تيادرس ؛ وهو في السادس
 من أمشير . ونياحة برصوما ؛ وهو في التاسع من أمشير . عيد بيطن ؛ وشهادة
 يعقوب ؛ وهما في العاشر من أمشير . عيد أبي مبرجة ؛ وهو في الرابع عشر من أمشير .
 عيد فلانوس ؛ وهو في السادس عشر من أمشير . عيد يعقوب الرسول ؛ وهو
 في السابع عشر من أمشير . عيد بطرس الشهيد ؛ وهو في التاسع عشر من أمشير .
 ونزول السيدة من الجبل ؛ وهو في الحادي والعشرين من أمشير . وشهادة سدرس ؛
 وهو في السادس والعشرين من أمشير . ووجود رأس يوحنا ؛ وهو في اليوم الآخر من
 أمشير . عيد الجبانة ؛ وهو في الثالث من شهر برمها . عيد أرمافوس ؛ وهو
 في السابع من برمها . عيد المعمدة ؛ وهو في التاسع من برمها . وظهور

الصليب ؛ وهو فى العاشر من برمهات . عيد أبى مينا ؛ وهو فى الحادى عشر من برمهات . عيد ميلانى ؛ وهو فى الثانى عشر من برمهات . عيد إلياس الشهيد ؛ وهو فى السابع عشر من برمهات . ونياحه بولص ؛ وهى فى الثانى والعشرين من برمهات . عيد العازر ؛ وهو فى الثالث والعشرين من برمهات . عيد الشعانين ؛ وهو فى الرابع والعشرين من برمهات . عيد المرسوة ؛ وهو فى الخامس والعشرين من برمهات . وغسل الأرجل ؛ وهو فى الثامن والعشرين من برمهات . وجمعة الصلوات ؛ وهو فى التاسع والعشرين من برمهات . عيد مرقص الإنجيلي ؛ وهو فى اليوم الآخر من برمهات . عيد توما البطرک ؛ وهو فى الثانى من برمودة . عيد حزقيال النجيب ؛ وهو فى الخامس من برمودة . عيد مرقص ؛ وهو فى السابع من برمودة . والأخذ بالجنيد ؛ وهو فى الثامن من برمودة . عيد يوحنا الأسقف ؛ وهو فى الحادى عشر من برمودة . عيد جرجس ؛ وهو فى الثالث عشر من برمودة . عيد أبى متى ؛ وهو فى السادس عشر من برمودة . عيد يعقوب ؛ عيد سخرطه ؛ وهما فى التاسع عشر من برمودة . وذكراڤ الشهداء ؛ وهو فى الحادى والعشرين من برمودة . عيد ساويرس ؛ وهو فى السادس والعشرين من برمودة . عيد أبى نيطنس ؛ وهو فى السابع والعشرين من برمودة . عيد أصحاب الكهف ؛ وهو فى التاسع والعشرين من برمودة . عيد مرقص الإنجيلي ؛ وهو فى اليوم الآخر من برمودة . عيد تيادرس ؛ وهو فى الثانى من بشنس . عيد شمعون ؛ وهو فى الثالث من بشنس . عيد الحنطس ؛ وهو فى الرابع من بشنس . ونياحه يعقوب ؛ وهو فى السابع من بشنس . عيد دفرى سوه ؛ وهو فى السادس من بشنس . عيد أسامياس ؛ وهو فى السابع من بشنس . وصعود المسيح عندهم فى الثامن من بشنس . عيد دير القصير ؛ وهو فى الحادى والعشرين من بشنس . وتزول السيد

إلى مصر؛ وهو في الرابع والعشرين من بشنس . عيد سوس؛ وهو في الخامس والعشرين من بشنس : عيد توما التلميذ؛ وهو في السادس والعشرين من بشنس . عيد سمعون العجاس؛ وهو في السابع والعشرين من بشنس . عيد طيارس؛ وهو في التاسع والعشرين من بشنس . عيد الورد بالشا؛ وهو في اليوم الآخر من بشنس . عيد أبي مقار؛ وهو في الثاني من بشونه . وجود عظام لوقا؛ وهو في الثالث من بشونه . عيد توما، وعيد مامور؛ وهما في الرابع من بشونه . عيد يوحنا، وتزول صحف إبراهيم (عليه السلام)؛ وهما في التاسع من بشونه . عيد أبي مينا؛ وهو في الخامس عشر من بشونه . عيد أبي مقار، وهو في السادس عشر من بشونه . عيد السيدة؛ وهو في الحادي والعشرين من بشونه . عيد أتريب وهو في الثالث والعشرين من بشونه . عيد أبي أبيتا، وهو في ^(١) والعشرين من بشونه ؛ وتذكر تياردرس ؛ وهو في أول أيبب . ونياسة بولص؛ وهو في الثاني من أيبب والثالث منه أيضا . وعيد المعينة؛ وعيد القيصرية؛ وهما في الخامس من أيبب . وعيد أبي ستوبة؛ وهو في السابع من أيبب . وعيد اسباط؛ وهو في الثامن من أيبب . وشهادة هرون، وعيد سمعان؛ وهما في التاسع من أيبب . وعيد تادرس نظيره؛ وهو في العاشر من أيبب . وعيد أبي حوز؛ وهو في الثاني عشر من أيبب . وعيد أبي مقار؛ وهو في الرابع عشر من أيبب . وعيد اقدام السرياني؛ وهو في الخامس عشر من أيبب . وعيد يوحنا وزكريا؛ وهو في السادس عشر من أيبب . وعيد يعقوب التلميذ، وهو في السابع عشر من أيبب . وعيد بولاق، وهو في التاسع عشر من أيبب . وعيد تادرس الشهيد، وهو في العشرين من أيبب . وعيد السيدة، وعيد ميخائيل؛ وهما في الحادي

والعشرين من أيّيب . وعيد سمعان البطرك، وعيد شنوده؛ وهما في الثالث والعشرين من أيّيب . وعيد سمندو؛ وهو في الرابع والعشرين من أيّيب . وعيد مرقوريوس؛ وهو في الخامس والعشرين من أيّيب . وعيد حزقييل النبي عليه السلام؛ وهو في السابع والعشرين من أيّيب . ورفعة لإدريس عليه السلام، وعيد مريم؛ وهما في الثامن والعشرين من أيّيب . وحرم المسيد؛ وهو في اليوم الآخر من أيّيب . وعيد الخندق؛ وهو في اليوم الأول من مسرى . وعيد أبي ميناء؛ وهو في اليوم الثاني من مسرى . وعيد سمعان المعمودى؛ وهو في الثالث من مسرى . ودخول فوج السفينة؛ وهو في الثامن من مسرى . وعيد طور سيناء، وعيد السيدة، وهما في التاسع من مسرى . وعيد اللباس؛ وهو في العاشر من مسرى . وشهادة أنطونيوس، وعيد العدوية، وهو في الخامس عشر من مسرى . وعيد يعقوب الشهيد، وهو في السابع عشر من مسرى . وعيد أبي مقار؛ وهو في الثامن عشر من مسرى . وعيد البسّح؛ وهو في التاسع عشر من مسرى . وعيد أصحاب الكهف؛ وهو في العشرين من مسرى . وصوم الأربعين؛ وهو في الحادى والعشرين من مسرى . وعيد الجوزة يلمشّق؛ وهو في الثالث والعشرين من مسرى . وعيد صوفيل؛ وهو في السادس والعشرين من مسرى . وعيد إبراهيم وإسحاق؛ وهو في الثامن والعشرين من مسرى . وعيد موسى الشهيد؛ وشهادة يوحنا؛ وهو في اليوم الآخر من مسرى .

الجملة الرابعة

(في أعياد اليهود ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ماطلقت به التوراة بزعمهم ؛ وهي خمسة أعياد)

العيد الأول - رأس السنة ، يعملونه عند رأس سنتهم ويسمونه عيد رأس هيشا
 أى عيد رأس الشهر ، وهو أول يوم من تسرى يتزل عندهم مقلة عيد الأضحي
 عندنا ، ويقولون : إن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح إسماعيل ابنه فيه
 وفداه بذبح عظيم .

العيد الثاني - عيد صوماريا : ويسمونه الكبور ، وهو عندهم الصوم العظيم
 الذى يقولون : إن الله تعالى فرض عليهم صومه ، ومن لم يصمه قُتل عندهم .
 ومدة هذا الصوم خمس وعشرون ساعة يبدأ فيها قبل غروب الشمس في اليوم
 التاسع من شهر تسرى ، وتختتم بمضى ساعة بعد غروبها في اليوم العاشر ، وبما سموه
 العاشر . ويُستترط فيه بلواز الإفطار عندهم رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار
 وهى عندهم تمام الأربعين الثالثة التى صامها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن
 يقع هذا الصوم عندهم في يوم الاحد ، ولا في يوم الثلاثاء ، ولا في يوم الجمعة ، ويعزون
 أن الله يفرغ لهم فيه جميع ذنوبهم ما خلا الزنا بالمحصنة ، وظلم الرجل أخاه ، ويحمده
 ربوبية الله تعالى .

العيد الثالث - عيد المظلة : وهو سبعة أيام أولها الخامس عشر من تسرى
 وكلها أعياد عندهم ، واليوم الآخر منها يسمى عراقيا أى شجر الخلاف ، وهو أيضا
 حج لهم ، يحلسون في هذه الأيام تحت ظلال من جريد النخل وأغصان الزيتون

والخلاف، وسائر الشجر الذى لا ينشرو رقه على الأرض؛ ويرعمون أن ذلك تذكار
منهم لإظلال الله لإمام في التيه بالتمام .

العيد الرابع - عيد الفطير : ويسمونه الفصح ، ويكون في الخامس عشر من
نيسان؛ وهو سبعة أيام أيضا، يأكلون فيها الفطير، وينظفون بيوتهم فيها من خبز
الخبر لأن هذه الأيام عندهم هي الأيام التي خلص الله فيها بنى إسرائيل من يد فرعون
وأغرقه، فخرجوا إلى التيه، فجعلوا: يأكلون اللحم والخبز الفطير وهم بذلك فرحون ،
وفي أحد هذه الأيام عرق فرعون .

العيد الخامس - عيد الأسابيع : ويسمى عيد العنصرة وعيد الخطاب، ويكون
بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع؛ وأتخافهم لهذا العيد في السادس من ميون من
شهور اليهود، وهو الثالث والعشرون من بشنس من شهور القبط . يقولون : إنه
اليوم الذى خاطب الله فيه بنى إسرائيل من طور سيناء، وفي جملة هذا الخطاب العشر
كلمات: وهى وصايا تضمنت أمرا ونهيا، وضمنت التوفيق لمن حصلها حفظا ورعا،
وهو حج من مجموعهم؛ ومجوعهم ثلاثة : الأسابيع، والفطير، والمظلة؛ وهم
يعظمونه، ويأكلون فيه القطائف، ويتفتنون في عملها، ويصلونها بدلا عن المثل الذى
أنزل الله عليهم في هذا اليوم، ويسمى هذا العيد أيضا عشرينا، ومعناه الاجتماع .

الضرب الثانى

(ماأحدثه اليهود زيادة على ما زعموا أن التوراة نطقت به، وهو عيدان)

العيد الأول - الفوز : وهو عندهم عيد سرور وقبول وخلاعة يئدى فيه بعضهم إلى
بعض، وهم يقولون : إن سبب اتخافهم له أن يختصر لما أجلى من كان بيت
المقدس من اليهود إلى عراق المعجم، أسكنهم يحنى، وهى إحدى مدينتى أصفهان

ثم ذهبت أيام الكلدانيين وملكت القرس الأولى والأخيرة فلما ملك أردشير بن بابك وقسميه اليهود بالعبرانية أجشادوس، وكان له وزير يسمونه بلتهم هيمون، واليهود يومئذ يسمونه بلتهم مردوخاي، فبلغ أردشير أن له ابنة عم من أحسن أهل زمانها وأكملهم عقلا، فطلب تزويجها منه فأجابته لذلك، فخطبت عنده حطوة صار بها مردوخاي قريبا منه، فأراد هيمون إصغاره واحتقاره حسدا له، وعزم على إهلاك طائفة اليهود التي في جميع مملكة أردشير، فرتب مع ثواب الملك في جميع الأعمال أن يقتل كل أحد منهم من يعلمه من اليهود، وعين له يوما، وهو النصف من آذار، وإنما خص هذا اليوم دون سائر الأيام: لأن اليهود يزعمون أن موسى ولد فيه وتوفي فيه، وأراد بذلك المبالغة في نكايتهم ليتضاعف الحزن عليهم بهلاكهم وموت موسى فأتضح لمردوخاي ذلك من بعض بطانة هيمون، فأرسل إلى ابنة عمه يعلمها بما عزم عليه هيمون في أمر اليهود، وسألها إعلام الملك بذلك، وحضها على أعمال الحيلة في خلاص نفسها وخلاص قومها فأعانت الملك بالحال وذكرت له إنما حمله على ذلك الحسد على قربنا منك ونصيحتنا لك، فأمر بقتل هيمون وقتل أهله، وأن يكتب لليهود بالأمان والبر والإحسان في ذلك اليوم، فأتخذوه عيداً. واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام، وفي هذا العيد يصورون من الورق صورة هيمون وملشون بطنها نخالة وملعاً ويقفونها في النار حتى تحترق، فيخذلون بذلك صبياتهم.

العيد الثاني، عيد الحنكة، وهو ثمانية أيام، يُوقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجاً، وفي الليلة الثانية سراجين، وهكذا إلى أن يكون في الليلة الثامنة ثمانية سُرُج. وهم يذكرون أن سبب آتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبارة تطلب على بيت المقدس وقتك باليهود وأقص أبكارهم، فوثب عليه

أولاً كُفَّاتُهُمْ وكانوا ثمانية قَتَلَهُ أَصْغَرُهُمْ ، وطلب اليهود زيتاً لَوْقُودِ المِيعَلِ فلم يجدوا إلا يسيراً وَزَعَوْهُ عَلَى عِدَدِ مَا يُوقِدُونَهُ مِنَ السُّرُجِ عَلَى أَبْوَابِهِمْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى تَمَامِ ثَمَانِ لَيَالٍ فَاتَّخَذُوا هَذِهِ الْأَيَّامَ عِيداً وَسمَّوْهُ الحِتْكَ ؛ ومعناه التنظيف لأنهم نَقَّفُوا فِيهِ المِيعَلِ مِنْ أَقْدَارِ شَيْعَةِ الجَبَّارِ ، وبعضهم يسميه الرافى .

الجملة الخالصة .

(فِي أعياد الصابئين)

وَمَدَّارُ أعيادِهِمْ عَلَى الكَوَاكِبِ ؛ وَأعيادِهِمْ عِنْدَ نَزُولِ الكَوَاكِبِ الْخَمْسَةِ الْمُتَحَيَّةِ : وَهِيَ زُحْلٌ ، وَالْمَشْتَرَى ، وَالْمَرْيُخُ ، وَالزُّهْرَةُ ، وَطَارِدٌ فِي بُيُوتِ شَرْفِهَا ؛ وَفَذلكَ أَنَّ مِنَ الْبُرُوجِ مَا يَقُومُ لِهَذِهِ الكَوَاكِبِ مَقَامَ قِصْرِ الْعِزِّ لِلكَ ، يَشْتَهَرُ فِيهِ وَيَسْلُو وَيَشْرَفُ ؛ وَفِيهَا دَرَجَاتٌ مَعْلُومَةٌ يُنْسَبُ الشَّرَفُ إِلَيْهَا ؛ وَمِنْهَا مَا يُجَلُّ فِيهِ وَيُسَدُّ حَالُهُ ، وَيَكُونُ ذَلكَ أَيْضاً فِي دَرَجَاتٍ مَعْلُومَةٍ ، تَقَابُلُ دَرَجَاتُ الشَّرَفِ بِهِ مِنَ الْبُرْجِ الْمُقَابِلِ . وَيُسَمَّى ذَلكَ هُبُوطاً ؛ فَزُحْلُ شَرْفُهُ فِي إِحْدَى وَعِشْرِينَ دَرَجَةً مِنَ الْمِيزَانِ ، وَيَهْبِطُ فِي مِثْلِهَا مِنَ الْجَمَلِ ، وَالْمَشْتَرَى يَشْرَفُ فِي خَمْسِ عَشْرَةِ دَرَجَةٍ مِنَ السَّرْطَانِ ، وَيَهْبِطُ فِي مِثْلِهَا مِنَ الْجَدْيِ ؛ وَالْمَرْيُخُ يَشْرَفُ فِي ثَمَانِ عَشْرَةِ دَرَجَةٍ مِنَ الْجَدْيِ ، وَيَهْبِطُ فِي مِثْلِهَا مِنَ السَّرْطَانِ ؛ وَالزُّهْرَةُ تَشْرَفُ فِي تِسْعِ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً مِنَ الْحُوتِ ، وَيَهْبِطُ فِي مِثْلِهَا مِنَ السَّبْطَةِ ؛ وَطَارِدُ شَرْفُهُ فِي خَمْسِ عَشْرَةِ دَرَجَةٍ مِنَ السَّبْطَةِ ، وَيَهْبِطُ فِي مِثْلِهَا مِنَ الْحُوتِ ؛ وَكَذَلكَ الشَّمْسُ تَشْرَفُ فِي قِسْعِ عَشْرَةِ دَرَجَةٍ مِنَ الْجَمَلِ ، وَيَهْبِطُ فِي مِثْلِهَا مِنَ الْمِيزَانِ ؛ وَالْقَمَرُ يَشْرَفُ فِي ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ مِنَ السَّبْطَةِ ، وَيَهْبِطُ فِي مِثْلِهَا مِنَ الْحُوتِ . وَهَمَّ يَعْظُمُونَ الْيَوْمَ الَّذِي تَنْزِلُ الشَّمْسُ فِيهِ الْجَمَلُ ، وَيَلْبَسُونَ فِيهِ أَثْقَرُ ثِيَابِهِمْ . وَهُوَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْأعيَادِ . وَكَانَتْ مَلُوكُهُمْ تَتَّبِعِي الْهَيَاكِلَ وَتَجْعَلُ لَهَا أَعيَاداً بِحَسَبِ الكَوَاكِبِ الَّتِي نَبَّهَتْ عَلَى أَسْمَائِهَا فِيهِ .

الباب الثاني

من المقالة الأولى

(فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية : وهو الخط وتوابعه ولواحقه ؛
وفيه فصلان)

الفصل الأول

(في ذكر آلات الخط ، ومبادئه ، وصوره ، وأشكاله ، وما يفرض في سلك ذلك ؛
وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في التواء وآلاتها ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في نفس التواء ، وفيه أربع جهات)

الجهة الأولى

(في فضلها)

قد أخرج ابن أبي حاتم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «خَلَقَ اللهُ التَّوَنَ : وَهِيَ التَّوَاءُ» وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : «لَمَّا خَلَقَ اللهُ التَّوَنَ : وَهِيَ التَّوَاءُ وَخَلَقَ الْقَلَمَ ، قَالَ : اكْتُبْ ، فَقَالَ : وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ مَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» . وهذا

الخبر والأمر دالان على أن المراد بالنون في الآية هو النواة، وإن فسرهم بعضهم بشيء ذلك . إذ الدواة هي المناسبة في الذكر لذكر القلم وتسطير الكتابة في قوله تعالى : ﴿بِالنَّوْنِ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ . وبالجملة فإن البداة هي أم آلات الكتابة، وممطها الجامع لها . ولا يخفى ما يجب من الاهتمام بأمرها ، والاحتفال بشأنها ؛ فقد قال عبد الله بن المبارك : مَنْ تَخَرَّجَ مِنْ يَدِهِ بِغَيْرِ حَبْرَةٍ وَأَدَاةٍ ، فَقَدْ عَزَمَ عَلَى الصَّدَقَةِ . قال المدايني : يعنى بالأداة مثل السكين ، والمقلمة ، وأشباههما . قال محمد بن شعيب ابن ساهور : مثل الكتاب بغير دواة ، كمثل مَنْ يَسِيرُ إِلَى الْمَجِيءِ بِغَيْرِ سِلَاحٍ .

الجملة الثانية

(في أصلها في اللغة)

قال أبو التمام بن عبد العزيز : تقول العرب : دَوَاةٌ ودَوَاتٌ في أدنى العدد ، وفي الكثير دَوَىٌّ ودَوَىٌّ (يضم الدال وكسرها) ويقال أيضا دَوَاءٌ ودَوَاءٌ (يضم الدال وكسرها) ودَوَايَاً مثل حَوَايَا ، وأدَوَيْتُ دَوَاةً أى اتخذت دواة ، ودجِلْتُ دَوَاءً (يفتح الدال وتشديد الواو) إذا كان يبيعها ، كقولك عَطَّارٌ وَبَرَّازٌ .

الجملة الثالثة

(فيما ينبئ أن تتخذ منه ، وما يحمل به)

أما ما تتخذ منه فينبئ أن تتخذ من أجود المعينات وأرضها ثمنا كالآيونس ، والسَّامِ ، والصَّنْدَلِ ، وهذا اعتقاد منه على ما كان يعتاده أهل زمانه ، ويتمناه أهل عصره .

قلت : وقد جلب على الكُتُبِ في زماننا من أهل الإنشاء وكتب الأموال اتخذ الدوى من الثعالب الأصفر ، والفولاذ ، وتناولوا في أعمانها بالقوا في تحسينها .

والنحاس أكثر استعمالاً ، والفولاذ أقل لمرته وقساته ، واختصاصه بأعلى درجات الراسة ، كالوزارة وماضاهها .

وأما ديوئ الحشب فقد رُفِضَتْ وتركت إلا الآيُّوس والصنبل الأحمر ، فإنه يتماناه في زماننا قضاء الحكم وموقعهم وبعض شهود الدواوين .

وأما التحلية ، قال الحسن بن وهب : سبيل النواة أن يكون عليها من الحلية أخف ما يكون ويمكن أن تُحْمَلُ به الديوئ ، في وثاقه ولطيف : ليأمن من أن تنكسر أو تنقص من مجلسه ، قال : وحق الحلية أن تكون ساذجةً بغير حفر ولا ثنيات فيها : ليأمن من مسارة القذى والدنس إليها ، ولا يكون عليها هُش ولا صُورة . وحق هذه الحلية مع ما ذكره ابن وهب أن تكون من النحاس ونحوه دون الفضة والذهب . على أن بعض الكُتَّاب في زماننا قد أعاد التحلية بالفضة ، ولا ينبغي أن يحكم ذلك حكم الفضة في الإثناء فتحرم مع الكبر والزينة ، وتكره مع الصغر والزينة والكبر والحاجة ، وتباح مع الصغر والحاجة من كثير ونحوه ، كما قرره أصحابنا الشافعية رحمهم الله ، ثم يحرم التكنيت بالذهب والفضة ، وكذلك التوي به إذا كان يحصل منه بالعرض على الناس شيء ، والله أعلم .

الجملة الرابعة

(في قدرها وصفها)

قال الحسن بن وهب : سبيل النواة أن تكون متوسطة في قدرها : لا بالتصغير فتقصُر أعلامها وتُخْجِع ، ولا بالكثيفة فيثقل حَمَلُها وتُجْجِف . فلا بد لصاحبها أن يحملها ويضعها بين يدي مَلِكِهِ أو أميره في أوقات مخصوصة ، ولا يحسن أن يتولى ذلك غيره . قال الفضل : ويكون طولها بمقدار عظم التراع أو فَوْقَ ذلك قليلاً

تكون مناسبة لمقدار القلم . قلت : وقد اختلفت مقاصد أهل الزمان في هيئة الدواة : من التدوير والتربيع . فأما كُتَّاب الإنشاء فإنهم يتخذونها مستطيلة مدورة الرأسين ، لطيفة القد ، طلبا للحفّة ، ولأنهم إنما يتعاملون في كتابتهم الدّرج ، وهو غير لائق بالدواة في الجملة . على أن الصغير من الدّرج لا يأبى جعله في الدواة المدورة . وأما كُتَّاب الأموال ، فإنهم يتخذونها مستطيلة مربعة الزوايا ، ليجعلوا في باطن غطاها ما استخفوه مما يحتاجون إليه من ورق الحساب الديواني المناسب لهذه الدواة في القطع . وعلى هذا الاتمّودج يتخذ قضاة الحكم وموقعوهم دويهم ، إلا أنها في الغالب تكون من الخشب كما تقدم .

وأعلم أنه ينبغي للكاتب أن يعتد في تحسين الدواة ونحوها وصونها . وفيه الدلائل حيث يقول :

جود دَوَاتِكَ ، واجتهد في صَوْنِهَا * إن الدوى خزائن الآداب

وأهدى أبو الطيّب عبد الرحمن بن أحمد بن زيد بن الفرج الكاتب إلى صديق له دواة ابن سوس محلاة وكتب معها .

لم أَرَسوداءَ قبلها ملكَتْ * نواظر الخلق والقلوب معاً

لا الطولُ أزرى بها ولا قصرٌ * لكن أتت للوصول مجتمعا

فوقك جُتج من الظلام بها * وبارق بإشراقها لَمعا !

خُلعتا لِدُرٍّ بها تُنظّمه * يروق في الحسن كل من سَمعا

أما الحبرة المبرّدة عن الدواة فقد اختلف الناس فيها : فمنهم من ربحها ومالوا إلى اتّخاذها نيفة محلها ، وقالوا : بها يكتب القرآن والحديث والعلم . وكرها بعضهم واستحبوها من حيث إنها آلة النسخ الذي هو من أشد الحرف وأتمها ، وأقلها مكسبا .

ويروى أن شعبة رأى في يد رجل غبرة، فقال : آرم بها فإنها مشؤمة لا يسقى
مدها أهل ولا ولد، ولا أم ولا أب .

الطرف الثاني

(في الآلات التي تشتمل عليها الدواة ، وهي سبع عشرة آلة ،

أول كل آلة منها ميم)

الآلة الأولى - المِزْبَرُ (بكسر الميم) ، وهو القلم أخذناه من قولهم زَبَرَتِ الْكُتَابَ
إِذَا احْتَسَتْ كِتَابَتَهُ ، ومنه سميت الْكُتُبُ زُبْرًا كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَبِيُّ ذُبُرٍ
الْأَوَّلِينَ ﴾ وفي حديث أبي بكر أنه دعا في مرضه بدواة وَمِزْبَرٍ أى قلم .
وفيه جملتان .

البجلة الأولى

(في فضله)

عن الوليد بن عباد بن الصامت رضى الله عنه قال : دعاني أبي حين حضره
الموت فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ
الْقَلَمُ" فقال : أَكْتُبُ ، قال : يَارَبِّ وَمَا أَكْتُبُ ؟ قال : أَكْتُبُ الْقَدَرَ وَمَا هُوَ
كَائِنْ إِلَى الْآخِرَةِ رواه أحمد وأبو داود والترمذي ، وقال : حسن غريب ، وأبو
أبي حاتم واللفظ له . وعن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ
الْقَلَمَ وَالْحَوْتَ" فقال له أَكْتُبُ ، فقال : يَارَبِّ وَمَا أَكْتُبُ ؟ قال : أَكْتُبُ كُلَّ
شَيْءٍ كَائِنْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "ثم قرأ "ن وَالْقَلَمُ" رواه الطبراني ووقفه ابن جرير
على ابن عباس . وفي رواية قال ابن عباس : "أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ" ، قال :
أَكْتُبُ ، قال : وَمَا أَكْتُبُ ؟ قال : أَكْتُبُ الْقَدَرَ ، بغرئ بما يكون من ذلك .

اليوم إلى يوم قيام الساعة ، ثم خلق التون ورفع بحار الماء ، ففتت منه السماء
وُسِطت الأرض على ظهر التون ، فاضطرب التون ، فسادت الأرض ، فأُثِنَتْ
بالجبال ، فإنها لتفخر على الأرض : لأنها أثبتت عليها . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .
وروى محمد بن عمر المدائني بسنده إلى مجاهد " إن أول ما خلق الله البراع ،
ثم خلق من البراع القلم ، فقال له : اكتب ، قال : ما أكتب ؟ قال : ما هو
كائن ، قال : فزبر القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة " - وأخرج بسنده إلى ابن
عباس ، قال : " أول ما خلق الله البراع : وهو القصب المثقب ، فقال : اكتب
قضائي في خلقي إلى يوم القيامة " . ويروى أنه لما خلقه الله تعالى نظر إليه فانشق
بنصفين ، ثم قال : أجب قال : يارب بما أجرى ؟ قال : بما هو كائن إلى يوم
القيامة ، فجرى على اللوح المحفوظ بذلك ، وكان منه ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ . ويروى
أن خلقه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة .

وأعلم أن القلم أشرف آلات الكتابة وأعلاها رتبة ، إذ هو المباشر للكتابة دون
غيره ، وغيره من آلات الكتابة كالأعوان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ نَبِّ وَأَقْلَمُ وَمَا
يَسْطُرُونَ ﴾ فأقسم به ، وذلك في ظاية الشرف . والله أبو الفتح البستي حيث يقول :
لِذَا أَقْسَمَ الْأَهْلَاءُ يَوْمًا بِنِسْمِهِمْ * وَمَعْتَوْهُمَا يَكْسِبُ الْمَجْدَ وَالْكَرَّمَ
كَفَى قَلَمُ الْكُتُبِ عِزًّا وَرِفْعَةً * مَدَى النَّهْرِ أَنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِالْقَلَمِ
وقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ فأضاف التعليم بالقلم إلى
نفسه . قال ابن الهيثم : من جلالة القلم ، أن الله عز وجل لم يكتب كتابا إلا به ،
لذلك أقسم به . قال المدائني : وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من
قَلَمَ قَلَمًا يكتب به علما أعطاه الله شجرة في الجنة ، خير من الدنيا وما فيها " . وقد قيل
الأقلام مطايا الطعن ، وُرسل الكرم . وقال عبد الحميد : القلم شجرة تمرها الإلفاظ ،

والفكر بحر لؤلؤه الحكمة، وفيه رى المقول الكامنة . وقال جبل بن يزيد : القلم لسان البصريناجه بما ستر عن الإسماع . وقال ابن المقفع : القلم يريد العلم بحث على البحر، ويبحث عن خفى النظر . وقال أحمد بن يوسف : ماعبرات الفوائد في خندوحن بأحسن من عبرات الأقلام . وقيل : القلم الطلمس الأكبر . وقيل : البيان آستان : بيان لسان، وبيان بآن؛ ومن فضل بيان البيان أن ما تنبته الأقلام باق على الأبد، وما ينسسه اللسان تدرسه الأيام . ويقال : يقول الرجال تحت أسنة أقلامها ، بنوه الأقلام بصوب غيث الحكمة . وقال جعفر بن يحيى : لم أربابا يحسن تبسما من القلم .

قال ابن المعتز : القلم مجهز بجيوش الكلام ، تخدمه الإرادة ، ولا يمل من الاستزاده ، كأنه يقبل بساط سلطان؛ أو يفتح نور بستان .

ومن إنشاء الوزير ضياء الدين بن الأثير الجزري ، من جواب كتبه للعهد الأصفهاني : وكيف لا يكون ذلك ، وقلتها هو اليراع الذي فقت الفضاحة في روعه ، وكنت الشجاعة بين ضلوعه ! فإذا قال أراك كيف تُنسق الفرائد في الأجياد .

ومن كلام أبي حفص بن برد الأندلسي : ما أعجب شأن القلم ! يشرب طامة ، ويحفظ نورا؛ قد يكون قلم الكاتب ، أمضى من شاة المحارب؛ القلم سهم ينفذ القاتل ، وشقرة تطيح بها المفاصل . ومن كلام العميد : عمر بن عثمان الكاتب : قلم يُلقي الآجال والأرزاق ، وينتق السهم والدرياق؛ قلم تنق عن الإدراك حركاته ، وتحل بالنفائس فضكاته ؛ يسرع ولا أتملأ السيل إلى قراره ، وأهدأ الضوء من شراره ، معطوفة النابات على المبادئ ، مصروفة الأعجاز إلى الهوادي ؛ وإذا صال

أراك كيف أختلف الرماح بين الآساد . وله خصائص أخرى يبدعها إبداعاً ، فإذا لم يأت بها غيره تطبعاً أتى بها هو طبعاً ، فطوراً يرى إماماً يلقي درساً ، وطوراً يرى ماشطة تجلو عرساً ؛ وطوراً يرى ورقاً تصدح في الأوراق ، وطوراً يرى جواداً محققاً يخلوق السباق ؛ وطوراً أفعواناً مطرقاً ، والعجب أنه لا يزهو إلا عند الإطراق ! ولطالما نقت سحرًا ، وجلب عطرًا ، وأدار في القُرطاسِ نحرًا ، وتصرف في صنوف الغناء فكان في الفتح عُمَرُ ، وفي المدي عَمَّارُ ، وفي الكيد عَمْرُ ، فلا تحطى به دولة إلا نفرت على الدول ، وأسفنت عن التحيل والتحول .

وقال الإسكندر : لولا القلم ما قامت الدنيا ، ولا استقامت المملكة . وكل شيء تحت العقل واللسان لأنهما الحاكمان على كل شيء ، والقلم يريهما صورتين ، ويوجد كُهما شكلين .

وقال بعض حكماء اليونان : أمور الدنيا تحت شيتين : السيف والقلم ، والسيف تحت القلم . وقال آخر : فاقَتْ صنعة القلم عند سائر الأمم ، جمع الحكم في صغون الكتب . وقال العنابي : يبكاء القلم تبسم الكتب . وقال البُحرِيُّ : الأقلام مطايا الفطن . وقال أبو دُلَف السجلي : القلم صائغ الكلام ، يفرغ ما يجمعه الفكر ، ويصوغ ما يسبكه اللب . وقال سهل بن هارون : القلم أنف الضمير ، إذا رُغِف أعلن أسرارها ، وأبان آفاره . وقال ثمامة : ما أثرته الأقلام ، لم تطمع في درسه الأيام . وقال هشام بن الحكم : أحسن الصنيع صنع القلم والخط الذي هو جنى العقول . وقال علي بن منصور : بنور القلم نُضيء الحكمة . وقال الجاحظ : من عرف النعمة في بيان اللسان ، كان بفضل النعمة في بيان القلم أعرف . وقال غيره : بالقلم تُزِفُ بناتُ العقول إلى خُدود الكُتُب . وقال المأمون : لله دَر القلم كيف يحوك وشي المملكة . وقال بعض الأعراب : القلم ينهض بما يطلع به اللسان ، ويبلغ ما لا

يلغنه البيان . وقال بعضهم : القلم يجعل الكتب السنا ناطقة ، وأعيننا ملاحظة ؛ وربما ضمنها من ودائع القلوب ما لا يتوح به الإخوان عند المشاهدة . وقال أوميرس الحكيم : انخط شيء أظهره العقل بواسطة من القلم ، فلما قابل النفس عيشته بالعنصر . وقال مرطس الحكيم : انخط بالقلم ينمى الحكمة . وقال جالينوس : القلم الطلمس الأكبر . وقال بقراط : القلم على إيقاع الوتر ، والمهنة المنطقية مقدمة على المهنة الطبيعية . وقال بليناس : القلم طيب المنطق . وقال أرسطاطاليس : القلم العلة الفاعلة ، والمداد العلة الميولانية ، وانخط العلة الصورية ، والبلاغة العلة التامة . وقد أكثر الشعراء القول في شرف القلم وفضله .

فمن ذلك قول أبي تمام الطائي :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت * له الرقاب وذلت خوقه الأمم
فألموت والموت لا شيء يفاله * مازال يتبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذبذبة * أن السيوف لها مدأره فت ختم
وقوله :

لك القلم الأعلى الذي يسبأه * تصاب من الأمر الكلي والمفاصل
لصاب الأفاعي القاتلات لمأه * وأرى الجني أشتارته أيد عوامل
له ريقة طلل ، ولصكن وقها * بآثاره في الشرق والغرب وأبل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب * وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما أتعلى الخمس اللطاف وأفرغت * عليه شماب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف الفنا ، وتقرضت * لتجواه تمويص الميام الجحافل
إذا استنفر الذهن الجلي وأقبلت * أعاليه في القرباس وهي أسافل

وقد رَفَدَتْهُ الْحَنِينَانِ وَسَدَدَتْ * ثَلَاثَ نَوَاجِيهِ الثَّلَاثُ الْأَتَامِلُ
رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنُهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ * ضَبًّا، وَتَمِيمًا خُطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلُ

وقول أبي هلال العسكري :

أَنْظُرْ إِلَى قَلَمٍ يُنَكِّسُ رَأْسَهُ * لِيَضُمَّ بَيْنَ مُوَصِّلٍ وَمُقَصِّلٍ
تَنْظُرُ إِلَى مِخْلَابٍ لَيْتَ ضَبِغٍ * وَغِرَارٍ مَسْنُونِ الْمَضَارِبِ مِقَصِّلٍ
يَسْئُلُونَاظِرَهُ بِلَوْنٍ أَصْفَرٍ * وَمَدَامِيعِ سُنُودٍ وَجْهِهِ مُنَحَلٍ
فَالدَّرَجُ أَبْيَضُ مِثْلُ خَدٍّ وَاضِعٍ * يَتَنَبَّهُ أَسْوَدٌ مِثْلُ طَرَفِ الْبَحْلِ
قَسَمَ الْعَطَايَا وَالْمَنَآيَا فِي الْوَرَى * فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ فَاحْذَرِي وَأَمْلِي
طَعْمَانِ شَوْبُ حَلَاوَةٍ بِمَرَارَةٍ * كَالْتَهْرِ يَحِلِّطُ شَهْدُهُ بِالْحَنْظَلِ
فَإِذَا تَصَرَّفَ فِي يَدَيْكَ عِنَانُهُ * أَلْحَقْتَ فِيهِ مَوْثِقًا بِمَوْثَلِ
وَمُنْثَلًا بِمَعَزَزٍ، وَلَرَبَّمَا * أَلْحَقْتَ فِيهِ مَعَزَا بِمَنْثَلِ

وقوله :

لَكَ الْقَلَمُ الْجَارِي بِبُؤْسٍ وَأَنْعَمٍ * فَهِيَ بَوَادٍ تَرْجِيهِ وَعِصَاؤُهُ
إِذَا مَلَأَ الْقِرْمَاسُ سُودَ سُطُورِهِ * فَتَلَكُ أَسْوَدٌ تَتَّقِي وَأَسَاوُدُ
وَتَلَكُ جِنَانٌ يُجَنِّئُ ثَمَرَاتُهَا * وَلِقَاكَ مِنْ أَنْفَاسِهِنَّ بَوَارِدُ
وَهُنَّ بُرُودٌ مَالِهٌ مَسَاجِيحٌ * وَهُنَّ عَقُودٌ مَالِهٌ مَعَاقِدُ
وَهُنَّ حَيَاةٌ لِلْوَلِيِّ رِضْيَةٌ * وَهُنَّ حُتُوفٌ لِلْعَدُوِّ رَوَاصِدُ

الجملة الثانية

(في اشتقاقه)

وقد اختلف في ذلك ، فقليل : سمي قَلَمًا لاستقامته ، كما سميت القِداح أقلامًا .
 في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ أَقْلَامُهُمْ أَنَسَمُ يَكْفُلُ مَرِيَمَ ﴾ قال بعض المفسرين :
 تشاحوا في كفالها فضرروا عليها بالقِداح ، والقِداح مما يضرب بها المثل في الاستقامة ؛
 وقيل : هو مأخوذ من القَلَم : وهو شجر رخو فلما ضارعه القلم في الضعف سمي
 قلمًا ؛ وقيل : سمي قلمًا لقلم رأسه ، فقد قيل إنه لا يسمى قلمًا حتى يُرى ،
 أما قبل ذلك ، فهو قَصَبَةٌ . كما لا يسمى الرمح رُمحًا إلا إذا كان عليه سِنَانٌ وإلا فهو
 قَنَازَةٌ . ومنه قَلَامَةُ الظفر ؛ وإلى ذلك يشير أبو الطَّيِّب الأزدى بقوله :

قَلَمٌ قَلَمٌ أَظْفَارَ الْعِيْدَا • وهو كالإصبع مقصووس الظفر
 أشبه الحَيَّةَ حَتَّى إِنَّهُ • كُلَّمَا عَمَّرَ فِي الْإِيْدَى قَصُرَ

وقيل لأعرابي : ما القلم ؟ ففكر ساعة وقلب يده ؛ ثم قال : لا أدرى ، فقليل
 له : توهمه . قال : هو عود قَلَمٌ من جوانبه كتقلم الظفر ، فسمى قلمًا .

الجملة الثالثة

(في صفته)

قال إبراهيم بن العباس لنظام بين يديه يعلمه الخط : ليكن قلمك صُلْبًا ، بين
 الثقة والنَّظَر ، ولا تَبْرَه عند عُقْدَةٍ فَإِنَّ فِيهِ تَعْقِيدَ الْأُمُور ، ولا تَكُتِبْ بقلم ملئوى ،
 ولا ذى شِقٍّ غير مستوى ، وإن أعوزك البحرى والفارسي ، واضطرت إلى الأقلام
 النبطية فاحترمنها ما يميل إلى السُّمُورَة .

وقال إبراهيم بن محمد الشيباني : يذنبى للكتاب أن يتغير من أنايب القصب أقله عَقْدًا ، وأكثفه لحما ، وأصلبه قِمْراً ، وأعدله آستواء . وقال العتابي : سألني الأصمعيُّ يوماً بدار الرشيد : أرى الأنايب للكتابة أصلح وعليها أصبر ؟ قلت : ما تشف بالمجير مأوه ، وسره من تلوحيه غشاؤه ؛ من التبرية القشور ، البرية الظهور ، القضية الكُشور . وكتب علي بن الأزهر إلى صديق له يستدعي منه أقلاماً :

أما بعدُ فإننا على طول الممارسة لهذه الكتابة ، التي غلبت على الأسم ، ولزمت لزوم الوسم ، خلَّت محل الأنساب ، وجرت مجرى الألقاب ، وجدنا الأقلام الصخرية اجري في الكواغد ، وأمرت في الجلود ؛ كما أن البحرية منها أسلُس في الفراطيس ، وألين في الماطف ، وأشدَّ تُصرف الخط فيها ؛ ونحن في بلد قليل القصب رديئه ، وقد أحبت أن نتقدم في اختيار أقلام صخرية ، ونتوق في اقتنائها قبلك ، وتطلبها من مظائرها ومنابتها : من شطوط الأنهار ، وأرجاء الكروم ؛ وأن نتمين باختيارك منها الشديدة الصلبة ، النقية الجلود ، القليلة الشحوم ، الكثيرة اللوم ، الضيقة الأجواف ، الرزينة المحمل : فإنها أبقى على الكتابة ، وأبعد من الحفاء . وأن تخصص بانتفاك الرقاق القُضبان ، المقومات المتون ، المُلس المعاهد ، الصافية القشور ، الطويلة الأنايب ، البعيدة ما بين الكعوب ، الكريمة الجواهر ، المعتدلة القوام ، المستحكة يُسًا ، وهي قائمة على أصولها لم تُجَل عن إبان ينمها ، ولم تُؤمر إلى الأوقات المخوفة عليها من خصر الشتاء ، وعفن الأنداء . فإذا استجمعت عندهك أمرت بقطعها ذراعاً [ذراعاً ^(١) قطعاً رقيقاً ، ثم عيأت منها حُرماً فيما يصونها من الأهمية ^(٢)] وتكتب معه بمتنها وأصنافها من غير تأخير ولا توان .

(١) في القيد الفريد ثبات وهو جمناه . قال ذو الرمة .

كأن عليها تحق فوق تتوقت * به حضريات الأكف الحواك

(٢) في القيد الفريد تيسم . (٣) الزيادة عن القيد الفريد . (٤) في السقد . ووجهها مع من يرضى الأمانة في حاسنها وسففلها ما يصلحها وكتب الخ .

وأهدى ابن الحرون إلى رجل من إخوانه الكتاب أقلاما، وكتب إليه :
 إنه لما كانت الكتابة (أبقاك الله) أعظم الأمور، وقوام الخلافة، وعمود المملكة،
 أتحفك من آلتها بما يحف بحمله، وتثقل قيمته، ويعظم فبسه، ويحل خطرته؛
 وهي أقلام من القصب النابت في الصخر، الذي تشف بحر المغير في قشره ماءؤه؛
 وسره من تلويحه غشاؤه؛ وهي كاللائح المكنونة في الصدف، والأوار المحجوبة
 في السلف؛ يثريه القشور، درية الظهور، فضية الكسور؛ قد كستها الطبيعة
 جوهر كالوثنى المحبر، وروقا كالسراج المنير.

ومن كتاب لأبي الخطاب الصابي، يصف فيه أقلاما أهداها في جملة اصناف :
 وأضفت إليها أقلاما سليمة من المعايير، مبرأة من المثالب، جمّة المحاسن، بعيدة
 عن المضامين؛ لم يربها طول ولا قصر، ولا ينقصها ضعف خور؛ ولا يسيئها لين
 ولا رخاوة؛ ولم يعينها كرازة ولا قساوة؛ وهي آخذة بالفضائل من جميع جهاتها،
 مستوفية للممادح بسائر صفاتها؛ صلبة المعاجم، لدنة المقاطع، موفية القدود والألوان،
 محمودة الخبر والعيان؛ وقد آستوى في الملاسة خارجها وداخلها، وتناسب
 في السلاسة عاليها وسافلها؛ نبتت بين الشمس والظل، واختلف عليها الحر والقر؛
 فلقحها وقتان الحوارج، ولقحها سماء شهر ناجر؛ ووقتها الشفان بصرده، وقذفها
 النمام بده، وصابتها الأنواء بصبيها، وأستلّت عليها السحاب بشايبها؛ فاستمرت
 مراتها على إحكام، وأستحصد سمحها بالإبرام؛ جاءت شتى الشيات، متغايرة
 الهيئات، متباينة الحال والبذان؛ تحطف بقاعد ديارها، وتالتف بكرم نجارها.

فمن أنابيب قنأ ناسبت رملح الخط في أجناسها، وشاكلت الذهب في ألوانها،

(١) ليله وافية القدود - أي تامة كاملة.

(٢) ليله سحلبا وحر.

وضاهت الحرير في لَمَعانها ؛ مضابطة الحفاء ؛ نَمَرَة القُوَى ؛ لا يَسِيْطُهَا القَطْ ،
ولا يَسْعَبُ بِهَا الخَطْ .

ومن مَضْرِبَة بِيض كَانَهَا قَبَاطِيٌّ مَضْرُتَاءَ ، وَغَرَقِيٌّ الْبِيضُ صَفَاءَ ؛ غَدَاها الصَّعِيدُ
من ثَرَاهِ بَلَّةَ ، وَسَقَاها النِّيلُ من بَيْمَرِهِ وَعَدْبِهِ ؛ نَفَاعَتُ مَلْتَمَةِ الْأَجْزَاءِ ، سَلِيْمَةُ
الْاِكْتِوَاءِ ؛ تَسْتَقِيْمُ شَقْوُفُهَا فِي أَطْوَالِهَا ، وَلَا تَسْكَبُ عَنْ يَمِينِهَا وَلَا شِمَالِهَا ، مُقَرَّنٌ بِهَا
صَفْرَاءُ كَانَهَا مَعَهَا عَقِيَانٌ قَرْنٌ بِلُجَيْنٍ ، أَوْ وَرْقٌ خُطٌّ بِعَيْنٍ ؛ تَحْتَالُ فِي صُفْرِ مَلَاخِضِهَا ،
وَتُخَمِسُ فِي مُدْهَبِ مَطَارِفِهَا ؛ بِلَوْنٍ يَغِيَابُ الشَّمْسُ ، وَصَبْغٍ ثِيَابِ الْوَرْدِ .

ومن مَقْشُورَةٌ تُرَوِّقُ الْعَيْنَ ، وَتُوَفِّقُ النَفْسَ ؛ وَيَهْدِيْ حَسَنُهَا الْأَرْجِيَّةَ إِلَى الْقُلُوبِ .
وَيَحِلُّ الْعَرْفَ لَهَا حَيَوَةُ الْحَلِيمِ اللَّيِّبِ ؛ كَانَهَا اخْتِلَافُ الزَّهْرِ اللَّامِعِ ، وَأَصْنَافُ
الْثَمَرِ الْيَابِعِ .

ومن بَحْرِيَّةٌ مَوْشِيَّةٌ اللَّيْطُ ، رَاقِمَةُ التَّخْطِيطِ ؛ كَانَتْ دَاخِلُهَا قَطْرَةٌ دَمٍ ، أَوْ حَاشِيَةٌ
رَدَاءٍ مُعَلَّمٌ ؛ وَكَانَتْ خَارِجُهَا أَرْقَمٌ ، أَوْ مَتْنٌ وَادٍ مُقَمَّمٌ ؛ فَشَرَتْ أَلْوَانًا تُزَيِّرُ بَوْرِدَ الْخُلُودِ ،
وَأَبَدَتْ قَامَاتٍ تَهْضَحُ تَأَوَّدَ الْقُلُودِ .

ومن كَلَامُ آيَةِ الزِّيَادِ : خَيْرُ الْأَقْلَامِ مَا أَسْتَحْكَمَ نَفْضُجُهُ وَخَفَ بَزْرُهُ ؛ قَدْ
تَسَاعَدَتْ طِلْعَةُ السَّعُودِ فِي فَلَكَ الْبُرُوجِ حَوْلًا كَامِلًا ، تَوَلَّفَهُ بِخْتَلِيفِ أَرْكَانِهَا وَطِبَاعِهَا ،
وَمَتَابِينَ أُنُوتِهَا وَأَنْحَاثِهَا ؛ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشَدَّهُ وَأَسْتَوَى ، وَشَقَّتْ بِوَاظِلِهِ ، وَرَقَّتْ
شِمَالُهُ ؛ وَأَبْثَمَ مِنْ غَشَاهِهِ ، وَتَأَدَّى مِنْ لِحَاثِهِ ؛ وَتَعَزَّى عَنْ ثُوبِ الْمَيْسِفِ ،
بِاتْقِضَاءِ الْحَرِيفِ ، وَكَشَفَ عَنْ لَوْنِ الْبَيْضِ الْمَكْنُونِ ، وَالصَّدْفِ الْخِزُونِ ؛
فَقُطِّعَ وَلَمْ يَبْجَلْ عَنْ تِمَامِ مَصْلَحَتِهِ ، وَلَمْ يُؤَخَّرْ إِلَى الْأَوَاقَاتِ الْخَوْفَةِ طَاهَأُهَا عَلَيْهِ مِنْ
خَصْرِ الشَّتَاءِ ، وَعَفَنَ الْأَثْدَاءَ ؛ بِلِجَاءِ مَسْتَوَى الْأَنَابِيْبِ مَعْتَلِمًا ، مُتَقَفِّ الْكُعُوبِ
مَقُومَهَا .

وقد حرر الوزير أبو علي بن مقلّة رحمه الله مَنَاط الحاجة من هذه الأوصاف،
وأختصر على الضروري منها في ألفاظ قلائل فقال :
خير الأقلام ما استحکم نَفْخُهُ في جِرمِهِ، وَشَفَّ مَآؤُهُ في قِشرِهِ، وَقُطِعَ بعد إلقاء
زَرِهِ، وبعد أن أصفرَ لَمَآؤُهُ ورَقَّ شَجَرُهُ، وصلبَ شَجَمُهُ، وَثَقُلَ حِجْمُهُ .

الجملة الرابعة

(في مساحة الأقلام في طولها وغِلظها)

قال ابن مقلّة : خير الأقلام ما كان طولُهُ من ستّة عشر اصبعاً إلى اثني عشر،
وأمثله ما بين غِلْظِ السَّبَّابة إلى الخِنِصَر . وهذا وصف جامع لسائر أنواع الأقلام
على اختلافها .
وقال في موضع آخر : أحسنُ قُودِ القلم أن لا يُجَاوِزَ به الشَّبرُ بأكثر من حِلْقَتِهِ
ويشده قول الشاعر :

قَيَّ لَوْ حَوَى الدُّنْيَا لأَصْبَحَ عَارِيًّا * من المال، معتاضاً ثياباً من الشُّكْرِ
لَهُ تَرَجَمَانُ أَنْعَرُسُ اللَّفْظِ صَامِتٌ * عَلَى قَابِ شَعِيرٍ بَلْ يَزِيدُ عَلَى الشَّيْرِ

وقال الشيخ عماد الدين الشيرازي : أحَدُ الأقلام ما تَوَسَّطَتْ حالته في الطول
والقِصَر، وَالنَّظْفَ والدَقَّة، فَإِنَّ الدَّقِيقَ الضَّئِيلَ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الْأَتَامِلُ فَيَقِي مِثْلًا إِلَى
مَا بَيْنَ الثَّلَثِ، وَالْقَلِيقَ الْمَفْرُطَ لَا تَحْمِلُهُ الْأَتَامِلُ .

وقال في الحِلْقَةِ : إِنْ كَانَتْ الصَّحِيفَةُ لَيِّنَةً يَبْنِي أَنْ يَكُونَ الْقَلَمُ لَيِّنًا الْأَثْبُوبَ، وَفِي
لِجْمَةِ فَضْلٍ، وَفِي قِشْرِهِ صَلَابَةٍ؛ وَإِنْ كَانَتْ صُلْبَةً، كَانَتْ يَابِسَ الْأَثْبُوبِ صُلْبَةً،
نَاقِصَ الشَّعْمِ؛ لِأَنَّ حَاجَتَهُ إِلَى كَثْرَةِ الْمَدَادِ فِي الصَّحِيفَةِ الرَّخْوَةِ أَكْثَرُ مِنْ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ
فِي الصَّحِيفَةِ الصُّلْبَةِ . فَمَطْوِبَتُهُ وَلِجْمَتُهُ يَحْفَظَانِ عَلَيْهِ غَزَاوَةَ الْإِسْتِمْدَادِ ؛ وَيَكْفِي

في الصحيفة الصلبة ما وصل إليها في القلم الصلب الخالى من المتداد ، والله جل ذكره أعلم .

الجملة الخامسة

(في برى القلم ؛ وفيه خمسة أقطار)

النظر الأول

(في اشتقاقه وأصل معناه)

يقال برى القلم أبريه برىً وبراية غير مهموز ، وهو قلم مبرى ، وأنا بارٍ للقلم بغير همز أيضاً . قال الشاعر :

يا باري القوس برىً ليس يُحْكَمُ * لا تُفِيدُ القوس ، أعطِ القوسَ باريها

ويقال أيضاً بروث القلم والودَ برواً بالواو ، وإليه أفصح . ويقال لما سقط منه حالة البرى برأيه (بضم الموحدة في أوله) على وزن نُزَالَةٍ وَحَالَةٍ ، والفعالة أسم لكل فضلة فضل من الشيء ، وهول في الأمر : أبرقلمك .

النظر الثاني

(في الحث على معرفة البراية)

قال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب إلى خلال ؛ منها جودة برى القلم ، وإطالة جلفته ، وتحريف بقطته ، وحسن التآني لأمتطاء الأنامل ، وإرسال المنة بعد إشباع الحروف ، والتحرز عند فراغها من الكشوف ، وترك البسكل على الخلط والإعجام على التصحيف .

ومن كلام المقر الملائى ابن فضل الله ، طيب الله مهجه ! : من لم يحسن الاستمداد ، وبرى القلم ، والقطط وإمسالك الطومار ، وقسمة حركة اليد حال الكتابة ، فليس هو من الكتابة في شيء .

ويحكى أَنَّ الضَّحَّاكَ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرَى قَلَمًا، تَوَارَى بِحَيْث لَا يَرَاهُ أَحَدٌ،
ويقول : انْطِخْ كُلُّهُ الْقَلَمُ . وَكَانَ الْأَنْصَارِيُّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرَى فِصْلَ ذَلِكَ، فَإِذَا أَرَادَ
أَنْ يَقُومَ مِنَ الدِّيْوَانِ قَطَعَ رُيُوسَ الْأَقْلَامِ حَتَّى لَا يَرَاهَا أَحَدٌ .

وقال إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ : لَأَحَقُّ لِعَمْرِ مِمَّا يَصْنُوفُ الْبَرَايَةَ . وَرَأَى إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْحُبَيْسِ
رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَى جَارِيَةٍ قَلَمَ الثَّلَاثِ، فَقَالَ : أَعْلَمْتُهَا الْبَرَايَةَ؟ قَالَ : لَا، قَالَ : كَيْفَ
تُحْسِنُ أَنْ تَكْتُبَ بِمَا لَا تُحْسِنُ يَرَايَتَهُ؟ تَعْلِمُ الْبَرَايَةَ أَكْبَرَ مِنْ تَعْلِمِ الْخَطِّ .

قال المقرِّ العَلَلِيُّ ابْنُ فَضْلِ اللَّهِ : وَرَأَيْتُ بَخْطَ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ مَقْلَةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، نَعَمْ
نَعَمْ مَلَكَ الْخَطِّ حَسَنَ الْبَرَايَةِ، وَمَنْ أَحْسَنَهَا سَهْلٌ عَلَيْهِ الْخَطُّ، وَلَا يَقْتَصِرُ عَلَى عِلْمِ فَرْقِ
مِنْهَا دُونَ فَرْقٍ، فَإِنَّهُ يَتَمَيَّنُ عَلَى مَنْ تَمَاطَى هَذِهِ الصَّنَاعَةُ أَنْ يَحْفَظَ كُلَّ فَرْقٍ مِنْهَا عَلَى
مَذْهَبِهِ : مِنْ زِيَادَةِ التَّحْرِيفِ، وَمِنْ التَّقْصَانِ مِنْهُ، وَمِنْ اخْتِلَافِ طَبَقَاتِهِ . وَمِنْ
وَعْيِ قَلْبِهِ كَثْرَةَ أَجْنَاسِ قَطْعِ الْأَقْلَامِ، كَانَ مُقْتَسِدًا عَلَى الْخَطِّ، وَلَا يَتَعَلَّمُ ذَلِكَ إِلَّا
حَافِلًا، وَالْقَلَمُ لِلْكَاتِبِ كَالسَّيْفِ لِلشُّجَاعِ .

وقال الضَّحَّاكُ بْنُ عَجَلَانَ : الْقَلَمُ مِنْ أَجْنَاسِ الْأَقْلَامِ كَالْفَنِّ مِنْ أَجْنَاسِ الْأَلْحَانِ
فِي الصَّنَاعَةِ، وَالْبَرَايَةُ الْوَاحِدَةُ مِنْ أَجْنَاسِ الْبَرَايَةِ كَذَلِكَ .
وَمِنْ كَلَامِ المقرِّ العَلَلِيِّ ابْنِ فَضْلِ اللَّهِ : جَوْدَةُ الْبَرَايَةِ نَصْفُ الْخَطِّ .

وَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْعَبْرَةَ بِحَسَنِ الصَّنِيعَةِ دُونَ بَرَى الْقَلَمِ، حَتَّى حَكَى الْغَزَالِيُّ
رَحِمَهُ اللَّهُ فِي نَفْسِيحَةِ الْمُلُوكِ أَنَّ الصَّاحِبَ بْنَ عَبَّادٍ كَانَ وَزِيرًا لِبَعْضِ الْمُلُوكِ، وَكَانَ
مَعَهُ سِتَّةُ وَزَرَاءَ غَيْرِهِ فَكَانُوا يَحْصِدُونَهُ، وَلَمْ يَزَالُوا حَتَّى ذَكَرُوا لَلْمَلِكِ أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ بَرَايَةَ
الْقَلَمِ، وَعَمِدُوا إِلَى أَقْلَامِهِ فَكَسَرُوا رُيُوسَهَا، ثُمَّ لَمَسَ الْمَلِكُ أَمْرَهُ بِكُتُبِ كِتَابِ
فِي الْمَجْلِسِ، فَوَجَدَ أَقْلَامَهُ كُلَّهَا مَكْسُورَةَ الرُّيُوسِ فَأَخَذَ قَلَمًا مِنْهَا، وَكُتِبَ بِهِ إِلَى أَنْ
أَتَتْهُ إِلَى أَمْرِ الْكَاتِبِ بِخَطِّ فَاتَّقَى رَاقِقًا، فَسَالَتْ لَهُ الْمَلِكُ : إِنْ هَؤُلَاءَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ
لَا تُحْسِنُ بَرَى الْقَلَمِ، فَقَالَ : إِنْ أَبِي عَلِيٍّ كَتَبْنَا وَلَمْ يَمْلِكْنِي نَجَارًا .

النظر الثالث

(في معرفة محلّ البرّاية من القلم)

قال إبراهيم بن محمد الشَّيْبَانِيّ : يجب أن يكون البرى من جهة نبات القصبة ،
يعنى من أعلاها إذا كانت قائمة على أصلها ، فإن محلّ القلم من الكاتب محلّ الرمح
من الفارس . وإلى هذا المعنى أشار أبو تمام الطائي بقوله في أبياته المتقدمة :
وأقبلت * أعاليه في القِرطاس وهى أسافلُ

وقال أبو القاسم : إذا أخذ القلم ليبرّيه فلا يخلو من استقامة في البنية أو أعوجاج
في الخلقة ، فإن كان مستويا فالبرية من رأسه ، وهو حيث استند ، وإن كان
مُعْوجًا ودعت الضرورة إليه ، فالبرية من أسفله لأن أسفله أقلّ اتواءً من أعلاه .

النظر الرابع

(في كيفية إمساك السكّين حال البرى)

قال ابن البربري : إذا بدأت بالبرّاية فامسك السكين باليد اليمنى ، والأنبوبة
باليسرى ، وضع إبهامك اليمنى على قفا السكين ، ثم اعتمد على الأنبوبة أعتادا رقيقا .

النظر الخامس

(في صنعة البرّاية)

قال الشَّيْبَانِيّ : سألتني الأصبهني يوما بدار الرشيد : أي نوع من البرى أصوبُ
وأَكْبَرُ ؟ قلت : البرّية المستوية القطة التي عن يمين سنّها برية تأمن معها
الحجة عند المنة والمطة ، الهواء في شققها تقيق ، والريح في جوفها خريق ، والمذاد
في خرطومها رقيق .

واعلم أنه ربما حسن الخط باعتبار برائة القلم ، وإن لم يكن على قواعد الخط وهندسته ، فقد قيل : إن الأحوال المحزرة كان عجيب البرائة للقلم ، فكان خطه رائقا بجمعا من غير إحكام ولا إتهاف . قال الأنصاري المحرر : كنت أكتب في ديوان الأحوال ، فقربت منه وأخذت من خطه ، وسرقت من دواته قلما من أقلامه ، فجاء خطي به ، فلاحته منه نظرة إلى دواتي ، فرأى القلم فعرفه ، فأخذه وأبعدني . وكان إذا أراد أن يقوم من مجلسه أو ينصرف قطع رعوس أقلامه كلها .

وأعلم أن البري يشتمل على معان .

المعنى الأول - في صفته ، ومقداره في الطول ، والتقدير .

قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : ويجب أن يكون في القلم الصليب أكثر تقميرا ، وفي الزخو أقل ، وفي المعتدل بينهما . وصفته أن تجدي بتزولك بالسكين على الاستواء ، ثم تميل القطع إلى مائل رأس القلم ، ويكون طول الفتحة بمقدار عقدة الإبهام ، أو كمنقير الجسام ، وإلى ذلك أشار الشيخ علاء الدين السمرمرى رحمه الله في أرجوزته بقوله :

وطولها كمقعدة الإبهام لا • أطل ولا أدنى يكون أردلا

قال الأستاذ أبو الحسن بن البواب رحمه الله : كل قلم تقصر جلفته ، فإن الخط يبيح به أوقص ، والوقف قصر العنق ، ولذلك سمي متفاعلا في عروض الكامل إذا حذفت منه التاء أوقص ، وكأنه يريد بالقصر مادون عقدة الإبهام .

وقد قال إبراهيم بن العباس الصولي الكاتب : أطل تُرطوم قلمك . فقيل له : أله نرطوم قال : نعم . وأنشد .

كأن أنوف الطير في عرصاتها • نرطيم أقلام تُحط وتُعيجم

وقال عبد الحميد بن يحيى 'كاتبُ مروان لرغبان، وكان يكتب بقلم قصير البرية :
أتريد أن يهود خطك ؟ قال : نعم . قال : فاطل جلفّة قلمك وأسمنها ، وحرف
القطعة وأسمنها ؛ قال رغبان : فعلت ذلك بفاد خطي . وقال الشيخ عماد الدين بن
العفيف رحمه الله : إذا طالت البرية ، فإنه يحيى الخط بها أخف وأضعف وأجلى ؛
وإذا قصرت ، جاء الخط بها أصفى وأتمل وأقوى .

المعنى الثاني - النحت .

قال الوزير أبو علي بن مقلّة : وهو نوحان ، نحت حواشيه ، ونحت بطنه . أما
نحت حواشيه ، فيجب أن يكون متساويا من جهتي السن معا ، ولا يحمل على
إحدى الجهتين فيضعف سسته ، بل يجب أن يكون الشق متوسطا بلطفة القلم دق
أو غلظ . قال : ويجب أن يكون جانباه مسيقين ، والتسويق أن يكون أعلاه ذاهبا
نحو رأس القلم أكثر من أسفله ، فيحسن جرى المداد من القلم ، قال : وأما نحت
بطنه فيختلف بحسب اختلاف الأقلام في صلابة الشحم ورخاوته ؛ فأما الصلّب
الشحمة فينبغي أن يُنحت وجهه فقط ، ثم يجعل مسطحا وعرضه كقدر عرض الخط
الذي يؤرّ الكاتب أن يكتبه . وأما الرخو الشحمة فيجب أن تستأصل شحمته حتى
تنتهي إلى الموضع الصلّب من جرم القلم ، لأنك إن كتبت بشحمته ، تشظي القلم
ولم يصف جريانه .

ومن كلام ابن البربري : لا تصنع البرية ، ولا تخالف بين حدّي القلم ؛ فإن ذلك
حياة ، وإذا كان كذلك يكون القلم أحول .

ثم الحفّة على أنحاء : منها أن يهدف جانبي البرية ، ويُسمن وسطها شيئا يسيرا ؛
وهذا يصلح للوسط والمماق والمحقق .

ومنها ما تستأصل شحمته كلها ، وهذا يصلح للرسل والمزوج والمفتوح .

ومنها ما يرهف من جانبه الأيسر ويبقى فيه بقية في الأيمن ؛ وهذا يصلح للطوامير وما شابهها .

ومنها ما يرهف من جانبي وسطه ، ويكون مكان القطعة منه أعرض مما تحتما ؛ وهذا يصلح في جميع قلم الثلث وقروعه .

المعنى الثالث - الشق : وفيه مهيئان .

المهيئ الأول

(في فائده)

قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : لو كان القلم غير مشقوق ما استمرت به الأنايل ، ولا اتصل الخط للكتاب ، ولكثر الإيتمداد ، وصدم المشق ، ولال المداد إلى أحد جانبي القلم على قدر قتل الكتاب له .

المهيئ الثاني

(في صفة الشق ، وفيه مُدركان)

المُدرك الأول

(في قدره في الطول)

قال أبن مقلة : ويختلف ذلك بحسب اختلاف القلم في صلابته ورخاوته . فأما المعتدل فيجب أن يكون شقه إلى مقدار نصف الفتحة أو ثلثها . والمعنى فيه أنه إذا زاد على ذلك أفتحت سنا القلم حال الكتابة وفسد الخط حينئذ . وإذا كان كذلك أمن من ذلك .

وأما الصلْبُ ، فينبغي أن يكون شقه إلى آخر الفتحة ؛ وربما زاد على ذلك

بمقدار إفراطه في الصلابة . وقد نظم ذلك الشيخ علاء الدين السمرمري رحمه الله في أرجوزته فقال :

وأعلم بأن الشَّقَّ أيضا يَخْتَلِفُ * بحسب الأقسام ، فافهم ما أَصِفُ
فإن يكن معتدلاً شُقَّ إلى * مقدار ثلثِ الحَلْفَةِ أَهْلُ وأقبلَا
والرَّخْوُ للنصف أو الثَّلاثين زد * والصلْبُ بالفتحة الحَقُّ قَسَمِدُ
وربما زادوا على ذلك إذا * أَقَرَطَ في الصلابة ، أعرف ذا وذا

المُدْرَكُ الثاني

(في محله من الحَلْفَةِ في العرض)

وقد تقدّم من كلام ابن مقلة رحمه الله في المعنى الثالث أنه يجب أن يكون الشَّقُّ متوسطاً لحَلْفَةِ القلم ، وعليه جرى الأستاذ أبو الحسن بن البواب رحمه الله فقال :
وليكن غَلَطُ السنين جميعاً سواءً . قال : ويموز أن يكون الأيمن أَعْلَى من الأيسر
دون العكس على كل حال ، وهذا إنما يأتي إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين
إلى جهة اليسار ، أما إذا كانت آخذة من جهة اليسار إلى جهة اليمين كالقبطية فإنه
يكون بالعكس من ذلك لأنه يقوى الاعتماد على اليسار دون اليمين .

المعنى الرابع - التَّعَدُّ وفيه مهيذان :

المهيض الأول

(اشتقاقه ومعناه)

يقال قَطَطْتُ القلم أَقْطَلُهُ قَطًّا فإنما قاطٌ وهو مَقْطُوطٌ وقَطِيطٌ : إذا قطعت مسننه
وأصل القَطِّ القطع ، والقَطُّ والقَدْ متضاربان ، إلا أن القَطَّ أكثر ما يستعمل فيما يقع
السيف في عَرْضِهِ ، والقَدْ ما يقع في طَوْلِهِ . وكان يقال : إذا علا الرجل الشيء

يسفه قده ، وإذا عرضه قطه . وذلك أن مخرج الطاء والذال متقاربان ، فأبدل أحدهما من الآخر كما يقال مط حاجبيه ، ومدّ حاجبيه .

المهيع الثاني

(في صفته)

وأعلم أن أجناس القطّ تختلف بحسب مقاصد الكُتّاب ، وهو المقصود الأعظم من البراية ، وعليه مدار الكتابة . قال الضحاك بن عجلان : من وعى قلبه كثرة أجناس قطّ الأقلام ، كان مقتدرا على الخط . وقال المقر العلاء بن فضل الله تقدمه الله برحمته : كان بعض الكُتّاب إذا أخذ الأثوبة ليبريها فترس فيها قبل ذلك ، فإذا أراد أن يقطّ توقف ثم تحرى ، فتوقف ثم يقطّ على سهت .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : والقط على نوعين :

النوع الأول - المحزف ، وطريق بره أن يحرف السكين في حال القط ، وهو ضربان ، قائم ومصوب : أما القائم فهو ما جعل فيه ارتفاع الشحمة كارتفاع القشرة وأما المصوب ، فهو ما كان القشر فيه أعلى من الشحم .

النوع الثاني - المستوى ، وهو ما تساوى سناه ، وأجودهما المحزف ، وقد صرح بذلك الوزير أبو علي بن مقلّة ، فقال : وأحدهما ما كان ذا سنّ مرتفع من الجهة اليمنى أرضاعاً قليلاً إذا كان القلم مصوباً ، وهذا معنى التحريف ؛ وذلك إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمنى إلى جهة اليسار كما تقدم عند ذكر سنّ القلم ، بخلاف ما إذا كان آخذاً من جهة اليسار إلى جهة اليمنى . قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : وأجودها المحرفة المعتدلة التحريف ، وأفسدها المستوية ، لأن المستوى أقلّ تصرفاً من المحزف . قال : وقد كان بعض من لا يمتدّ به يقطّ القلم على ضدّ

ما يعتمد على الأستاذون، فيصير الشحم من القلم هو المشرف على ظاهره، فكان خطه لا يبيح إلا رديئا، وإذا كانت القطعة على الفصد من ذلك، كان الكاتب متصرفا في الخط، متمكنا من القوطاس. قال الوزير ابن مقلة: وأجمع السكين قليلا إذا عزمنا على القط ولا تشبها نصبا، يريد بذلك أن تكون القطعة أقرب إلى التحريف، وأن تكون مصبوبة. قال الشيخ شمس الدين بن أبي رقية: سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله عن الكتابة بالأقلام، والتحريف والتدوير، فقال: الرقاع والتواقيع أميل إلى التدوير بين يدي، قطعة مربعة، والنسخ والمحقق والمشرع أميل إلى التحريف، والمحقق أكثر تحريفا منهما. وقد فسر ابن الوحيد قول ابن التواب: لكن جملة ما أقول بأنه ما بين تحريف إلى تدوير، إن المعنى أن لكل قلم قط صفة، فقطعة الرقاع أشد تحريفا، ثم يقل التحريف في كل نوع من أنواع قط الأقلام حتى تكون الرقاع أقلها تحريفا.

النظر السادس

(في معرفة صفات القلم فيما يتعلق بالرأية، وما لكل من سبب القلم من الحروف)

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف: من لم يدرك وجه القلم، وصنوه، وعرضه، فليس من الكتابة في شيء. وقد فسر ذلك الوزير أبو علي بن مقلة فقال: أعلم أن للقلم وجهها وصنوها وعرضها، فأما وجهه حيث تضع السكين وأنت تريد قطعه، وهو ما يلي لمة القلم وأما صدره فهو ما يلي قشرته؛ وأما عرضه، فهو نزولك فيه على تحريفه.

قال: وحرف القلم هو السن العليا وهي اليمنى.

الجملة السادسة

(في مساحة رأس القلم ومقدارها من حيث موضع القطة، وتفرعها عن قلم الطومار، ونسبتها من مساحتها على اختلاف مقاديرها في الدقة والغِلظ والتوسط، وما ينبغي أن يكون في دواة الكاتب من الأقلام) :

أما مساحة رأس القلم، فاعلم أن رؤوس الأقلام تختلف باختلاف الأقلام التي جرى الاصطلاح عليها بين الكتّاب، وأعظمها وأجلّها وأكثرها مساحة في العرض هو قلم الطومار : وهو قلم كانت الخلفاء تُسلم به في المكتبات وغيرها . وصفته أن يؤخذ من لب الجريد الأخضر، ويؤخذ منه من أعلى القصعة ما يسع رؤوس الأتامل لئتمكن الكتّاب من إمساكه، فإنه إذا كان على غير هذه الصورة، قفل على الأتامل ولاحتمله، ويتخذ أيضا من القصب الفارسي، ولا بدّ من ثلاثة شقوق لتسهل الكتابة به ويجري المداد فيه . ولهم قلمٌ دونه يسمى مختصر الطومار، وبه يكتب التواب والوزراء ومن ضاهاهم الاعتداء على المراسيم ونحوها . وقدروا مساحة عرضه من حيث البراية بأربع وعشرين شعرة من شعر الرنّونٍ مُعترِضات، وهو أصل لما دونه من الأقلام، فقلّ التلّين من هذه النسبة مقدّر بست عشرة شعرة، وقلم النصف مقدّر بالثاني عشرة شعرة، وقلم الثلث مقدّر بثمان شعرات، ومختصر الطومار ما بين الكامل منه والتلّين . وكل من هذا الأقلام فيه تقيل وهو ما كان إلى الشّع أميل، وخفيف، وهو ما كان إلى الدقة أقرب . إذا تقرر ذلك فطول الألياف في كل قلم معتبر بأن تضرب نسبة عرضه في مثله ويحصل طولها نظير ذلك، فحق قلم الطومار يضرب بمقدار عرضه وهو أربع وعشرون شعرة في مثله خمسمائة وستا وسبعين شعرة وهو طولها ؛ وفي قلم الثلث تضرب نسبة عرضه من الطومار

وهو ثمان شعرات في مثلها بأربع وستين، فيكون طولها اربعاً وستين شعرة وكذلك الجميع فاعلمه .

وأما عدد أقلام الدواة فقد قال الوزير أبو علي بن مقلة : ينبغي أن تكون أقلامه على عدد ما يؤثره من الخطوط ، وكأنه يريد أن يكون في دواته قلم مبرئ للقلم الذي هو بصدد أن يحتاج إلى آتية ليجهده مهياً ، فلا يتأخر لأجل برأيته .

الآلة الثانية - المقلمة : وهي المكان الذي يوضع فيه الأقلام ، سواء كان من نفس الدواة أو أجنبيا عنها ، وقد لامت من الآلات لكونها من جملة أجزاء الدواة غالباً .

الآلة الثالثة - المذبة ، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأول

(في معناها وأشتقاقها)

قال الجاحظ : قال بضم الميم وفتحها وكسرهما وتجمع على مذى : وهي السكين ، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " كانت أمراً أن معهم أبناهما بفاء الذئب فذهب فذهب ابن أحدهما ، فقالت لصاحبتها : إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك . فصار كما إلى داود ففضى به للكبرى ، فخرجنا إلى سليمان بن داود فأخبرناه . فقال : اتوني بالسكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تفعل رحمك الله هو أبناها ، ففضى به للصغرى " قال أبو هريرة : إن سمعت بالسكين إلا يومئذ ما كنا قول إلا المذبة .

ثم الأصل في السكين التذكير ، قال أبو ذؤيب :

يرى ناصحاً لي ما تبدأ ، فإذا خلا ، فذلك سكين على الحلقى حائق

قال الكسائي : ومن أنت أراد المديّة وأُتشد :

فَبَيْتٌ فِي السَّامِ قَدَاةٌ قُرٌّ * بِسَكِينٍ مَوْثِقَةِ النَّصَابِ ^(١)

ويقال سَكِينَةٌ بالهاء ، وهو قليل . وفي حديث المبعث ^(٢) "أَنَّهُ لَمَّا شَقَّ الْمَلِكُ بَطْنَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : انْتَفَى بِالسَّكِينَةِ" وجمع على سَكَكَيْنِ سميت مَدْيَةً أَخْذًا مِنْ مَدَى الْأَجَلِ وَهُوَ آخِرُهُ : لِأَنَّهَا تَأْتِي بِالْأَجَلِ فِي الْقَتْلِ عَلَى آخِرِهِ ، وَسميت سَكِينًا لِأَنَّهَا تَسْكُنُ حَرَكَةَ الْحَيَوَانَ بِالْمَوْتِ . وَنِصَابُ السَّكِينِ أَصْلُهَا ، وَنِصَابُ كُلِّ شَيْءٍ أَصْلُهُ قَالَ الشَّاعِرُ :

وَأَنْ نِصَابِي إِنْ سَأَلْتِ ، وَأُتْسِرِي * مِنَ النَّاسِ حَى يَقْتُنُونَ الْمَرْبَا ^(٣)

أى وإن أصلى . ويقال أَنْصَبْتُ السَّكِينِ إِذَا جَعَلْتَ لَهَا نِصَابًا ، كَمَا يُقَالُ أَقْبَضْتُهَا إِذَا جَعَلْتَ لَهَا يَقِضِيًا ، وَأَقْرَبْتُهَا إِذَا جَعَلْتَ لَهَا قَرِيبًا ، وَأَغْلَقْتُهَا إِذَا جَعَلْتَ لَهَا غِلَافًا ، وَالْحَدِيدَةُ لِلنَّاهِبَةِ فِي النَّصَابِ سَيْلَانٌ . ^(٤) وَيُقَالُ أَحْدَدْتُ السَّكِينِ فَإِنَّا أَحْدَدُ إِحْدَادٍ وَحَدَّ السَّكِينُ نَفْسَهُ صَارَ حَدَا ، وَاحْدٌ فَهُوَ مُحْدٌ ، وَسَكِينٌ حَدٌّ ، فَإِذَا أَحْرَتْ مِنْ أَحَدِهِ قَلَّتْ أَحْدَدُهُ ، وَمِنْ حَدِّهِ قَلَّتْ حُدُّهُ .

الوجه الثاني

(في صفتها)

قال بعض الكُتَّابِ : هِيَ سِنَّ الْأَفْلامِ ، تَسْتَحْدُ بِهَا إِذَا كَلَّتْ ، وَتَطْلُقُ بِهَا إِذَا وَقَفَتْ ، وَتُثْمُهَا إِذَا تَشَعَّتْ . فَجَبِ الْمَابِلَةُ فِي سَقْفِهَا وَإِحْدَادُهَا لِيَتِمَّكَ مِنْ الْبَرَى ، فَيَصْفُو جَوْهَرُ الْقَلَمِ ، وَلَا تَنْشَطِلُ قَطْعَتُهُ . وَيَبْنِي أَنْ لَا يَسْتَعْمَلَهَا فِي غَيْرِ الْبَرَاةِ لِثَلَاثِكَأَمْ وَتُحْسَدُ . قَالَ الصُّوَلِيُّ : وَأَحْدَدُ سَكِينِكَ وَلَا تَسْتَعْمَلُهَا لِغَيْرِ ذَلِكَ . قَالَ الْوَزِيرُ أَبُو عَلِيٍّ بْنُ مِقْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَأَسْتَحْدُ السَّكِينِ حَدَاةً وَلَكِنْ مَاضِيَةٌ جَدًّا ، فَإِنَّهَا

(١) أَيْ أَزْفَى السَّامِ بِالسَّكِينِ انْظُرِ السَّامَ (٢) الْمَرْبَى مِنَ الْإِبِلِ الْكَرِيمِ تَقْلَعُ أذَنَهُ وَيُزَكُّهَا زَنْتَةً

(٣) أَيْ وَحْدَتُهَا أَيْضًا كَمَا يَسْتَفَادُ مِنْ نَهَايَةِ صَارِيهِ .

إذا كانت كالأجاء الخط رديثاً مضطرباً . وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف :
فساد البراية من بلاد السكين . قال محمد بن عمر المدائني : ينبغي أن تكون لطيفة
القد ، معتدلة الحد . فقد كره المبالغة في سقيها ، تمكن الباري من برها . ولا عجب
في حملها في الكم والخف ، فقد روى المدائني عن الأعمش عن إبراهيم أنه قال :
اتخاذ الرجل السكين في خفه من المروءة . قالوا : وأحسنها ما عرض صدره ،
وأزهد حده ، ولم يقض عن القبض نصابه ، وأستوى من غير أعوجاج . قال
الشيخ عماد الدين بن العفيف : ورأيت والدي وجماعة من الكلاب يستحسنون
العقاية . وهي التي صدرها أعرض من أسفلها . ووصف بعضهم سكيناً ، فقال :
وسكين عتيقة الحديد ، وثيقة الشحيرة ، مُحَكَّة النَّصَاب ، جامعة الأسباب ، أحد
من البيت ، وأحسن من أجتاع محيين ، وأمضى من الحسام ، في برى الأقالام . وفيه
القائل في وصفها :

أنا إن شئت علة لعدو * حين يمتحن على القوس الحمام

أنا في السبل خادم لنواة * وبمعدى قوم الأقالام

الآلة الرابعة - المقط (بكسر الميم) كما ضبطه الجوهرى في الصحاح إلا أنه
قال فيه : مقطعة بالتأنيث .

قال الصولي : ينبغي أن يكون المقط صلباً فتمضى القطعة مستوية لامتطية .
قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : إذا قطعت فلا تقط إلا على مقط أملس
صلب غير ممل ولا خشن لتلا يتشظى القلم : وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف :
ويتعين أن يكون من عود صلب كالآيوس والعاج ، ويكون مسطح الوجه الذي
يقط عليه ، ولا يكون مستديراً : لأنه إذا كان مستديراً تشظى القلم ، وربما تهلت
القطعة فتاتي الإدارات والتشعيرات غير جيدة . قلت وينبغي أن لا يكون مع ذلك

مانعا كالحديد والصلص ونحوه فإن ذلك يفسد السكين، ولا نجيء القطعة صالحة .
الآلة الخامسة - الحبرة، وهي المقصود من الدواة، وتشتمل على ثلاثة أصناف :
الصنف الأول - البؤنة، وهي الظرف الذي فيه اللبقة والحبر .

قال بعض فضلاء الكتاب : وينبغي أن تكون شكلا مدور الرأس يجتمع على زاويتين قائمتين ، يوقذهما خط ، ولا يكون مريضا على جال لأنه إذا كان مريضا يتكاثر المداد في زواياه فيفسد المداد ، فإذا كان مستديرا كان أبقى للداد ، وأبعد في الاستعداد .

: الصنف الثاني - اللبقة ، وتسميها العرب الكُشَف تسمية لها بأسم القطن الذي تنخذ منه في بعض الأحوال كما سيأتي ، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأول

(في اشتقاقها)

يقال أَقَت الدواة ولفقتها، أخذنا من قولهم : فلان لا يَلِيقُ كَفُّه درهمًا أى لا يَحْمِسُهُ ولا يُمْسِكُهُ ، وأشد الكسائي :

كَفَّاكَ كَفٌّ مَا يَلِيقُ دَرَاهِمًا * جُودًا ، وَكَفٌّ تُعْطِ بِالسِّيفِ التَّمَا .

يصفه بالجود، أى كَفَّاكَ مَا يُمْسِكُ دَرَاهِمًا ، ويقال : مَا لَاقَتْ الْمَرَاةَ عِنْدَ زَوْجِهَا
أَيِ مَا لَعَلَّتْ * قال المبرد : دخل الأصمعي على الرشيد بعد غيبة ظاهرا ، فقال له :
كَيْفَ سَالَكٌ يَا أَصْمَعِي ؟ فقال : مَا لَاقَتْنِي نَحْوُكَ أَرْضٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : فَنَامَسَكِ
الرَّشِيدُ عَنْهُ ، فَلَمَّا خَمَزَ أَهْلَ الْمَجْلِسِ ، قَالَ لَهُ : مَا مَعْنَى الْإِصْبِيِّ ؟ قَالَ : مَا حَسَبْتَنِي ؟
فَقَالَ : لَا تَكُنِّي فِي مَجْلَسِ الْعَامَةِ بِمَا لَا أَعْلَمُ . قَالَ الْحَاضِرُ : وَلَا تَسْتَحْيِي أَتَيْتُ
الْبَلْبَقَةَ حَتَّى تَلَاكِي فِي الدَّوَاةِ بِالنَّفْسِ : وَهُوَ الْمِدَادُ .

الوجه الثاني

(فياخذ منه وتتعاقد به)

قال بعض الكُتَّاب : تكون من الحرير والصوف والقطن ، ويقال فيه الكُتُفُ ، والرُّس ، والطُّوط ، والعُطْبُ ، والأولى أن تكون من الحرير الخشن : لأن آتفاشها في الحبرة وعدم تليدها أصون على الكتابة . قال بعض الكُتَّاب : ويتمين على الكاتب أن يتفقد اللبقة ويطيها بأجود ما يكون ، فإنها تروح على طول الزمن ، والله القائل :

مَنْظَرٌ شَهِدَتْ عَلَيْهِ دَوَائِهِ * أَنْ الْفَقْرَ لَا كَانَ غَيْرَ ظَرِيفٍ

إن التفقد للدواة فضيلة * موصوفة للكاتب الموصوف

وكان بعض الكُتَّاب يطيب دواته بأطيب ما عنده من طيب نفسه ، فستل عن ذلك ، فقال : لاني أكتبُ به اسمَ الله تعالى وأسمَ رسوله صلى الله عليه وسلم واسم أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وربما سبق القلم بغير إرادتنا فطحصه بالسنتنا ونمحوه بأكمانا .

قال الشيخ علاء الدين السمرقاني : ويتمين على الكاتب تجديد اللبقة في كل شهر ، وأنه حين فراغه من الكتابة يطبق الحبرة لأجل ما يقع فيها من التراب ونحوه ، فيفسد الخط ، ونظم ذلك في أرجوزته فقال :

وَجَدَّ اللَّيْقَةَ كُلَّ شَهْرٍ * فَشَبَّخْنَا كَانَ بِهِذَا يُفْرَى

لأجل ما يقع فيها من قذى * فينتشى من ذاك في الخط أدنى

وينبغي له مع ذلك أن يصفونها عن الأشياء القذرة كالصباق ونحوه ، فقد حكى محمد بن عمر المدائني أن بعض العلماء رأى صبياً يبصق في دواته فزجره ، وقال لمعلمه : أمتع الصبيان عن مثل هذا ، فإنما يكتبون به كلام الله . قال محمد بن عمر

المدائني : كأنه يخرج أن يكتب القروان بمداد غير نظيف . قال المدائني : وكان بلغني عن ابن عباس أنه أجاز أن يصبق الرجل في دواته ، فسالت أحمد بن عمرو البراز عن ذلك فأنكره ، وقال : هذا حديث كذب ، وضعه حاصم بن سليمان الكودن ، وكان كذاباً ذكرته لأبي داود الطيالسي فقال : هو كذاب يجب أن تعرفوا كذبه ، صفوا له مسألة حتى يحدثكم بحديث ؟ فقال : بفت أنا وعمر بن موسى الحارثي في جماعة ، فقال له عمر : ما تقول في الرجل يترق في اللواة ويستمد منها ؟ وكان قد ذهب بصره ، فقال : حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن عمر أنه كان يترق في اللواة ويستمد منها ، ثم قال : وحدثنا هشام بن حسان عن صكرمة عن ابن عباس مثل ذلك ، قال : فهمز بعض أصحابنا وقال : كان ابن عباس لا يبصر ، قال : ففهم ، فقال : نعم . كان ابن عباس لا يرى بذلك بأساً .

الصفى الثالث - المداد والحبر وما ضارهما . والنظر فيه من أربعة أوجه

الوجه الأول

(في تسميتهما واشتقاقهما)

أما المداد فسمي بذلك لأنه يمد القلم أى يعينه ، وكل شيء مددت به شيئاً فهو مداد ، قال الأخطل :

رأت بارات^(١) بالأكف كأنها مصابيحُ سُرج أوقدت بمداد

سمى الزيت مداداً لأن السراج يمد به ، فكل شيء أمددت به اليلة مما يكتب به فهو مداد ، وقال ابن قتية في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ : هو من المداد لأن الإمداد . ويقال : أمد القلم في الخير مثل ﴿ وَأَمْلَدْنَاهُمْ بِقَالِكَةٍ وَلَقِيمٍ ﴾ ومدته في الشر ، مثل ﴿ وَنُكِّدْ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مِدًّا ﴾ ، ويقال فيه أيضاً نفس

(١) في اللسان رأياً برار الجملة .

وَقَسَّ ، بكسر النون وفتحها مع إسكان القاف ومع السين المهملة فيهما ، والكسر أنصح ، ويجمع على أَقَاس .

وأما الحِبرُ ، فأصله اللون ، يقال فلان ناصع الحِبرُ يراد به اللون الخالص الصلبي من كل شيء ، قال ابن أحرى يذكر امرأة :

تَبَّهْ بِفَاحِمٍ جَعِيدٍ * وَأَبْيَضَ نَاصِعِ الحِبرِ

يريد سواد شعرها ، وبياض لونها ، وفي الحِبرِ "يُخْرِجُ من النار رَجُلٌ قد ذَهَبَ حِبرُهُ" وسبَّه "بكسر الحاء المهملة والسين فيهما" قال ابن الأعرابي : حِبرُهُ حسنة ، وسبَّهُ هُتْهُ ، وقال المبرد : قال التوزي : سألت الفراء عن المداد لم سمي حبراً ؟ فقال يقال لِلْمَهْلِكِ حَبْرٌ وَحَبْرٌ يعني بفتح الحاء وكسرها ، فأرادوا مداد حبر أى مداد عالم ، فخذفوا مِنْكَ وجعلوا مكانه حَبْرًا . قال : فذكرت ذلك للأصمعي ، فقال : ليس هذا بشيء إنما هو لتأثيره . يقال : على أسنانه حِبرٌ إذا كثرت صُفْرَتها حتى صارت تضرب إلى السواد ، والحبر الأثريسي في الجلد ، وأثبت :

لَقَدْ أَثْمَمْتُ بِي آلَ قَيْدٍ وَغَادَرْتُ * بِجِلْدِي حَبْرًا بِنْتُ مَصَّانٍ بَادِيَاً

أراد بالحبر الأثر ، يعني أثر الكتابة في القرطاس ، قال المبرد : وأنا أحسب أنه سمي بذلك لأن الكلب يُحَبَّرُ به أى يُحَسَّنُ ، أخذنا من قولهم حَبَرْتُ الشيء تحبيراً إذا حسنته .

الوجه الثاني

(في شرف المداد والحبر ، واختيار السواد لذلك)

في الحِبرِ "يُقَوَّى بِمدادِ طالبِ العِلْمِ ودمِ الشهيد يومَ القيامةِ ، فيُوضَعُ أحدهما في كِفَّةِ المِيزانِ والأخرى في الكِفَّةِ الأخرى فلا يرجح أحدهما على الآخر" قال بعض الحكماء : صورة المداد في الأبصار سوداء ، وفي البصائر بيضاء . وقد قيل : كواكبُ

الحِكَمُ في ظِلِّ المِدَادِ . ونظر جعفر بن محمد إلى قتي على ثيابه أثر المِدَادِ ، وهو يستره منه ، فقال له : يا هذا ! إن المِدَادِ من المُرُوءَةِ . وأنشد أبو زيد :

إذا ما المِسْكُ طَيَّبَ رِيحَ قَوْمٍ * كَفَفْتَنِي ذَاكَ رائحة المِدَادِ

وما شئٌ بِأَحْسَنَ من ثِيَابٍ * على حَافَتَيْهَا حَمَمُ السَّوَادِ

وقال بعض الأدباء : عَطَّروا دَفَاتِرَ الأَدَابِ بِسَوَادِ الحَبَرِ . وكان في حِجْرِ إبراهيم ابن العباس قِرطاس يَمْشُقُ فيه كَلَامًا فاسقَطَ ، فسَمِعَهُ بَنُوهُ ، فقبِلَ له لو مسحته بغيره ؟ فقال المال فرع والقلم أصل ، والأصل أحق بالصون من الفرع . وأنشد في ذلك :

إِنَّمَا الزُّعْفَرَانُ عِطْرُ العَذَارَى * وَمِنَادُ النُّوَى عِطْرُ الرِّجَالِ

وأنشد غيره :

مَنْ كَانَ يُحِبُّهُ أَنْ مَسَّ عَارِضُهُ * مِسْكٌ يَطْيِبُ مِنْهُ الرِّيحَ وَاللِّمَامَ

فَإِنَّ مِسْكِ مِدَادٌ فَوْقَ أُنْجُلِي * إِذَا الْأَصَابِعُ يَوْمًا مَسَّتِ الْقَلَمَ

على أن بعضهم قد أنكر ذلك ، وقال : المِدَادُ في ثَوْبِ الكَاتِبِ سَخَافَةٌ ، ودَنَاءَةٌ مِنْهُ وَقِلَّةُ تَعْلَافِهِ . قال أبو العالية : تَمَلَّصَتِ القِرْعَانُ وَالكَتَابَةُ ، وَمَا شَمَّرَ بِي أَهْلِي ، وَمَا رَأَى فِي ثَوْبِي مِدَادٌ قَطْ . وأنشدوا :

دَخِيلٌ فِي الكِتَابَةِ يَلْعَبُهَا * كَدَعَوْىَ آلِ حَرْبٍ فِي زِيَادِ

يُسَبِّهُ ثَوْبَهُ الْحَجْوِ فِيهِ * إِذَا أَبْصَرْتَهُ ثَوْبَ الحِمَادِ

فَدَعَّ عَنْكَ الكِتَابَةَ لَسْتَ مِنْهَا * وَلَوْ لَطَخْتَ وَجْهَكَ بِالمِدَادِ

وقال فارس بن حاتم : يَرِيقُ الحَبْرُ تَهْدِي العُقُولُ نَحْيَا الحِكْمَ : لِأَنَّهُ أُنْبِئُ عَلَى المَهْرِ ، وَأُنْبِئُ اللَّذْكَرُ ، وَأَزِيدُ اللَّأَجْرُ .

وأعلم أن الممداد ركن من أركان الكتابة، وعليه مدار الريح منها وأنشدوا في ذلك :

رُيْعُ الكِتَابَةِ فِي سَوَادٍ مِدَادِهَا * وَالرَّيْعُ حُسْنُ صِنَاعَةِ الْحُكَّابِ
وَالرَّيْعُ مِنْ قَلَمٍ تُسَوَّى بِرِيهِ * وَعَلَى الْكَوَاغِدِ رَابِعُ الْأَسْبَابِ

قال بعض العلماء رحمهم الله : وإنما أخير فيه السواد دون غيره لمضادته لون الصبغة . قال : وليس شيء من الألوان يضاد صاحبه كضادة السواد للبياض .
قال الشاعر :

فَالْوَبْهُ مِثْلُ الصَّبِغِ مِيقُضٌ * وَالْقَرَعُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسَوَّدٌ
ضِدَانٌ لِمَا اسْتَجَمَعَا حُسْنًا * وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضُّدِّ

ويقال في الممداد : أسود قائم ، وهو أول درجة السواد ، وحالك وحائك ،
وملحوك ، وملبوب ، وداج ، ودجوجي ، وديمور ، وأدم ، وملهام . .

قال المحدثي : حدثني بذلك محمد بن نصر عن أحمد بن الضمك عن أبي عبيدة .
كتب جعفر بن حمار بن محمد إلى دطج بن محمد يستهديه مئاديا :

يَا أَيْحَى لِلْوَدَادِ لِلِلْدَادِ * وَصَدِيقِي مِنْ بَيْنِ هَذَا الْعِبَادِ
وَالَّذِي فِيهِ أَلْفٌ مَجْدٍ طَرِيفٌ * قَدْ أُمِدْتُ بِأَلْفٍ مَجْدٍ تِلَادِ
أَنَا أَشْكُو إِلَيْكَ حَالِ دَوَائِي * أَصْبَحْتُ هَتَفِي قَيْصِ حِمَادِ

ولله منصور بن إسماعيل حيث يقول :

وَسَوْدَاءُ مُقَلَّتْهَا مِثْلَهَا * وَأَجْفَانُهَا مِنْ لُحَيْنٍ صَقِيلِ
لِذَا أَذْرَفَتْ عَبْرَةً خَطْبَهَا * كَفَالَةٍ فَوْقَ خَدِّ أَسِيلِ

الوجه الثالث

(في صنعتهما ، وفيه نظران)

النظر الأول - في مادتتهما .

وأعلم أن الموادَ لذلك منها ما يُستعمل بأصله ولا يُحتاج فيه إلى كبير علاج وتغيير كاللِّصْص ، والزاج ، والصمغ ، وما أشبهها . ومنها ما يحتاج إلى علاج وتغيير ، وهو الدِّخَان . قال أبو القاسم خلوف بن شعبة الكاتب : ويَتَوَشَّى في الدِّخَان أن يكون من شيء له ذهنية ، ولا يكون من دخان شيء يابس في الأصل لأن دخان كل شيء مثله وراجع إليه .

قال أحمد بن يوسف الكاتب : كان يأتينا رجل في أيام مُحمَّارويه بمداد لم أر أنهم منه ، ولا أشدَّ سوادا منه . فسألته من أي شيء استخرجته ؟ فكتم ذلك عني ، ثم تلطفت به بعد ذلك ، فقال لي : من دهن بزر التَّجُّل والبَّكَان ، أضبع دُخْنَ ذلك في مَسَارِجٍ وأوقدها ، ثم أجعل عليها طاسا حتى إذا قَدَّ الدَّهْن ، رفعتُ الطاس ، وجمعت ما فيها بماء الآس والصمغ العربي . وإنما جمعه بماء الآس ليكون سواده ما تلا إلى الخُضْرَة ، والصمغ يجمعه ويمتصه من التطاير .

قال صاحب الحلية : وإن شئت أخذت من دخان مَقَالِي الحِصص وشبهه ، وتلقي عليه ماء ، وتأخذ ما يعلو فوقه وتجمعه بماء الآس ، والعسل والكافور والصمغ العربي والملح ، وتمده وتقطعه شواير ، والدِّخَان الأول أجود واقه أعلم .

النظر الثاني - في صنعتهما ، وفيه مسلكان

المسلك الأول

(في صنعة المئاد، وبه كانت كتابة الأولين من أهل الصنعة وغيرهم)
قال الوزير أبو علي بن مقله رحمه الله : وأجود المئاد ما أُتخذ من مُنْظَم النُّقْط ،
وذلك أن يؤخذ منه ثلاثة أرطال، فيجاء بنخله وتصفيته، ثم يلقى في طنجير، ويُسَبُّ
عليه من الماء ثلاثة أمثاله ، ومن العسل رطل واحد ، ومن الملح خمسة عشر
درهما ، ومن الصمغ المسحوق خمسة عشر درهما ، ومن العَصَص عشرة دراهم ،
ولا يزال يساط على نار لينة حتى يشتغل جُرمه ويصير في هيئة الطين ، ثم يترك في إناء
ويرفع إلى وقت الحاجة . وما ذكره فيه إشارة إلى أنه لا ينحصر في مُنْظَم النُّقْط ، بل
يكون من دُخَان غيره أيضا كما تقدم . ثم ذكر صاحب الحلية أنه يحتاج مع ذلك
إلى الكافور لطيب رائحته، والصبر لينع من وقوع الذباب عليه . وقيل : إن
الكافور يقوم مقام الملح في غير الطيب .

المسلك الثاني

(في صنعة الخبز، وهو صنفان)

الصنف الأول - ما يناسب الكافور أى الورق : وهو جبر الدُّخَان ، ونحن
نذكر منه صفات إن شاء الله تعالى .

”صفة“ يؤخذ من العَصَص الشامي قدر رطل يلقى جريشا ويُقَع في ستة أرطال
ماء مع قليل من الآسن : (وهو المرسين) أسنوغا، ثم يغلى على النار حتى يصير على النصف
أو الثلثين، ثم يصفى من مئرو ويترك ثلاثة أيام، ثم يصفى ثانيا، ثم يضاف لكل رطل
من هذا الماء أوقية من الصمغ العربي، ومن الزاج القبرسي كذلك، ثم يضاف إليه
من الدخان المتقدم ذكره ما يكفيه من الحلاكة . ولا بد له مع ذلك من الصبر
والعسل ليمتنع بالصبر وقوع الذباب فيه، ويحفظ بالعسل على طول الزمن، ويعمل

من الدخان لكل رطل من الحبر ^(١) بعد أن تَسَحَّى الدخان بِكُلُوَّة كَفَكَ
بالسكر النبات والزعفران الشعر والزنجار إلى أن تُجَيِّدَ تَمَقُّقه ، ولا تَصَحِّحه في صلاية
ولا هَلَوْن يَفْسُد عليك .

الصنف الثاني - ما يناسب الرُّق ، ويسمى الحبر الرأس ، ولا دَخَان فيه ،
ولذلك يجيء بِصَاصٍ بَرَّاقاً ، وبه إضرار للبصر في النظر إليه من جهة بَرِّقه ، وفسدُ
الكافد على طول ؛ ونحن نذكر منه .

”صفة حبر“ وهي ، يؤخذ من العفص الشامي رطل واحد فيُجَرَش ، ويلقى عليه
من الماء العذب ثلاثة أرطال ، ويعمل في طنجير ، ويوضع على النار ويوقد تحته
بنار لينة حتى يَتَفَصَّج ، وعلامة تَصَفِّجِه أن تكتب به فتكون الكتابة حمراء بَصَاصَةً ،
ثم يلقي عليه من الصمغ العربي ثلاث أواق ، ومن الزاج أوقية ثم يصفى ويودع
في إناء جليد ، ويستعمل عند الحاجة .

”صفة حبر سَفَرِي“ يعمل على البارد من غير نار ، يؤخذ العفص فيُجَرَش جرشاً
جيداً ويسحق لكل أوقية عَفِص درهم واحد من الزاج ، ودرهم من الصمغ العربي ،
ويلقى عليه ويرفع إلى وقت الحاجة . فإذا أحتاج إليه صُبَّ عليه من الماء قدر
الكفاية وأستعمله .

الوجه الرابع (في لَبَقِ الاكْتَاحات)

وهي ما يكتب به فوائح الكلام : من الأبواب ، والفصول والابتداءات
ونحوها ، ولا مدخل لشيء من ذلك في نفي الإنشاء والديونة ، إلا الذهب فإنه يكتب به
في الطُّقُرَاوات في كتب القَائِنَات ، وفي الأسماء الجلييلة منها ، كما سيأتى في موضعه من

(١) يابض بالامل . وفي القصة ثلث أوقية بعد الخ .

المكتابات من فن الإنشاء إن شاء الله تعالى، وبقى ذلك إنما يحتاج إليه كُتَّاب النسخ إلا أنه لا بأس بالعلم به فإنه كمال الكاتب .
ونحن نذكر منه ما الغالب آستعمله وهو أصناف :

الصفن الأول - الذهب ، وطريق الكتابة به أن يُحْلَ ورقُ الذهب ؛ وصفة حله أن يؤخذ ورق الذهب الذى يستعمل فى الطلاء ونحوه ، فيجعل مع شراب الليمون الصافى النقى ، ويقتل فيه فى إناء صينى أو نحوى حتى يضمحل جرمه فيه ، ثم يصب عليه الماء الصافى النقى ويسفل من جوانب الإناء حتى يمتزج الماء والشراب ، ويترك ساعة حتى يرسب الذهب ، ثم يصفى الماء عنه ويؤخذ مرسب فى الإناء ، فيجعل فى مفتلة زجاج ضيقة الأسفل ، ويحمل معه قليل من اللبقة ، والثرى اليسير من الزعفران بحيث لا يخرج منه لون الذهب ، وقليل من ماء الصمغ المحلول ، ويكتب به . فإذا جف صقل بمصقلة من جرج حتى يأخذ حلمه ، ثم يركب بالحبر من جوانب الحرف .

الصفن الثانى - الأزورد ، وأنواعه كثيرة ، وأجودها المعدنى ، وبقى ذلك مصنوع لا يناسب الكتابة ، وإنما يستعمل فى التذهينات ونحوها ، وطريق الكتابة به أن يذاب بالماء ، ويلقى عليه قليل من ماء الصمغ العربى ، ويحبل فى دواة كدواة الذهب المتقدم ذكرها ، وكلما رسب حرك بالقلم ، ولا يكثر به الصمغ كى لا يَسْوَدَ ويفسد .

الصفن الثالث - الزنجفر ، وأجوده المغربى ، وطريق الكتابة به أن يسحق بالماء حتى ينعم ، وإن صحق بماء الزمان الحامض فهو أحسن ، ثم يضاف عليه ماء الصمغ ، ثم يلاق بليقة كما يلاق الحبر ، ويعمل فى دواة ويكتب به .

الصفن الرابع - المنرة العراقية ، وهى مما يكتب به فى فرائس الكتب ،

وربما كتب بها عن الملوك في بعض الأحيان . وطريقه في الكتابة كما في الزنجفر ،
واقه أعلم .

الآلة السادسة - الملوأق ، بكسر الميم ، وهو ما تلاق به التواة أى تحرك به
الليقة . قال بعض الكُتَّاب : وأحسن ما يكون من الآتُونِس لثلا يغيره لو أن المداد .
قال : ويكون مستديرا مخروطا ، عريض الرأس ثخينه .

الآلة السابعة - المِرْمَلَة ، وأسمها القديم المِثْرَبَة ، جَعَلًا لها آلة للتراب ، إذ كان
هو الذى يُقَرَّب به الكتب .
وتشتمل على شيئين :

الأول - الظرف الذى يُجْعَل فيه الرمل ، وهو المسئى بذلك . ويكون من جلس
الدواة إن كانت الدواة ثَمَاسًا ، أو من النحاس ونحوه إن كانت خشبا على حسب
ما يختاره رَبُّ الدواة . ومحلها من الدواة مالى الكاتب مما بين المِجْبَرَة وباطن الدواة
مما يقابل المِنشأة الآتية ذكرها ، ويكون في فيها شَبَّاك يمنع من وصول الرمل الخشن
إلى باطنها ، وربما أُثِخِنَت مِرْمَلَة أخرى أكبر من ذلك تكون في باطن الدواة
لاحتمال أن تضيق تلك عن الكفاية لِصِغَرِها . وأرباب الرياسة من الوزراء والأمراء
ونحوهم يتخذون مِرْمَلَة كبيرة مغارب حبة الرَّايح^(١) ، لها عتق في أعلاها ، تكون
في الصالب من جنس الدواة من نُحاس ونحوه ، وربما أُثِخِنَت من خشب لِقْضَاة
الحكم ونحوهم .

ومما ألفز فيها القاضي شهاب الدين ابن بفت الأعرز :

ظَرِيفَةُ الشَّكْلِ وَالْمَثَالِ ، قَدْ صُنِعَتْ * تَحْكِي الْعُرُوسَ وَلَكِنْ لَيْسَ تَنْتَلِمُ
كَأَنَّهَا مِنْ ذَوَى الْأَبَابِ خَاشِعَةٌ * تَبْكِي الدُّمَاءَ عَلَى مَاسِطَرِّ الْقَلَمِ

وتسمى المتربة أيضا، وفي ذلك يقول الوجه المتناوى :

يا مَدَحًا أَمْرًا ولم يَأْنِهِ * ولم يَنْسَلْ مِنْهُ وَلَا جَرَبَهُ
لَا تَقْطِطِ الْكَاتِبَ فِي حَالِهِ ، * فَإِنَّهُ الْمُسْكِينُ ذُو الْمِتْرَبَةِ

الثانى - الرمل ، وقد اختار الكُتَّابُ لذلك الرملَ الأحمرَ دون غيره ، لأنه يكسو الخط الأسود من البهجة ما لا يكسوه غيره من أصناف الرمل ، وخبره ما كان دقيقا .
وهو على أنواع :

النوع الأول - ما يؤتى به من الجبل الأحمر الملاصق للجبل المقطع من الجهة الشرقية ، وهو أكثر الأنواع وأعمها وجودا بالديار المصرية .

النوع الثانى - يؤتى به من الواحات ، وهو رمل متحجر شديد الحمرة ، يتخذ منه الكُتَّابُ حجارة لطفاً تُحْتَبَسُ بالسكين ونحوها على الكتابة ، وأكثر ما يستعملها كُتَّابُ الصعيد والفيوم وما والاها .

النوع الثالث - يؤتى به من جزيرة يميز القلزم من نواحي الطور ، وهو رمل دقيق أصفر اللون ، قريب من الزعفران ، وله بهجة على الخط إلا أنه عزيز الوجود .

النوع الرابع - رمل بين الحمرة والصفرة ، به سُذُورٌ بَصَاصَةٌ يَخَالُفُ الناظر سُذُورَ الذهب ، وهو عزيز الوجود جدا ، وبه يرمل الملوك ومن شابههم .

الآلة الثامنة - المنشأة ، وتشتمل على شيئين أيضا .

الأول - الظرف ، وحاله كحال المِزْمَلَةِ في الهيئة والمحل من الدواة من جهة الغطاء إلا أنه لا شُبَّاكَ فِيهِ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى اللِّصَاقِ ، وربما آتخذ بعض ظرفاء الكُتَّابِ مِنْشَأَةً أُخْرَى ، غير التى فى صدر الدواة من رصاص على هيئة حُقٍّ لطيف ، ويعملها

في باطن الدواة كالمِزْلَمَةِ المتوسطة ، فإن اللصاق قد يتغير بمكانه في النحاس ، بخلاف الرصاص .

الثاني - اللصاق ، وهو على نوعين : أحدهما النشا المتخذ من البر ، وطريقه ان يطبخ على النار كما يطبخ للقمح ، إلا أنه يكون أشد منه ، ثم يجعل في المنشأة ، وهو الذي يستعمله كُتَّابُ الإنشاء ولا يقولون على غيره لسرعة اللصاق به ، وموافقة لونه للورق في نضابة البياض ، والثاني المتخذ من الكثيراء ، وهو أن تبلُ الكثيراء بالماء حتى تصير في قوام اللصاق ، ثم تجعل في المنشأة . وكثيرا ما يستعمله كُتَّابُ الدِّيُونَةِ ، وهو سريع التغير إلى الخضر ولا يسرع اللصاق به . وينبغي أن يستعمل في اللصاق في الجلبة المكوَّدة والكافور لتطيب رائحته .

الآلة التاسعة - المِثْدَةُ ، وهي آلة تشبه المحرز . تتخذ لحزم الورق ، وينبغي أن يكون عمل الحاجة منها متساويا في الدقة والنظ ، أعلاه وأسفله سواء ، لئلا تختلف أقطاب الورق في الضيق والسعة ، خلا أن يكون ذبأبه دقيقا ليكون أسرع وأبلغ في المقصود ، وحكه في النصاب في الطول والنظ حكم المديّة ، وقد سبق . وأكثر من يحتاج إلى هذه الآلة من الكُتَّاب كُتَّابُ الدواوين ، وربما احتاج إليها كاتب الإنشاء في بعض أحواله .

الآلة العاشرة - المِزْمَةُ ، قال الجوهري : المِزْمُ بالكسر خشبتان تشدّ أوساطهما بحديدة تكون مع الصباقة والأبارين ، ولم يزد على ذلك . وهي آلة تتخذ من الخشب ونحوه ، ذات دفتين يلتقيان على رأس الدرج حال الكتابة لينبع الدرج من الرجوع على الكاتب ، ويُحَسَّس ويُحَسَّس على الدفتين .

الآلة الحادية عشرة - المِزْمَةُ ، وهي آلة تتخذ من حرق كنان : بطانة وظهارة ؛ أو من صوف ونحوه ، تُفَرَّش تحت الأقلام وما في معناها مما يكون في بطن الدواة .

الآلة الثانية عشرة - المِسْحَة، وتسمى الدقير أيضا، وهي آلة تُتَّخَذُ من حَرَقِ متراكبة ذات وجهين ملونين من صوف أبيض أو غير ذلك من نفيس القماش، يُمسَحُ القلم بباطنها عند الفراغ من الكتابة لتلايحف عليه الحبر فيفسد؛ والغالب في هذه الآلة أن تكون مدوّرة مخزومة من وسطها . وربما كانت مستطيلة، ويكون مقدارها على قدر سعة التواء . وفيها يقول القاضي الفاضل رحمه الله :

مِسْحَةٌ نَهَارُهَا * يُبَيِّنُ لَيْلَ الظُّلَمِ
كَأَنَّمَا مَدَّ خَلَقَتْ * مِنْ دِيلِ كَمِ الْقَلَمِ

وقال نور الدين علي بن سعيد المغربي فيها :

وَمِسْحَةٌ لَاحَتْ كَأَنَّي تَبَدَّدَتْ * بِهِ قِطْعُ الظُّلُمَاتِ، وَالصَّبِيحُ طَالِعُ
وَلَمْ أَطَالِ اللَّيْلُ فِيهَا وَرُودَهُ، * حَكَّتْهُ، وَمُدَّتْ لِلصَّبَاحِ الطَّالِعُ

وقال المولى ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر :

وَمِسْحَةٌ تَنَاهَى الْحُسْنُ فِيهَا * فَاصْحَحْتُ فِي الْمَلَاخَةِ لَا تُبَارَى
وَلَا تُنْكِرُ عَلَى الْقَلَمِ الْمُوَافَى * إِذَا فِي وَصْلِهَا خَلَعَ الْعَذَارَى

الآلة الثالثة عشرة - المِسْقَاة، وهي آلة لطيفة تتخذ لصب الماء في الحبرة وتسمى المَارْدِيَّةُ أيضا : لأن الغالب أن يجعل في الحبرة عَوْضَ الماء مَارْدٌ لتطيب رائحتها، وأيضاً فإن المياه المستخرجة كماء الورد والخلاف والريحان ونحو ذلك لا تتحل الحبر ولا تفسده، بخلاف الماء . وتكون هذه الآلة في الغالب من الخزف الذي يخرج من البحر الملح، وربما كانت من نحاس ونحوه، والمعنى فيها أن لا تخرج الحبرة من مكانها، ولا يصب من إناء واسع الفم كالكوثر ونحوه، فربما زاد الصب على قدر الحاجة .

الآلة الرابعة عشرة - المسطرة، وهي آلة من خشب مستقيمة الجنين لسطر عليها ما يحتاج إلى تسطيره من الكتابة ومتعلقاتها؛ وأكثر من يحتاج إليها المُنْهَبُ .
الآلة الخامسة عشرة - المِصْفَلَة، وهي التي يُصَفَّلُ بها النُهب بعد الكتابة، وهي من آلات التواء لاعماله .

الآلة السادسة عشرة - المِهْرَقُ (بضم الميم وفتح الراء) وهو القِرطاس الذي يكتب فيه، ويجمع على مَهَارِقُ . قلت : وعد صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثارى منها المِلْدَاد، وهو ظاهر، والمِخْطَط، وفي عده بعد .
الآلة السابعة عشرة - المِسْنُ، هو آلة تُخَذ لإحداث السكين؛ وهو نوحان: أَكْهَبُ اللون، ويسمى الرومى، وأخضر؛ وهو على نوعين : حجازى، وقوصى؛ والرومى أجودهما، والحجازى أجوده الأخضر .

الطرف الثالث - فيما يكتب فيه، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة كما سبقت الإشارة إليه في بعض الأبيات المتقدمة؛ وفيه ثلاث جمل .

الجملة الأولى

(فما نطق به القرمان الكريم من ذلك)

وقد نطق القرمان بثلاثة أجناس من ذلك :

الأول اللوح . قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ قرأ العامة بفتح اللام على أن المراد اللوح واحد الألواح؛ سمى بذلك لأن المعاني تلوح بالكتابة فيه؛ ثم اختلفوا : قرأ نافع برفع محفوظ على أنه نعت للقرمان بتقدير بل هو قرمان مجيد محفوظ في لوح، وصفه بالحفظ لحفظه عن التغير والتبديل والتحريف . قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾، وقرأ الباقون بالجر على نعت اللوح .

قال أبو عبيد : وهو الوجه ، لأن الآثار الواردة في اللوح المحفوظ تصدق ذلك ، وهو أم اقرمان ، منه نُسخَ القرآن الكريم والكتب المُتَرَلَّةُ ، ومنه تَنَسَّخُ الملائكة أعمالَ الخلق . قال ابن عباس : وهو لوحٌ من دُرَّةٍ بيضاء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافته النُّزُ والياقوت ، ودقاه ياقوتة حمراء ، وأصله في حجرٍ مَلَكٍ . وقال أنس : اللوح المحفوظ في جبهة إسرائيْل عليه السلام ، وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .

قال ابن عباس : وفي صدر اللوح مكتوب " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، دينه الإسلام ، وعبد عبده ورسوله . فمن آمن بالله وصلى بوعده وأتبع رُسُلَهُ أدخله الجنة " . وسُمي محفوظاً لأن الله تعالى حَفِظَهُ عن الشياطين ، وقيل : حَفِظَهُ بما ضمنه :

وقيل : اللوح صدر المؤمنين .

وقرأ يحيى بن يَعْمَرُ في لُوحٍ بضم اللام ، وهو الهواء . يقال لما بين السماء والأرض اللُّوحُ ، والمعنى أنه شيء يلوح للملائكة فيقرءونه . وهو ذو نور وعلو وشرف . وقد ورد في القرآن بلفظ الجمع ، قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِلَةً وَتَقْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريد ألواح التوراة . قال الكلبي : كانت من زَبَرْدَةِ خضراء . وقال سعيد بن جبيرة : من ياقوتة . وقال مجاهد : من زُهرٍ أخضر . وقال أبو العالية والربيع بن أنس . من بَرَدٍ . وقال الحسن : حَسَبٍ : وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم . قال : " الْأَلْوَابُ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى مِنْ سِدْرِ الْجَنَّةِ ، وَكَانَ طُولُ كُلِّ لَوْحٍ مِائَةَ عَشْرَ ذِرَاعٍ " . وقال وهب بن منبه : من حَصْرَةِ صَمَاءٍ أَلَانَهَا اللَّهُ لَهُ قِطْعُهَا بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَطَعَهَا بِأَصَابِعِهِ .

وَأَخْتَفَ فِي عِلْدِهَا ، قَقِيل : سبعة ، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس ؛ وقيل لوحان ، رواه أبو صالح عن ابن عباس أيضا ، وُجِّعَتْ عَلَى عِلْدَةِ الْعَرَبِ فِي إِقَاعِ الْجَمْعِ عَلَى التَّثْنَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكُنَّا لِحَكِيمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ يريد داود وسليمان عليهما السلام وأخْتَارَهُ الْفُزَاءَ . وقيل عشرة . قاله ابن منبه ، وقيل تسعة . قاله مقاتل . وقال أنس : نزلت التوراة وهي سبعون وقرعير .

الثاني - الرق (فتح الراء) قال تعالى : ﴿ وَالطُّورَ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ قال المبرد : هو ما يرقق من الجلود ليكتب فيه . قال المعاني بن أبي السيار : ومن ثم استبعد حمله على اللوح المحفوظ ، والمنشور الميسوط ؛ وأخْتَفَ فِي الْكِتَابِ الْمَسْطُورِ فِيهِ : فقيل اللوح المحفوظ ، وقيل القرآن ، وقيل ما كتبه الله تعالى لموسى وهويسم صرير الأعلام .

الثالث - القِرطاس والصحيفة ، وهما بمعنى واحد وهو الكافد .

أما القِرطاس ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلْيَسُوهُ وَابْتِغِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ قال ابن أبي السيار : القِرطاس كافد يتخذ من بردى مصر ، وكل كافد قِرطاس ، قال : والجمهور على كسرهما ، وضما أبو زيد وعكرمة وطلحة ويحيى بن يعمر ، والذي حكاه الجوهري عن أبي زيد يخالف ذلك ، فإنه قال فيه قِرطسٌ بفتح القاف من غير ألف بعد الراء ؛ والمراد بالكتاب في الآية الكريمة المكتوب لا نص الصحيفة . قاله المعاني .

وأما الصحيفة ، فإنها لم ترد إلا بلفظ الجمع . قال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يَلْبِسْكُمْ فِي صُحُفٍ مُتَوَنِّصَةٍ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَثَّى ﴾ وقال جل وعز : ﴿ إِنَّ هَذَا لَقِيَ الصَّحِيفَ

(١) يظهر أنه وقع هنا تحكيك من التامع والحاصل على ما يؤخذ من كتب التفسير أنه أخطف في الرق قيل الجلود قيل اللوح المحفوظ . وأخطف أيضا في الكتاب المسطور فيه قيل القرآن وقيل ما كتبه الخ فنه .

الأولى **صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**) ونجم أيضا على صحائف ، وسمى المصحف **مُصْحَفًا** لجمعه الصحف . قال الجوهرى : وسمى التصحيف تصحيفا لخطأ فى الصحيفة .

الجملة الثانية

(فما كانت الأمم السالفة تكتب فيه فى الزمن القديم)

وقد كانت الأمم فى ذلك متفاوتة ، فكان أهل الصين يكتبون فى ورق يصنعونه من الحشيش والكلا ، وضمهم أخذ الناس صنعة الورق ، وأهل الهند يكتبون فى خرق الحرير الأبيض ، والفُرس يكتبون فى الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش ، وكذلك كانوا يكتبون فى الخفاف (بالخاء المعجمة) : وهى حجارة بيض رقائق ، وفى الثعاس والحديد ونحوهما ، وفى عُسب النخل (بالسين المهملة) : وهى الجريد الذى لا حوص عليه ، واحدا صيب ، وفى عظم أ كاف الإبل والغنم . وعلى هذا الأسلوب كانت العرب لعربهم منهم . واستمر ذلك إلى أن بُعث النبي صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن والعرب على ذلك ، فكانوا يكتبون القرآن حين ينزل ويقرؤه عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فى الخفاف والعُسب . فعن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال عند جمعة القرآن ” **بُحِّلْتُ أَنْتَجِ الْقُرْآنَ مِنَ الْعُسْبِ وَالْخَافِ** ” . وفى حديث الزهري ” **فُيُضُّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقُرْآنُ فِي الْعُسْبِ** ” وربما كتب النبي صلى الله عليه وسلم بعض مكاتباته فى الأدم كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وأجمع رأى الصحابة رضى الله عنهم على كتابة القرآن فى الرق لكونه خائفا ، أولاه لانه الموجود عندهم حيثئذ . وبقى الناس على ذلك إلى أن ولى الرشيد الخلافة وقد كثُر الورق وفشا عمله بين الناس أمر أن لا يكتب الناس إلا فى الكائنات :

لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التروير، بخلاف الورق، فإنه متى نُحِيَ منه فسد، وإن كُشِطَ ظهر كُشِطَهُ . وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار، وتماطها من قُرب وبعد، وأستمر الناس على ذلك إلى الآن .

الجملة الثالثة

(في بيان أسماء الورق الواردة في اللغة، ومعرفة أجناسه)

الورق (فتح الراء) أسم جنس يقع على القليل والكثير، واحده ورقة، وجمعه أوراق، وجمع الورقة ورقاب . وبه سمي الرجل الذي يكتب ورقا . وقد نطق القرآن الكريم بتسميته قِرطاسا وصحيفة كما مر بيانه . ويسمى أيضا الكافد بنين ودال مهمله، ويقال للصحيفة أيضا طرس، ويجمع على طروس، ومهروق (بضم الميم وإسكان الهاء وفتح الراء المهمله بعدها قاف)، ويجمع على مهارق . وهو فارسي معرب، قاله الجوهري . وأحسن الورق ما كان ناصح البياض غرغا صقيلا، متناسب الأطراف، صبوراً على مرور الزمان . وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادي؛ وهو ورق نحين مع ليونة ورقية حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جذاً، ولا يكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة . وربما استعمله كتاب الإنشاء في مكاتبات القانات ونحوها كما سيأتي بيانه في المكاتبات السلطانية . ودونه في الرتبة الشامي؛ وهو على نوصين : نوع يعرف بالحموي، وهو دون القطع البغدادي . ودونه في القندر وهو المعروف بالشامي، وقطعه دون القطع الحموي، ودونهما في الرتبة الورق المصري؛ وهو أيضاً على قطعين : القطع المنصوري، وقطع العادة والمنصوري أكبر قطعاً . وقليلاً يصقل وجهه جميعاً . أما العادة فإن فيه ما يصقل وجهه ويسمى في عرف الوراقين المصلوح . وغيره عندهم على ربتين : عال

(١) أي نوع دونه الخ فتنه .

ووسط . وفيه صنف يعرف بالقوى صغير القطع ، خشن غليظ خفيف الغرف ، لا يتفتح به في الكتابة يتخذ الحسوى والعطر ونحو ذلك . وإنما نهت على ذلك وإن كان واحداً لأمرين : أحدهما أن لا تحلى كتابنا من بيان الورق الذي هو أحد أركان الكتابة ؛ الثاني أنه قد يتقلب الكتاب إلى إقليم لا يعرف فيه تفاصيل أمر الورق المصري كما لا يعرف المصريون ورق غير مصر معرقهم بورق مصر ، فيقع الاطلاع على ذلك لمن أرادته . ودون ذلك ورق أهل الغرب والفرنجية فهو ردىء جداً ؛ سريع البلى ، قليل المكث ؛ ولذلك يكتبون المصاحف غالباً في الرق على العادة الأولى طلباً لطول البقاء .

وسأبقى الكلام على مقادير قطع الورق عند أهل التوقيع وأهل الديونة عند ذكر ورق كل فن ، وما يناسبه من القطع إن شاء الله تعالى .

تم الجزء الثاني ، ويتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث ؛ وأوله
(الفصل الثاني من الباب الثاني من المقالة الأولى ،
في الكلام على نفس الخط)

(३००/११३/२०१४/९०९)

Bibliotheca Alexandrina



0501850